



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



الشبيبة

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د. شاكراً الفحام رئيس التحرير : ناظم كلاس

العددان الثالث عشر والرابع عشر - محرم ١٤٠٤ هـ / تشرين اول (أكتوبر) ١٩٨٣

لجنة كتابة تاريخ العرب : رئيس جامعة دمشق د. محمد زياد الشويكي ،
رئيس قسم التاريخ د. عادل زيتون ،
د. عادل العوا ، د. نبيل عاقل ،
د. محمد حرب فرزات ، د. خيرية قاسمية ،
ناظم كلاس

هيئة الاشراف على المجلة : د. شاكراً الفحام ، د. محمد خير فارس ،
د. نبيل عاقل ، د. عبد الكريم رافق ،
د. احمد بدر ، محمد محفل ، ناظم كلاس

المراسلات :

جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية

ثمن الطرد

سورية	٦٠٠	ق.س.	تونس	١٠٠	دينار تونسي
لبنان	٨٠٠	ق.س.	المغرب	١٤٠٠	دينار مغربي
الكويت	٧٠٠	ف.ك.	قطر	٩٠٠	ريال قطري
البحرين	١٠٠	دينار بحراني	السعودية	٨٥٠	سعودي
ليبيا	١٣٠٠	دينار ليبي			

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او مايعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او مايعادلها

تضاف اليها اجور البريد الجوي او العادي حسب
رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة
في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

في هذا العدد

الصفحة

- فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية ٥
- د. عبد الهادي التازي
- خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية ٢٣
- د. محمد عبد القادر خريسات
- الدعوة العباسية - دراسة في الهوية ٥١
- د. نبيه عاقل
- الطاعون والجفاف واثريهما على البيئة في جنوب الشام ٧٤
- د. يوسف درويش غوانمة
- دور اسرة آل الحنشل والمهام التي اوكلت اليها في ريف دمشق الشام « دراسة وثائقية » ٨٨
- د. محمد عدنان البخيت
- تطور مفهوم اللا مركزية عند العرب العثمانيين ١٢٨
- د. سهيلة الريماوي
- الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية ١٨٥
- د. ذوقان قرقوط

تنويه

- ☐ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

تقديم

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد اخذت على عاتقها مهمة الإعداد لكتابة هذا التاريخ في موسوعة كاملة تكون المرجع الشامل في تاريخ الامة العربية ، وهيأت مشروعا متكاملا لهذا الغرض ، وبرنامجا تنفيذيا ، واصدرت مجلة ((دراسات تاريخية)) لتكون منبرا للراء والافكار والدراسات التي تلتزم المنهجية التي اتفق على اتباعها في كتابة تاريخ امتنا ، ان هذه اللجنة لتعترف بقصور خطاها التنفيذية عما خططت له حين تصدت للقيام بهذه المهمة . ولكنها تود ان تؤكد انها تجاوزت مرحلة البدايات على صعوبتها وانها ، مع اطلالة العام الجامعي الجديد ، ستدفع بعجلة العمل الى الامام لتبدأ بتأشير العطاء الذي نرجو أن يكون ثرا ومتناسبا مع ما نتطلع اليه .

وهذا للجنة ، ليقينها بان مهمة كتابة تاريخ العرب مهمة تتجاوز حدود القطر الواحد وتفوق قدراته ، وانه لابد لها ، كي تتم على الوجه الامثل ، من تعاون جميع الخبرات الاختصاصية على امتداد الوطن العربي ، وات توسيع اتصالاتها بالاخوة الزملاء المختصين في جامعات الوطن العربي ومؤسساته ، ومدد الجسور بينها وبينهم ليكونوا عضدها والمعبرين عن فكرها بين زملائهم ، فرشحت بعضهم ليكونوا ((اعضاء مراسلين)) يسهمون معها في اخراج هذا المشروع الجليل الى حيز الواقع ، بعد ن ظل ردحا طويلا حلما يراود الازهان وخططا ومشاريع لم تعرف الى التنفيذ سبيلا .

وطبيعي ان اللجنة ، حين اقدمت على هذه الخطوة ، لم تكن تقصد ان تقصر المساهمة على الزملاء المرشحين فحسب ، بل ان يكونوا همزة وصل لابد منها لدفع مسيرة العمل الى الامام . وهي ترحب كل الترحيب بكل من يرغب المشاركة ، وضم جهده الى جهدها .

ان مهمة كتابة التاريخ العربي مهمة قومية طال انتظارنا لها ، ولم يعد هناك من مبرر للاستمرار في اسلوب الجهود الفردية وغير المبرمجة في معالجة هذا الجانب او ذاك من جوانب تاريخ امتنا ، ولا بد من ان تتكاتف كل الايدي المخلصة لبلوغ الهدف النبيل الذي نسعى اليه .

فكرة المغرب العربي

من خلال الوثائق الدبلوماسية

د . عبد الهادي البازي

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي
الرباط

إذا كان المغرب قد حافظ بجديّة وفعالية على صلاته ببلاد المشرق عبر التاريخ، فإن حفاظه على علاقاته بإيلات المغرب الكبير ظل حقيقة قائمة ثابتة . ولم يكن مرد ذلك راجعا فقط الى الايمان بوحدة الواقع الجغرافي والسياسي واللغوي ، ولكن المغرب ما انفك يعتبر هذه الوحدة قدرا ومصيرا ، يجب أن تتضافر الجهود من أجل الاستجابة لها والاقتناع بضرورتها ، وهو حكم كان وليد تجارب قرون خوال بلغت فيها بلاد المغرب الكبير قمة عزها وازج عظمتها عندما كانت موحدة قبل أن يتناثر عقدها وتتبدد كلمتها .

سوف لا أتحدث هنا عن الآثار التي خلفتها تلك النوازع والطموحات التي استهدفت بناءنا واستقرارنا نحن أبناء الشمال الإفريقي ، كما وسوف لا أستعرض هنا تلك الأيدي الخفية التي كانت تحرك هذا الفريق على ذاك أو ذاك على هذا . . ولكنني سأقصد الى إبراز بعض المحاولات التي بذلها المغرب من أجل تجسيد هذه الوحدة وجعلها حقيقة ملموسة ، إيمانا منه بأنها الطريق الذي لا بديل له إذا كان القادة يهتمون حقيقة بقضايا الازدهار والتقدم في بلادهم . .

ولابد من الإشارة منذ البداية الى أننا نتحدث عن فترة محددة هي الفترة التي تبتدىء من أواسط القرن الحادي عشر الهجري/ أواسط القرن السابع عشر الميلادي، بل عن بعض الجوانب فقط من هذه الفترة ، وإذا كنت صادقا مع وثائقي فأنني أمام مجرد اشارات ومضات ولكنها اشارات ومضات دالة عميقة تعطي البرهان بالوسيلة الواضحة على أن بلاد المغرب كانت ما تزال تحسن الظن بفكرة المغرب العربي . .

ولكي أجعل نفسي معكم في الجو الذي نتحدث عنه ، أذكر أولا : أن إيلات الشمال الإفريقي ، باستثناء المغرب الأقصى ، لم تلبث أن وجدت نفسها وجها لوجه أمام العثمانيين الذين أصبحوا بالفعل سادة الموقف لفترة تتجاوز ثلاثة قرون ونيف . .

ثانيا : اذكر ان العثمانيين ظهروا على المسرح الدولي واختفوا منه ، وهم يحملون معهم الشعور المرير بسبب انهم لم يتمكنوا من تحقيق كل ما كانوا يتوقون اليه في هذه المنطقة .. !

ثالثا : انهم ، اي العثمانيين ، كونوا لهم خصوما شرسين في أوروبا كانوا ينظرون الى القسطنطينية نظرة حذر ويقظة .. وكانوا يبحثون ، بأي ثمن ، عن الحليف الذي يساعدهم على تطويق الخطر العثماني .

رابعا : ومع ان جهاد العثمانيين كان يتجه نحو الممالك المسيحية جميعها .. فقد شاهدناهم - ومع ذلك - يعقدون اتفاقيات واطفا مع بعض تلك الدول لمضايقة دول مسيحية أخرى ...

خامسا واخيرا : ان العثمانيين الراك ، أي انهم ليسوا عربا ... والايالات المغربية تعزز بالعروبة بل وتعتبر نفسها عربية ... ومن ثمت قرانا عن الحملات التي كانت تشن بين الفينة والاخرى ضد النفوذ العثماني سواء منها الحملات المسلحة او الدبلوماسية ، وقد كان من ابرز اولئك الذين حملوا على الاتراك ، المواطن الامازيغي السفير ابو القاسم الزياني الذي لم يترك فرصة دون رفع عقيرته بالشكوى من تجني بعض الاتراك على الايالات التي يحكمونها ، وقد سخر ذات يوم عندما سمع انهم (أي الاتراك) كانوا اذا استحسنوا من شخص ما عملا من الاعمال واكتشفوا ان القائم به عربي ، قالوا : « ما الطفه لولا انه عربي » ! وهي حملة من الزياني لها دلالتها التي لا تخفى ، فقد نشأ الزياني في احضان الاسرة المغربية التي عرفت اوج ايامها في عهد المرابطين والموحدين ، عندما ازدهر قلم الانشاء العربي في دواوينهم وفي ممارساتهم الداخلية والخارجية ، لانهم وجدوا فيه ، أي الحرف العربي ، علاوة على قداسته ، وجدوا فيه الوسيلة الفعالة لالتفاف البلاد على كلمة واحدة ، سواء في الاندلس او في بلاد المغرب .



لقد قرانا في الرسالة التي بعثها اول ملوك الدولة العلوية الى الجزائر بتاريخ ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤ م ، قرانا شجبه للمد التركي في تونس وتلمسان ، وانتقاده صنيع السعديين قبله الذين لم يسعوا لتصفية تلك الامصار من وجود « الاعجام » على حد تعبيره ... !

كانت الرسالة من انشاء الشيخ التاجموتي والقاضي رضوان ، ونصها محفوظ بالمكتبة المغربية ...

هذا هو الوضع على ما رأينا . . . ولا بد أننا نتصور بعدها حرجة موقف المغرب على الصعيد العالمي ، سيما ونحن نعلم أن له التزامات سابقة مع المجموعة الدولية قبل أن توجد الدولة العثمانية .

ودعونا نستخلص الصورة لهذه الاقطار المغربية التي ظلت على ما اشرنا حريصة على تحقيق فكرة الوحدة في ظل عروبة شاملة .

ان القيام باحصاء دقيق لهدف السفارات الاجنبية التي تواردت على المغرب الاقصى في صدر دولة العلويين كان هو نفس الهدف الذي كان للبعثات الدبلوماسية التي وردت على المغرب اواخر العهد السعدي السابق :

كل الدول التي شعرت بمتابعة او مطاردة من القسطنطينية العظمى قصدت المغرب املا في أن تجد منه حليفا ضد تركيا ، سيما وقد كان المغرب من الجهات التي برهنت على صلابته عودها وقوة شكيمتها ازاء المد العثماني .

وجدنا في المغرب سفارات من دولة فارس التي تجاور تركيا ، ومن امبراطورية النمسا أيضا ، ووجدنا سفارات من هولندا ومن اسبانيا . . . كل يريد أن يصور الخطر الذي يكمن في الوجود التركي ، وكل يريد أن يبرر ضربهم والالقاء بهم في البحر !!

وبودي لو كان لنا متسع من الوقت لكي نستعرض جميع التقارير التي رفعها السفراء المعتمدون في المغرب الى حكوماتهم ، سواء فيهم من كان يتمتع بصلات خاصة بالبلاط او من كانت له دالة على بعض رجال الدولة او من كان منهم محترفا يباشر مهامه بموضوعية . . . ولكن لا بد أن اذكر مع هذا أن في هذه التقارير ما كان يهتم بنوع الاغراء الذي كان يقدم للمغرب حتى يقوم بحركته الفاصلة ضد الاتراك في الايلات المجاورة . واذكر - على سبيل المثال - من بين هذه الاغراءات تمكين المغرب من منطقة شاسعة تصل حدود طرابلس . . . ولكن تلك التقارير كانت تضطر اصحابها الاجانب للتعقيب قائلين :

« اننا مهما بنلنا من عروض للمغرب فسيظل عطفه على الايلات العثمانية هو نفسه بالرغم مما يلحقه من مضايقات من الاتراك ، اننا عندما نتحدث الى المغرب بما يببت له طرف الاتراك لا يتردد في القول بأنه باستطاعته ان يقف امام كل تحرك يستهدف النيل منه ، ولكنه لا يستطيع ان يمضي حلفا ضد اخوانه في الدين » . . .

في استطاعة كل واحد أن يقرأ في تقارير من هذا النوع تلاحم الاسرة المغربية وعملها في باب المحافظة على المبادئ الاساسية للتعامل .

دعونا نتبع قليلا سفارة السير انطوني شيرلي A. Sherly الى الديار المغربية اوائل القرن السابع عشر . . . لقد كان الامر يتعلق - كما نعرف - بتحريك دولي ، في البداية من الشاه عباس الكبير في أعقاب ما كان يبلغه عن المراسلات المغربية التي كانت تهنيء الباب العالي بانتصاراته ضد الصفويين . . . ذلك التحرك الذي لم يلبث أن تعزز أيضا بتكليف انطوني شيرلي من طرف رودولف الثاني امبراطور المانيا ، ثم بمهمة البابا كليمان الثاني لدى ملك المغرب ، واخيرا بالفكرة الجريئة التي كانت تراود فيليب الثاني ملك اسبانيا لكسر الحلف العثماني الفرنسي المبرم عام ١٥١٣ بين سليمان القانوني وبين فرانسوا الاول . . . نحن امام رسالة حررت في مدينة مراكش بتاريخ ١٦ دجنبر ١٦٠٥ من طرف كوي Coy الوزير الهولندي المعتمد في العاصمة المغربية .

ان مهمة شيرلي تتركز على اقناع المغرب بمناهضة الاتراك وطردهم عن الشمال الافريقي . . . وقد استنتج السفير الهولندي من هذا أن المطلب لا بد أن يجيب **بالرفض من طرف العاهل المغربي الذي اعتاد على أن لا يحالف احدا من المسيحيين ضد المسلمين . . اللهم اذا كان الامر يتعلق بدفاع عن كيانه . . . ومع ذلك فقد كان يهدد ولا ينفذ !!**

وهذه الرسالة من الدبلوماسي الفرنسي الدكتور ارنول دوليسل A. de Lisle الذي كان طبيبا للاسرة الملكية قال : انه علم بواسطة الاميرة المغربية لالة صفية أخت السلطان أبي فارس ، أن شيرلي Sherly ورد من طرف اسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على امتداد الساحل الافريقي ، من جبل طارق الى تونس ، وان ملك اسبانيا سيعد العاهل المغربي بمساعدته على هذه الحركة على أن يتم الاتفاق بعد النصر النهائي على توزيع الشمال الافريقي بين ملك المغرب وملك اسبانيا ، فيصبح الساحل لملك اسبانيا والداخل كله لملك المغرب حتى تونس .

ويضيف التقرير الفرنسي بأن اسبانيا منذ ان ارتبط الاتراك باتفاقيتهم مع فرنسا أخذت تخطط لهذا المشروع وانها . من أجل تحقيقه ، عدلت عن وعدها بمناصرة ملك البرتغال في وقعة وادي المخازن ، وان هذا المخطط لم يمت ب وفاة السلطان المولى عبد الملك وجلس اخيه احمد المنصور على العرش بل انها ، أي اسبانيا ، ما انفكت تستغل حوادث الحدود الشرقية مع الاتراك في الجزائر لتجعل العاهل المغربي

أكثر اقتناعا بقبول الحلف المذكور ، بيد أن ملك المغرب (يقول التقرير الفرنسي) ظل يتمسك من اتفاق من هذا النوع . . . ، أن المغرب غير متحمس للتحالف مع المسيحيين ضد الأتراك ولو أنه بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهم أنفسهم بالتعدي على التراب المغربي ، وقد كان مما يشجع إسبانيا (يقول التقرير الفرنسي) على مفاتحة المغرب حول هذا المخطط اقناعه بالكره الذي يكنه أيضا سهل الجزائر وتونس للأتراك وميل السكان في المنطقة المذكورة لتكوين وحدة ضد الأتراك الذين ظاولوا يعتبرون بعيدين عن المنطقة .

ويضيف التقرير الفرنسي أن نجاح مثل هذا المشروع من شأنه أن يلحق ضربة قاسية بمصالح فرنسا بقدر ما هو في صالح إسبانيا سواء أيام الحرب وأيام السلام ، ويختم التقرير بذكر انطباعات المبعوث الفرنسي على هذا النحو : « أنه ، حسب التجربة التي تتوفر عليها طيلة المدة التي قضاها بالمغرب لا يعتقد أن المسؤولين المغاربة يخضعون أبدا بعروض إسبانيا التي تظل العدو المشترك لكلا الفريقين » .

وقد ورد هذا التقرير في مجموعة (دو كاستري) المعروفة تحت عنوان (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب) (القسم السعدي الفرنسي) السلسلة الأولى ، المجلد الثاني ص ٣٣٠ ، وكذلك في (القسم السعدي الهولندي) السلسلة الأولى ، المجلد الأول ، ص ١٠٨ ، التعليق رقم ٢ . . .

وإن المرء يشعر بالغبطة العارمة وهو يسمع في تلك الأيام عن الصلات المنتظمة التي كانت للجزائر مثلا بالمغرب . . .

ولنتقل بعد هذا إلى نوع آخر من الوثائق الدبلوماسية التي يزخر بها الأرشيف الأوروبي ، وبخاصة الفرنسي والإسباني والتركي . . .

لقد كانت تركيا على ما نعرف مرتبطة مع فرنسا باتفاقيات وأحلاف كان أقدمها ما عقد بين السلطان سليمان القانوني وفرنسا الأولى سنة ١٥٤٣ . . .

الاتفاقية كما أشرت تهدف ضرب مصالح إسبانيا . . . لا لهدف إلا أنها تتخالف مع فرنسا حول قضايا تتصل بوراثة العرش . . .

ولا بد أن تسير الولايات التابعة للباب العالي مع خط أهداف تلك الاتفاقيات . . . وحيث أن المغرب ظل الصخرة التي تحطمت عليها مطامع الأتراك في الامتداد ، فقد كان على فرنسا أن تحاول بشتى الوسائل الدبلوماسية الحصول من المغرب على اتفاق يشبه ما عقده مع الباب العالي في شأن مضايقة إسبانيا . . .

وهنا ألفت النظر مرة أخرى الى ملف زاخر حافل بما كان يجري على ساحة المغرب الكبير من اصطدامات واحتكاكات ومواجهات لم تكن في الاصل من صنع محلي داخلي ، بقدر ما كانت من صنع اجنبي خارجي ، اي أن هناك ادمغة بعيدة عن المنطقة من حيث المسافة ومن حيث المعتقد ، ومن حيث الهدف ، تلك الادمغة هي التي تدبر ، وعلى الاخوة ان يقاتلوا لتنفيذ ما دبر . !!

نحن نميش ايام المفاوضات الجارية بين السلطان المولى اسماعيل وبين الملك لويس الرابع عشر ، من اجل الوصول الى اتفاق . . . لكن المغرب قبل ان يقبل السير قدما في التوقيع على معاهدة من هذا القبيل ، كان يريد ان يعرف فوائد الاتفاق وعوائده منه قبل كل شيء ، ان مضايقة اسبانيا لاجل المضايقة فقط امر لا يهم ، سيما وقضية وراثية العرش لا تتصل به ولا بتقاليده ، ولكنه مع ذلك يقبل ان يجلس للمناقشة على اساس . . . وقد كان السؤال الذي وضعه المغرب على مفاوضاته الفرنسيين هو : ما اذا كانت فرنسا جاهزة لمساعدة المغرب على استرجاع مدينة سبتة ؟ لقد كان السلطان المولى اسماعيل قد حرر المعمورة وطنجة والعرائش واصيلا . . . ولكنه امام سبتة التي تحتاج الى عون وأي عون !!

ان سبتة تشكل كما هو معلوم شبه جزيرة . . . ولذلك فان السيطرة عليها انما تتم لمن يتوفر على اسطول قوي ، ومن ثم كان القائد داود بن عائشة ، قائد الجيش المرابطي قد اشترط على الذين استنجدوا بالمغرب من الاندلس ان يوافقوه باساطيل ابن عباد لتحيط بسبتة قبل ان ينزلها هو من البر . . .

ومن ثم ايضا وجدنا السلطان المولى اسماعيل يستخدم في فترة من الزمن ورقته الدبلوماسية مع انجلترا عندما احتلت جبل طارق ، على نحو ما سيفعله السلطان المولى سليمان بمناسبة ظهور نابليون على الساحة الدولية . . .

لقد ظهر أن الملك لويس الرابع عشر كان يريد الحصول على توقيع اتفاقية بدون مقابل ، ! ومن هنا شاهدنا تشنجا في العلاقات بين البلدين : فرنسا والمغرب . . . لم يلبث ان استحال الى توتر . . . ومن العادي أن يقع بين الدول ذلك التشنج او التوتر عندما لا تصل الى اتفاق فيما بينها . . . ولكن الشيء الغريب ان بتحول القلق الدبلوماسي الى المواجهة المسلحة ، بل ان الاغرب من كل ذلك ان تكون هذه المواجهة على حدودنا ومع اشقائنا في الجزائر ، وان الاكثر غرابة من كل هذا ان نجد اثارا تدل على أن الحلف التركي الفرنسي كان يقوم بواجبه بكل نشاط في الناحية الشرقية من المغرب !

ومن ثم ففي استطاعتنا أن نستقصي حوادث الحدود بين المغرب والجزائر ونضبط تواريخها وأيامها ، وننتقل في الوقت ذاته الى أيام التشنج والتوتر بين المغرب وفرنسا لنشهد الظاهرة الغريبة والمصادفة التي لا تخطيء عن الارتباط بين المساومات هنا والتشنجات هناك !!

ولا بد ان نشير بصفة خاصة لصورة من تلك المواجهات المؤسفة التي عرفتها سنة ١١٠٣ هـ / ١٦٩٢ م قبل ثلاثة قرون ، حيث نجد خطابات مكتوبة موجهة من الاتراك الى لويس الرابع عشر تشكو من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس لتصفية الوجود التركي بافريقيا !! ونجد في الوقت ذاته خطابات تهديد للمملكة المغربية من الباب العالي الذي يتساءل عن السبب في عدم تحرير بقية الثغور المغربية والانشغال بوجود الاتراك في افريقيا !! الامر الذي لم يتردد السلطان المولى اسماعيل في الجواب عنه مخاطبا العثمانيين بما مفاده : وماذا منعكم انتم من تحرير وهران الى الان مع انها في متناول اليد ، وعوض تخليصها تسمحون لانفسكم باذابة الاعراب هناك ... ومرة أخرى نجد الاتراك يرفعون الشكوى للباب العالي بأمر « حلف » جديد موجه ضد وجودهم بافريقيا ، وهذا الحلف المزعوم هذه المرة يضم علاوة على المغرب كلاً من طرابلس وتونس ... وقد جاء هذا الوهم من كون المغرب كان يتوسط في كثير من الاحيان بين الايالتين المتجاورتين ، تونس وطرابلس ، لاصلاح ذات البين فيما بينهما !

قد نتساءل عن مدى الصلة بين المغرب وبين تونس وطرابلس حتى يقوم المغرب بمعالجة مشاكلهما ... وهو سؤال موضوع حقيقة ، وفيه نجد بدورنا جوابنا عن الشعور الذي يخامر المغرب الاقصى بالاحتفاظ بالمغرب الكبير عربي القلب واللسان ... وانه - أي المغرب - بالرغم من تقديره للعثمانيين كمقاتلين مناضلين ، الا انه لم يخف استنكاره لشعورهم المعادي في بعض الاحيان على ما يقال ...

وان من المهم ان نشير لرسالة اسماعيلية الى لويس الرابع عشر بتاريخ ١٤ جمادى الاولى ١١٢٢ هـ ٢٢ يولييه ١٧٠٩ م ، يمرض المغرب فيها على فرنسا المساعدة العسكرية له ولجليفته تركيا ضد النمسا ... وقد جاء في هذه الرسالة قول العاهل المغربي : « انه بالرغم من نظرة تركيا للعرب ... وخوفها من وحدة كلمتهم .. فاننا على اتم الاستعداد للوقوف الى جانب فرنسا مادامت تعمل يدا واحدة مع تركيا ... » وقد جاء في الرسالة على الخصوص : « ان الاتراك يحنقون على العرب حنقا زائدا وذلك لكثرة عدد العرب ... انهم لو اجتمعوا وغادروا الصحراء لامكنهم ان يستنزفوا اكبر نهر في الدنيا ، علاوة على انهم يخافون اشد الخوف من أن يقوم العرب استقبالا بدور يأتي على ممالك تركيا وهو الشعور الذي يفيد عدم الاعتراف للعرب اطلاقا بما

يقدمونه للعثمانيين من مساعدات كان عليهم أن يعترفوا بها ويشيدوا بها ولا ينسوها . .
ومع ذلك تقول الرسالة الاسماعيلية الى لويس الرابع عشر - فاننا نعلن عن استعدادنا
لتقديم المساعدة والعون اليكم لطرد النمسا من اسبانيا وذلك بسبب واحد : انكم
توادون الاتراك وتحبونهم . . . **وان حبنا نحن للاتراك نابع من كونهم حراس الحرمين
الشريفين وبيت المقدس . . . »**

ولا ينسينا اهتمام المغرب باخوته الاتراك،التعرض للمشكل القانوني الذي وضعه
الفصل العاشر من المعاهدة المغربية النمساوية . . . ان هذا الفصل ينص على انه اذا
وقعت الحرب بين الملة النصرانية وبين الملة الاسلامية فان العلاقات بين الطرفين
المغربي والنمساوي لا تتأثر بهذه الحرب بل تبقى المحبة والمودة بين الجانبين . اذا ما
قارنا هذا الفصل بما ورد في نص الشعار الذي رفعه المغرب آنذاك : **« نسالم من
يسالم تركيا ونحارب من يحاربها »** واذا قارناه بما ورد في خطاب العاهل المغربي للملك
فرنسا ، فسنجد ان هناك تناقضا بين هاته المواد . . .

والواقع ان المغرب ظل يتجاهل ، بكل بساطة ، سائر البنود التي تحدد من
اتصالاته باخوته في الدين مهما كانت النتائج . . . ومن الامانة للتاريخ ان نحضر حوارا
بين العاهل المغربي واحد وزرائه ممن كانوا لا يرون جدوى في اغداق المساعدات على
العثمانيين ، لقد سأل العاهل وزيره عما يقوله الناس حول مساعدته المادية للاتراك ،
فأجابه الوزير بصراحة زائدة : انهم يقوون : لو صرفت هذه الاموال في **الجهاد بالمغرب**
لكان اولى . . . ولكن العاهل المغربي اقنع وزيره بأن الامر يتعلق بالتخفيف عن الاخوة
من الضربات الموجهة التي تتوالى عليهم من اعداء الاسلام . على حد تعبيره .

وحتى نعرف ان وقوف المغرب الى جانب فرنسا لم يكن موقفا عشوائيا . . يجب
ان نرحل الى الارشيف الفرنسي لنجد من جهة اخرى رسالة احتجاج قوية اللهجة
تصدر عن المغرب الى فرنسا بصدد الاعتداء الذي وقع على تونس من طرف الجيش
الفرنسي . . .

ويتعلق الامر بالقلق الشديد الذي عم المغرب وهو يسمع عن قصف المدفعية
الفرنسية لسوسة . . . بعد ان امتنع الباشا علي باي عن ارضاء المطالب الفرنسية
الملحة . وهكذا نجد رسالة تحمل تاريخ ٦ ذي القعدة ١١٨٤ هـ / ٣ مارس ١٧٧٠ م
موجهة من العاهل الى لويس الخامس عشر . . . وقعها عنه الوزيران المعروفان : احمد
المهدي الفزال ، وعبد الهادي السلاوي . . .

لقد أعطى السلطان سيدي محمد بن عبد الله مهلة أربعة شهور لكي تعيد فرنسا النظر في سياستها ازاء تونس والا فانه مضطر لاشهار الحرب عليها . . . ! الامر الذي جعل فرنسا تجيب عن الاحتجاج معتذرة وموضحة الاسباب التي دفعت بها لقصف المدينة . وتم الاتصال عندئذ بالقنصل الفرنسي بالمغرب الذي عبر عن الرغبة في ان تعود المياه الى مجاريها .

وان مما يدخل في اطار الثقة المتبادلة بين اطراف المغرب : التزكية التونسية التي اعتندها المغرب فيما يتعلق بتبرئة ساحه جمهورية (دوبروفنيك) مما الصق بها من عبث سفنها التجارية بالهجاج المغاربة وانزالهم بمالطة عوض تطوان وسلا ! تلك الشهادة التي انشأها العدل التونسي السيد أحمد بوستة ، وزكاها شيخ المغاربة بتونس الحاج عبد السلام مقنين . . . ونحن نعلم ان هذه الحادثة هي التي سببت ضرب الحصار من طرف المغرب في البحر المتوسط على سفن سائر الدول الاوربية ما دامت لم تساعد على كشف هوية السفينة المعتدية . . . فعلا تبين امر المغاربة الذين عادوا يحكون عن أيامهم التبعة في « مالطة لا فراش ولا غطا » . . . مصداق المثل المغربي المشهور الذي يقول : الله يديه لمالطة لا فراش ولا غطا !

فماذا عن الاحتلال الاسباني الذي تجدد لوهران ؟ لقد كتب السلطان محمود الاول الى العاهل المغربي يطلب اليه الاستمرار في مساعدته للمشمانيين من اجل تخلص الثغر . . . وكانت فرصة اغتنمها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لعقد اتفاق سري يهدف الى العمل يدا واحدة لتطهير السواحل المغربية من الاحتلال الاسباني « **هنا وهران الى سبتة** » على ما تذكره الرواية الاوربية .

وهنا نفتح ملفا من الملفات الحزينة التي تكشف عن جوانب اخرى من المواقف الخارجية التي كانت تقف دون الخطوات نحو **الوحدة** بعد ان سمعنا عن المعلومات السابقة . . .

ويتعلق الامر بالتناور الذي كانت تقوم به اسبانيا ايضا للتأثير على بعض الدايات . . . ان اسبانيا - كما قلنا - كانت تبسط نفوذها على بعض الثغور الجزائرية على نحو ما كان عليه الامر بالنسبة للمغرب ، وفي كل مرة كانت اسبانيا تشمر بمزم صادق من احدى الجهتين لم يد يد الجهة الاخرى ، تعتمد الى هذه الجهة او تلك لتمني وتقري ، وهنا كنا نشهد الكوارث . . . ولا بد من العودة الى الوثائق الاسبانية لنقرأ مئات الدلائل على ضروب الكيد والفدر التي كانت توجه في الخفاء ضد التقارب بين اقطار المغرب ولكسر كل تضامن يهدف لتصفية الاحتلال الاسباني على سواحل بلاد المغرب . . .

هل نحن بحاجة للتذكير بما حصل والعاقل المغربي يحاصر العرائش... ويجهز جيشه نحو شمال المغرب... كلنا يعلم ان هذا الوقت بالذات هو الذي اختير للمناوشات التركية على الحدود الشرقية... بل ان كلنا يعلم ان الامر لم يكن مجرد (صدفة) ولكنه كان وليد (وصفة) استعمارية ! وبهذه المناسبة ارجو ان تسمحوا لي ان الفت النظر الى ان المؤرخين الذين يكتبون بالحديث عن « اصطدام هذا الجانب بذاك او تحرش ذاك بهذا » او يتحدثون عن فشل هذه التجربة بوجود فلان او فلتان كانوا ، في نظرنا ، مؤرخين قاصرين سطحيين... ان عليهم ان يبحثوا عن اسباب الفشل ليس فقط فيما تتناقله مؤلفاتنا المتداولة العادية ، ولكن فيما يوجد على الاقل بأرشفات استانبول وفرنسا واسبانيا... ومن المؤسف حقا ان نظل في هذه الحلقة المفرغة بالرغم من ظهور المصادر الدفينة والوثائق المعاصرة...

وما بالناس نروح بعيدا... دون ان نقف قليلا مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله اثناء حصاره لمدينة مليلية في أعقاب الاتفاق الذي تم بينه وبين محمد باشا .

فلقد تحدثت المصادر المغربية عن فك الحصار بصفة مفاجئة... واخذت تتساءل عن الاسباب التي كان علينا ان نجدها في المصادر الاسبانية وفي المصادر الانجليزية... بل - وهذا شيء مطرف - ان نكتشفها في كتب النوازل الفقهية الذي قد تعتبر بعيدة عن المصادر التاريخية..

لقد كان الامر يتعلق بخذلان من طرف الداوي، الذي لم يكتف بالتراجع فيما ابرمت يده سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م ولكنه أنزل جام غضبه على الجزائريين الذين تطوعوا للجهاد مع العاقل المغربي من عرب المغرب الاوسط ، فاستباح دماءهم وروع اولياءهم وطوفهم في الازقة على حد تعبير الاستفتاء الذي هز رجال الفقه والدين بالمغرب والمشرق من الذين راوا في النازلة اهانة جارحة ، ولا بد ان ترجعوا الى نصوص هذه الفتاوى التي تظل وثائق تاريخية الى جانب انها مراجع هامة على مستوى الفقة العالي ، وهكذا فان (معاداة) الاتراك لكل انواع التقارب العربي عملت مع طول الايام على تغذية الشعور بان هناك فريقين من الناس فريق الاعراب وفريق الاتراك ، وان هذا الفريق غير ذلك الفريق... وكلنا على علم مما ورد في تقارير السفراء المقاربة واكدته المصادر الاسبانية ، من ان تركيا كانت تميز بين اسراها المحتجزين بالدول الاوروبية ، فاذا كانوا من اصل تركي افتدتهم ، واذا كانوا من اصل عربي امتنعت من ذلك... وهذا ما قرانا في مذكرات السفير ابن عثمان سواء عندما كان في قرطاجنة او كان في

نابولي ، حيث افتدى برسم المغرب ، سواء لما كان هنا أو هناك ، مئات الأسرى من أصل عربي (١) ١١٠٠٠

وهكذا يستطيع المؤرخ المنصف ان يدرك انه اذا ما كانت بعض ثغورنا قد تأخر تحريرها أو تمطل أو تمثر ، فان جانبا مهما من التبعة تقع على كاهل « الذين » يهمهم ان يصيخوا باسماعهم الى مخططات « بعيدة عن الساحة المغربية » ، وان الذين يتجاهلون الجوانب المضيئة في تاريخ التعاون بين الايالات كانوا هم الآخرين يتحركون من منطلقات غير موثقة وربما مفروضة ، وكيف نفسر أطباق المصادر التركية ذاتها ، وعلى رأسها المؤرخ التركي والنائب البرلماني عزيز سميع في كتابه (كتاب الاتراك في شمال افريقيا) الذي فيه ، في المجلد الثاني منه (ص ٤٥) بالحرف الواحد : « لقد كان الغرض من حصار السلطان المولى يزيد لسبته هو مضايقة اسبانيا حتى تخضع لصفط الجزائر ... وكيف نفسر تهافت عرب الجزائر على ساحات القتال الى جانب اخوانهم المغاربة لتخليص البلاد من نير الاحتلال الصليبي .

ثم كيف نفسر التصريح الملكي الذي وزعه الدبلوماسي المغربي السيد محمد القادري على أعضاء السلك الاجنبي بتاريخ ٥ رمضان ١١٩٢ هـ - ٧ شتنبر ١٧٧٨ م ، والذي يعطى ، حسب الفصل الخامس منه ، الحماية الكافية للمراكب الجهادية الجزائرية التي ترسو بالساحل المغربي ، والذي يزودها بكل ما يدفع عنها غيلة المطاردين والمتبعين من الاسبان أو من غيرهم ، انها وثائق تحمل أسماء معروفة .. وتواريخ محددة ...

وأخيرا كيف نفسر الانذار الذي وجهه المغرب الى الدول الاوروبية التي كانت تهدد الجزائر وتمتزم اقتحام ترابها أواخر ١١٩٩ هـ / ١٧٨٥ م (٢) « فالذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزائر وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا ، والذي اراد منهم دخول الجزائر ومراسيهم ولم يتمثل ما أمرناه به فنحن معه على المحاربة » على حد تعبير التصريح الملكي الذي يحتفظ به أرشيف فيينا ...

وقد كان التقارب بين المغرب والجزائر محل تتبع واهتمام زائدين من الباب العالي لانه كان يرى في تلك الوحدة نذيرا على وجوده بالشمال الافريقي ، ولذلك

-
- ١ - الأكسير في فكاك الأسير ، منشورات معهد البحث العلمي ١٩٦٥ - البدر السافر ، (مخطوط) بالكتبة الملكية تحت رقم ١٣١٥ .
 - ٢ - يتأكد هذا في رسالة بعث بها العاهل الى القنصل الاسباني منويل سلمون بتاريخ ٤ ذي القعدة ١١٩٩ - ٨ شتنبر ١٧٨٥ (وثائق ملريد) المحفوظة في تطوان .

كافة ان تصحوا الذين يتفرحون بسلام علي من اتبع الهدى
 بعد تأمرهم ان تعلموا اجناسكم بان اهل الجزائر ان يعامل مع جنس
 الايبينول القلح الذي امرهم به السلطان العثماني فصره الله طمحا تاتاجي
 امرهم بعلي برعائب الله وان لم يعاملوا ما امرهم به فوا انا توجه نشر
 جراحيك ان شاء الله من جراحيكنا الجهادية لباب من سنة الجزائر
 و نمنع جميع اجناس النصارى من الدخول للجزائر وكذلك الايبينول
 يوجهون عشر من جراحيكهم انهم يتكلمون مع اهل الجزائر ان انا
 كلهم مع اجناس النصارى الذين يريدون الدخول للجزائر وغير
 من منسبي الجزائر بالنفي قبل منهم مكلنا ورجع ولم يدخل الجزائر
 وخير ما من من سبهم فنحن معهم على القلح والمهادنة كما كنا وان ارد
 منهم دخول الجزائر و من سبهم ولم يقتل ما امرناه به فنحن معه على

الحاربة
 1199

نسخة من الاذكار الذي توجه به الملك محمد الثالث

الى السلوك الدينامي بطنجة بتاريخ 2 في القعدة 1199

فانه بالرغم مما يصل الباب من المغرب من شكاوى متتابعة بسوء تصرف الاتراك هناك، كان يتقاضى عن معالجة الاحوال خوفا من تحقيق الهدف ... بل انه أي (الباب العالي) كان يشجع الوشايات التي تقصد لضرب كل تلاحم بين الايالة نفسها والايالات العربية المجاورة سيما وهو يسمع عن الوفود المتوالية الى المغرب .

واظن انه من المفيد لتصوير الموضوع ان نستعرض هنا تقريراً سرياً رفعه السفير التركي اسماعيل أفندي سنة ١١٩٩/١٧٨٥ بعد مهمة له لدى الملك محمد الثالث ، حيث ورد يشكر العاهل على المساعدة القيمة التي قدمها للحكومة التركية في أعقاب صلحها مع اسبانيا وطلبها من واليها بالجزائر أن « يتفاهم مع اسبانيا » ، لقد جاء في تقرير السفير العثماني لحكومته حسبما وقفت عليه في ارشيف رئاسة الحكومة في إسطنبول ، هذه الافكار التي نلخصها فيما يلي :

لقد حضرت مع العاهل المغربي صلاة الجمعة بمسجد السنة ، حيث دعى في الخطبة للسلطان عبد الحميد . وتعليقا على موضوع خطبة الجمعة ذكر الخطيب بما يتم من ظلم من قبل الاتراك ، وبعد حوار بين العاهل والسفير خلع عليه الملك ردائه .. تقرير طويل يخلص فيه الى القول : بأن الذي يظهر لي انه - أي ملك المغرب - يكن للدولة العلية الحب وانه مستعد لتقديم جميع ما في خزائنه من مال للقضية الاسلامية .. **الا اني فهمت من المولى محمد انه عاتب على الباب العالي ضعفه أمام الظلم الذي يقع على العرب والفقراء والعلماء والاشراف في الجزائر** مما قد يؤدي الى انهيار مملكة السلطان عبد الحميد ، على حد التقرير الدبلوماسي .. وانه على الساطران أن يسمح بتنصيب باشوات من اصل جزائري يختارهم الشعب الجزائري دون تدخل العسكر الاجنبي على نحو ما في تونس وطرابلس .. وفي اثناء اقامتي - يقول السفير اسماعيل أفندي - ورد وفد على المغرب من **اعراب الجزائر** يحكون ما يلفونه من **عنت ومظالم يمجها العقل ويرفضها الشرع ..**

واذا ما عرفنا ما يتمتع به سيدي محمد من سمعة لدى اشراف الحجاز وحكام مصر واليمن ، أدركنا مدى ما ينتظر السلطان عبد الحميد من ضرورة الحذر واليقظة .. »

ويظهر ان التقرير السري ترك اثره في الباب العالي الذي لم يعد له منذ الان حساب ضد اسبانيا حيث وجدناه يبرم معها معاهدة صلح في أعقاب انتصارها ضد الاسطول الانجليزي في ميورقة ، كما وجدناه يوجه بأوامره الى واليه بالجزائر محمد عثمان باشا ، لكي يسلك نفس الطريق مع الاسبان تمهيدا لانفراج تستفيد منه

استانبول في أعقاب المد الروسي الذي اخذ (حسب المادة الثانية عشر من اتفاقية مع السلطان عبد الحميد) يتجه نحو الولايات العثمانية في الحوض المتوسط الامر الذي كانت تركيا تعض عليه بنان الندم ..

وهكذا ايضا فالى جانب التقارير الاوربية التي تحدثت عن « خميرة » الوحدة ، وجدنا التقارير التركية بدورها لم تخف شعورها بما يسود من آراء ازاء هذه الوحدة .. ولنترك اوربا وآسيا لننتقل الى امريكا الشمالية ، الى الولايات المتحدة بالذات التي نراها ، وقد تأزم الوضع فيما بينها وبين ايالة طرابلس وايالة تونس ، تقدم - بعد مصادقة الكونغرس على الاتفاقية المغربية الامريكية - تقدم على ارسال خطاب باسم الرئيس جورج واشنطن الى الملك محمد الثالث بتاريخ ٢٣ يونيه ١٧٨٧ تطلب اليه ان يقوم بمساعيه الحميدة لدى الايالتين من أجل بناء علاقات افضل بين امريكا وتونس وطرابلس . ان هذه الرسالة بما تبعها من أجوبة ملكية مغربية تعبر عن كثير من الحقائق التاريخية ... فهي من ناحية تعكس الروح الطيبة السائدة بين بقية اقطار المغرب العربي كما تدل على أن فكرة الوحدة في طريقها الى التحقيق ، وهي الحقيقة التي تؤكد المبادرة الامريكية التي بعثت لايالة الجزائر بالمستر جوهن لامب John Lamb وان من ابرز ما يجسد هذه الحقيقة تعاون العاهل المغربي مع حاكم طرابلس وتونس على الحد من تحرك الاسطول الروسي في المنطقة وخاصة منعه من الاقتراب من بوغاز جبل طارق في محاولة للتخفيف عن الباب العالي من ضربات الروس ... وهذا يكون أيضا عنصرا واضحا من باب بناء المغرب العربي .

بل هناك بادرة تدل في مضمونها على الحاجة التي اخذت تشهر بها الايالة الجزائرية ، ويتعلق الامر بطلب تقدم به داي الجزائر الى السلطان المولى سليمان يطلب اليه ان يبعث بوفادة مغربية لاصلاح ذات البين بين داي الجزائر وبين طائفة دينية ، لقد كان النزاع في الواقع بين عرب تلمسان وبين تركيا على نحو ما نراه اليوم في قبرص بين الاتراك واليونان !

وقد ظهرت في الافق سحابة خطيرة في سماء العلاقات المغربية الامريكية كادت ان تؤدي - ان لم تكن قد أدت فعلا - الى اشهار الحرب من طرف المغرب على الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٢١٨ / ١٨٠٣ ، وقد يظهر انه من باب المبالغة والتهويل القول بأن السلطان المولى سليمان يعلن الحرب على الرئيس الامريكي طوماس جيفرسن !

بسم الله الرحمن الرحيم
 بحسب ما في كتاب الله تعالى



في شهر رجب سنة ١٢٥٥
 في شهر رجب سنة ١٢٥٥
 في شهر رجب سنة ١٢٥٥
 في شهر رجب سنة ١٢٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم
 بحسب ما في كتاب الله تعالى
 في شهر رجب سنة ١٢٥٥
 في شهر رجب سنة ١٢٥٥

ولكن الواقع هو ذاك على ما نقراه في المصادر المغربية والليبية والوثائق الامريكية على السواء . . . وليس المهم هذا ولكن المهم ان نعرف عن اسباب هذا التوتر الذي لم يكن غير استجابة المغرب لطلب الوفد الليبي الذي ورد يطلب امداد طرابلس بما تحتاج اليه من مواد ، ولم يكن غير مساعدة طرابلس وهي تحاصر السفينة الامريكية فيلادلفيا ! اعتبر الجانب الامريكي ذلك خرقا للبند الثاني من الاتفاقية الثنائية وهو ينص على عدم تقديم المساعدة من جانب احد الطرفين لعدو الطرف الآخر . . . وام تتصور امريكا كيف يستطيع مركب مغربي يحمل اسم (مبروكة) بقيادة الرانس ابراهيم لوباريس ان يحجز مركبا امريكيا يحمل اسم Celia

وكما وجدنا المغرب لا يعجز عن تقديم التفسير عندما احتججت النمسا بالامس على مساعدة فرنسا حليفة تركيا ، كذلك وجدناه اليوم يعتمد على تفسير الفصل السادس من المعاهدة المغربية الامريكية بأن مفهوم « المور Maures » بالنسبة الى المغرب شامل لجميع الاسرة الاسلامية سواء كانت في المغرب أم في المشرق !!

وهكذا وبعد مفاوضات صعبة بين وزير الخارجية المغربية محمد السلاوي وبين المبعوث الامريكي سيميسون توصل الطرفان الى تسوية بالافراج عن السفن المحتجزة لكل من المغرب وامريكا .

ومما نسجله على هامش استيلاء الاسطول المغربي على قطعة من الاسطول الامريكي . . . ان وفدا من تونس برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي كان يوجد في حضرة العاهل اثناء وصول البشريات بحجز المركب الامريكي فانشاء قصيدة ميمية طويلة يهنئ العاهل فيها ، وكان مما ورد فيها قوله :

دلائل فضل الله فينا تترجم	وان غفلت عنها طوائف نوم
ومن اكرم النعماء ولاية من له	علينا وفيينا حكمة وتحكم !

وهكذا وجدنا ان هذه الفترة عرفت يقظة جماعية . . . في سائر الايلات بضرورة التثام الصف وكان مما عكس هذا الشعور ارسال وفادة من المغرب الى الجزائر كانت برئاسة الامير مولاي ابراهيم لتقديم المواساة في اعقاب مdahمة الاسطول الانجليزي للساحل الجزائري . . .

وبالرغم من الامر العثماني الذي صدر لولاية الجزائر في تاريخ ١٥ ربيع الاول ١٢٤٥/١٤ شتنبر ١٨٢٩ بعدم مساندة المغرب الواقف ضد بحرية النمسا ، بحجة

ان هذه الاخيرة في حالة سلم مع تركيا ، فان المغرب مع ذلك أعلن الحساد الشامل عندما تمكنت فرنسا من انتزاع الحكم من الاتراك في الجزائر ، الامر الذي اعقبته الكوارث والاهوال بالنسبة للمغرب الذي اصيب في اسطوله: وكان اسطورة البحار ... المغرب الذي تعرض لحروب مع فرنسا قصمت ظهره فاستهدفت لتألب القوى الاستعمارية عليه من كل حدب وصوب على ما نعلم .



تلكم ومضات عن تجارب حول فكرة وحدة المغرب الكبير من خلال الوثائق الدبلوماسية وعن معوقاتها الحقيقية التي كانت كما راينا تحمل هويات اجنبية عن الساحة المغربية ، فمرة اسبانية ومرة ثانية فرنسية ومرة ثالثة جهة اخرى ... كانت جميعها تستهدف كما راينا ان تبقى بلاد المغرب مفتتة مجزأة منهوكة القوى ، في حين كانت فيه هذه الايلات تسعى جاهدة للتواصل فيما بينها بشتى الطرق والوسائل على ما راينا سلفا من تنقل الوفود عبر الشمال الافريقي لاحياء آصرة الود والاخوة فيما بينها ...

وسأقف عند هذا الحد تاركا الفرصة لاجترار تلك الاحداث ربما كان في ذلك ما يساعدنا على ان نكون اكثر وعيا واكثر استفادة من التاريخ !

نقد مرت فكرة المغرب الكبير بفترات تعثر لم تكن الايلات مسؤولة عنها بحال . ومن حسن الحظ ان نسجل ان نسبة فترات اللقاء كانت اوفر واكثر ... وأن شعور المسؤولين بوحدة مصيرهم كان يهيمن على كل شعور ، وهكذا فقد ظلت هذه البلاد جميعها تنشد اليوم الذي تصبح فيه وحدة متراصة ضد الاطماع الخارجية ولصالح ازدهار المنطقة .

خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية

د. محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الاردنية

حياته ونشأته :

هو ابو هاشم (١) ، خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . ولم تشر المصادر الى تاريخ ولادته ولكن يبدو انها كانت بين سنة ٤١ - ٤٥ هـ (٢) . واختلفت المصادر في تاريخ وفاته ، فقد ذكر البلاذري (٣) والسيوطي (٤) انها كانت في أيام عبد الملك بن مروان ولم يحددوا سنة الوفاة .

وذكره ابن الوردي (٥) في وفیات سنة ٨٢ هـ ، وذكر السقلائي (٦) انه توفي مع روح بن زنباع في عام واحد ثم اضاف قائلا : وبلغني بوجه آخر ان روحا مات سنة ٨٤ هـ ، وقال بذلك الذهبي (٧) وابن كثير (٨) على حد بعض رواياتهم .

وذكر الذهبي (٩) في رواية اخرى انها كانت سنة ٨٥ هـ ، ووافقه على ذلك ابن العماد الحنبلي (١٠) ، واسماعيل باشا البغدادی (١١) والياقي (١٢) .

وذكر ابو حنيفة الدينوري (١٣) انها كانت سنة ٨٦ هـ . وذكر سنة ٩٠ هـ كل من ابن عساکر (١٤) ، والذهبي (١٥) ، والسقلائي (١٦) ، وابن كثير (١٧) ، وابن العماد الحنبلي (١٨) .

وبالنظر الى هذه التواريخ يمكن ملاحظة ما يلي :

أولا : ان وفاة خالد قبل سنة ٨٦ هـ ، مستبعدة لما يذكره ابو حنيفة الدينوري (١٩) ، انه لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة سنة ٨٦ هـ ، أخذ البيعة لابنه الوليد ، واذن لبني امية فدخلوا عليه ومنهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، فقال لهما : يا بني يزيد اتحبا ان اقبلكما ببيعة الوليد ، قالا : لا معاذ الله يا امير المؤمنين ، قال لو قلتما غير ذلك لامرت بقتلكما على حالتي هذه .

ثانيا : ان وفاته كانت في خلافة الوليد بن عبد الملك ، لان الوليد هو الذي صلى عليه ، وسار في جنازته .

ثالثا : نظرا لاجتماع كل من ابن عساكر والذهبي والمستقلاني وابن كثير وابن العماد الحنبلي على ان وفاته كانت سنة ٩٠ هـ ، فتكون هي اقرب السنوات الى وفاته (٢٠) .

اما زوجاته فقد تزوج من كل من آمنة بنت سعيد بن العاص ، ورملة بنت الزبير وقد كانت هذه معروفة بالجزالة والعقل والفضل ، وعائشة بنت عبد الملك (٢١) وابنة عبد الله بن جعفر ، وقال مصعب الزبيري ومن الناس من ينكر هذا الزواج (٢٢) . واما اولاده (٢٣) فهم سعيد ، ابو سفيان ، عتبة ، حرب ، يزيد ، عبد الله .

ووصفته المصادر بالشجاعة والجرأة ، فقد تهدده عبد الملك بن مروان مرة بالسطو والحرمان فقال له : اتهددني ويد الله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبدول . هذا وقد قال له عبد الملك يوما : « ما اجرأك علي يا خالد » (٢٤) .

وبسرعة البديهة ، وحضور الجواب ، دخل على عبد الملك يوما فقال له ، ما لي اراك كالغضبان ؟ قال لست بغضبان ولكني محجوج . قال ومن حجك وبيانك بيانك ولسانك لسانك (٢٥) .

وبالجود فقد جاءه رجل فقال له : اني قد قلت فيك بيتين ولست انشدهما الا بحكمي فقال له قل ، فقال :

سألت الندى والجود حران انتما فقالا بلى عبدان بين عبيد

فقلت ومن مولاكما فتطاولا علي وقالا خالد بن يزيد

فقال له فكم فقال مائة الف درهم فأمر له بها (٢٦) .

والتواضع ، فقد قال عن نفسه لست عالما ولا جاهلا ، بل جامع كتب (٢٧) . كما وصفته بطول الصمت . قال له مولى له ارى الناس يخوضون فيما أنت أعلم به منهم وانت ساكت فقال ويحك اني عنيت بطلب الاحاديث والعلم وصححت ذلك فأخاف ان نشرت ذلك ان يحفظوه (٢٨) .

بنو أمية والعلوم :

اهتم بنو أمية بالعلم منذ العصر الجاهلي ، فقد أشارت المصادر الى ان حرب ابن أمية أول من كتب العربية ، وابو سفيان كان من المعلمين في مكة حيث تعلم الكتابة، ومعه أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة - على يد بشر بن عبد الملك العبادي فعلموا أهل مكة (٢٩) . ولما جاء الاسلام كان ستة من بني أمية ، من أصل سبعة عشر قرشياً ، يكتبون ، منهم ثلاثة من آل حرب : أبو سفيان ، يزيد بن أبي سفيان ، ومعاوية (٣٠) . وقد تولى معاوية الكتابة للنبي « ص » خاصة فيما يتعلق بالقبائل العربية (٣١) ، كما كان واخوه يزيد من خطباء قريش (٣٢) .

ولما تسلم معاوية الخلافة اهتم بالعلم والمجالس العلمية ، ففي دمشق قرب اليه أصحاب العلم ، يستمع منهم الى أخبار الامم السابقة ومآثرها . وفي خارج دمشق كان يتابع أخبار أهم هذه المجالس ، وأهمها مجلس القلادة في المدينة ، وكان يضم افاضل قريش وعلمائها (٣٣) .

وقد أشار ابن عباس الى اهتمام بني حرب بالعلم فقال : اذا ذهبت بنو حرب ذهب علماء الناس (٣٤) . ويذكر يوسف العشي (٣٥) أن معاوية الأول أول من أوجد مكتبة « بيت الحكمة » واحتفظ بها خالد بن يزيد فيما بعد وأغناها بمجموعة الحديث وكتب الكيمياء والطب والفلسفة . ولا غرابة في ذلك فقد ذكر حاجي خليفة (٣٦) أنه جمع لخالد بن يزيد ما يزيد على ثلاثة الاف كتاب مؤلفة في علم الكيمياء .

وهذا الاهتمام العلمي اقتضى الاتصال بالثقافات التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي . وبذلك كان معاوية بن أبي سفيان من الرواد الأوائل الذين قاموا بالاتصال بهذه الثقافات ، واتخاذهم موقفا أكثر انفتاحا ، مما مهد فيما بعد الى النهضة الشاملة التي اعطت ثمارها في العصر العباسي . وقد ساعد على هذا الانفتاح ان العرب ومنذ العصر الجاهلي لم يكونوا بعزلة عن الامم الاخرى ، بل كانت لهم اهتماماتهم ومعارفهم العلمية ، وان كان ذلك على نطاق ضيق ، وتمثلت بالطب والنجوم وعلم الانواء وغيرها من المعارف .

والعامل الثاني الذي ساعد على الاتصال والانفتاح ان الحياة العلمية في الشام قبل الفتح الاسلامي كانت مزدهرة والمدارس منتشرة في جميع انحاء سورية .

فقد كان في انطاكية مدرستان احدهما للعلوم الدينية والثانية للعلوم الفلسفية (٣٧) ، وفي فلسطين مدرسة قيسارية التي تأسست سنة ٢٣٠ م ، (٣٨) وفي بيروت كانت

كلية فقهية رومانية قد ظهرت في القرن الثالث الميلادي (٣٩) ، وكذلك مدرسة دمشق التي بلغت شأوا عظيما ابان الفتح العربي (٤٠) ، ومدرسة حران ، ومدرسة نصيبين . وخارج سورية كان هناك مكتبة طور سيناء التي انشاها الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٤١ ، وقد عثر في هذه المكتبة على نفائس اثرية عظيمة القيمة ، من مخطوطات نادرة الوجود عربية ، يونانية ، قبطية حبشية ، سريانية ، وفرمانات تركية (٤١) . ومكتبة الاسكندرية والتي كانت اضخم مكتبة في العالم القديم جعلت من الاسكندرية كعبة يؤمها العلماء (٤٢) ، وكذلك مدرسة جنديسابور في فارس .

ويذكر (الدوميلي) أن سورية كانت موطن حضارة رفيعة ، ولما غزتها الحضارة الاغريقية لم تصبح هلينية الا في مظهرها السطحي وبقي الشعب آراميا في صميمه . . . ولغته شديدة القرابة الى اللغة العربية (٤٣) . ولم يقابل المسلمون هذه المدارس والثقافات بالاعراض عنها ، أو اغلاقها ، بل ابقوا عليها ، واقبلوا على الدراسة فيها ، مما مكنها من متابعة اداء رسالتها العلمية . لقد احتك المسلمون بالثقافات الفارسية واليونانية واليهودية والنصرانية والوثنية والرومانية ، وتفاعلوا معها ، خاصة السريانية منها ، وكانت هذه على صلة كبيرة بالثقافة اليونانية .

لقد رافق حركة الفتوحات حركة علمية موازية ، فقد كتب يزيد بن ابي سفيان الى عمر بن الخطاب أن يعينه ببعض الصحابة لتعليم أهل الشام ، فخرج معاذ بن جبل وابو الدرداء وعبادة بن الصامت (٤٤) . وقد بلغ عدد الطلاب في حلقة ابي الدرداء ما ينيف على الف وستماية طالب (٤٥) وفي حلقة ابن عامر اربعماية عريف (٤٦) . ومن المعلمين زمن عبد الملك بن مروان هشام بن اسماعيل بن هشام بن المفيرة المخزومي ، وكان هذا بدمشق ، والوليد بن عبد الرحمن الحرشي وكان بفلسطين (٤٧) ، وابو ادريس الخولاني وكان يسمى بعالم الشام (٤٨) .

ويستدل على اقبال المسلمين على التعليم مما ذكره ابن عساكر (٤٨) في ان المسلمين ارسلوا ابناءهم الى الكتاتيب التي كانت قائمة آنذاك ، وكان يديرها المعلمون النصاري .

لقد اراد معاوية من ولي عهده أن يجمع بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافات الاجنبية فاتخذ دغفل بن حنظلة السدوسي مؤدبا ليزيد ، وكان هذا عالما باللغة والانساب والنجوم (٤٩) . وكلف يزيد بن معاوية ، عمر بن نعيم العنسي للاشراف على تربية اولاده خالد وعبد الرحمن ومعاوية (٥٠) . ولأجل الاحاطة بالثقافات الاجنبية فقد ذكر (لامانس) ان معاوية اتخذ لولده مربيا نصرانيا ، وكلف يزيد كاهنا

مسيحيا لتثقيف ولده خالد (٥١) ، بل كان الراهب مريانوس هو الذي علم خالد بن يزيد علم الصنعة (الكيمياء) ، ووصفه خالد بأنه أحقق خلق الله بها وبما فيها (٥٢) . والاستعانة بالمتقنين من أهل البلاد الأصليين أمر طبيعي في الاتصال والتفاعل الحضاري ، فالشعوب التي كانت في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس كانت على درجة حضارية أرقى مما كان عليه العرب وقت الفتوحات ، فلا بد والحالة هذه من الاستفادة بهم خاصة في صدر الإسلام .

لقد بدأت الاستعانة بأهل البلاد في المجالات العلمية منذ الفتح الإسلامي ، فقد أرسل سعد بن أبي وقاص (جفينة) ، وكان من نصارى الحيرة ، كي يعلم الكتاب في المدينة (٥٣) . وطلب عمر بن الخطاب من يزيد بن أبي سفيان ومعاوية أن يبحث له روميا كي يقيم الحساب والفرائض (٥٤) . كما قسم عمر نفسه سبي قيسارية على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين (٥٥) .

وفي العهد الأموي استمرت الدولة بالاستعانة بأهل البلاد الأصليين ، فقد كان سرجون الرومي على ديوان الشام (٥٦) ، وقنان بن متى من كتاب يزيد بن معاوية وابنه معاوية (٥٧) . ويحيى الدمشقي كان نديما ليزيد بن معاوية ، وقد ألف هذا عدة كتب في العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، ومحاورة بن مسلم ونصراني في الوهية المسيح ، ومحاورة في حرية الإرادة . وكانت بعض مناقشاته تحدث في مجلس الخليفة (٥٨) ، وأبو يوحنا الدمشقي كان من المقربين لعبد الملك (٥٩) ويناس بن خميا من الرها كتب لعبد العزيز بن مروان (٦٠) .

وقرب معاوية إليه الأطباء ، ومنهم ابن آثال ، وكان طبيبا متقدما من الأطباء المتميزين بدمشق ، نصراني المذهب ، خبيرا بالأدوية المركبة وخواصها وما فيها من سموم قاتل ، ولما اغتاله خالد بن مهاجر المخزومي قال معاوية : لا جزاك الله من زائر خيرا ، قتلت طبيبي فقال خالد : قتلت المأمور وبقي الأمر (٦١) ، وأبو الحكم الدمشقي ، وكان نصرانيا ، عالما بأنواع العلاج ، ورافق بعض قوافل الحجاج (٦٢) ويتأذوق وكان فاضلا في دولة بني أمية (٦٣) .

واستعان عبد الملك بابن أبجر وكان طبيبا ماهرا ، درس في الاسكندرية وانطاكية والرها واسلم على يد عمر بن عبد العزيز (٦٤) ، وماسرجويه كان يهودي المذهب ، سرياني الأصل تولى تفسير كتاب أهرن بن أعين القس الى العربية (٦٥) .

ومما تقدم يمكن القول أن بني أمية قد أبدوا اهتماما بثقافات أهل البلاد الأصليين ، فوضعوا بذلك اللبنات الأولى في الاستفادة من هذه الحضارات ، خاصة في مجال العلوم .

اهتمامات خالد بن يزيد العلمية :

في هذه الاجواء العلمية ظهر خالد بن يزيد بن معاوية فابدى اهتماما بالمكتبات واقتناء الكتب والترجمة والعلوم .

لقد كان ابعاده عن الخلافة دافعا قويا للاهتمام بالنواحي العلمية ، فقد مات معاوية الثاني دون أن يعين خلفا له فانفرط عقد بني سفيان ، ولم يبق على الولاء لهم سوى حسان بن مالك البحدلي الذي كان على جند الأردن . والظاهر أن أهل الأردن انفسهم لم يكونوا راضين بالبيعة لخالد ولعبد الله ابني يزيد (٦٦) ، كما أن حسان نفسه قد غير موقفه من خالد بعد عودة مروان بن الحكم من مصر سنة ٦٥ ومال الى صف مروان وأعلن ولاية العهد لعبد الملك ثم لعبد العزيز ابني مروان (٦٧) وبذلك انتهت آمال خالد في طلب الخلافة . وقد عبر عن ذلك زفر بن الحارث : بقوله:

أبعد سعيد يوم قام بخطبة تزال بها عنك الخلافة تجذل

وسعيد هذا هو سعيد بن مالك بن بحدل (٦٨) .

والظاهر أن هذه البيعة قد أفسدت العلاقات بين مروان وخالد ، فيذكر صاحب كتاب المحن (٦٩) أن مروان أتى لخالد قبل ذهابه لمصر وقال له أعرتي سلاحا إن كان عندك . قال فأعاره سلاحا وخرج الى مصر فقاتل أهل مصر وسبى أناسا فافتدوا منه ثم قدم الى الشام فقال له خالد بن يزيد :

« رد علي سلاحي فأبى عليه فالح فقال له مروان وكان فاحشا يا ابن كذا » .

ويؤكد فساد العلاقة أيضا أقوال وأشعار خالد بن يزيد فقد قال يوما : « ... أما اني أرى ثاري في مروان صباح مساء ولو أشاء أن أديله لأدلته » (٧٠) ودخل يوما على مروان وكان قد جفاه فقال :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعرف (٧١)

وقال أيضا :

فلو بقيت خلائف آل حرب ولم يلبسهم الدهر المنونا

لاصبح ماء أهل الأرض عذبا واصبح لحم دنياهم سمينا (٧٢)

ويبدو أن خالدا لم يتوقف عن المطالبة بحقه بالخلافة ، فقد ملا أهل اليمن خلافا لروان بن الحكم وقصدا لتوهين ملكهم وتفريق جماعة أهل الشام عنهم حتى كثر المنتسبون من قضاة إلى حمير (٧٣) وعزا البعض مصاهرته إلى إشراف قريش لغاياتهم سياسية ، فقد قال أحد الشعراء لعبد الملك :

عليك أمير المؤمنين بخالد ففي خالد عما تريد صدود
إذا ما نظرنا في مناكح خالد عرفنا الذي ينوي وأين يريد (٧٤)

وربما كان هذا الطموح هو السبب الذي أدى إلى استمرار فتور العلاقة بينه وبين عبد الملك ، فقد قطع عبد الملك ما كان يجريه على آل سفيان وجاءه عمرو بن عتبة فأعطاه ما يستحق وقال له : إنما يستحق عطيتي من استعطاها ، فأما من ظن أنه يستغني بنفسه فسنكله اليها . يعرض بخالد (٧٥) .

ولكن هذه العلاقة تحسنت بعد أن عينه عبد الملك على حمص وهناك بنى مسجدا وقصرا وأبنى عمره منفردا فيه ودفن بالقرب من قصره (٧٦) .

وكان عبد الملك يكثر من استشارة خالد بن يزيد ، فعند قيام ثورة ابن الأشعث هال ذلك عبد الملك فبعث إلى خالد وأطنعه الخبر ورأى ما به من الجزع فقال يا أمير المؤمنين . أن كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفه (٧٧) .

واستشاره أيضا عندما كتب عبد الملك في صدر الطوامير « قل هو الله أحد » مع ذكر النبي (ص) والتاريخ ، واحتجت الروم وهددوا بالكتابة على تقودهم أمور يكرها المسلمون ، فأشار عليه بضرب الدنانير الإسلامية ومنع تصدير الطوامير إلى الروم (٧٨) .

أما علاقته مع الحجاج بن يوسف الثقفي ، فلم تكن حسنة ، بل وصلت إلى حد الاستهزاء والاستهانة بالحجاج مما اضطر الحجاج إلى القول لخالد : « ولقد ضربت بسيفي هذا أكثر من مائة ألف كلهم يشهدوا أنك وأباك من أهل النار ثم لم أجد لذلك عندك أجرا ولا شكرا » .

لقد كان بعده عن السياسة دافعا له للاهتمام بالعلوم ، فقد تلقى خالد بن يزيد ثقافة عربية إسلامية تمثلت بالقرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي وروايته والفقه

والتشريع واللغة والادب والتاريخ وغيرها ، كما تلقى ثقافة البلاد الاصلية وشملت العلوم التي كانت رائجة في عصره كالطب والفلك والكيمياء .

لقد انحصرت اهتمامات خالد العلمية في مجال هاتين الثقافتين ، فقد تفرغ خالد لطلب الحديث وقراءة الكتب ، (٨٠) وقال هو عن ذلك : كنت رجلا معنيا بالحديث (٨١) . وقد روى خالد عن كل من يزيد بن معاوية (٨٢) ودحية بن خليفة ابن فروة الكنبى (٨٣) ، وعكرمة مولى ابن عباس (٨٤) .

وروى عنه الزهري ورجاء بن حيوة وعلي بن رياح وعبيد الله بن العباس وقيل العباس بن عبيد الله بن العباس ، وعبد الله مولى ابن جبير ، وخالد بن عبد الله وأبو الاعيس الخولاني (٨٥) .

هذا وقد اخرج الامام احمد عنه أن أبا امامة الباهلي سأل عن ايمن كلمة سمعها من رسول الله (ص) فقال سمعته يقول : « الا كلكم يدخل الجنة الا من شرد على الله عز وجل شراد البعير على اهله » (٨٦) . كما اخرج البيهقي والخطيب البغدادي ، والعسكري ، والحافظ ابن عساكر عدة أحاديث (٨٧) . وقد طبعت الثقافة الدينية هذه بطابعها الخاص فقد كان يصوم الاعياد كلها والجمعة والسبت والاحد (٨٨) ، كما وصفته المصادر بالورع والفضل وشاركه بهذه الصفات من اخوانه عبد الرحمن ومعاوية وعبيد الله (٨٩) .

وأملت عليه هذه الثقافة بعض التأملات الفلسفية . فقد سئل مرة ما اقرب الاشياء ؟ قال الاجل . قيل فما أرجى شيء ؟ قال العمل . قيل فما أوحش شيء ؟ قال الميت . قيل فما أنس شيء ؟ قال صاحب المواتي . وقال أيضا اذا كان الرجل لجوجا ممججا برأيه فقد تمت خسارته (٩٠) .

ولما التقى بمرينانوس دارت اسئلته حول اصل الخليقة ، أمن اصل واحد هي ؟ أمن أشياء شتى ؟ فان ذلك من شيء واحد وأصل واحد وجوهر واحد منه وبه لا يدخل عليه داخل ولا غريب منه ولا ينتقص منه شيء (٩١) وقد اعتبره البيروني أول فلاسفة الاسلام (٩٢) ، كما اشار خالد نفسه الى اطلاعه على كتب الفلسفة بقوله : لقد عكفت على درس كتب الفلسفة ، وقرأت الاوضاع السالفة وطالعت الكثير من تأليفهم ، ووعيت الاعداد من رسائلهم (٩٣) .

ولما كان المحدثون هم رواد المدرسة التاريخية حيث اهتموا بدراسة المغازي ورواية اخبار رسول الله (ص) ، فلا بد والحالة هذه أن يهتم خالد بالتاريخ وروايته . فقد

حدث عن زرعة بن عمرو وعمر بن شعيب وتبيع ، وتبيع أخذ عن كعب ودحية بن خليفة الكلبي ولم يلقه (٩٤) . وروى عنه شعيب بن حرب ، ومخرمة بن بكير ، وأبو صفوان ، وعمر بن شبة ، وسعيد الكلبي ، ومحمد بن كعب القرظي وعبد الله بن شداد وعامر الشعبي والمدائني (٩٥) . وذكر صاحب الفهرست أن المدائني ألف كتابا بعنوان قصيدة خالد بن يزيد في الأحداث والملوك (٩٦) .

وفي المجال الأدبي كان خالد بن يزيد خطيبا ، شاعرا ، فصيحاً ، جيد الرأي ، حذقا ، وله أشعار متعددة الأغراض منها شعره في الصنعة (الكيمياء) (٩٧) .

واهتم خالد بالصنعة (الكيمياء) ويذكر غالب مولى خالد بن يزيد أنه كان مغرماً بهذا العلم قبل أن يلقى مريانوس ، حتى أنه كان لا يؤثر عليها شيئاً ، ولا يفتر عن السؤال عنها وعن يرجو أن يجد عنده علماً ومعرفة (٩٨) . وقد ساعده فيما بعد مريانوس واصطفن . وقد وصف خالد مريانوس « بأنه كان تقياً واحذق خلق الله بهذه الصنعة فمنه تعلم وقال فيه شعراً » (٩٩) .

أما اصطفن فربما يعود لقائه به عندما ذهب إلى مصر حيث التقى به . وكان هذا أيضاً من المهتمين بعلم الصنعة حتى أنه صنف كتاباً فيها . ولم يذكر ابن النديم اسم هذا الكتاب (١٠٠) .

وساعده أيضاً وجود بعض التراجمة الذين أخذوا ينقلون من اللغات اليونانية والسريانية والقبطية إلى اللغة العربية . والواقع أن حركة الترجمة قد بدأت منذ صدر الإسلام وحتى في فترة ما قبل الإسلام . فقبل الإسلام اشتهر من التراجمة زيد بن حماد بن محروق ، وقد حذق الكتابة العربية والفارسية وعدي بن زيد وعمرو بن عدي ولقيط بن يعمر الأيادي (١٠١) كما عرف العرب شيئاً من النقل عن التوراة والإنجيل ، فأمية بن أبي الصلت كان يأتي في شعره على أشياء لا تعرفها العرب لأنه قرأ كتب الله عز وجل (١٠٢) .

واستدعت عملية الانفتاح على الثقافات الأخرى تشجيع حركة الترجمة . وقد اعتمد العرب في البداية على أهل البلاد الأصليين . ومن أوائل التراجمة في صدر الإسلام عبود ترجمان رستم وكان هذا من أهل الحيرة (١٠٣) . ولما خطب عمر بن الخطاب بالجابية كان عنده جاثليق يترجم له (١٠٤) . وهذا لم يمنع العرب المسلمين من تعلم لغات الأمم الأخرى ، فزيد بن ثابت كان يكتب العربية والعبرانية (١٠٥) ، والمغيرة بن شعبه حذق بعض الفارسية (١٠٦) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص قرأ بالسريانية (١٠٧) .

لقد كانت حركة الترجمة من اليونانية الى السريانية مزدهرة قبل الفتح الاسلامي، واشتهر من التراجمة سرجيوس الراسميني، (٥٣٦م) وهو طبيب وفيلسوف برع في الترجمة من اليونانية الى السريانية في مجال الطب والفلسفة والفلك واللاهوت، ويوحنا الدمشقي (ت. قبل ٧٤٢م) وقد وضع مقالة في المجادلة بين نصرائي ومسلم ساق فيها البراهين التي دلت على معرفته الوثيقة بالقرآن الكريم والعقيدة الاسلامية (١٠٨)، وساويرس سيبوخت (٦٦٧م) من نصيبين باعمال الفرات، ترجم وشرح كتاب التحاليل لارسططاليس وصنف رسائل الفلك والجغرافيا، وكذلك تلميذة اثناسيوس، وايوب الرهاوي (ت ٧٠٨م)، والاسقف جورجيس (٧٢٤م) ترجم وشرح كتاب الاورجانوس لارسططاليس (١٠٩)، وهيبا الملقب بالترجمان وتلميذه بروبايريوس من اتباع المدرسة الفارسية في الرها، وابي القشعري الذي كان ذا نفوذ عند كسرى الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨م) (١١٠).

ومن التراجمة ايضا سلوانوس القردي، وحنيناشو الجاثليق، وشمعون الراهب (١١١)، ويذكر اوليري (١١٢) انه من المؤكد ان العلوم الطبية قد وصلت الى العرب عن طريق الترجمات السريانية، ثم عن طريق الترجمات اليونانية، راسا في مجال الفلك والرياضيات. ويضيف ان السريانية كانت هي اللغة السائدة في بلاد الشام وظلت لغة الترجمة من اليونانية الى العربية... وكان لمدينة حران نصيب في نقل العلوم من اليونانية الى العربية.

وبعد الفتح الاسلامي واستقرار الدولة استمر أصحاب الثقافات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرهم منهمكين في الفلسفة والطب وانواع العلوم الاخرى التي كان العرب الى ذلك الحين على غير دراية تامة بها. لقد كان في سورية وبلاد فارس معاهد ومؤسسات وأديرة اشتمل اصحابها بدراسة علوم القدماء وتفهمها وتفسيرها وتدريسها ونقلها الى الاخلاف بشكل منظم. ونتيجة اهتمام العرب وشففهم بالعلوم بدأت بواكير الترجمة مبكرة وقبل الخلافة الاموية (١١٣).

ولما جاء الامويون التفتوا الى الكتب العلمية اليونانية ليأمرؤا بنقلها الى السريانية والعربية تدفعهم الى ذلك الرغبة في العلم ومن أجل العلم (١١٤).

لقد قرب معاوية اليه المترجم يعقوب الرهاوي السرياني ١٩ - ٨٩ هـ ٦٤٠ - ٧٠٨م وقد ترجم بعض كتب الالهيات من اليونانية، كما يؤثر عنه انه افتي رجال الدين النصاري بتعليم اولاد المسلمين التعليم الراقى. وهذه الفتوى من غير شك تدل على اقبال بعض المسلمين على دراسة الفلسفة عليهم، وتردد النصاري في تعليمهم (١١٥).

ويذكر كرد علي (١١٦) أن معاوية كان أول من ترجم له كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني، كما أنه أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة والارجح انها كانت في دمشق . ويستدل على اهتمام معاوية بالكتب ما ذكره صاحب الذخائر والتحف (١١٧) من أن معاوية وملك الصين تبادلوا الرسائل والهدايا وكان من ضمن هدية ملك الصين كتاب من سرائر علومهم ، صار بعد ذلك الى خالد بن يزيد وكان يعمل فيه الاعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

أما خالد فقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان في مصر وامرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية، وبذلك اعتبره ابن النديم أول نقل في الاسلام وأن خالدا أول من ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء (١١٨) .

ويذكر Holmyard (١١٩) أن خالدا أول من نادى وطلب بأن تحل اللغة العربية في كتابة الوثائق بدواوين الدولة بدلا من اللغات الاخرى، كما بدأ بحركة الترجمة العلمية ، ولتحقيق ذلك جمع حوله عددا من العلماء ، فكان الرجل الذي اعطى لبیت الحكمة طابعها الخاص الذي تطور واتضح في عهد المأمون (١٢٠) .

ولم تقتصر حركة الترجمة على خالد بن يزيد فحسب ، فقد امر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتاب أهرن بن اعين في الطب ، فنقله ماسرجويه من السريانية الى العربية (١٢١) .

ومما تقدم يمكن القول أن حركة الترجمة لم تكن فردية كما يقول Watt (١٢٢) ، بل كانت حركة عامة لكنها كانت محدودة . والسبب في ذلك قلة الذين يتقنون اللغات « فالترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذهبه ، ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده . . . ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون اعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيها سواء وغاية» (١٢٣) .

ومع محدودية هذه الحركة الا أنها فتحت الاعين على المعارف والعلوم ، فاطلع المسلمون على مواد فكرية لم تكن معروفة من قبل الا بشكل اولي وغير علمي ، فأدخلتهم حركة الترجمة عالم العلم والمعرفة على اختلاف أنواعها، وبالتالي تمكن العرب من التحلي بالتفكير العلمي والطرق العلمية التي ساعدتهم فيما بعد على بناء انظمتهم الفكرية (١٢٤) .

لقد ألم خالد بالثقافة العربية الاسلامية والثقافات التي عاصرتة ورافق ذلك اهتمام بالكتب العلمية ، فبدأ بترجمة الكتب الكيميائية في مصر . وبذلك يكون القرن الاول الهجري هو بداية الاتصال مع ثقافات أهل البلاد التي كانت سائدة قبل الفتح الاسلامي ، لا كما يظن الكثيرون من انه منتصف القرن الثاني الهجري او منقلب القرن الثاني الى الثالث ، وبعد تأسيس بيت الحكمة الذي أسسه الخليفة المأمون (١٢٥) .

كما ان الاهتمام بالعلوم اليونانية خاصة في الفلك والطب والرياضيات لم يكن مفاجئاً كما توهم Ruska ، (١٢٦) بل هي حركة طبيعية تمت ببطء منذ صدر الاسلام ونضجت في العصر العباسي .

وأول اهتمامات خالد بن يزيد العلمية الكيمياء ، أو ما كان يطلق عليه اسم « الصنعة » (١٢٧) . فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة . ومن الاسماء التي اعتمد عليها اصطفن ومارينوس . ويذكر Lucier (١٢٨) أن خالد قد نقل من مصدر لاتيني عنوانه « نشأة الكيمياء » تأليف مارينوس الذي تتلمذ على أذفر ، ويظن Lucier أن أذفر هذا هو ابن أبجر العربي والذي قال عنه ابن أبي أصيبعة انه تولى التدريس في مدرسة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي .

واسم اصطفن كما ذكرت معروف عند ابن النديم ، وكذلك مريانوس حيث ذكر له صاحب كشف الظنون (١٢٩) رسالة بعنوان مقالته مريانس الراهب لخالد بن يزيد في الكيمياء . وذكره أيضا ابن خلكان (١٣٠) في ترجمة خالد ، ويذكر (١٣١) Holmyard أن مريانوس لم يكن العالم الاول الذي اتصل به خالد ، بل انه أحاط نفسه بعدد من ذوي الاختصاص والخبرة بالصنعة .

والدافع الاساسي لتعلم الصنعة هو ما عبر عنه خالد في الديوان حيث يقول :
« فاني لم أزل بحمد الله مذ سمت همتي وعلقت مهجتي بالفهم أطلب الصنعة لعلمي بما فيها من الكرامة والرفعة اذ هي أشرف الصناعات كلها ، ... صناعة تمنع من الهموم والتعب وذل المكتسب والمخاطر في المطلب وبذل الوجه » (١٣٢) . ولم يكن خالد هو الذي قصد الدافع المادي من الكيمياء ، فقد كتب أحد الاميركيين في عام ١٩٢٨ « ان خير الطرق الآن واسرعها لجلب المال هي الكيمياء ، فان المستقبل لها وهي تغزو كل شيء الآن » (١٣٣) . وقد ألف خالد في الصنعة الكتب التالية :

ثلاث رسائل تضمنت احداهن ما جرى له مع مريانوس ، وصورة تعلمه منه والرموز التي اشار اليها وله فيها اشعار جيدة (١٣٤) . قال ابن النديم (١٣٥) رايت

منه خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه الحرارات ، الصحيفة الكبير، الصحيفة الصغير، وصيته الى ابنه في الصنعة. وذكرها حاجي خليفة (١٣٦) في عدد أبيات فردوس الحكمة الفان وثلاثمائة وخمسة عشر بيتا ، أولها الحمد لله الواحد الفرد الذي له المزم والمجد. وقال عنه الجلدكي (١٣٧) (ت: ٧٤٣ هـ) هو كتاب نفيس وان طلبه زمانه لا يفهمونه الا باللفظ اما معانيه فهم بعيدون عن ادراكها ومن اخذ بظاهره فقد وقع في الضلال والخسران. وله كذلك كتاب السر البديع في الرمز المنيع (١٣٨) ، والرحمة في الكيمياء (١٣٩) ومقالتا مريانوس الراهب (١٤٠) .

وقد تمكنت من الاطلاع على وصية خالد لابنه في تعلم الصنعة وديوان خالد القسم النثري واغلب الظن ان هذه المقدمة هي من ضمن الرسائل التي أشار اليها ابن خلكان .

اما المنظومة الشعرية التي أشار اليها ابن النديم ، فهي كتاب الفردوس الذي ذكره كل من حاجي خليفة والجلدكي والبغدادى . وفي هذا الديوان قصائد يحتمل نسبتها الى خالد وقصائد أخرى قد مزجت بها عندما جمعت في ديوان مستقل . يؤيد ذلك ان الذي قام بعملية الجمع قد استقى القصائد من مصادر شفوية وأخرى مدونة . وهذا ما يذكره جامع الديوان حيث يقول : « انه دون ما أطمأن له القلب والعقل وقام عليه البرهان » . وواقع الامر يختلف عن ذلك كثيرا حيث ذكرت أسماء سنة وفاتها بعد خالد بن يزيد بمدة طويلة (١٤١) .

ويذكر ابن عساكر (١٤٢) من اهتماماته العلمية ، تحطية ماء البحر ، فقد كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد : منه من ماء السماء ومنه ما يستقيه القيم من البحر فيعذبه البرق والرعد فأما ما يكون من البحر فلا يكون له نبات وأما النبات فما كان من ماء السماء وقال ان اشئت اعذبت ماء البحر . . . فأمر بقلل من ماء ووصف كيف يصنع حتى يعذب .

واهتم خالد بالطب وترجمت له الكتب (١٤٣) ووصفه (صاعد) (١٤٤) بأنه كان بصيرا بالطب ، وابن خلكان (١٤٥) انه كان أعلم قریش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما . ولما ادعى الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي النبوة زمن عبد الملك بن مروان قتله عبد الملك سنة ٧٩ ، فدخل عليه خالد وقال له : لو حضرتك ما أمرتك بقتله . قال ولما قال كان به المذهب فلو جوعته ذهب ذلك عنه (١٤٦) . والاهتمام الطبي يقتضيه معرفة بالكيمياء ، وذلك نظرا للصلة الوثيقة بينهما خاصة في تركيب الادوية (١٤٧) .

واهتم كذلك بالفلك وترجمت له كتب النجوم (١٤٨)، ويظهر العمل الفلكي بشكل واضح في رسالته الى ابنه في تعلم الصنعة ، وفي الديوان . وقال صاعد (١٤٩) أيضا : وكانت له معرفة باحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد وحسب مذاهب العرب في احكام النجوم . ولكن لم يصل اليها من الكتب الطبية والفلكية التي ترجمت شيئا .

ويذكر ابن السبندي (وقد توفي في القرن الخامس الهجري) ان الوزير ابا القاسم علي بن احمد الجرجاني طلب ان يعمل فهرست لخزانة الكتب بالقاهرة ويرم ما اخلق من جلودها وانفذ القاضي ابا عبد الله القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك . . . وحضرت لاشاهد بصناعتي (١٥٠) فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلك خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية وتأملنا ما نص زمانها فكان الف ومائتين وخمسين سنة (١٥١) .

هذه هي اهتمامات خالد بن يزيد العلمية والتي حصرت في الحديث والتاريخ والشعر والطب والفلسفة والكيمياء والفلك . وقد شكك العديد في اهتمامات خالد وحتى في شخصه حيث عده البعض كما سنرى اسطورة .

واول من وضع بوادر الشك ابن النديم (١٥٢) حيث قال : « . . . ويقال والله اعلم انه صح له عمل في الصنعة » وتابعه ابن الاثير (١٥٣) حيث قال : « انه أصاب عمل الكيمياء ولا يصح ذلك لاحد » ثم سار على نهجهم ابن خلدون (١٥٤) حيث قال : « وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدًا من الجيل العربي والبداءة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا ان يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه ممكن » .

وتابع هؤلاء من المحدثين عمر فروخ (١٥٥) وعبد الصاحب الدجيلي (١٥٦) .

ومن الاوروبيين Ruska (١٥٧) حيث قال : . . . وحسب المراجع العربية فان خالد بن يزيد هو اول من بحث في مجال الكيمياء . . . ولكن على كل حال يجب على المرء ان يعتقد الى مدى يمكن الثقة بعناوين الكتب العربية .

والدوميلي (١٥٨) : قال : رفع بعض المؤرخين ثم بعض الكتاب المحدثين من بعدهم من ذكر خالد بن يزيد ، ولم يقتصر كما زعموا على تشجيع علماء اليونان وحدهم على ترجمة الكتب المؤلفة بلغتهم الى العربية بل كان هو نفسه أيضا عالما أصيلا على الاخص بعلم الصنعة (الكيمياء القديمة) . . . وليس ذلك الا أسطورة محضة .

ويمكن الرد على هؤلاء بما يلي :

أولا : لقد رد ابن النديم (١٥٩) على نفسه ووضع الاثبات باهتمامات خالد الكيمائية عندما قال « ورأيت من كتبه . . . »

ثانيا : وصف الزبير بن بكار (١٦٠) خالدا بالعلم وقول الشعر ، وابن النديم (١٦١) يقول عن الزبير بن بكار : كان شاعرا صدوقا نبيل الرأي .

ويكفي للرد على ابن الاثير وابن خلدون باقوال محمد بن اسحق والزبير بن بكار ومصعب الزبيري ، والجاحظ وابو حنيفة الدينوري ، وابن قتيبة والطبري وابن النديم وصاعد وابن عساكر (١٦٢) ، وهم من القرب الى خالد بمكان ، ثم رواية حاجي خليفة اقرب الى الصحة ، لكونه من الرجال الموثوق بصحة رواياتهم ، فقد كان يتحقق بثقة في كل ما يورده في مصنعه المذكور (١٦٣) . هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان عدم فهم ابن خلدون لرموز الكيمياء السبب في اتهام خالد بن يزيد سيما ان هذه الرموز تظهر لغير الملم بها كأنها الفاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم (١٦٤) .

وبالنسبة لروسكا Ruska فقد رد عليه هوليارد (١٦٥) حيث قال : ان ملوك وافراد قبيلة خالد قد شغفوا بهذا العلم نفسه . . وحتى في الظروف التي اشار اليها روسكا Ruska فلا تزال كتب واشعار لخالد في مكتبات الهند ومصر وأوروبا ، لم تمحص ولم تحقق بعد .

ورد على روسكا أيضا ستابلتون (١٦٦) Staplton حيث قال : ان الكتابات العربية القديمة لا تخلو من بعض قصص الخرافة والتهويل الا ان المحقق الدقيق يخرج منها بآراء ومعرفة علمية أصيلة .

أما الدوميلي : فقد رد عليه هوليارد (١٦٧) بقوله : والظاهر أن الدوميلي لم يمعن في مراجعة الكتب العربية وعلى الاخص كتب التراجم والتاريخ ، بل وحتى ما كتب عن خالد على قلة ما كتب عنه في المراجع القديمة ، وليس خالد بأسطورة كما أوضحت تلك المصادر أو كما جاء في كتب بعض المستشرقين ممن حقق التراث العربي ومحصه ، ودلل على عدم دقة الدوميلي بأنه أخطأ في سنة وفاة خالد حيث ذكر أنها في سنة ٦٤ هـ - ٦٨٣ م وهذا ما يخالف كتب التراجم والتاريخ .

وبعد هذا العرض لحياة خالد بن يزيد واهتماماته العلمية يمكن اعتباره من الرواد المسلمين الأوائل الذين خاضوا مضمار العلم ، لقد أحب خالد العلم ووصفه بالمرتبة الثانية بعد النبوة (١٦٨) . قد قيل له كيف أصبت هذا العلم ؟، فقال : وافقت الرجال على أهوائهم ودخلت معهم في آرائهم حتى بذلوا لي ما عندهم وافضوا الي بذات أنفسهم (١٦٩) .

المراجع والحواشي

(١) انظر : ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم : عيون الاخبار ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ ، ج ١ ، ص ١٩٩ . البلاذري ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، تعريضة عن محمد رشيد ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ . العسكري ، أبي هلال : الاوائل ، تع محمد السيد الوكيل ، مطبعة دار امل طنجة/المغرب ١٩٦٦ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، تاريخ الخلفاء ، تع محمد محي الدين عبد الحميد ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢١٨ . المسقلاني ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ، تهذيب التهذيب ، دائرة المعارف النظامية ، الهند ، حيدر آباد الدكن ١٢٢٥ ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، السعادة مصر (د . ت .) ج ٨ ، ص ٢٣٦ وكني أيضا بابي يزيد ، انظر : ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد : العقد الفريد ، تع محمد سعيد الريان ، المطبعة التجارية الكبرى ١٩٤٠ ، ج ٧ ، ص ١١٥ .

(٢) اشارت المصادر الى ان ولادة أبيه يزيد بن معاوية كانت اما سنة خمس وعشرين أو ست وعشرين (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥) وان وفاته كانت سنة ٦٤ هـ ، ووفاته أخيه معاوية الثاني كانت سنة ٦٤ هـ . وكان عمره يوم وفاته مابين ٢٠ - ٢٥ سنة ، فعليه تكون ولادة معاوية مابين ٣٩ - ٤٤ . ولما كان خالد الابن الثاني فيمكن الاستدلال بان ولادته كانت مابين ٤١ - ٤٥ هـ . وقد ذكرت المصادر ان خالدا كان يوم جيرون ، غلاما سكن الناس وتكلم كلاما أوجز فيه لم يسمع مثله . والغلام عند العرب هو الطار الشارب . وان وصف خالد بأنه صبي فربما يعود ذلك الى قصره فقد ذكر البلاذري (انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٩) ان خالد ابن يزيد كان قصيرا ، حتى انه لما خطب رملة بنت الزبير ، استقصروه ، فبلغه ذلك فجمع قوما قصارا ومشى معهم ، ولبس للنسوة فرضيت به .

انظر : الكلبي ، هشام بن محمد : جمهرة النسب ، نسخة مصورة عن نسخة المتحف البريطاني ، بحوذة د. عبد العزيز النوري ، ج ١ ، ص ٢٩ . الدينوري ، أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، تع عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ط ١ ، ٩٦٠ ، ص ٢٠٧ ، المسعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تع محمد محي الدين عبد الحميد ، السعادة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٤٨ ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، البلاذري ، أحمد بن يحيى : انساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، عن طبعة القلص ١٩٣٨ ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٩ . الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف مصر ، ط ٢ ، ١٩٦٩ ، ج ٥ ، ص ٥٣٣ . الذهبي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد : دول الاسلام ، ط ٢ ، دائرة المعارف الهند - الدكن ، ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٣٠ . النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب في فنون الادب ، تع محمد رفعت ، فتح الله ، الهيئة المصرية ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ٨٥ - ٨٧ . واللسان مادة « غلم » .

(٣) انساب الاشراف ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ .

(٥٥) تاريخ ، الطبعة الوهبية مصر ، ١٢٨٥ ، ج ١ ، ص ١٧٩ ، وانظر الطائي ، د. فاضل احمد ، اعلام العرب في الكيمياء ، دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٥ .

(٥٦) تهذيب التهذيب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٥٧) شمس الدين ، محمد بن احمد بن عثمان : سير اعلام النبلاء ، نج مأمون الصلغري ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١/١٤٠١ ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ ، واعتمدت كذلك على طبعة دار المعارف المصرية (١٩٥٧) .

(٥٨) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٣٠ .

(٥٩) سير اعلام النبلاء (بيروت) ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ .

(٦٠) ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ١٢٥٠ هـ ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٦١) هدية العارفين ، ط ٢ بلاؤفست عن نسخة استنبول ٩٥٥ ج ١ ، ص ٣٤٣ . وانظر : اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ ، وكرد علي ، محمد : الاسلام والحضارة العربية . القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ط ٣ ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٦٢) ابو محمد عبد الله بن اسعد علي بن سليمان ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٦٣) الاخبار الطوال ص ٣٢٥ .

(٦٤) تهذيب ابن عساکر ، ج ٥ ، ص ١٢٠ .

(٦٥) المعبر في خبر من غير ، نج صلاح الدين منجد ، الكويت ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ ، سير اعلام النبلاء (بيروت ، ج ٤ ، ص ٢٨٢) .

(٦٦) تهذبن التهذيب ، ج ٣ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٦٧) البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٦٨) شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٦٩) الاخبار الطوال ، ص ٣٢٥ .

(٧٠) قارن اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(٧١) انظر : البغدادي ، محمد بن حبيب ، المحبر ، ذخائر التراث العربي ، بيروت (ل . ت) ، ص ٦٠ ، ٥٩ ، ٤٥ ، البلاذري ، انساب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٣ ، ٧٠ .

- (٢٢) الاصفهاني ، الاغانى (الهيئة المصرية) ، ج ١٧ ، ص ٢٤٧ .
- (٢٣) ابن حزم ، ابي محمد علي بن احمد بن سعيد ، جمهرة انساب العرب ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ١١٢ .
- (٢٤) الحموي ، ياقوت : معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية ، مطبعة دار المأمون ، مصر (ل . ت) ج ١١ ، ص ٢٧ - ٢٨ ، وانظر العسكري ابي هلال الحسن بن عبد الله : كتاب الصنائع : الكتابة والشعر ، تع محمد علي البجاوي وزميله ، ط ١ ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- (٢٥) البلاذري ، احمد بن يحيى : انساب الاشراف ، القسم الثالث « العباس وولده » ، تع د . عبد العزيز الدوري ، جمعية المستشرقين الألمانية بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٧٤ . تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٦ - ١١٧ .
- (٢٦) الاغانى (بولاق) ، ج ١٦ ، ص ٨٨ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٧ .
- (٢٧) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٧ ، وانظر الزرو ، خليل داود : الحياة العامية في الشام في القرنين الاول والثاني للهجرة ، دار الافاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٨٢ نقلا عن ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف ، جامع بيان العلم وفضله وما ينبني في روايته وحمله ، المدينة المنورة (ل . ت) ج ١ ، ص ١٢٢ .
- (٢٨) انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٥ .
- (٢٩) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٧ . ابن رسته ، ابي علي احمد بن عمر ، الاطلاق النفسية ليعن ١٨٩١ ، ص ٢١٦ ، ابيض ، ملكة : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرن الاول للهجرة بالاستناد الى مخطوط ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠٨ ، نقلا عن ابن عساكر مخطوط ، ج ٨ ، ق ٧٨ ، ترجمة صخر بن حرب . المحبر ص ٢١٧ ، الطبري ، تاريخ ج ٣ ، ص ٥٩٧ ، القلقشندي ، ابي المباس احمد بن علي : صبح الاعشى في صناعة الانشا نسخة مصورة ، المطبعة الاميرية (د . ت) ج ٢ ، ص ١٠ .
- (٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٧ .
- (٣١) كتابي ، عبد الحي : التراتيب الادارية ، المطبعة الوطنية ، الرباط ١٣٤٦ هـ ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، نقلا عن شرح المواهب ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .
- (٣٢) انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٣١ .
- (٣٣) السدوسي ، مؤرج بن عمر . حذف من نسب قريش . تع د . صلاح الدين منجد دار العروبة ، مصر ١٩٦٠ ، ص ٤٢ ، وانظر ابيض ص ٩٢ نقلا عن ابن عساكر ، ج ١٩ ، ق ٢٠٩ ، ترجمة رجيل غساني رواية الشعبي .
- (٣٤) ابيض ص ١٥٩ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج ١٨ ، ق ١٨٥ ، ترجمة يزيد بن معاوية .

Youssef Eche : Les Bibliothèques Arabes publiques et Semi-publiques (٣٥)
en Mesopotamie, en Syrie et en Egypt au Moyen-Age, Damas, Institut
Français, 1967, XXXVI, P. 117.

وانظر : أبيض ، ص ١٠٦ .

ويذكر كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٨ م : ان اول خزانة في الاسلام
انشئت في دمشق ، انشاها حكيم آل مروان خالد ابن يزيد الاموي التوفي سنة ٨٥ هـ ، ولم يصل
اليها من اخبارها شيء ولا شك انها كانت تحوى بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية
والسريانية في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها، ج ٦ ص ١١٩ .

(٣٦) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون - مكتبة المثنى بغداد (د . ت .) ج ٢ ، ص ١٥٣٣ .

(٣٧) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ نقلا عن سوربوس توما ، تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية،
مطراية بيروت ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٣٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ ، نقلا عن تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٣٩) ن.م ، ص ١٤ ، نقلا عن ن.م ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٤٠) اوليري ، دي لاسي : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة د . وهيب كامل مراجعة
زكي علي ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ١٩١ .

(٤١) مجلة الهلال ، عدد ٦ السنة ٣٦ ، ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م ، ص ٧٢٨ وما بعدها .

(٤٢) اوليري ، علوم اليونان ، ص ٢٤ .

(٤٣) العلم ، واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، و د . محمد يوسف موسى،
دار العلم ١٩٦٢ ، ص ١٢١ .

(٤٤) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٧ نقلا عن الذهبي ، شمس الدين ، محمد : تاريخ الاسلام ، مطبعة
السعادة ، مصر ، عن مكتبة القدسي ١٣٨٣ هـ . ج ٢ ، ص ١١٨ ، وانظر أبيض ص ٨٦ ، نقلا عن ابن
عساكر ، ج ٨ ، ق ٢٦٦ . ترجمة عبادة بن الصامت .

(٤٥) ابن عساكر ، ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق مع صلاح الدين النجد ،
دمشق ١٩٥٤ ج ١ ص ٣١٥ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ص ١٩ ، نقلا عن ابن الجوزي ، غاية
النهاية في طبقات القراء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٢ ، ج ١ ، ص ٦٠٦ .

(٤٦) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ ، نقلا عن ابن الجوزي ، النشر في القراءات العشر مطبعة مصطفى
محمد (د . ت .) ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤٧) ابن عساكر ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ .

(٤٨) الذهبي ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٨ .

(٤٩) البلاذري ، انساب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٣ ، وانظر المقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، وان عساكر ، ج ٦ ، ق ٣٥ ، ترجمة فغل بن حنظلة السدوسي . وج ٣ ، ق ١١١ ترجمة اياس بن معاوية ، ابيض ص ٨٥ .

(٥٠) ابيض ، ص ١٠٣ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج ١٠ ، ق ٤٠٦ ، ترجمة عبد الرحمن بن يزيد ، ج ١٢ ، ق ١٢٤ ، ترجمة عمر بن نعيم .

(٥١) الخربوطي ، علي حسني ، العراق في العهد الاموي ، نقلا عن :

Lammans. S.J. Etudes sur le règne du Calife Omayyade Moawiya 1^{er}

Leipzig 1908, p. 309.

(٥٢) وصية خالد بن المجموع رقم ١٢٦٧ ، الجمع العلمي العراقي ، وقد أخطأ الاستاذ ابراهيم خورشيد الذي فهرس رقاق المخطوطات حيث اسماه ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ، ص ٧٧ .

(٥٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، نسخة مصورة عن نسخة استانبول بحوزة الدكتور عبد العزيز الدوري ، ص ٦٤٧ .

(٥٤) ن . م ، ص ٥٨٥ .

(٥٥) ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة . شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٢ .

(٥٦) ابن خياط ، خليفة ، تاريخ . تع اكرم ضياء العمري ، النجف ١٩٦٧ ، ج ١ ص ٢١٨ ، ابن النديم ، محمد الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت (د . ت) ٣٣٩ ، الاوائل ٢٠٣ .

(٥٧) الفهرست ١٧٧ .

(٥٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٢ ، نقلا عن بروكلمان ، كارل ، تاريخ الادب العربي ، المعارف مصر ١٩٥٩ ، ج ١ ص ٢٥٦ .

(٥٩) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٣ ، نقلا عن رستم اسد : كنيسة مدينة الله انطاكية المظلمى ، مطبعة دار الفنون ، بيروت ، د . ت ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٦٠) الجهشيارى ، ابي عبد الله محمد بن عبدوس : الوزراء والكتاب ، تع . مصطفى السقا وزملائه ، ط ١ ، الطبعة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ، ص ٣٤ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة ، موافق الدين ابن المباس احمد بن القاسم . عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق نزار ضياء ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٧١ وانظر جمهرة النسب ، ج ١ ، ص ٦٠ ، الاوائل ص ١٨٨ .

(٦٢) ابن ابي اصيبعة ، ص ١٧١ ، الاوائل ، ص ١٨٨ .

(٦٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ١٧٩ ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٦٤) انظر : ابن أبي أصيبعة، ص ١٧٥ ، ابن جطل، أبي داود سليمان بن حسان : طبقات الاطباء والحكماء
تح فؤاد سيد المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٥٥ ، ص ٥٩ ، ابن العبري ، فريفيوس
الطبي : تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٦٥) ابن جطل ، ص ٥٩ وما بعدها ، ابن العبري، ص ١١٢ وانظر عن استماعة هشام بن عبد الملك :
قدامة ، الخراج ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٦٦) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، الطبري، تاريخ ج ٥ ، ص ٥٢١ - ٥٣٧ ، ابن زرة ، عبد
الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري : تاريخ ، تح د . شكر الله نعمة الله
القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ، ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ١٩١ ، العقد الفريد
ج ٥ ، ص ١٢٤ ، البداية والنهاية ، ج ٨ ، ص ٢٤٠ .

(٦٧) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٦٨) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .

(٦٩) أبو العرب ، محمد بن أحمد بن قيم التميمي (ت ٣٣٣ هـ) تح د . يحيى وهيب الجبوري ،
دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ . وانظر ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله
بن مسلم ، تاريخ الخلفاء (الإمامة والسياسة) المنسوب اليه ، تح طه محمد الزيني ، الحلبي ،
القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٢ ، قال له يا ابن الربوخ وهي التي يفشى عليها عند الجماع .

(٧٠) ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٨ .

(٧١) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ .

(٧٢) العقد الفريد ، ج ٦ ، ص ١٥٧ ، وانظر نقده لرأي مروان بن الحكم ، وانظر ايضا تهذيب ابن
عساكر ، ج ٥ ، ص ١٢٠ .

(٧٣) أبو البقاء ، هبة الله ، المناقب الزيدية في الملوك الاسدية . نسخة مصورة عن نسخة التحف
البريطاني ، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية ، رقم ٣٠١ ، لوحة ١٠٢ .

(٧٤) المبرد ، ابن العباس ، الكامل في اللغة والادب والنحو والتصريف تح أحمد محمد شاكر ، الحلبي،
مصر ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ، ج ١ ، ص ٣٠١ ، المناقب الزيدية لوحة ٢٣ .

(٧٥) ابن بكار ، الزبير : الاخبار الموفقيات تح ، سامي مكي الماني، مطبعة الماني بغداد ١٩٧٢، ص ٤٦٨ ،
عيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، وانظر عن العلاقة بينهما الزبيري ، أبي عبد الله المصعب بن
عبد الله : نسب قریش ، تح ، بروفسال ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٦ ، ص ١٣٠ ،
الاغانبي ، ج ١٧ ، ص ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ (الهيئة) المبرد ، الكامل ، ج ١ / ٢٨٩ - ٢٩١ ،
مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .

(٧٦) ديوان خالد بن يزيد ، المكتبة الطاهرية ، دمشق ، ٧١١٤ لوحة ١١ وانظر انساب الاشراف ،
ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٩ .

(٧٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ ، ٤٢١ .

- (٧٨) عيون الاخبار ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، المعارف ٥٥٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٤١ - ٢٤٢ ،
الاول ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، السيوطي ، تاريخ ، ص ٢١٨ ، القرظي ، تقي الدين احمد بن علي ،
اغانة الامة بكشف القمعة نشرة محمد مصطفى زيادة وزميله ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٣ .
- (٧٩) عن علاقته مع الحجاج ، انظر : البرد ، ج ١ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، المقد الفريد ج ٧ ص ١١٤ - ١١٥ ،
الافغاني (الهيئة) ج ١٧ ، ص ٣٤٤ ، انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٧ ، البداية والنهاية
ج ٩ ص ٨٠ .
- (٨٠) انساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٧١ ، الافغاني ، ج ١٧ ، ص ٣٤٥ ، (الهيئة) المقد الفريد
ج ٢ ، ص ٩٤ ، مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .
- (٨١) التميمي ، ابي محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم محمد بن ادريس . الجرح والتعديل ، دائرة المعارف
حيدر اباد الدكن . مجلد ١ قسم ٢ ، ص ٣٥٧ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .
- (٨٢) سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ،
ص ١٢٨ - ١٢٩ .
- (٨٣) المتري ، جمال الدين . تحفة الاشراف لمعرفة الاطراف مع النكت الطراف على الاطراف ، تعليقات
الحافظ ابن حجر العسقلاني تصحيح عبد الصمد شرف الدين ، وزارة المعارف ، حيدر اباد ، بمباي
١٢٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ج ٣ ، ص ١٢١ ، الحاكم النيسابوري ، ابو عبد الله محمد بن عبدالله
المستدرک على الصحيحين في الحديث الرياض ، مكتبة ومطابع النصر (ل. ت) ، ج ٣ ، ص ١٣١ ،
سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . معجم الادباء
ج ١١ ، ص ٣٦ .
- (٨٤) صحيح البخاري ، دار احياء التراث العربي (ل. ت) ، ج ٣ ، ص ٦١ وقد اسند عكرمة عن ابن
عمرو وابن عباس وابي سعيد وابي هريرة والحسين بن علي وعائشة وآخرين . انظر ابن
الجوزي صفة الصفوة ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ط ٣ ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
- (٨٥) انظر : صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٣ ، الجرح والتعديل ، م ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٧ ، تحفة
الاشراف ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، المستدرک ج ٣ ، ص ١٣١ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ -
١٢٩ ، ابن زركة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، سير اعلام النبلاء ،
ج ٤ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .
- (٨٦) سند الامام احمد بن حنبل ، ط ٢٥٨ ، نسخة مصورة عن طبعة بوالاق ، تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ،
ص ١١٧ .
- (٨٧) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٦ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ .
- (٨٨) سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ - ٣٧ ، البداية والنهاية ،
ج ٩ ، ص ٨٠ .
- (٨٩) الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٣ ، المعارف ، ٣٥٢ ، ابن زركة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ، سير
اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

- (٩٠) معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٣٩ .
- (٩١) ديوان خالد ، لوحة ٥ ، وانظر تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ ، ١٢٠ ، نذو ، الحياة العلمية ، ص ١٨٠ .
- (٩٢) الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، الطبعة ٢ (د.ت) ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٩٣) ديوان خالد ، لوحة ١ .
- (٩٤) انظر : الواقدي ، محمد بن عمر : المغازي ، تصح مارسلن جونز ، جامعة اكسفورد ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، القسم الثالث ص ٨٥ - ٨٦ ، سير اعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .
- (٩٥) انظر الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، الافاني ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، ج ١٧ ، ص ٣٤٤ ، سير اعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .
- (٩٦) الفهرست ، ص ١٥١ .
- (٩٧) أنساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٦ وما بعدها ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٢ ، المعارف ، ص ٣٥٢ ، الجاحظ ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر ، البيان والتبيين تصح عبد السلام هارون ، ط ٤ ، بيروت (د.ت) ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، الافاني ج ١٧ ، ص ٣٥ ، الاوائل ، ص ٢٠٥ ، تهذيب لابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١٢٠ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ وما بعدها ، ابن القفطي ، محمد بن علي بن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١١٩ المراقي ، أبي القاسم ، محمد بن أحمد ، العلم المكتسب في زراعة الذهب ، باريس ١٩٢٢ ، ص ٣٣ وما بعدها .
- (٩٨) ديوان خالد لوحة (٢) .
- (٩٩) الوصية ، ص ٧٧ .
- (١٠٠) الفهرست ، ٣٤٠ ، ٣٩٨ .
- (١٠١) انظر : الافاني (الهيئة) ج ٢ ، ص ٩٨ ، المناقب الزيدية ، لوحة ١٢١ - ١٢٢ ، الاسكافي ، محمد بن عبد الله ، لطف التعبير ، تصح أحمد عبد الباقي دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١١٠ آل علي ، نور الدين ، التعريب وأثره في الثقافتين العربية والفارسية مع ترجمة كتاب المصريات الرشيدية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٥٨ .
- (١٠٢) المعارف ، ص ٦٠ ، ابن سميد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تصح د. نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ، ١٩٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥١٣ .
- (١٠٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ (دار الكتاب العربي بيروت) .
- (١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق عبد الله بن عمران - عبد الله بن قيس ، مصورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٨٧ .

- (١٠٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٩ .
- (١٠٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٨ .
- (١٠٧) انظر : ابن سدد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ، ص ٧٧٧ ، ابن عساكر ، عبد الله بن عمران ، عبد الله بن قيس . ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص ، ص ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ .
- (١٠٨) اوليري ، علوم اليونان ، ص ١١١ ، ١٩٢ - ١٩٣ ، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، لكبير المستشرقين ترجمها عن الالمانية والايطالية عبد الرحمن بدوي ، الكويت وبيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .
- (١٠٩) العوميلي ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، التراث اليوناني ، ص ٥٥ .
- (١١٠) التراث اليوناني ، ص ٥٤ .
- (١١١) التراث اليوناني ، ص ٥٥ ، وانظر اوليري ، علوم اليونان ، ص ٦٨ - ٦٩ .
- (١١٢) علوم اليونان ، ص ٣ ، ٢١١١ .
- (١١٣) كوينتش باول . حركة الترجمة الى العربية ومن العربية وأهميتها في تاريخ الفكر ، مجلة آفاق عربية ، بغداد السنة السابعة كانون الثاني ١٩٨١ ، ص ٢٨ - ٢٩ .
- (١١٤) سزكين ، فؤاد ، محاضرات في تاريخ العلوم ، الرياض ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ص ١٣ ، وفارن : فروخ عمر . تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١١١ ، وما بعدها .
- (١١٥) ابيض ، ص ٩٤ ، نقلا عن أمين أحمد : فجر الاسلام ، النهضة المصرية ط ٧ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٢ ، وانظر ابن عساكر ، ج ٢ ، ق ٥٥ ، ترجمة انهم بن محرز ، ج ٢ ، ق ١١١ ، ترجمة أبياس ابن معاوية ، واوليري ، علوم اليونان ، ١٩٢ - ١٩٣ .
- (١١٦) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ١٧٣ .
- (١١٧) ابن الزبير القاضي رشيد ، (ت في القرن الخامس للهجرة) تع محمد حميد الله ، سلسلة التراث العربي ، الكويت ١٩٥٩ ، ص ١٠ .
- (١١٨) الفهرست ، ٣٣٨ ، ٤٩٧ ، وانظر عبد الرحمن ، حكمت نجيب ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ ، ص ٢٤٣ و :
- Hell, Joseph. The Arab civilization, cambridge 1926 Translated from Germany by Kuda Bukush Lon don, 1952, p. 60.
- E.J. Holmyard; Alchemy, Pelican Book lsted 1957 P. 61 - 64. (١١٩)
- وانظر الطام العرب في الكيمياء ، ص ٣٣ .

(١٢٠) انظر ، ابيض ، ص ٦٣ ، نقلا عن :

Youssef Eche p. 11-12.

(١٢١) انظر : صاعد ، ابي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم ، نشره الاب لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٨ ، ابن ججل ، ص ٥٩ - ٦٠ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، الدوميلي ص ١٢٥ .

Montogemry, Islamic Survey I. Edinburgh 1964, P. 41. (١٢٢)

وانظر دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٦ ، كرد علي ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(١٢٣) الجاحظ ، ابي عثمان بن بحر : الحيوان ، تج عبد السلام هارون ، الحلبي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٢٥٦ هـ / ١٩٣٨ م ، ج ٧ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٢٤) باول ، حركة الترجمة ، ص ٣٠ .

(١٢٥) انظر : الدوميلي ، ص ٢٦٠ ، سيزكين ، ص ١٣ ، نقلا عن :

Julius, Arabische Alchemisten chahid Ibn Iazid Ibn Muawiya, Heidelberg, (١٢٦) 1942, P. 5-6.

(١٢٧) الخوارزمي ، ابي عبد الله محمد بن احمد بن يوسف : مفاتيح العلوم دار الكتب العلمية ، بيروت (د. ت .) يقول الكيمياء ، كلمة عربية مشتقة من كمي يكمي اذا ستر وخفي ويقال كمن الشهادة يكميها اذا كتمها ، انظر : ص ١١٤٦ .

Histoire de la Medecine Arabe 1.p. 62. (١٢٨)

وانظر حاشية ابن ججل ، ص ٦٠ ، وابن ابي اصيبعة ، ص ١٧١ .

(١٢٩) حاجي خليفة ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

(١٣٠) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، وانظر ديوان خالد ص ٢ - ٣ .

Alchemy p. 61-64. (١٣١) وانظر اعلام العرب والكيمياء ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٣٢) ديوان خالد ، ص ١ - ٢ .

(١٣٣) مجلة الهلال ، العدد الرابع ، السنة ٣٦ ، ١٩٢٨ ، ص ٤٨٤ .

(١٣٤) انظر : معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(١٣٥) الفهرست ، ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(١٣٦) كشف القنون ، ج ٢ ، ص ١٥٣٣ ، اول الديوان في المكتبة الظاهرية : الحمد لله بحمد نعمه وبتوقيقه نمبده الذي من علينا .

(١٣٧) غاية السرور في شرح ديوان الشنور (مخطوط واشنطن) لوحة ٢٥٥ ، وانظر مجلة معهد المخطوطات العربية / الكويت ، ج ٢٦ م ، ج ٢ ، ١٩٨٢ ، ٥٥٥ . دراسة تحليلية في ديوان خالد بن يزيد في الكيمياء ، فاضل خليل ابراهيم .

(١٣٨) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٥ - ٣٦ ، وورد عند البغدادي ، اسماعيل باشا : هدية الموفين ، نسخة مصورة بالاوغست عن نسخة استانبول ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ ، « السر البديع في رمز المنيع في علم الكاف » .
وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(١٣٩) يذكر د . فاضل احمد الطائي ، اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ : أغلب الظن ان كتاب الرحمة لجابر بن حيان ، وقد اوردته مصادر عديدة .

(١٤٠) انظر هدية الموفين ، ج ١ ، ص ٢٤٣ ، اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(١٤١) فاضل خليل ، مجلة معهد المخطوطات ، ص ٥٥٥ نقلا عن مخطوطة بيروت ، لوحة ١ ، هذا وقد قام السيد فاضل خليل ابراهيم من جامعة الموصل في احصاء نسخ الديوان ، وهي :
- مكتبة المتحف العراقي رقم ٢١٢٣ بعنوان ديوان خالد بن يزيد في الصنعة ومنها نسخة دار الكتب المصرية .

- منظومة في الكيمياء ، المكتبة الوطنية بباريس ، رقم ٦٢٨١ .
- المكتبة الشرقية - بيروت ، رقم ٢٥٥ بعنوان « فردوس الحكمة » .
- المكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ٧٦١٤ بعنوان : « هذا كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ابن ابي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانوس من الاسئلة » .
- مكتبة اصافيا ، حيدر آباد الدكن - الهند ، بعنوان « المنتخب من ديوان خالد » .
- خزانة د . حسين علي محفوظ . الكلاطمية ، بغداد رقم ٢٥١ بعنوان « المختار من فردوس الحكمة / ديوان خالد » .

- مكتبة كوبرولو ، استانبول تركيا رقم ٩٢٤ بعنوان « ديوان النجوم » .
- مكتبة لاله لي . استانبول ، تركيا ، رقم ١٦١٣ ، بعنوان « اختيارات خالد الحكيم في الحكمة » .
- مكتبة بغدادلي وهبي ، استانبول تركيا ، رقم ٢٢٥٤ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة جابر الله ولي الدين استانبول تركيا ، رقم ١٦٤١ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة اصغر مهداوي طهران / ايران ، رقم ٣٣٩ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة الولاية (٢١) رامبور - الهند رقم ١٦ ، بعنوان « كيمياء » .
- دار الكتب المصرية - القاهرة ، مجموع من رقم ٢١٦ - ٢١٧ مقصورة في الصنعة الالهية .
وانظر اشعار خالد في المكتسب لزراعة الذهب .

(١٤٢) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٨ وانظر اميخ ، ص ١٠٦ .

(١٤٣) التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

- (١٤٤) طبقات الامم ، ص ٤٨ .
- (١٤٥) وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢ ترجمة رقم ٢٠١ .
- (١٤٦) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣٠ ، نقلا عن الذهبي ، تاريخ الاسلام ج ٢ ، ص ١٤٨ .
- (١٤٧) انظر الديوان ، ص ١٠ - ١١ .
- (١٤٨) انظر : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، انساب الاشراف ، ج ٤ ، ص ٢ ، الترايب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، نقلا عن السيوطي في « اوالله » .
- (١٤٩) طبقات الامم ، ص ٦٠ .
- (١٥٠) كان من اهل المعرفة والعلم والخبرة بعمل الاضطراب والحركات .
- (١٥١) مختصر التوزني بالمنتخبات الملتقطات ، من كتاب اخبار الحكماء للقفطي ، الثبني بفداد والخانجي مصر عن نسخة ليبزغ ١٩٠٣ ، ص ٤٤٠ .
- (١٥٢) الفهرست ، ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .
- (١٥٣) الكامل في التاريخ (دار صادر) ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .
- (١٥٤) المقامة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) ، ص ٥٠٥ .
- (١٥٥) تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٤٢ .
- (١٥٦) اعلام العرب في العلوم والفنون ، النجف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ج ١ ، ص ٤٣ .
- (١٥٧) Arabische P. 29-30, 50-51.
- (١٥٨) العلم واثره ، ص ٩٩ ، ٥٥٤ .
- (١٥٩) الفهرست ٤٩٧ - ٤٩٨ .
- (١٦٠) تهذيب ابن عساکر ، ج ٥ ، ص ١١٧ .
- (١٦١) الفهرست ، ص ١٦٠ .
- (١٦٢) انظر : الفهرست ، ص ٤٩٧ ، الاغانى ، ج ١٧ ، ص ٢٤١ ، نسب هريش ، ص ١٢٩ البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، الاخبار الطوال ، ص ٢٠٦ ، المعارف ، ص ٢٥٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ . طبقات الامم ، ص ٤٨ ، ٦٠ ، تهذيب ابن عساکر ، ج ٥ ، ص ١١٧ وما بعدها .

- (١٦٣) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٤٤.
- (١٦٤) المقدمة ، ص ٥٠٤ ، وانظر عن الرموز أيضا : الديوان لوحة ١ ، ص ٥ ، زراعة الذهب ، ص ٤٨ وما بعدها .
- (١٦٥) Alchemy, p. 61-64. وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٤ ، ومجلة معهد الدراسات
ص ٥٥٧ ، من راي هوليارد في اشعار خالد في كتابه Makers of Chemistry, p. 44
- (١٦٦) اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٢ .
- (١٦٧) ن.م ، ص ٢٦ . Holmyard, p. 61-64
- (١٦٨) الوصية ، ص ٧٧ .
- (١٦٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٢ ، وانظر ديوان خالد ، لوحة (٢) .



الدَّعْوَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ

دراسة في الهوية من خلال المصادر الجديدة والدراسات المتضاربة

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

احتدم نقاش طويل ، بين الباحثين المحدثين ، ومن خلال دراسات علمية جادة ، كان بينها رسائل قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعات كبرى (١) حول موضوع هوية الثورة العباسية ، التي أدت الى سقوط خلافة بني امية ، وقيام خلافة بني العباس . وكان ما قاله (دانييل دينيت) في رسالته عن (مروان بن محمد) من ان: نقطة الجدل في اطروحاته هي ان سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان ، بل نتيجة ثورة في سورية (٢) ، المؤشر الاول الى موقف مخالف للمواقف التقليدية من الدعوة العباسية . فقد كان التفسير التقليدي ، وهو الغالب ، ان الدعوة العباسية التي انتهت بفوز عسكري لؤيدي ودعاة بني العباس ، هي ثورة انقلابية نقلت السلطان في الدولة من اسرة عربية قرشية مسلمة الى اسرة اخرى لها نفس المواصفات ، وانها تحقيق لمسمى آل البيت الطويل للوصول الى ارثهم أو حتهم في الخلافة باعتبارهم اقرب الناس نسبا الى الرسول ، الامر الذي كانوا يتنازعونه مع آل علي بن ابي طالب (الشيعة) الذين سبقوا سواهم من القرشيين في المطالبة بهذا الحق .

والى جانب هذا التفسير التقليدي كان هناك ، قبل اشارة (دينيت) ، ما يمكن تسميته بالتفسير (العنصري) او (القومي) الذي يمثله مستشرقون رواد ، من امثال (فان فلوتن) و (فلهاوزن) وسواهما ، الذين رأوا في الدعوة العباسية وانتصارها ثورة قومية ايرانية توجهت ضد الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والاضطهاد السياسي ، الذي كانت تعاني منه فئة الموالي التي كانت غالبيتها من الفرس ، والتي تمثل الجمهور الاعظم من رعايا الدولة الاسلامية . وقد رأى المستشرق فان فلوتن ، الذي تأثر بالافكار القومية التي كانت تسود اوروبا في القرن التاسع عشر ان الازمة التي شهدتها الدولة الاسلامية في نهاية الحكم الاموي ، والتي انتهت بفوز بني العباس ، ازمة صراع على السلطة بين الاقلية العربية الحاكمة في الدولة ، والغالبية غير العربية من الرعايا غير العرب ، وعلى انحياز اهل خراسان الى الدعوة العباسية وتأييدهم لها باسباب من بينها (٣) :

- ١ - كره الجماهير الفارسية لحكامها العرب .
 - ٢ - ميل غالبية الموالي الى آل البيت ومساندتهم للثورات الشيعية .
 - ٣ - الاخطاء التي ارتكبها الحكام العرب وجورهم في معاملة رعاياهم من غير العرب ، مما ادى الى انبعاث الروح القومية الايرانية التي غدت المظلة التي يستظل بها المحرومون من ابناء الشعب الايراني والذين شغلتهم فكرة المهدي المنتظر . **Messiah**
- وجاء فلهاوزن بعد ذلك فايد آراء فان فلوتن وانطلق منها في عرض ارائه التي ضمنها كتابه (الدولة العربية وسقوطها) (Das Arabisch Reich und Seinsturz)
- وعلى الرغم من أن فلهاوزن كان أول من تنبه الى دور عرب خراسان في الثورة العباسية ، الا انه عزا تحركهم الى دوافع عصبية فحسب ، تتمثل في النزاعات القبلية التي تعود جذورها الى ما قبل الاسلام ، وسها عن الظروف الجديدة التي نجمت بعد استقرار القبائل الفاتحة في الامصار المفتوحة وارتباط مصالحها بأوضاع العصر الاقتصادية والاجتماعية .
- ولم يكن الحاح جماعة التفسير العنصري أو القومي على دور العناصر الفارسية فحسب ، بل شمل هذا التفسير عناصر قومية اخرى ، كعنصر الترك الذين كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر والذين لعبوا دورا بارزا في انجاح الثورة العباسية ضد الامويين ، حتى ان بعضهم اعتبر أبا مسلم الخراساني من أصل تركي، وانه استطاع في وقت قصير ان يكسب الى صفه اترك بلاد ما وراء النهر(٤) .
- وجاء بعد هؤلاء الباحثين باحثون جدد ، لعل اولهم واشهرهم هو المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب ، ومن بعده برنارد لويس ، اللذان نبها الى دور فعال للعرب في الثورة العباسية .
- وكانت اشارة جب المشهورة في كتابه « الفتوح العربية في آسية الوسطى » والتي يقول فيها ان الروايات التي تظهر حماس الايرانيين لابي مسلم الخراساني صحيحة فقط في الفترة التي تلت نجاحه ، اذ ليس هناك اي دليل في رواياتنا التاريخية الموثوقة على حركة جماهير ايرانية كما يصورها بعض المؤرخين(٥) ، نقول : كانت اشارة جب هذه اول تنبيه يصدر عن باحث جاد الى اهمية دور العرب الفعال في الثورة العباسية . وفي العديد من البحوث والكتب ، اشار المستشرق جب الى اهمية دور العرب اليمانية في نجاح الدعوة ، واكد على عدم عنصرية الثورة ، ونقسي

وجود حركة جماهيرية إيرانية يرأسها أبو مسلم الخراساني تهدف الى اقامة حكم تكون الكلمة فيه للعنصر الفارسي . وجاء برنارد لويس بعد جب ليؤكد دور العرب القاطنين في خراسان في نجاح ثورة بني العباس (٦). وكانت اشارات هذين المستشرقين على بساطتها وعدم عمقها ، مؤشرا لاتجاه جديد في دراسة هذا الموضوع .

وقد ساعد على نماء هذا الاتجاه والانحراف عن الخط التقليدي أو القومي اللذين اشرنا اليهما ، توفر مصادر مخطوطة لم يتح للباحثين السابقين ان يستخدموها ومن بين هذه المصادر مخطوطة « أخبار العباس وولده (٧) » وهي مؤلف مجهول يرى الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ساهم في نشرها وكتب مقدمة لها ، بأنه من مؤرخي اواسط القرن الثالث الهجري ، وانه قد يكون محمد بن صالح بن مهران المعروف بابن النطاح المتوفى عام ٢٥٢هـ / ٨٦٨م (٨). ويذكر الدكتور الدوري في مقدمته ان مؤلف الكتاب « اعطى صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها وكشف عن جذور القلو فيها مما لا يناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم ، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الى الوثيقة السرية منها الى كتاب للجمهور » (٩). واهمية هذا المؤلف انه انفرد بمعلومات عن بداية الدعوة (حتى سنة ١٠٠ هـ) وبعض احداثها واسرارها مما لا نجده عند سواه من جهة ، ولربما كان استقائه من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة ورؤسائها والدعاة البارزين فيها . وعند الدوري ان ما جاء في الكتاب من اخبار عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم تعتمد على هذه المصادر وعلى اناس متطينين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي ، وبعض افراد الاسرة العباسية نفسها مثل عيسى بن عبد الله « عيسى بن موسى » وابراهيم بن المهدي والرشيد نفسه (١٠). وتكمن أهمية المعلومات الواردة في هذا المصدر الجديد في أننا نتعرف من خلالها على الاساليب التي تبنتها الدعوة لجذب رؤساء العشائر العربية في خراسان والعرب المستقرين في واحات مرو وقراها (١١) .

أما المصدر الثاني الذي جاءت فيه معلومات لم تكن معروفة للباحثين السابقين ، فهو كتاب « تاريخ الخلفاء » مؤلف مجهول من القرن الحادي عشر ، وقد نشرت مصورة عن هذا المخطوط الوحيد وقدم لها بطرس غريازنيويج ، الاستاذ في معهد الاستشراق في موسكو ، وذلك في موسكو سنة ١٩٦٧ . ويذكر ناشر المصورة في ملخص بالانكليزية ملحق بها ان المادة الموجودة بالكتاب تعتمد في اصولها على مصادر سابقة ثلاثة هي : تجارب الامم لابن مسكويه ، وكتاب المغارف لابن قتيبة ، ومخطوطة تاريخ الخلفاء مؤلف مجهول التي كان الدكتور الدوري قد عثر عليها عام ١٩٥٧ (ونشرها عام ١٩٧١ كما اشرنا في الهامش ٧) . ويذكر كاتب

الملخص هذا ان التشابه بين ما جاء في « تاريخ الخلفاء » ومخطوطة « اخبار العباس وولده » كبير جدا ولا سيما في احداث الدعوة وظروف وصول الخلفاء العباسيين الى السلطة ، حتى ان مؤلف تاريخ الخلفاء يبدو وكأنه نقل نقلا حرفيا عن صاحب كتاب « اخبار العباس وولده (١٢) » .

وقد قمت شخصا ببعض المقارنات بين الكتابين فوجدت ان هذا الزعم صحيح وان المرء يميل الى الاعتقاد بنتيجة ذلك ان مؤلف « تاريخ الخلفاء » كان في كثير من المواضع يلخص المعلومات الواردة في كتاب « اخبار العباس وولده » وفي مواضع اخرى ينقلها نقلا حرفيا .

ونأتي الى المصدر الثالث الذي فات استعماله اصحاب الرايين الاولين وهو الجزء الذي يعني بانساب واخبار « العباس بن عبد المطلب وولده » من انساب الاشراف للبلاذري ، والذي نشره مؤخرا الدكتور عبد العزيز الدوري (١٣) . وفي هذا الجزء من الانساب ومن خلال الحديث عن شخصيات عباسية ، من امثال محمد بن علي بن عبد الله بن العباس واولاده كابراهيم وعبد الله وبعض الشخصيات التي شاركت في الثورة العباسية والدعوة لها كقحطبة وابي سلمة والسفياني وسواهم (١٤) يذكر البلاذري اخبارا لا تتوافر عند سواه من اصحاب المصادر المتداولة ، كما ينقل عن رواية ثقة من امثال المدائني وعمر بن شبة والهيثم بن عدي وسواهم ، فهو بهذا يكمل ما في مصادرنا من نواقص في الروايات لم تتوافر لهم .

والمصدر الجديد الرابع الذي لم يقع للباحثين الاولين في موضوع الدعوة العباسية هو كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي الذي نشر في حيدر آباد عام ١٩٧٥ . وابن الاعثم مؤرخ عربي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي في العام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م ، وكتابه « الفتوح » لم يكن معروفا للباحثين ولم يفد منه الا باحثون محدثون على الرغم من اهمية المادة العلمية المتوافرة فيه . ويعتمد ابن الاعثم في ذكر اخباره اسلوب الاسناد الجمعي كاليقوبي فيذكر في مقدمة كتابه اسماء الرواة الذين اخذ عنهم اخباره . وتنبع اهميته من انه عاش في فترة مبكرة وانه كان من المصادر التي اعتمدها من تلاه من المؤرخين . وطبيعي انه بعد ان انتهى من ذكر الاحداث التي انتهت بسقوط خلافة بني امية لم يعد كتابه كتابا في الفتوح ، بل غدا من كتب التاريخ العام ، واستخدم اسانيد جديدة لاخباره واعتمد رواية من امثال المدائني والبلاذري والهيثم بن عدي ، مما يجعل القارئ يشعر وكأن هذا الجزء من الكتاب كتاب جديد لا علاقة له بالقسم الاول الذي كان طابع الفتح واخباره هو الغالب عليه ، حتى انه يعتبر ظهور المسودة في خراسان وزوال بني امية بداية مرحلة جديدة

في التاريخ الاسلامي ، انتهى فيها عهد غلبت عليه الفتوح ، وبدأ عهد طبعته السياسة بطابعها ، وابن الاعثم علوي متشيع يعتبر الثورة العباسية من صنع اناس كانوا يعملون لصالح آل البيت وينقم على بني العباس استلابهم لهذه الثورة ، فيظهر السنوات الاولى من حكمهم وكأنها فترة مجازر هدفت للثأر من الامويين لآل البيت معوما . والمدائني غير دقيق في نقل اخبار هذه الفترة فهو انتقائي في سرده للروايات يسقط ما يريد ويحتفظ بما يناسب ميوله . وايا كان فان في كتابه من المعلومات ما يزيد في زاد الباحث ومعلوماته ، ولكن لابد من الحذر في استعمال هذه المعلومات والتدقيق بما يؤخذ عنه من اخبار .

ويوصلنا ذلك الى الحديث عن كتاب تاريخ الموصل للازدي (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) ، والذي طبع مؤخرا في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي يعتبر من البواكير الاولى في التأليف التي نسميها « بالتواريخ المحلية » . ومعلوم ان هذا النوع من التواريخ ظهر متأخرا عن سواه من انواع التأليف التاريخي ، وغدا بعد ذلك من الميادين الشائعة التي طرقها المؤرخون المتأخرون (الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة وسواها) وميزة هذا النوع من التواريخ انه يولي البلد الذي يتحدث عنه اهتماما خاصا من خلال اهتمامه باحداث التاريخ العام . والازدي في « تاريخ الموصل » قصد ان يضع سجلا يبحث في طبقات المحدثين الذين اشتهروا ، وكانوا من اهل الموصل او زاروها او اقاموا فيها (على نمط ابن عساكر في تاريخ دمشق) وقد فقد الجزء الاول من الكتاب ، وبقي الجزء الثاني الذي يبدأ باحداث العام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . وفي هذا الجزء نجد المؤلف يحرص على ذكر الاحداث التي كان لمدينة الموصل اثر هام فيها .

ورغم ان الكتاب من كتب « التاريخ المحلي » فان مؤلفه حرص على الا يفوته ذكر الاحداث الجسام التي حدثت خارج الموصل ، ولا سيما في منطقة الجزيرة وسواها من اقاليم الدولة الاسلامية . وقد اعتمد الازدي في جمع معلوماته وسردها طريقة المحدثين ، فاعطى لكل رواية سندها . وكان بين رواياته ثقة من امثال : المدائني وابي معشر ، والهيثم بن عدي وسواهم . وعلى الرغم من ان الازدي يظهر في كتابه ميلا للعلويين الا ان صفة العدالة والضبط تظل غالبية على الكتاب حتى انه يقول في مقدمة بحثه انه « لم يعدل عن الصدق » . ومن تفحص المادة الموجودة في الجزء الذي نشر مؤخرا ، والذي يبدأ بالعام ١٠١ هـ كما اسلفنا ، نجد ان المؤلف قدم لنا معلومات هامة عن الفترة المتأخرة من حياة الدولة الاموية التي كانت خلالها دعوة بني العباس ناشطة . وتوضح الاخبار الواردة عند هذا المؤلف ان العنصر

العربي لعب دورا نشيطا في تأييد الثورة العباسية وانه ساهم مساهمة فعالة في القوة العباسية الضاربة التي حققت النصر لهذه الثورة . كما اننا نقرأ عنده ما يظهر الدور الذي لعبته الكتل القبلية العربية وشيوخها في دعم الثورة وايصالها الى جسم الصراع مع الامويين لصالحها ، ويشير الى دور العرب اليمانية ومن كان منهم بين طبقة النقباء في سلم الدعاة العباسيين ، ويؤكد اعتماد الثورة على العنصر اليماني ومعرفته حقه ، هذا فضلا عن الدور الذي كان للموصل في احداث هذه الفترة ، وذكر اسماء اشرافها الذين قتلوا في تلك الاحداث (١٥) . وقد نقل عن الازدي بعض المؤرخين المتأخرين ولا سيما ابن الاثير ، دون ذكر اسمه ، وقد كشفنا ذلك بعد ان قضي لمخطوطة تاريخ الموصل ان ترى النور .

هذا وهناك مصادر اخرى اقل اهمية من هذه التي ذكرنا ولكنها مازالت تنتظر يد المحقق الامين ، ولعل اهمها مخطوطة كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م) والتي عاش صاحبها زمن المأمون والمعتصم ، ولكنها اقل اهمية من سابقتها على ما يبدو ، لان صاحبها كان يهتم بجمع الاحاديث التي يزعم ان رسول الله كان قد تنبأ بها بفتن ستحدث (١٦) .

ان توافر هذه المخطوطات للباحثين ، وحتى قبل ان تحقق وتنشر ، كان نقطة البدء في الانعطاف الذي رأينا تباشيره عند جب ولويس والدوري ، وسواهم من الباحثين المحدثين ، الذين لبوا دعوة دانييل دينيت الى اعادة النظر في موقف الباحثين الاول ، من امثال فلهاوزن وفان فلوطن وسواهما ، وضرورة النظر بعين الاعتبار الى الدور الذي لعبه المقاتلة الخراسانية العرب وقبائل الازد وربيعة في اصال الثورة العباسية الى النصر .

وجاء بعد ذلك باحثون عرب من بينهم محمد عبد الحفي شعبان الذي ذكر في اطروحة دكتوراه قدمها لجامعة هارفرد الامريكية بعنوان : « الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية » ان هدف الثورة العباسية كان « دمج كل المسلمين العرب وغير العرب في الامبراطورية في مجتمع اسلامي واحد لكل فرد من ابنائه حقوق متساوية » (١٧) . وعلى الرغم مما في هذا الافتراض من مقولة قد تكون مقبولة في الظاهر الا ان ما حدث بعد وصول العباسيين الى السلطة ، يثبت ان ذلك لم يتحقق ابدا ، كما سنرى فيما بعد . وجاء بعد شعبان الدكتور فاروق عمر ليعطن « اننا يجب ان نبحث عن اسباب للثورة العباسية في ظواهر اخرى غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب ، او التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسه السلطة الاموية تجاه الموالي ، فقد اهل المؤرخون المحدثون سياسة الامويين الادارية والمالية في خراسان ، وردود

الفعل لدى اهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة « (١٨) . وفي موضع آخر يؤكد الدكتور عمر بأن « ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والسلطة المركزية الاموية في دمشق ، اثرت في ايجاد الجو المناسب للثورة دون شك » (١٩) ، وينبه بعد ذلك الى انه يجب عدم اهمال دور المقاتلة من العرب الذين كانوا يتدمرون بسبب سياسة التجمير (التجميد) ، ولان الوالي الاموي كان يسلبهم فيثهم وغذاءهم في بعض الاحيان ، هذا فضلا عن النزاع المستمر بين شيوخ القبائل العربية في خراسان بسبب طموحهم للحصول على ولاية خراسان وما ادى اليه ذلك من اشمزاز هذه القبائل ، وشعورها بأن لها في الثورة العباسية املا بحياة اكثر استقرارا ورفاهية (٢٠) كما انه يركز على دور العرب الفعال في نجاح الثورة العباسية ، هذا الامر الذي اهمله الباحثون السابقون .

بعد هذا العرض السريع للاراء المختلفة حول هوية الثورة العباسية والعوامل التي ساهمت في صنعها وانجاحها ، والدور الذي لعبه ظهور مصادر جديدة في تفسير مواقف الباحثين ، نقول ان هذا النقاش بين الباحثين والالاحاح على موضوع هوية هذه الثورة ومدى عروبتها او عجمتها قد انتهى لصالح الفريق القائل باصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر رأي العديد منهم على انها قامت على اكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . هذا بالاضافة الى عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس ابن ابي طالب عم الرسول ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، واهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب اقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتألف قبائلهم من ورائهم ، حتى ان بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر ان الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها ببعض الاخر لتتكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعه، وقد نجح في ذلك (٢١) . اما كتلة الموالي فلم تكن ذات هوية عرقية معينة، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفا مثل الجاحظ يميز بين (الموالي و (العجم) من جهة ، وبين (العرب) و (العجم) من جهة اخرى . فولاء (الموالي) كان خالصا للدولة ، لا لجنس معين وهذا يعني كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « ان التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجا من عربي الى اممي ، اي ان الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للاستقرابية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة : الاسلام » (٢٢) .

ومعلوم ان الثورة العباسية التي اسقطت حكم بني أمية وتقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيبا من جميع افراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم ، كان آخرون يرون في قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكا عضوا كسرويا (٢٣) .

واذا أضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع أبو بكر الصديق أن يقممها بحزمه وإخلاصه وإيمانه الذي لا يتزعزع بوجوب استمرار الدولة المسلمة الموحدة الاولى التي اقام الرسول دعائمها في المدينة ، ان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت ان تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى ، واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت أن تنشر السيادة العربية وان توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد أن اكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف اصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقف هذا المد العربي وتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة أممية تزداد فيها أهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء (أمهات ولد) .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بأنه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان أموية عربية ، ويشني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها » (٢٤) ، ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاضد اهتمام أصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضائل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء افراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربعها مكان الصدارة في السياسة والمجتمع . ووضع كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قامت بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعبية والزندقة .

ورغم انه لا يدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا انه لابد لنا ان نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعني ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة اكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعبوية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة اخرى . فالشعبوية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية اخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي . وما لبثت ان بدأت حركات مريية ، كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني ، وسواها ، تطل براسها لتعمل في الجسد العربي نخرا وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها فسي مهدها ، الا انها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثارا اقلها انفصال اقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيرا ما كانت تحجبها عنه . وقد وضع هذا الصراع اكثر ما وضع في العراق ، قلب الدولة العباسية والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحا لصراع مماثل بين العروبة والصحمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبات من قوى عرقية وبما استقطبت من نغمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على ان هذا لا يعني ان المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لان انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من أسر اغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من أحقاد ، كان أقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف أن السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الاخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي أقوى وأعمق أثرا من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس اتبع له ان يتفجر في لحظة ضعف فظفي ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهه .

وهنا لابد لنا أن نشير الى أن هذا الصراع المريب بين العرب وغير العرب لم يكن شرا كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « امة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطا طويلا تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان اول مظاهر هذا الوعي التأكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية ، فقد استطاعت العربية أن تصمد وان تحفظ وجهها عربيا للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الانسرف في شرح ابعاد واثار هذه الظاهرة ، ولكن لابد من التنويه بان كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهما في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس ، التي بدأت حياتها وهي تلوح عاليا بهويتها العربية معتزة بها ، وبالدعم العربي الذي أوصلها الى سحق بني أمية والتربع على كرسي السلطان ، بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية السوداء ، وما اخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد امد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟ وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الراي القديم الذي يقول بعجمة الثورة وانصار الراي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع اصحاب الراي القائل بعجمة الثورة ان يستغلوا الاخبار التي نجدها في مصادرنا حول تدمير العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الاول كدليل على صحة نظريتهم . وفساد رأي القائلين بان العرب عموما ، وعرب المشرق خصوصا ، هم الذين اوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لا بد لنا من ان نتذكر الامور التالية :

اولا : ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي ان نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب اخبار الدولة العباسية (٢٥) ، باسماء النقباء ونظراء

النقباء والدعاة حتى يتبين لنا ان القائمين على الثورة كانوا عربا وغير عرب وان الذي يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني امية وايصال بني العباس الى الحكم ، وان الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحة مشتركة

ثانيا : كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو ان هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الاول من امثال سالم بن بجير (سالم الاعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي :

« ولما اجتمع محمد بن علي على توجيه ابي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا ان نستبدل بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد احببت ان استأذنك في شيء قد كنا راينا فخالفنا فيه بكثير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما احب ان تخالفوا بكيرا فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في امرنا هذا فرايناك قد حلت بين اهل الشام ، وراينا لاهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فراينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : اصاب بكير واخطاتم ابي الله ان يأتي بالشمس من المغرب ، واحب ان يأتي بها من المشرق ، وان اهل الشام اعوان الظالمين وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاحين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني امية ، واغرى اكثر اهل العراق بمشايعة بني ابي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم انصارنا واعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك ان تتبعهم ريح الحياة فتعز ذليلهم ، وتقوى ضعيفهم ، وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق واهله ، يقول الله عز وجل : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) فكانتم بالاودية قد سالت برجال خراسان اشد في طاعتنا من زبر الحديد ، أسماؤهم الكنى ، وانسابهم القرى ، يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، من غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير اهلها مجيب » (٢٦) .

ويتضح من هذا الحوار ان سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد بن علي وموضع ثقته استغرب موقف بكير بن ماهان من اهل دمشق ومحاولته ابعادهم عن الدعوة ، على الرغم من ان بكيرا كان من موالي بني مسلمية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من اهل الديوان قبل ان يفزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت (٢٧) . ومع ان سالما لا يطلب من محمد بن علي ان يشق بجميع اهل الشام وان يطلعهم على اسرار الدعوة ، وان يقتصر في ذلك على الثقة منهم الذين يطمع في اجابته ، ولكن محمدا يرفض وينعت اهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد ان الله قد خصهم (اي بني العباس) باهل خراسان ، وان رحمة الله ستعز ذليلهم وتقوى ضعيفهم ، وكان في ذلك اشارة الى فئة خاصة من اهل خراسان هي

فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما انه لا يمكن ان يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « اسماءهم الكنى » بانهم كانوا من العرب فقط ، لان زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكونون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى « بأبي هاشم » وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بابي اسحق ، وابو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . اما قوله بان « انسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا ان هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعل الشعور العصبي يتضاءل امام الآمال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي المنشود ، كما انه دليل على انصار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من اخلاط الامم اللذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي ادى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري في عروقهم .

ثالثا : ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بانه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني امية ان ينكر اثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط أولئك ، كما انه لابد ان نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني امية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب ايضا . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة او تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني امية ، لوجدنا ان النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك ، والتي ضمت العديد من رعايا الدولة ، عربا وغير عرب ، كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضا في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجددا ، لا سيما وان عوامل جديدة اخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجددا للفرض نفسه (٢٨) . فقد تبين لهؤلاء ان ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاطهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء واخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله ابو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويميدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي ابي مسلم وجماعته (٢٩) .

على ان الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دون مبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار امرها ان يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي اوصلتها للحكم ، واوجدت الوحشة بينها وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضداً قويا أمدوا بالدماء والمهج التي حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من أن نذكر ان القضية الاقتصادية والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس ادل على هذا من قول محمد بن علي في وصف اهل خراسان الذين اعتمدتهم عصب ثورته : « وما يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون » (٣٠) . فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحال والذين انضموا للثورة بأمل الخلاص لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على اقدامها ، حتى وضع لهم انها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا انهم سيتظللون افياءه اذا ما كتب النصر لبني العباس . ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد ان ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غدا تركيبا لا تجانس فيه تنقسمه المطامع القويّة والعرقية لتصل يد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهرا واضحا من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خلال فترات القوة ايام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد ادت هذه الظاهرة الجديدة الى توزيع اهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة او حركة اعتقدوا ان فيها تنفيسا عن كربهم او املا بنجاتهم ، حتى وصل الامر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احياء ما كان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفا دينيا او قوميا فحسب كما يحلو للبعض ان يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضا تعبيرا عن نقمة اجتماعية واقتصادية كانت تعالج بقوة وشراسة في نفوس هؤلاء المرتدين ، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفيّة لمبادئ المساواة والعدالة التي اطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعهد بعدالة لم تتحقق على يد الامويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيه، تفحص واع لبعض اخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ ايامها الاولى، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن ابي جعفر المنصور والتي تقدم مثلا واضحا على ما اصاب المحرومين من خيبة امل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه (٣١).

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بانها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل احداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب أعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين

يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل ابي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سباز ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل ابي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سباز الذي تزعم المصادر انه كان مجوسيا ومن اتباع ابي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري ، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لا نجد في مصادرنا اجابات عليها ولا مجال لبحثها هنا .

وتوضح هذه الصورة بإبعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة اخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور ، كحركة الراوندية الذين خرجوا زمن ابي جعفر المنصور ، وكانوا من أهل خراسان ، وعلى رأي ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل ابي مسلم جهروا بقولهم بتناسخ الارواح ، وزعموا ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك .

على ان هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك ان ما يقولون بالسنتهم ما هو الا تزيف لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم فحاولوا ان يأخذوا بظاهرة لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة مالبثت ان انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على ان حركة الراوندية تظل رمزا بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

- ١ - هويتها الخراسانية .
- ٢ - حقدها الدفين على العرب .
- ٣ - حربيها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ ، ان خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعه علي بن ابي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس لهم . وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي من ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصة للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها ، فيما كان يعرف باسم بلاد ما وراء النهر ، لوجدنا انه لم يكن يمر يوم دونما

انتفاضة في اقليم من الاقاليم او مدينة من المدن ، او دونما ثورة يحركها زعيم محلي ، وحتى ان القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة .

وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفا دائما ، وما تكاد تسد خرقا حتى تواجهه بخرق ادهى وامر . اذا اضفنا الى كل ذلك ان الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد اسلموا بعد ، او ان الكثير ممن اسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفا او مشوها لاختلاطه بالمقائد المحلية القديمة ، لوجدنا ان الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك الاصقاع ، كما ان اطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لا ينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم ، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان اهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي اعلنتها ثورة بني العباس على اسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية ، وفي الاطار العام لسياسة الدولة .

فقد سار العباسيون بعد ان غدوا اصحاب السلطان شوطا ابعد في التنكر لشعارات ثورتهم اذ انهم وجدوا ان اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي ، وان حقهم في ولاية امور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا ما لا يقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم احياء يرزقون ، احق بارتهم عن ابيهم .

كما ان ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الفلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود انفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة تقوم على اساس من حق عمومهم لرسول الله من جهة وثورتهم على « اهل الجور » اي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ، من جهة أخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو ان العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد ان انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وثيدة استمرت منذ عهد أبي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور .

واذا تركنا هذا المظهر الاول من مظاهر مخالفة العباسيين للاهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بالبيت من العلويين ، وانتقلنا الى امر آخر من الامور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني :

« أمرني الامام ان انزل في اهل اليمن ، واثألف ربيعة ، ولا أدع تصيبي من صالح مضر ، وأحذر أكثرهم من اتباع بني أمية ، وأجمع الي العجم » (٣٢) . وقوله « قد أمرنا الامام باختصاص اليمن » (٣٣) . هذا فضلا عن النقاش الطويل الذي أسلفنا الإشارة اليه حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه الباحثون المحدثون الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجها بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقرهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية ، لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولا كسبهم الى الدعوة العباسية » (٣٤) و « ان سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » كما يقول عبد الحي شعبان (٣٥) . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصبا على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوطن وسواه ، الذي يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية إيرانية ضد السيادة العربية في الدولة ، ومحاولة منهم لابرار دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، وأناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الاول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية ، بقيادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكما لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الاسرة ، كان طبيعيا ان تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الامر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة ليغدوا شعورا عاما ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت ان الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ، لتحل محلها ثورات يمانية على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف اكذبه جميع مصادرها . ورغم انه لا يدخل في نطاق هذه الدراسة

التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا أقل من أن نذكر أن إهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي إلى الحد الذي دعا قيسا ويمنا إلى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتعاضم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شيبث العقيلي عام ١٩٨ هـ ، والتي بررها بقوله أنه لا يكره بني العباس وأنه لا يقاتلهم إلا لأنهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الأعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دورا محرضا ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والأردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ والتي انضم إليه فيها ما يزيد على المئة ألف رجل واستمرت حتى خلافة المعتصم .

إن استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح أنها بدأت منذ الأيام الأولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وأن أسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما أعلنته من مبادئ . ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقرأه في كتاب العيون والحداثق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحداثق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفا . . . وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » (٣٦) . وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الأول وظنوا أنها لم تقم إلا في بلاد الشام ، وأنها كانت تعبيرا عن نقمة أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الأموية ، ولابتعاد مركز الخلافة عن دمشق . ولكن تتبع الأحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لا تقتصر على الشام فحسب بل تقوم في أغلب اصقاع الدولة الإسلامية . فهذه ثورة الأمير أحمد بن محمد العمري ، المعروف بالاحمر العين ، ببلاد اليمن (٣٧) ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن خلال حكم الواصل ، وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة ، وكانت كلها تعبيرا عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شيبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الأمين يقولها

مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الأمين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها إلى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخييل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه (أي على المأمون) ، هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوي على حلبة العرب » (٣٨) .

ولم تكن مصر أقل تحسسا لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الأول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها وأكثرها خطرا ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لأن يهتد بقمعها لامهر قوادة عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر (٣٩) . وهكذا فإن العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الأولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع إلى المحل الثاني في الدولة ، الأمر الذي دعاه إلى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولا رد الأمور إلى نصابها ، واحتلال المكانة التي لم تعط له منذ اليوم الأول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الأمر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائيا عن المسرح السياسي وتبدل دولته ما قام للعباسيين أمر . وسيحل محله كما هو معروف ، ومنذ خلافة المعتصم ، العنصر التركي ، ثم سواه من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل إليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الأيام الأولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق إليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالأمر لبني عباس في مرو ، أن دورهم لن يكون الا ضئيلا و ثانويا . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحذروا واقتتلوا وهم متحIRON » ، كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفات وأفعال من وسدت اليهم الأمور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثورات العربية للأسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى إعلان الاستقلال بما تحت أيديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الإشارة إليها (٤٠) .

وإذا ما انتقلنا إلى الميدان العقائدي ، فقد أعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة وعلى لسان أكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت إليها

السلطة خالصة لا ينازعها فيها من منازع ، ان الثورة انما قامت لتقاتل « قوما حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره » (٤١) ، كما انها عازمة اصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » . وندد زعماءها « بأهل الجور » (اي الامويين) الذين فشلوا في تطبيق مبادئ العدالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم (٤٢) .

ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلا ، وجاءت الاحداث في هذا الدور لتثبت ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الامر المطبق دائما ، ولا سيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع ان نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمره طيبة حيناً ، وخبيثة حيناً آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الامم المختلفة التي عاشت على ارض الدولة الاسلامية وحملت معها اراثها الفكري ومما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت احقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

ولست أريد وأنا اضع خاتمة لهذا البحث ان ادخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من ادوار ، واثّر هذا كله في توجيه احداث هذه الفترة ، وجهة غدت فيها حركة العيارين والسطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب اموال الاغنياء ، من السادة والتجار ، تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطي للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، أرجو ان يتاح الى تناولني بحث قادم ، ولكنني اود ان اذكر بأن طبيعة الظرف الذي ادى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، أدت كلها الى ان ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون ، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد ادى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رمت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بين

ما رفعتة الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بين مآدح مستفيض في المدح ، وقآدح مفرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وفق الأهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لا يكتفوا بالظاهر ، والا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الأحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغية في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتزم المنهجية العلمية ، ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .



الحواشي :

(١) انظر من بين هذه الدراسات اطروحة : Demett, D.C., Marwan Ibn Muhammad ph. d., thesis, Harvard university, 1929.

Sha ban, M.A., The social and political back-ground of the Abbassid revolution, ph. d. thesis, Harvard, 1960.

Omar, F., The Abbasid Califate, ph. d. thesis, London university, 1967.

2 — See, Demett. op. cit., p. 276.

3 — Van Vloten, Recherche sur la domination Arabe, ed. Amsterdam, 1894, pp. 35FF.

(٤) انظر ، هامبري ، تاريخ بخارى ، ص ١٢٠ فما بعد .

5 — Gibb, H.A.R., The Arab conquests in central Asia, London, 1925p.94.

6 — E. I. 2. Art, Abbassids.

(٧) حقق هذه المخطوطة ونشرها الدكتور عبد العزيز النوري والدكتور عبد الجبار المطليبي بعنوان « اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده » دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١١) عمر (فاروق) بحوث في التاريخ العباسي ، ط. بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤ .

(١٢) انظر ، مصورة ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، نشر موسكو ١٩٦٧ ، الملخص باللغة الانكليزية ص ٥٣ .

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ، تحقيق عبد العزيز النوري ، بيروت ١٩٧٨ .

(١٤) انظر المصدر السابق ، فهرست المحتويات ، ص ٢٨ وما بعدها .

(١٥) انظر ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٦٧ ، الصفحات المتعلقة باحداث الاعوام ١٢١ - ١٢٣ هـ .

(١٦) حول هذه المخطوطة ، انظر ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩ - ٢١ .

(١٧) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٦ .

الدعوة العباسية

- (١٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤١ .
- (١٩) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٨ .
- (٢٠) المصدر السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ .
- (٢١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .
- (٢٢) انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ص ٢٨١ .
- (٢٣) انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب « النبذة » الذي يعتبر بان الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واستندت القضايا والاحكام الى خيلها » وقارنه برأي ابن الطقطقي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وفتر » او ابن عذاري وابن حزم الذين ينعمان سقوط دولة بني امية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .
- (٢٤) انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج ٧ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .
- (٢٥) اخبار العباس وولده ، ص ٢١٦ وما بعدها .
- (٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
- (٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩١ .
- (٢٨) من اجل تفاصيل اولى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ - ٣٨٦ .
- (٢٩) اخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢ .
- (٣٠) اخبار العباس وولده ، ص ٢٠٧ .
- (٣١) من اجل اخبار هذه الثورة انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج ٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .
- (٣٢) اخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥ .
- (٣٣) المصدر السابق نفس الصفحة .
- (٣٤) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨ .
- (٣٥) انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .
- (٣٦) الميرون والحشاق ، ج ٢ ، ط . المثنى ، بغداد ، ص ٢١١ .

د. نيه عاقل

- (٣٧) انظر النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا الطبري والبلاذري .
- (٣٨) الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٩٩ .
- (٣٩) انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .
- (٤٠) انظر ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج ٨ ، ط . حيدر اباد ، ١٩٧٥ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .
- (٤١) فتوح ابن اعثم الكوفي ، ج ٨ ، ص ١٧١ .
- (٤٢) فاروق عمر ، طبيعة المعركة المباسية ، ص ١١٧ .



الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة

في جنوب الشام (الأردن وفلسطين)

في العصر المملوكي

د. يوسف درويش عنانة

جامعة اليرموك

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان ، ويصيب الغدد الليمفاوية ، وخاصة غدد الفخذ وتحت الابط والاذن ، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم ، فيصاب المريض بالحمى شديدة ويتقيأ دما لمدة ثلاثة ايام دون انقطاع . وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس ، فاذا تقيحت نجا المريض ، وان بقيت صلبة فمعنى هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الإصابة . واحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في اماكن متعددة منه . ونعت الطاعون في المصادر العربية ((بالوباء)) و ((الفناء العظيم)) ، اما المصادر الانجليزية فتهتم بالسموم الاسود (Black death) . ويصف ابو المحاسن اعراضه فيقول : « كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت ايضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الادمي يبصق دما ويموت من وقته » (١) . والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف انواعها (٢) .

وذكرت المصادر ان بلاد الشام اصابها في سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) ما عرف « بطاعون عمواس » (٣) ، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس (٤) . وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف ، واكثره كان ببلاد الحجاز (٥) ، فأصابت الناس مجاعة شديدة ولزبة وجدوب وقحوط أدى الى فناء العديدين وهو ما سمي « بعام الرمادة » (٦) .

ثم اصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) طاعون وصف « بآته طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخربت أرضهم وتمطلت (٧) ، فلم تجد الأرض من يملكها أو يستغلها ، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة وأصبحت « ضياعا للخلافة » (٨) ، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها .

أما أشد أنواع الطاعون فتكا وأوسع انتشارا فذاك الذي انتشر في العصر المملوكي ، ووصفته المصادر العربية « بالفناء الكبير ، أو الطاعون الأعظم » (٩) ، وشمل كل أنحاء العالم . وكان ابتداءؤه في حلب سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام ، فأصاب الاردن وفلسطين ، وعم اكل مدينة وقرية . وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج (أوروبا) فأصاب قبرص ، والاندلس ، وإيطاليا وفرنسا والمانيا ، والدول الاسكندنافية وروسيا ، وبريطانيا (١٠) .

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الاردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وكان أشده ذاك الذي ابتدا سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، فأصاب اولاً واسط آسيا والصين ثم الهند ، وانتقل غرباً بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق . وفي مستهل جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (٩ آب (أغسطس) ١٣٤٧ م) ظهر بحلب (١١) ، فعم جميع بلاد الشام ثم انتقل الى مصر ، ومنها الى أوروبا نقله التجار الجنوبيون الى إيطاليا (١٢) . ويصف أبو المحاسن هذا الطاعون فيقول : « أفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي ، حتى أنه لم يبق ببلد جنين غير عجوز واحدة خرجت منها فارة ، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملانة بجيف الموتى » (١٣) . أما ابن بطوطة فذكر أن الطاعون أصاب عجلون وبيت المقدس (١٤) ، وأن غزة فنيت بسببه ، وأكد ذلك كل من المقرئزي وأبي المحاسن ، فذكر أن غزة فقدت اثنين وعشرين ألفاً من سكانها (١٥) .

وعقب الطاعون أصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) « بوباء ومرض كثير » ، فأصاب غزة والقدس ودمشق ، وأدى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها (١٦) . ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) ، ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) فأصاب شمال الاردن والاغوار وغزة وأدى الى هلاك أعداد كبيرة من سكانها (١٧) . ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ، ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) ، ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) ، ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) ، ٨٢٦ هـ (١٤٢٣ م) ، فأهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين (١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بستة وثلاثين ألفاً (١٩) .

وفي سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) تفشى الوباء في الاردن وفلسطين ، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد ، فمات بسببه خلائق لا يحصى عددهم (٢٠) . ووصف المقرئزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات ، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر ، فيموت

الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرض ، وكان اكثره في الاطفال والشباب (٢١) . ثم هاد الوباء للاردن وفلسطين في سنة ٨٤١ (١٤٣٧ م) فمات الكثيرون ، وكان اشده في غزة والرملة ومنطقة الاغوار . (٢٢) وباعتقادي ، ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه ، هو نوع من انواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير . واستمر الطاعون يفتك بالاردن وفلسطين في السنوات ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) ، ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) ، ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) ، وافنى العديد من السكان (٢٣) .

اما الجفاف الذي اصاب الاردن وفلسطين في العصر المملوكي فكان مزامنا في اكثر الاحيان لوباء الطاعون ، ففي سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) اصاب البلاد جفاف فانهجست الامطار ، وجفت الآبار وانعدمت الزراعة ، وهلك المواشي ، فنزح الناس عن بلادهم ، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير ، والى موت العديدين جوعا (٢٤) .

ثم ان بلاد الشام عامة اصببت في سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) « بالقحط العظيم » ، فجفت الآبار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحية الممدة لطحن الحبوب ، فأغلقت لذلك ارحية عديدة (٢٥) . وجفت الينابيع في انحاء متفرقة من البلاد ، وادى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيل الزراعية وقلة مياه الشرب (٢٦) ، فارتفعت الاسعار واضطر الناس الى اكل الشعير لعدم وجود القمح . وباع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام ، وفي هذا القحط قال الشاعر :

سنين القحط قد دارت علينا	وعمت للكبير مع الصغير
وبعنا الفرش والبسط الغوالي	ونمنا بالثياب على الحصير
لقينا من اذاها ما لقينا	وزاحمنا الحمير على الشعير (٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق ، وصار الناس يتزاحمون على الافران صفوفا خلف بعضهم من المطلاع الى المغيب ، وهو عجيب أسود « وكثير من الناس ما يحصل له خبز ، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز » (٢٨) . وقد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضراوات من قلة الماء ، وكان الناس في شدة عظيمة (٢٩) .

ثم ان القحط اصاب الاردن وفلسطين سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) « فأجدبت اراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في اوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم وقلت المياه عندهم » (٣٠) . وذكر المقرئ في

سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف أدى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماه (٣١) ،

ومن الملاحظ ان سنيين القحط والجذب كانت متزامنة مع سني الطاعون والابئة فآثر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية وأصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات انعجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء ، فآثر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم . ففي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام ، وكان أكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والاشخاب وأبواب الدور ، « وكان من شأنه بعجلون أنه امتلأت منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقات وسدت الابواب وحضروا نصلاة الجمعة فملاً عليهم الجامع وترأس على الخطيب على المنبر حتى شغلته عن الخطبة ، وانتنت (المدينة) لكثرة ما قتل منه » (٣٢) .

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) أصابها الفناء العظيم (الطاعون) ثم الوباء والقحط عدة مرات منذ أوائل القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ، وحتى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية ؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم (٣٣) . وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشراف ، وانتشرت الينابيع في الاودية العديدة شمالها وجنوبها . أما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الفلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك (٣٤) ، وكثر القمح في عمان والصلت فوصفت « بصدن الحبوب » . أما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشراف ، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن . وذكرت المصادر أن جبال مؤاب اشتهرت بأشجار اللوز والرمان والتين (٣٥) ، واودية الكرك والصلت وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والرمان (٣٦) وأشجار الجوز ، حتى ان سيلا اجتاحت اودية الكرك سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) فأخذ في طريقه اثني عشر ألف شجرة جوز (٣٧) . ووجد في الاغوار زراعة الارز وقصب السكر والموز والنيل والنخيل (٣٨) ، وانفردت مدينة بيسان بنبات السمان الذي يصنع منه الحصر السامانية (٣٩) . ووجد النخيل في ايلة (العقبة) ومدينة زغر في الفور الصافي جنوب البحر الميت (٤٠) . أما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاعوار والبادية وكثرت فيها الاغنام والابقار والابل (٤١) .

أما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج ، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليل بالأشجار المختلفة كالسرو والسنديان والخروب والسماق ، والزيتون والكرمة والتين والجميز ، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والمشمش (٤٢). أما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسم والذرة والخضراوات بأنواعها (٤٣) . وهكذا فإننا نرى أن منطقة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من أخصب المناطق واجملها ، وأفرة الفلات ذات مناخ منعش وطبيعة جميلة وكثافة سكانية عالية .

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية . فالطاعون أصاب البلاد منذ القرن الأول للهجرة (السابع الميلادي) ثم تتابع في فترات أخرى لاحقة . فالطاعون الذي أصاب البلاد في عهد الرشيد أثر على الديموغرافية في الأردن وفلسطين ، وفنيت عائلات بأكملها ، وتعطلت الزراعة وفلاحة الأرض ، مما دعا الدولة الى تأجير هذه الأراضي لفلاحين جدد ، بل أن قسما من هذه الأراضي أصبح ملكا للخليفة (٤٤) .

أما الطاعون والوباء الذي أصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكان الأردن وفلسطين ، وفقدت البلاد ثلثي سكانها (٤٥) . فابن بطوطة ذكر أن عجلون والقدس وغزة كان معظمها خاليا من كثرة من مات فيها من الطاعون (٤٦) . أما جنين والرملة واللد والكرك والاعوار فبعضها فقد كل السكان ، لذا تأثرت الزراعة ولم تجد الأرض من يزرعها ، فكانوا يجدون الفلاحين أمواتا خلف محاريثهم ، وبعضهم مات وببده البدار (٤٧) . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالابقار والابل والاعنام وأهلك أعدادا كبيرة منها (٤٨) . وامتد الى الحيوانات البرية ، فوجدت الاسود والحمير الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاغوار (٤٩) . فالطاعون والوباء (الحميات) أثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وادي الى نقص كبير في عدد السكان . فتوقف النمو السكاني تماما في فترة من الفترات ، فالاطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم أو يومين (٥٠) . وحدث مثل ذلك في أوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي (٥١) . وأقنى هذا الطاعون ثلث سكان أوروبا ، وفقدت كل من جنوا وفينيسيا

سنتين ألفا من سكانها (٥٢) ، أما فلورنسا ولندن فقدت كل مدينة منهما مئة ألف نسمة ، وفقدت بيزا سبعة أعشار سكانها . أما سكان قبرص فقد هلكوا جميعا ، وفقدت ألمانيا مليوناً واربعا من سكانها ، وفرنسا ثلاثة أرباع سكانها وإيطاليا نصف السكان (٥٣) . وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيرا في الثروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية ، فانخفضت بل وقلت مواردها ومردودها على البلاد .

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد من الملاكين والمزارعين ، فانحلت الاقطاعات بموت أصحابها ، وانتقلت ملكية الاراضي الى ملاكين جديدين (٥٤) . وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والاساكفة ملكت الاقطاعات (٥٥) ، ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك - لان الاقطاعات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط - بل ان معظمهم ملك البيوت والاموال لموت أصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها (٥٦) . ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدثت الدولة من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من ارض الى أخرى الا بعد مرور ثلاث سنوات ، وان فعل وترك الارض أعيد اليها بالقوة (٥٧) . ونرى أن الامر حدث في نفس الوقت في إنجلترا ، فبعدها أصيبت البلاد بالطاعون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمال الحرف الى أجورهم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى أخرى (٥٨) .

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلم تجد البساتين والكروم من يعتني بها لموت أصحابها ودوابهم ، فخربت وجفت اشجارها ، وادى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية . ثم أن القحط والجفاف الذي واكب الطاعون والوباء في العصر المملوكي أثر على البيئة في الاردن وفلسطين ، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهار ، أضف الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجة من تاريخها وادى ذلك الى غلاء في الاسعار فهجر السكان والفلاحون قراهم (٥٩) . اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام ، وهجرة داخلية ، مما أدى الى تغييرات في التجمعات السكانية آنذاك . وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة من قحط وجفاف وأوبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني . فالنمو السكاني هو الام للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري والصناعي ، والنمو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة ، والى الامن والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني . فغزوات التتار بقيادة تيمورلنك ، والتطاحن

المملوكي على السلطة وثورات النواب والمماليك ثم حرب المماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد ان انحل حبل الامن والاستقرار ، وضعف السلطة المركزية ، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها ، فلم يأت القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خال من السكان ، حتى ان السجلات العثمانية نعت العديد منها بـ (خراب وخالي) (٦٠) .

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام ، فانتشر الفساد والفسق والفجور ، وتعاطى الناس الفواحش ، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي أصاب الشام : « وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم تكن نراه ، وسمعنا فيه ما لسمعناه ، وأبصرنا عجائب ، وشاهدنا غرائب ، فلهذا الحال قلت الارزاق ، وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الفيث ، وتعطلت اسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعوك ، فهاكت الرعية وعظمت البلية » (٦١) . وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس ، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في اقوات المواطنين ، وفرضت الاسعار التي تريدها ، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين ، فحطمت قصورهم ، واستولت على اهراماتهم وما بها من مغلات وأطعمة (٦٢) . وعلى نقیض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والابوة والموت الكثير ، فوجد ان الاسعار انحطت ، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها ، وانحطت قيمة الذهب والفضة .

ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام . قلة الصناع والعمال ، وارتفاع الاجور ، مما اضطر الدولة الى استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة (٦٣) . وحدث نفس الشيء في الدول الأوروبية اثناء الطاعون الكبير ، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها ، فسنوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الاجور الباهظة (٦٤) .

كما ان التجارة تأثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها أو ينقلها ، وانعكس ذلك على البلاد ، لا بل على الدولة عامة ، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة (٦٥) .

ومن النتائج أيضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد ان انحل حبل الامن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت أكثر جيشها في الطاعون والوباء ، وخصوصا في

دولة المماليك الثانية (٦٦) . ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء ممالك جدد تزود بهم قواتها العسكرية ، مما دفع بعض الأمراء للشورى على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام (٦٧) . ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من أسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف أمام العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

ونتج عن ذلك أيضا تغييرات اجتماعية خطيرة ، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز ، فنرى أصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما أن هذه الاقطاعات كانت حكرا على الأمراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة . وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت بأعداد كبيرة مردوده الاجتماعي ، فأثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة ، وهجرت قرى عديدة وأصبحت خربة خالية من السكان . وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام ، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والمذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة . بينما عمد آخرون للجوء الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها ، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله ، وحدث نفس الشيء في أوروبا . وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق أثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : ان الدمشقيين « باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح ، وخرجوا جميعا على اقدامهم ، وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة . وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا ، صفارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وأنبيائه (٦٨) ، أن يزيل عنهم هذا الوباء ويحميمهم منه ، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية » (٦٩) .

وتسبب الطاعون في موت أعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد ، فابن بطوطة مر بالقدس أثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : « وجدت من كنت أعده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ، فلم يبق منهم الا القليل » (٧٠) . وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة أرباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول (٧١) ، وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية ، ولاشك أن موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها .

خاتمة :

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي :

١ - اصببت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩٠ م وهو ما عرف بطاعون عمواس وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة . ثم طاعون القرن الثامن الميلادي في عهد هارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض ويستغلها .

٢ - ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعون الاعظم او الموت الاسود منذ سنة ١٣٤٧ م ، وعم كل مدينة وقرية ، وكان هذا عاما في العالم ، ولكنه بقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى اواخر القرن الخامس عشراي (١٥٠ سنة) .

٣ - صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي احيان كثيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد .

٤ - لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك ، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات (المستشفيات) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الاوبئة التي فتكت بالناس ، فوصل عدد المستشفيات الى (٣٠) مستشفى ، معظمها كان يدرس الطب ، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم ، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين .

٥ - اذا كان الطاعون الذي اصاب اوروبا ادى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بل كان مقدمة للثورة الصناعيةوانحلال نظام الاقطاع فما هي التغييرات التي اصاببت المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في اوروبا ؟؟ .

٦ - الانقلابات او التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات اساسية بطيئة نستطيع ان ندرجها في مجملها في قائمة الانقلابات ، فهل حدث ذلك في منطقتنا ؟؟ .

٧ - البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر ، معظم الحركات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهل نستطيع ان نرتب على الطاعون في بلاد الشام تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ؟؟ .

٨ - المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوارن ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقة الاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والعقبة وعجلون واربد وحبراص والسلط وغيرها .

٩ - هناك تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت واين سكانها؟؟ ثم لماذا أصبحت البتراء والشوبك وعمان ومادبا وجرش وعجلون وحبراص وبيت رأس وجدرا وفحل وقويلبه وام الجمال خرائب قليلة السكان ، فعند وصول الرحالة الاوربيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة .

١٠ - اذن لابد من وجود سبب لكل هذا التغير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لابد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليها وادت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي .

١١ - وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض ان الاردن مثلا كانت في فترة ما اكثر رطوبة واكثر امطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا .

١٢ - واخيرا اتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار ، وان يبحثوا جديا في اسباب هذه التغيرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي ادى الى خراب البلاد وذلك من خلال تحليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه ، وكذلك سببا علميا لهذه الجذوب والقحوط والمجاعات التي فتكت في المنطقة في العصر الوسيط . وباعتقادي ان في هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تعلل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة ، فنحن في العصور الوسطى بلغنا اوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك .

الحواشي :

- (١) أبو الحسن ، «النجوم الزاهرة» ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
 - (٢) أبو الحسن ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .
- Nohl, The Black death, London, 1924, P. 18.
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوكة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م ، ج ٤ ، ص ٦٣ .
- عمواس : بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة أميال من الرملة ، بدأ طاعون عمواس منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب . (لي سترايج ، ص ٤٢٦) . وقد دمرتها إسرائيل حالياً واجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزها عاماً . (الباحث) .
- (٤) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣ .
 - (٥) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .
 - (٦) يقول الطبري : « أصابت الناس سنة بالمدينة وما حولها ، فكانت تسفي إذا ريحت تراباً كالرماد فسمي ذلك العام عام الرمادة » . (ج ٤ ، ص ٩٨) .
 - (٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٣ .
 - (٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
 - (٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنصر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (١٠) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٧ .
- أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- Nohl, op. cit. P. 18.
- (١١) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (١٢) Nohl, op. cit. P. 18.
 - (١٣) أبو الحسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٧ .
 - (١٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ .
 - (١٥) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .
- أبو الحسن ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٩٨ .
- (١٦) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عياد برويش ، دمشق ١٩٧٧ م ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

- (١٧) ابن قاضي شهبة ، نفس المصدر ، ج٣ ص ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٤٦٨ .
- (١٨) ابن قاضي شهبة ، المصدر نفسه ، ص ٥١٢ ، ٥٧٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ .
المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٣٩ .
- (١٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ص ٣٦٩ .
- (٢٠) المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٨٣٦ .
ابو المعاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ص ٢٤٨ ، ٢٣٨ .
- (٢١) المقرئ السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٨٢٤ .
يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس في مصر المملوكي ص ١١٨ .
- (٢٢) المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ١٠٢٩ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٤ .
- (٢٣) الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٦١ .
يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ١١٩ .
- (٢٤) ابن صصري ، العدة المضيئة في العولة اللاهوتية تحقيق وليم برنز ، كاليفورنيا ، ص ١٦٤ .
- (٢٥) ابن صصري المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦٤٨ .
- (٢٦) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
- (٢٧) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٢٨) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .
- (٢٩) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .
- (٣٠) المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٩ .
- (٣١) المقرئ ، المصدر نفسه ، ص ٧١١ .
- (٣٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ص ٤٥٧ .
- (٣٣) Smith: The historical geography of the Holy Land, p. 535.
- (٣٤) القيسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .
ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ .
- (٣٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، القسم الخاص ببلاد الشام ، ص ٥ .
- (٣٦) القيسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ . ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ، القرطبي ،
اخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٥٩ .

- (٣٧) ابن قاضي شهاب ، تاريخ ابن قاضي شهاب ، دمشق ١٩٧٧ ج ٢ ص ١٥٧ .
- (٣٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٩٢ ، الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ .
- (٣٩) الإدريسي ، ص ٤ .
- (٤٠) المقدسي ، ص ١٧٩ . Fulcher of Chartres, P. 146.
- (٤١) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
- (٤٢) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٩ ، الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ص ٥٩ .
- (٤٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٣٥ ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١ ، ابن بطوطة ، ج ١ ص ٣٥ .
- يوسف فوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ٨٠ ، لي سترانج ، ص ٩٧ - ٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦ Benveni sti, The Crusades in the Holy Land, P. 217.
- (٤٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
- (٤٥) يوسف فوانمة ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .
- (٤٦) ابن بطوطة ، ج ٢ ، ص ٧٥٠ .
- (٤٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة، ج ١ ص ١٩٨ .
- (٤٨) Nohl, op. cit. p. 18.
- (٤٩) المقرئ ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٨٤ ، ابو المحاسن ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر ابن اياس ، ط الشعب ، ص ١٦٤ .
- (٥٠) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . Nohl, op. cit. p. 40
- Lopez, The Commercial revolution in the middle ages, p. 29.
- Kedar, Merchants in Crisis, p. 165.
- Kedar, op. cit, p. 5, 19 (٥٢)
- Nohl, op. cit. p. 38, 40. (٥٣)
- (٥٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ص ٢٣٠ .
- (٥٥) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
- (٥٦) ابو المحاسن ، نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٠٨ .

د . يوسف فوانمة

(٥٧) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٤ ، فهو يقول : « وقد جرت العادة بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهرا ويلزم بشد الفلاحة » .

(٥٨) محمد مصطفى زيادة ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، بحث في التاريخ والآثار ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ١٦١ .

(٥٩) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ٢٠٢ .

المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٩ ، ٧١١ .

(٦٠) Utteroth & Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine. p. 26.

(٦١) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٢) ابن صغرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢١٠ .

(٦٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٦٥) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٧١ .

الكارم والكارمية ، هم التجار الذين كانوا يتاجرون بسلع الهند والصين ووجدوا في مدن بحشقي والقاهرة والاسكندرية .

(٦٦) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٤٠ .

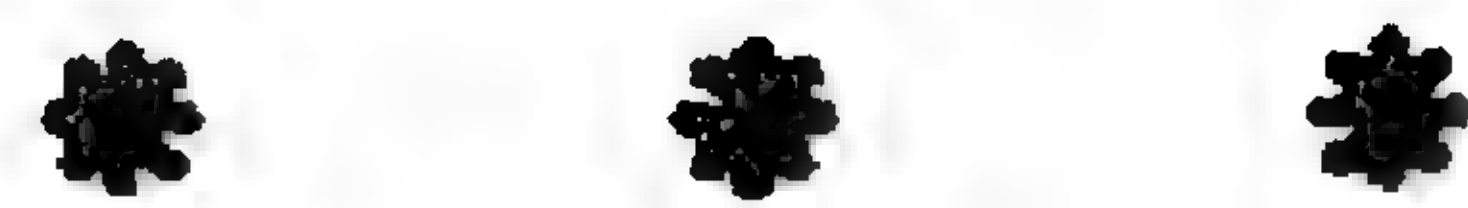
(٦٧) Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٥ .

(٧١) المصدر نفسه .



دَوْرُ اسْرَةِ آلِ الحَنْشِ

والمهام التي أوكلت إليها في ريف دمشق والشام

٧٩ هـ / ١٢٨٨ م - ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م

« دراسة وثائقية »

د. محمد عدنان البخت

الجامعة الأردنية

تتور هذه الدراسة حول دور اسرة آل الحنش السنية المذهب القيسية الولاء ، كقوة محلية في منطقة البقاع وذلك خلال عهد الممالك البرجية ، بالإضافة الى تقصي موقف هذه الاسرة من الاحتلال العثماني لبلاد الشام .

وتركز هذه الدراسة على توضيح الامور التالية :

- ١ - موقف اسرة آل الحنش تجاه حركة العصيان التي قادها منطاش في بلاد الشام ضد السلطان برقوق .
- ٢ - موقفها تجاه القوى المحلية الاخرى في نيابة دمشق الشام .
- ٣ - المهام الادارية والضرائبية التي أوكلت اليها في العهد المملوكي والعثماني .
- ٤ - الصورة التي تقدمها لنا الدفاتر العثمانية عن توزيع السكان في القرى التي كانت توكل لاسرة آل الحنش . وكميات الضرائب التي كانت تجبي من سكان تلك القرى .
- ٥ - مدى اسهام هذه الاسرة في وجوه الوقف الخيري .

من المعروف لدى الباحثين ان الممالك كانوا قد اعدوا تقسيم بلاد الشام ، بهدف تنظيمها اداريا ، الى عدد من النيابات او الممالك كان من ابرزها نيابة دمشق الشام التي كانت مؤلفة ، بالإضافة الى حاضرة المدينة وبرها ، من أربع صفقات :

١ - الساحلية والجبلية .

٢ - القبلية .

٣ - الشمالية .

٤ - الشرقية .

والجدير بالذكر ان الصفقة الواحدة كانت مكونة من عدد من الاعمال . وتوضع لنا المصادر المأوكة ان الصفقة الشمالية من نيابة دمشق الشام كانت تضم في العهد المملوكي ، البقاع (بعليه) ، وعمل بعلبك وعمل بيروت وعمل صيدا (١) .

كما وتبين لنا ان البقاع كان في حينه مقسما الى عمليتين :

١ - البقاع البعلبكي « وليس له مقر ولاية » .

٢ - البقاع العزيزي « ومقر الولاية به كرك نوح عليه السلام » .

واللاحظ ان عمالي البقاع كانا يجمعان « لوال واحد جليل مفرد بذاته » وذلك على الاقل الى حين زمن القلقشندي . وكان يليهما « مقدم حلقة وتارة جندي » (٢) .

ففي البقاع وحول مدينة بعلبك ظهرت اسرة آل الحنش (٣) لتلعب دورا بارزا في تاريخ كل من بعلبك والبقاع معا . وذلك منذ اواخر القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي ، الى اواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

وارتبط هذا الدور بالصراع على السلطة ما بين عناصر الممالك البحرية ، الذين اقل نجم سعدهم ، وما بين الممالك الشراكسة او البرجية كما تسميهم المصادر . ففي اواخر سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م نشبت حركة عصيان كبيرة ضد السلطان الملك الظاهر ابي سعيد سيف الدين برقوق بن انص العثماني اليلبفاوي (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م - ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) ، بقيادة كل من نائب ملطية تمرغا الافضلي الاشرفي المعروف باسم منتاش (٤) ونائب حلب يلغا الناصري (٥) . انضم اليهما عدد من النواب والولاة ؛ كان من بينهم نائب بعلبك الامير كمشيفا المنجكي ، الذي ترك بعلبك بدون حاكم ، بعد ان سلب الكثير من موجوداتها ، لينضم الى حركة العصيان هذه .

نجحت هذه الحركة سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م في إعادة تنصيب السلطان صلاح الدين الصالح حاجي الثاني سلطانا ولمدة عام واحد، بعد أن عزلت السلطان برقوق وأودعته السجن في قلعة الكرك (٦). أما بعلبك التي تركت بدون حاكم كما ذكرنا، فقد بادر علاء الدين بن الحنش « شيخ العشير » وتولى نيابتها (٧). إلا أن انهزام السلطان برقوق في معركة خان لاجين يوم السبت في ١٩ شهر ربيع الآخر ٧٩١ هـ / ١٧ أيار ١٣٨٩ م كانت ضربة موجعة لعلاء الدين بن الحنش الذي تمكن، كما يظهر، من أن يحافظ على حياته بعد أن خسر منزلته نتيجة لهزيمة السلطان برقوق وسجنه في قلعة الكرك.

تمكن السلطان برقوق بفضل مساندة أهالي الكرك واجنادها له، من الفرار من سجن قلعة الكرك، باتجاه دمشق في يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ / ١٢ أيلول ١٣٨٩ م. وعندما علم علاء الدين بن الحنش بذلك بادر إلى مصادمة السلطان برقوق ضد مناوشة، مما ترك أطيب الأثر لدى برقوق، ففرح به برقوق، وخطع عليه، وكما يبدو فإنه أوكل إلى علاء الدين أمر نيابة بعلبك والبقاع (٨). ومن الذين عاضدوا أيضا السلطان الظاهر برقوق في معركته لاسترداد سلطنته، آل بحتر وهم أمراء الغرب بجوار بيروت، بينما كان تركمان كسروان، بزعامة أولاد الأعمى من الموالين لمنطاش. فعندما توجه أمراء الغرب إلى القاهرة بعد انتصار السلطان الظاهر برقوق على مناوشته دون أن يتمكن من القضاء عليهم وسفره إلى القاهرة، قام أولاد الأعمى بمهاجمة قرى أمراء الغرب ونهبوها وأحرقوها. فكلف السلطان برقوق علاء الدين بن الحنش بتأديب عشائر كسروان التركمانية. فهب لتلبية طلبه ونهب عددا من قرى كسروان وقتل أحد زعماء التركمان وهو علي بن الأعمى مع جماعة من أتباعه. وبعد مدة تمكن من القبض على أخيه عمر بن الأعمى ثم أفرج عنه (١٠) فيما بعد.

وعندما أقدم السلطان برقوق على محاصرة دمشق وحرق حي القبيبات فيها وقطع الماء عن المدينة استغل منطاش تصرفه هذا فأخذ نسخا من فتوى العلماء ضده، ويضيف المقرئ إلى ذلك قوله « وزيد فيها: واستعان بالكفار على قتال المسلمين »، وضمن توقيع العلماء على هذه الفتاوى بما في ذلك توقيع عبد الرحمن بن خلدون بخضوع الخليفة المتوكل (١١). وتلى ذلك خروج الخليفة والسلطان الصالح صلاح الدين حاجي الثاني ومنطاش من القاهرة لمحاربة السلطان برقوق وكان المصاف في ١٤ محرم سنة ٧٩٢ هـ / ٢ كانون الثاني ١٣٩٠ م، في معركة شقحب جنوبي دمشق، التي انتصر فيها برقوق وتمكن من أسر الخليفة والسلطان حاجي (١٢)، إلا أن منطاش كان قد أفلت من السلطان برقوق وتحصن في دمشق. أما السلطان حاجي فقد خلع نفسه عن السلطة، وتمت البيعة مجددا لبرقوق ليعود بعد ذلك إلى القاهرة تاركا وراءه منطاش يبيت في بلاد الشام (١٣).

أما علاء الدين بن الحنش فقد « عصى في قلعة بعلبك هو وجماعته وأحرقوا المدينة ونهبوا وسبوا حريمها وفعلوا كل قبيح وجرد اليهم منطاش عسكر مع محمد شاه بن بيدمر » فحاصر مدينة بعلبك ، إلا أن مدة الحصار طالت وخربت عساكر منطاش ببلاد البقاع ، واستمصى الأمر لدرجة أن منطاش نفسه كان يركب إلى بعلبك ويتفقد أسوارها (١٤) إلى أن تم إسقاطها .

وعندما وصل خبر انتصار منطاش على علاء الدين بن الحنش إلى دمشق يوم الثلاثاء ١١ ربيع الآخر ٧٩٢ هـ / ٨ كانون أول ١٣٩١ م فرح الناس وزفت البشائر . « لانه (علاء الدين) كان قد أساء إلى أهل دمشق وقطع عنهم المياه ونهبوا عشيره دمشق في أيام السلطان وهو على قبة يلبغا » (١٥) .

وبعد ذلك بأسبوع ، في يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الآخر / ١٦ كانون الأول ، وصل إلى دمشق علاء الدين بن الحنش ومعه مائة وعشرون من أعوانه حيث وسطوا جميعا وعلقوا من حائط جامع يلبغا إلى جسر الزلاوية بدمشق بحضور أهالي المدينة (١٦) . إن هذه النهاية المحزنة لعلاء الدين بن الحنش لم تلغ دور الأسيرة في البقاء على ولائها لبرقوق ضد منطاش الذي كان قد هرب من دمشق إلى ريف حلب ليعود بفترة إلى دمشق فسي مستهل شهر رجب سنة ٧٩٣ هـ حزيران سنة ١٣٩١ م ، بينما كان نائبها خارجها يطارد منطاش . ولقد تعرضت مدينة دمشق هذه المرة للنهب على يد ما يسمى بالمناطشة وتحولت إلى ساحة للاقتتال ووصف خطيب الجامع الأموي ما حل بمدينة « بالنازلة العظيمة » . ويضيف ابن صصرى إلى ذلك قوله « وهلك الفقير وانكشف حال الفني ولا بيع ولا شري والناس منتظرين رحمة الله تعالى » (١٧) . فما كان من علاء الدين بن الحنش الثاني ونائب قلعة بعلبك إلا أن هبا نجدة لنائب مدينة دمشق . أما ردة الفعل من جانب منطاش فتمثلت بإرسال قوات ضدهم من ضمنها عشائر يمنية بقيادة ابن هلال الدولة ، فانكسرت القيسية بقيادة ابن الحنش الذي هرب مع نائب قلعة بعلبك وكان مقدار ما قتل من الفلاحين نحو ألف شخص وأسر مائتان من جماعة ابن الحنش القيسية مع ثمانية من أجناد بعلبك . ولقد أوكل أمر القيسية من الأسرى لليمانية « فعروهم من ثيابهم وسيوفهم ودارت اليمنية حولهم بالسيف كل من يلحق واحد يضربه يقتله وهو عريان لم يرق لهم عليهم قلب قبحهم الله تعالى ، ما أنحسهم وما أجهلهم وما أقل دينهم » . ويروي ابن صصرى على لسان من يثق به أن القيسية ما جاءت إلا لنهب دمشق كما فعلت في السابق « ففعل الله تعالى بهم ما فعل » (١٨) .

بالرغم من كل هذه النكبات فإن علاء الدين ابن الحنش الثاني استمر في تأييده لنائب الشام . بل نراه يفد عليه في دمشق مع نائب طرابلس الشام أقبغا الصغير

ويشاركون في محاربة المناطشة (١٩) . بل زيادة في ولائه للوالي نراه ينضم إلى قوات الوالي في محاربة الأمير نعيم (٢٠) وعربيه الذين كانوا ينزلون على قرية عذراء ضمير (٢١) ويتعرضون للناس فركب نائب الشام عليهم يوم الخميس ٢٧ شعبان سنة ٧٩٣ هـ / ٣٠ تموز سنة ١٣٩١ م ، إلا أن نعيم انتصر على عساكر الشام وقتل نحو ألف ومائتين وستين شخصا من بينهم ابن الحنش نفسه (٢٢) ويذكر ابن صصري عن ذلك : « ورجعت الترك مكسورين وراحت العرب منصورين ومن أعظم العظائم أن تفوز العرب من الترك بالغنائم » (٢٣) . ويصف صالح بن يحيى علاء الدين بن الحنش هذا بقوله « وكان ذا سطوة وتجبر وكان قبله قد قتل منطاش والده وأخيه مسكوهما من بعلبك وكان علاء الدين المذكور قد أعطاه السلطان برقوق امرية طبلخانة » (٢٤) .

والذي يبدو من خلال ما ذكرناه آنفا عن الحملة التأديبية التي قادها علاء الدين بن الحنش ضد تركمان كسروان انتصارا للأمراء البحريين ، أن آل الحنش كانوا يهبون لنجدة البحريين كلما تعرضوا للمضايقة على يد أي من القوى المحلية . ويفهم من إشارة يوردها صالح بن يحيى أن كبير بيت آل الحنش المعروف باسم علاء الدين علي ، ربما يكون حفيدا أو قريبا لعلاء الدين الذي قتل في حادثة نعيم ، قام بقطع رأس أمير حاج بن الحمراء من قرية صفبين بالبقاع ، وأرسل برأسه إلى نائب الشام الذي أرسله بدوره إلى أمير البيت البحري ، متولي بيروت ، عز الدين صدقه (ت ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م) . فمن المعروف أن أبناء الحمراء وهم سنة ، من قرية صفبين قد بدأوا بالزوح إلى بيروت وأخذوا يزاحمون آل بحتر على أقطاعاتهم في جهات بيروت . كما وأنه قد سبق ذلك أيضا أن فاجأ أمير حاج هذا عز الدين صدقه في بيروت وهاجم المدينة ولم يتمكن عز الدين من اللحاق به والتخلص منه إلى أن تدخل آل الحنش وخلصوه منه (٢٥) . ويلخص أسطفان الدويهي هذه العلاقة في وصفه لعز الدين صدقه بقوله : « وكان بينه وبين الأمراء أولاد الحمرة الذين نزلوا من البقاع وأخذوا السكنة ببيروت دشمنة (عداوة) غير قليلة من باب الحسد في الحكم » (٢٦) .

وعلى الأغلب فإن منزلة آل الحنش بدأت تقوى على حساب الأسيرة البحرية فمثلا نجد أن أحد أمراء آل الحنش المعروف باسم الأمير عساف كان نائبا لبيروت وصيدا « وتلك المعاملة » ، وهذه المناطق كانت توكل عادة لآل بحتر . واتصف بقسوته على « المناحيس ببلاده » مما أكسبه محبة الناس لذا عندما وجد مقتولا سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م في أحد أحياء مدينة دمشق ، ربما بتدبير من نائب دمشق نفسه ، تأسف الناس عليه هناك (٢٧) . إلا أنه يفهم من النصوص المتفرقة التي فيما بعد تذكر هذه الأسيرة ، أن نائب دمشق أخذ بسياسة تقليص نفوذ أسيرة آل الحنش ، وأعادتها من جديد إلى

مستوى « المقدمة » ضمن إطار البقاع وتولى أمور الاسرة بعد مقتل عساف الامير شهاب الدين احمد بن الحنش (ت ١٤٩٨ م) . وبرز من بعده على مسرح الاحداث ناصر الدين محمد الذي كانت علاقته مع نواب الشام متقلبة ، ومما زاد الطين بلة ان التنافس بدأ يستشري بين أبناء البيت الحنشي . ففي اواخر شعبان سنة ٩٠٤ هـ / ١١ نيسان ١٤٩٩ م قبض نائب الشام جان بلاط على عدد من مقدمي ريف نيابة دمشق الشام ، كان من بينهم ناصر الدين المذكور « وطلب من كل واحد من المقدمين وجماعته وبلاده مائة ألف دينار (٢٨) » . وبناء على توسط القاضي الشافعي لدى النائب تم اطلاق سراح ناصر الدين على ان يدفع للنائب الف دينار . ويظهر لنا ان النائب اثناء اجتجازه لناصر الدين كان قد عين اخاه الامير حسن ، مقدما على البقاع مما اثار غضب ناصر الدين ودفع به الى قيادة حركة عصيان ضد نائب دمشق ، وذلك في مطلع شهر رمضان من ذلك العام . تمكن ناصر الدين من منع اخيه من الوصول الى « المقدمة » ، بل ترددت الاخبار بأنه كاد مع جماعته وعشيرته يهاجم مدينة دمشق ذاتها ، فكان ذلك سببا في اثاره غضب النائب عليه (٢٩) . فبادر النائب بدوره الى قيادة قوات عسكرية من دمشق وخرج بها من أجل تأديب ناصر الدين ، فنهب عسكره البقاع وحرق بيت ناصر الدين في قرية قب الياس (٣٠) بالبقاع . ومن هناك توجه نائب دمشق الى بيروت حيث صادر من التجار الافرنج الموجودين فيها ، عددا من الاحجار الكريمة وقطعا من الجوخ ، وختم على بضائعهم بعد ان قيمها بأضعاف اثمانها في سبيل تحصيل ما هو اكثر من العشر الذي يجمع عادة على البضائع . ومن بيروت قصد صيدا حيث طلب من قاضيها ان يضبط له جهات ابن الحنش فيها تم عاد من هناك الى قرية زنتون (٣١) بالبقاع ، ومنها توجه الى دمشق التي وصلها على حين غفلة في ١٤ رمضان سنة ٩٠٤ هـ / ٢٥ نيسان ١٤٩٩ م ، دون ان يتمكن من اللقاء القبض على ناصر الدين الهارب من وجهه (٣٢) .

وعلى الأرجح ان الممالك ادركوا عدم جدوى استخدام العنف ضد ناصر الدين فنهجوا اسلوب التقرب اليه ، لاسيما بعد عزل جان بلاط ونقل والي حلب قصره ليتولى نيابة دمشق سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م . فكان من اولى خطواته التي اتخذها في هذا الخصوص ان امر بصلب ابن عم ناصر الدين الذي كان قد سعى على الاخير ، وكان السبب في نهيب بلاد ابن الحنش « وهتك حريمها وحريق قراها وقتل خلق كثير فلما صلب عاد ابن عمه (ناصر الدين) المذكور اليها (٣٣) . » وقوي عنصر الثقة بين ناصر الدين وبين نائب دمشق بحيث انه تعاون في ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م مع قوات النائب في كس العربان بالقرب من بحيرة الهيجانية « وقتلوا منهم خلقا ونهبوا منهم شيئا كثيرا نساء وأولاد وجمالا وغنما وغير ذلك ورجعوا الى دمشق (٣٤) » . والظاهر ان هذه

الخطوة جاءت كتأديب للعرب (من المفارقة وبني لام) الذين هاجموا أطراف دمشق « ونهبوا مغلًا كثيرًا وخربت بلدان كثيرة (٣٥) . » دلالة على الانسجام الذي اتسمت به علاقات ناصر الدين مع المسؤولين في دمشق نلاحظ أنه في نفس العام يخرج مع كبار المسؤولين من أرباب الوظائف لاستقبال النائب الجديد المعروف باسم قانصوه نائب البرج الذي كان معزولاً بمكة المكرمة ، إلا أنه صفح عنه ، وعين لنيابة الشام . وقدم قانصوه إلى الشام عن الطريق الغزاوي برفقة قافلة الحج الشريف (٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلاقة الودية مع المسؤولين في دمشق عادت وانتكست لأسباب لا تذكرها المصادر المتوفرة لدينا . وجل ما تورده أن نائب دمشق قانصوه ، خرج من صباح يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة سنة ٩٠٩ هـ / ١٨ نيسان ١٥٠٤ م ، بصكره وبالسلاح وقصد البقاع . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه النائب الذي قام بحرق بيت ناصر الدين بقرية مشغرا بالبقاع وكالعادة « خربت بلاد كثيرة من الظلم (٣٧) » . وقبل عودته إلى دمشق أوكل قانصوه أمر البقاع لإدارته المعروف باسم جانبك الفرنجي ، فما كان من ناصر الدين إلا أن هاجم جانبك وقتله وقتل معه « جماعة من شيوخ البلاد (٣٨) » .

ومن ضمن الزعامات المحلية التي حاربها ناصر الدين ، عبد الستار بن بشارة في قرية شيعين (٣٩) . إلا أن النجاح لم يحالف جيشه المؤلف من خمسة آلاف مقاتل بل خسر نحو مائتين منهم هذا بالإضافة إلى ما عاناه جيشه من الوحل بسبب هطول الأمطار (٤٠) . إزاء ذلك وجد النائب أن الأمر لا يحتمل المماطلة فجهز حملة شارك فيها مشاة من حارات دمشق ، دفع لكل فرد منهم « معلوما » مقداره خمسون درهما . ونظرا للسقم والمرض اللذين كان يعاني منهما النائب في ذلك الوقت ، فقد أوكل أمر قيادة هذه الحملة إلى أحد مماليكه . ولقد خرجت القوة باتجاه البقاع ليلة الاثنين ١٣ صفر سنة ٩١٠ هـ / ٢٧ تموز ١٥٠٤ م ، إلا أنها عادت بدون طائل عندما علمت بوفاة النائب (٤١) .

إن وفاة النائب قانصوه المحمدي كانت نهاية فصل من العلاقات السيئة ما بين ناصر الدين والمسؤولين المماليك . بل إن ابن طولون يذكر بأن ناصر الدين كان قد أرسل مشاة لمستلم دمشق الجديد ، قلج ، ودار المستلم بهم حول دمشق ينادي بالآمان وبأن لا يحمل أحد السلاح (٤٢) زيادة على ذلك عندما تعرض نائب بيروت سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، والذي كما يبدو كان من آل بحتر ، لصابون تعود ملكيته لناصر الدين بن

الحنش، وقام بطرحه على أسواق دمشق، خرج نائب دمشق، أركماس، الى سطح المزة، ربما كمظاهرة، من أجل نصره ناصر الدين بن الحنش ضد عدوه نائب بيروت. ويذكر ابن طولون في **مفاكهة الخلان** بأن النائب وصل الى البقاع حيث لحق به الحاجب الجديد جان بردي الغزالي وعادا معا الى دمشق مروراً بقبة يلبغا اليحياوي جنوبي دمشق (٤٣). وربما منذ هذه الرحلة أصبح جان بردي يقدر دور ناصر الدين بن الحنش كزعيم محلي وصاحب منزلة متنفذة في منطقة البقاع.

في ١٧ محرم سنة ٩١٢ هـ / ٩ حزيران ١٥٠٦ م خرج سيبي، نائب دمشق الجديد، على رأس قوة عسكرية الى بلاد البقاع من أجل القبض على ناصر الدين. إلا أن الفشل كان مصير حركته (٤٤) تلك، مثله في ذلك مثل سلفه. نتيجة لتكرار فشل جميع المحاولات العسكرية في القضاء على ناصر الدين، نجد أن النائب يقبل مبدا الوساطة. ففي صفر من العام ذاته « دخل الامراء بين النائب وبين مقدم البقاع ناصر الدين بن الحنش في الصلح على مال معين للنائب عليه مع عدم حضوره عليه (٤٥) » ولقد أتت تلك المصالحة أكلها فلم يعد ناصر الدين يدخل في حركات عصيان أو سوء تفاهم مع السلطة المملوكية، واستعاد منزلته السابقة بحيث يذكر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م على أنه نائب صيدا بالإضافة الى مقدمة البقاع (٤٦). ونجد أنه عندما دخل الى دمشق صباح يوم الخميس ١٦ ذي الحجة سنة ٩١٧ هـ / ٦ آذار ١٥١٢ م «... تلقاه المباشرون الى الصالحية وأتى الى النائب وهو يسير بالميدان الأخضر فسلم عليه طائفاً مدعياً ثم أتيا الى دار السعادة فخلع النائب عليه وعلى جماعته (٤٧) ». نجح ناصر الدين في أن يحافظ على هذه المنزلة المتميزة لدى المماليك، فنجد سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م من ضمن كبار الشخصيات المحلية التي كانت في استقبال السلطان المملوكي الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عند مروره بدمشق في طريقه الى حلب لمواجهة العثمانيين. وقدم للسلطان الغوري « مقدمة أخرى كثيرة من المال قيل ألف دينار ومن الخيل ومن الفهم ومن الجمال ومن البقر ومن الاوز ومن الدجاج ومن الزيت ومن العسل ومن الارز ومن الدبس وغير ذلك (٤٨) ».

بالرغم من الانتصار الذي أحرزه العثمانيون في ٢٤ آب ١٥١٦ م فان ناصر الدين لم يحول ولاءه عن المماليك بسرعة الى السادة الجدد بل اشترط مقابل استمرار تعاونه مع جان بردي الغزالي، الذي أصبح يدير شؤون المماليك المنهزمين، أن يولى نيابة حمص وأن يقوم الغزالي بقطع رأس أحد خصوم ناصر الدين المعروف باسم المقدم علاء الدين بن العماد المقدسي الشهير بابن العلاق. ولقد وافق الغزالي على جميع هذه المطالب، لا سيما أن ناصر الدين كان يتصرف في هذه المرحلة الانتقالية من مركز قوة

خاصة وأنه كان صهرا لأمير عرب بلاد الشام ابن جانباي البدوي ، الذي يصفه ابن طولون بـ « أمير الشام (٤٩) » . إلا أن انسحاب المماليك إلى مصر أرغم ناصر الدين على تحويل ولائه إلى العثمانيين .

ويذكر ابن طولون أنه مر يوم الأحد ثاني شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ / ٢٩ أيلول ١٥١٦ م على مخيم السلطان سليم ، فرأى ناصر الدين « فإذا به قد البسه باشاوات الخنكار خلعة وأعطوه سنجقا وزادوا على المقدمة اقطاع الامرية الكبرى بالشام واقطاع نوى واقطاع ذخيرة ابن السلطان والزموه باحضار العرب فالتزم بذلك . وان سحاء العثمانيين نحوه لم يقف عند هذا الحد فبالإضافة إلى مسؤوليته عن البقاع وما والاها ، ولي كلا من صيدا وبيروت (٥٠) » .

بعد الانتصار الذي أحرزه السلطان سليم الأول على المماليك في مصر ، فإن عددا من المماليك كان قد هرب والتجأ إلى الزعامات المحلية في بلاد الشام . ولقد بعث السلطان سليم برسائل إلى عدد من زعماء القوى المحلية في بلاد الشام ، كابن طربية (٥١) في مرج ابن عامر وكذلك إلى ابن الحنش يخبرهما عن انتصاراته . كما ويطلب منهما حفظ الطرق والبلاد والقضاء القبض على المماليك الهاربين والانجاز عليهم . ويتوفر في مكتبة طوب قبو باسطنبول ملخص رسالة بعث بها ناصر الدين بن الحنش بتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ / ٢٢ آذار ١٥١٧ م إلى السلطان يهنئه فيها بالانتصار على الجراكسة الظلمة ، ويعلمه أنه تتبع الفارين منهم . ولكنه ينفي في هذه الرسالة ما قد ينسب إليه من التسبب في الحوادث التي وقعت في كل من البترون وصفد . ويؤكد للسلطان أنه تعاون مع كل من نائب الشام وصفد . والجدير بالذكر أن أخبارا وصلت إلى صفد تفيد أن العثمانيين كانوا قد وهنوا أمام المماليك ، فقام عدد من « الفسق » يفتشون عن « الروم » (العثمانيين) لقتلهم فثارت الفتنة مما بين الطرفين (٥٢) . ويعود وينفي التهم التي الصقت به من قبل شخص يذكره باسم موسى التركماني ، فحواها أن ناصر الدين بن الحنش كان سيهجم على طرابلس الشام . والظاهر أن حوادث الشغب كانت قد امتدت إلى كل من الظنية والبترون ، فيبادر ناصر الدين في رسالته للسلطان إلى نفي أية علاقة له بها (٥٣) . كل هذه التهم التي ربما وصلت إلى مسامع السلطان هي التي دفعت به إلى عدم الاكتفاء بمخاطبة السلطان فقط ، بل نراه زيادة في الحيطة ، أو من باب إدارة الأمور ، يبعث برسالة إلى الوزير العثماني يونس باشا (٥٤) ، الذي كان برفقة السلطان سليم بمصر ، خلاصتها أن الضفينة والحسد والاغراض الانانية تتحكم بأهالي بلاد الشام الذين تحتدم العدواة بينهم ، وهم يرمون بعضهم البعض بأقذع الألفاظ ، وهكذا كان حالهم منذ زمن الجراكسة مما كان سببا في خراب البلاد . وبالرغم

من زجرهم للتوقف عن ذلك الا أنهم بعد انتصار السلطان سليم على المماليك لم يرتدعوا، بل أبقوا على عادة الدس ضد بعضهم البعض لدى نائب الشام (٥٥) العثماني ، مما تسبب في حصول بعض حوادث القتل . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، كما جاء في رسالته ، هو تفشي الفتنة التي ستؤدي حتما الى اغلاق الطرق وخراب الولاية . وبما ان وضع ناصر الدين رسمي وقانوني فانه التمس في رسالته ، من الوزير يونس باشا ان يوصل الى المسامحة الشريفة طلبه في اصدار مرسوم يمنع بموجبه الاصفاء الى اهل السوء ، ما دام جميع اهالي البلاد في طاعة السلطان . وينهي رسالته تلك بذكره لاحد حجاب دمشق في العهد المملوكي واسمه سنطباي (٥٦) . يعلم الوزير عنه بأنه مسكين وبائس (٥٧) ونظرا للمودة القديمة التي تربط بين سنطباي وناصر الدين فقد التجأ سنطباي هو وحريمه اليه ، فأرسل ناصر الدين بسنطباي بالامان الى والي دمشق شهاب الدين أحمد بن يخشى أوغلو الذي قام بسجن سنطباي حتى يشاور به السلطان (٥٨) .

ويستفاد من الاشارات المتفرقة ومن التهم التي يحاول ناصر الدين نفيها عن نفسه انه اوى عددا من المماليك الهاربين ، فيشير مثلا ابن طولون الى احد الامراء المماليك المعروف باسم الامير قرقماش ، امير اربعين الذي هرب بعد معركة مرج دابق ، والتجأ لدى الامير ناصر الدين بن الحنش ، ويذكر انه توفي في قرية جب جنين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م (٥٩) . لم يكتف ناصر الدين بن الحنش بهاتين الرسالتين ، بل نراه يبعث برسالة ثالثة الى الاغلب للسلطان سليم نفسه ويعود ليذكر فيها اصحاب الحسد والبغض وانه بريء الساحة مما ينسب اليه ، ويطلب في هذه الرسالة الكشف عن حاله واحواله . والذي يهمنا هنا ما ذكره من وقوع فتنة ما بين اهالي بيروت وبين حاكمها . ولكي يثبت عدم علاقته بتلك الفتنة فانه يلتمس من السلطان ان يسأل صدقه من خلال احد اقطاب الصوفية المقيمين في بيروت والمعروف باسم الشيخ محمد بن عراق (٦٠) (ت ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م) . كما ويذكر للسلطان بأن نائب طرابلس يلقي القبض على بعض الناس ويعذبهم من اجل ان يطعنوا به وهو الخادم المطيع وان تم الكشف عن الحقيقة فان في ذلك احسان اليه (٦١) .

على ما يظهر ، فان جميع تلك الذرائع التي ابداهها ناصر الدين لم تكف لازالة الشكوك لدى السلطان سليم من تأرجح ولاء ناصر الدين بن الحنش ، لذا نراه بعد عودته الى دمشق في ١٩ رمضان سنة ٩٢٣ هـ / ٦ تشرين اول ١٥١٧ م ، يولي محمد بن قرقماش النيابة على بيروت وصيدا وتقدمة البقاع وما والاها ، ويسترد ما اعطاه لناصر الدين من الاقطاعات، كاقطاع الامرية الكبرى واقطاع نوى وذخيرة ابن السلطان .

زيادة على ذلك، خرج السلطان بنفسه الى البقاع للقبض على ناصر الدين وعلى من لديه من الجراكسة الهاربين . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه السلطان الى عرب الجولان (٦٢) .

وضمن محفوظات مكتبة طوب قبو توجد رسالة بلغة عربية ركيكة موجهة من ناصر الدين بن الحنش الى السلطان سليم بعد طرده من البقاع وتسليمها لمحمد بن قرقماس ، يذكر فيها : انه بعد الانعام على الامير محمد بن قرقماس « ببلاذ المملوك ، أن جان بردي الفزالي كان قد توجه لتسليم تلك البلاد لمحمد بن قرقماس وانه وصل بعساكره الى صيدا ، ويذكر للسلطان انه مداوم وجماعته على الخدمة ، كما يضيف الى ذلك انه تلقى مراسيم شريفة من السلطان نفسه صادرة من منزلة قطية « يتضمن اطابة خاطر المملوك واستمراره على جاري عاداته في بلاده وعليه امان الله تعالى وامن رسوله ، والامان الشريف وان المملوك يضمن البلاد والطرق » ويذكر انه جاءه مثل ذلك بعد وصول المقام الشريف الى دمشق وانه يستمر على عاداته « من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرق والوقوف في الخدمة الشريفة » وانه ارسل ولده الى المقام الشريف وعاد مجبور الخاطر ومعه مرسوم « باستمرار المملوك في بلاده على عاداته واطابة خاطره بكل ممكن » . ويعود ويؤكد انه منذ وصول السلطان الى دمشق وانه مواظب على الطاعة واداء الواجب ويعود ويذكر انه ليس من الشيم السلطانية الاصفاء الى كلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والاراء الكاسدة » . ويذكر ان جان بردي الفزالي كان قد ارسل له وهو في بلاد التيم بأن يخرج من البلاد « وعدم حدوث خلل فيها وتطمين اهله ، امثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزين السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبيدها ، وابن سر نعمتها » . ويذكر انه جهز جماعة لخدمة جان بردي الفزالي ليتوجهوا معه لتسليمه صيدا وناحيتها عامرة أهلة . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، بعد ان يغادر السلطان سليم البلاد ، هو ان « يحدث في المملكة خلل من ساير اهل الفساد وربما ينسب للمملوك ، والمملوك يخشى من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها فان المملوك ما يمكنه ان يتوجه الى عند امير من الامراء يكون في خدمته ولا يرى على نفسه ان يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف » ويطلب من السلطان مرسوما شريفا « الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدائينه المشدودة في البقاع والساحل (٦٣) .

بعد مفادرة السلطان سليم لدمشق ، اوكل امورها الى الامير المملوكي جان بردي الفزالي الذي التقى في قتال مع ناصر الدين بن الحنش يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة ٩٢٤ هـ / ٢٧ نيسان ١٥١٨ م وكانت الواقعة بأرض جوسية من أعمال بعلبك

حيث أسر ابن الحنش وقطع رأسه وجهازه للسلطان . أما بقية انصار ناصر الدين فقد فروا (٦٤) . ولقد أوكل أمر بلاد البقاع « وما انضاف اليها » للامير سنان الرومي ويذكر ابن طولون أن جان بردي الغزالي كان قد خرج الى بيروت « ليأخذ سلب افرنج خرجوا من البحر وقتلهم أهلها ويتفقد أبراج ذلك الثغر في السلاح » الا أنه عاد الى دمشق فجأة خامس عشر ذي القعدة سنة ٩٢٦ هـ / ٢٨ تشرين أول سنة ١٥٢٠ م عندما جاءه اولاقي (مرسال) بخبر وفاة السلطان سليم . واثناء عودته مر بالبقاع وعزل سنان الرومي ، وولاهها للمقدم أحمد بن الحنش (٦٥) . وبذلك أعاد الاعتبار مرة أخرى لاسرة آل الحنش . وعلى الأرجح أنه أقدم على تلك الخطوة ليستفيد من نفوذ آل الحنش في البقاع ، استجلابا لخاطرهم وحشدا لهم ضد العثمانيين . ولقد شارك ابن الحنش في جيش الغزالي عند خروجه لحصار حلب . ومما تجدر الإشارة اليه هنا أن أول من قتل من العسكر العثماني المحاصر بحلب كان بنشاب من عسكر ابن الحنش (٦٦) . ومنذ ذلك الوقت نلاحظ أن المصادر لم تعد لذكر ابن الحنش ، وعلى الأغلب أنه بعد القضاء على الغزالي ، أما أن أحمد بن الحنش كان من بين القتلى أو أنه هرب من وجه السلطة وتوارى عن الأنظار .

وتجدر الإشارة هنا الى ما يذكره اسطفان الدويهي من أن قسما من سكان بلاد البقاع قد انتقلت واستوطنت في قرى فتقا وسواحل علما وفيطرون وفتقيع وعرمسون والجديدة (٦٧) . ويبدو أن قسما من أسرة الحنش قد هاجر واستقر في قرية فتقا وأصبحوا أمراءها ، ودخلوا في مؤامرة مع مقدم زوق مكاييل المعروف باسم ميخائيل لقتل منصور بن عساف (٦٨) ، وعندما ساروا اليه في غزير بهذه النية كان قد كشف خطتهم فاستضافهم وتخلص منهم وهم يتناولون الطعام كضيوف عليه وكان ذلك في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م (٦٩) .

وتذكر المصادر العثمانية شخصا مهما من آل الحنش يعرف باسم محمد ابن الحنش ، وقد أدرج اسمه في نظام التيمار وأعطى خمس حاصلات قرية رقادة نيابة كرك نوح ، كما وخصص له بالاضافة الى ذلك مزرعتي : تل ابن حسين ومزرعة دير الاماسي في نفس الناحية (٧٠) . بل ما هو أهم من ذلك أنه كان ملتزما للخاص السلطاني في كل من ناحيتي كرك ونوح والشوف حوالي سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . وتذكر المصادر كذلك أنه ذهب الى دمشق ومعه من ثلاثة الى أربعة آلاف قطعة ذهب من أجل تسليمها للخزينة ، الا أنه قتل هناك ، وأخذ مرافقوه ما لديه من مبالغ ، وطلب السلطان في حكم شريف من دفتر دار الشام باسترداد المبلغ بدون نقص (٧١) .

وباختفاء محمد ابن الحنش فسح المجال في منطقة البقاع لبروز أسرة بدوية سنية أخرى هي أسرة الفريخ لتملا الفراغ الناجم عن اختفاء أسرة آل الحنش . والجدير بالذكر ان أسرة تحمل اسم أسرة آل الحنش تذكر في القرن الثامن عشر في حمص (٧٢) ، ولا نعرف ان كانت هذه الاسرة الموجودة في حمص من سلالة أسرة آل الحنش في البقاع ام لا .

نلاحظ من خلال هذا الاستعراض التاريخي ان هذه الاسرة قد أنيطت بها مهام ادارية ، كالولاية على البقاع وصيدا وبירות وبعليك وحماء . كما انها التزمت الضرائب في منطقة البقاع خاصة في ناحية كرك نوح . وعند العودة الى دفاتر الطابو العثمانية نجد انها تقدم لنا صورة شبه مفصلة عن توزيع السكان وتعدادهم في تلك الناحية ، وتبين كميات الضرائب وأنواعها المحصلة من أهالي القرى .

نرفق بهذه الدراسة كشفا مفصلا بها من أجل فهم أدق لدور هذه الاسرة ضمن الاطار البشري . ونأمل من خلال هذه الشريحة اعطاء فكرة عن أنواع الضرائب والرسوم المجموعة على اساس الاقجة وهي وحدة النقد العثماني المسكوكة من الفضة ..



اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصائات سكانها بموجب دفاتر الطلوع التالية

طرد ١٧٧٧	طرد ٥٤٣	طرد ٤٠١	طرد ٢٨٣	طرد ٤٣٠	لحم القرية
(ح ١٠٠٥ / ١٥٩٦ م)	(ح ١٧٤٤ / ١٥٦٦ م)	(ح ٢٤٠٠ / ١٥٤٣ م)	(ح ١٢٣٧ / ١٥٤٣ م)	(ح ٩٢٠ / ١٥٢٣ م)	
ص ١٤ - ١٠	ص ٥٧٢ - ٥٧٤	ص ٢٤٥ - ٢١٥	ص ١١٢ - ١٧٧	ص ١١٩ - ٨٢	
ص ٢٤٠ - ٢٥٣					
١	٣٦	٤	٧	١٦	٢٠
٢	١٦٤	١٢	٢	١	١
٣	١٢	١٢	٢	١	١
٤	١٢	١٢	٢	١	١
٥	١٢	١٢	٢	١	١
٦	١٢	١٢	٢	١	١
٧	١٢	١٢	٢	١	١
٨	١٢	١٢	٢	١	١
٩	١٢	١٢	٢	١	١
١٠	١٢	١٢	٢	١	١
١١	١٢	١٢	٢	١	١
١٢	١٢	١٢	٢	١	١
١٣	١٢	١٢	٢	١	١
١٤	١٢	١٢	٢	١	١
١٥	١٢	١٢	٢	١	١
١٦	١٢	١٢	٢	١	١
١٧	١٢	١٢	٢	١	١
١٨	١٢	١٢	٢	١	١
١٩	١٢	١٢	٢	١	١
٢٠	١٢	١٢	٢	١	١
٢١	١٢	١٢	٢	١	١
٢٢	١٢	١٢	٢	١	١
٢٣	١٢	١٢	٢	١	١
٢٤	١٢	١٢	٢	١	١
٢٥	١٢	١٢	٢	١	١
٢٦	١٢	١٢	٢	١	١
٢٧	١٢	١٢	٢	١	١
٢٨	١٢	١٢	٢	١	١
٢٩	١٢	١٢	٢	١	١
٣٠	١٢	١٢	٢	١	١
٣١	١٢	١٢	٢	١	١
٣٢	١٢	١٢	٢	١	١
٣٣	١٢	١٢	٢	١	١
٣٤	١٢	١٢	٢	١	١
٣٥	١٢	١٢	٢	١	١
٣٦	١٢	١٢	٢	١	١
٣٧	١٢	١٢	٢	١	١
٣٨	١٢	١٢	٢	١	١
٣٩	١٢	١٢	٢	١	١
٤٠	١٢	١٢	٢	١	١
٤١	١٢	١٢	٢	١	١
٤٢	١٢	١٢	٢	١	١
٤٣	١٢	١٢	٢	١	١
٤٤	١٢	١٢	٢	١	١
٤٥	١٢	١٢	٢	١	١
٤٦	١٢	١٢	٢	١	١
٤٧	١٢	١٢	٢	١	١
٤٨	١٢	١٢	٢	١	١
٤٩	١٢	١٢	٢	١	١
٥٠	١٢	١٢	٢	١	١
٥١	١٢	١٢	٢	١	١
٥٢	١٢	١٢	٢	١	١
٥٣	١٢	١٢	٢	١	١
٥٤	١٢	١٢	٢	١	١
٥٥	١٢	١٢	٢	١	١
٥٦	١٢	١٢	٢	١	١
٥٧	١٢	١٢	٢	١	١
٥٨	١٢	١٢	٢	١	١
٥٩	١٢	١٢	٢	١	١
٦٠	١٢	١٢	٢	١	١
٦١	١٢	١٢	٢	١	١
٦٢	١٢	١٢	٢	١	١
٦٣	١٢	١٢	٢	١	١
٦٤	١٢	١٢	٢	١	١
٦٥	١٢	١٢	٢	١	١
٦٦	١٢	١٢	٢	١	١
٦٧	١٢	١٢	٢	١	١
٦٨	١٢	١٢	٢	١	١
٦٩	١٢	١٢	٢	١	١
٧٠	١٢	١٢	٢	١	١
٧١	١٢	١٢	٢	١	١
٧٢	١٢	١٢	٢	١	١
٧٣	١٢	١٢	٢	١	١
٧٤	١٢	١٢	٢	١	١
٧٥	١٢	١٢	٢	١	١
٧٦	١٢	١٢	٢	١	١
٧٧	١٢	١٢	٢	١	١
٧٨	١٢	١٢	٢	١	١
٧٩	١٢	١٢	٢	١	١
٨٠	١٢	١٢	٢	١	١
٨١	١٢	١٢	٢	١	١
٨٢	١٢	١٢	٢	١	١
٨٣	١٢	١٢	٢	١	١
٨٤	١٢	١٢	٢	١	١
٨٥	١٢	١٢	٢	١	١
٨٦	١٢	١٢	٢	١	١
٨٧	١٢	١٢	٢	١	١
٨٨	١٢	١٢	٢	١	١
٨٩	١٢	١٢	٢	١	١
٩٠	١٢	١٢	٢	١	١
٩١	١٢	١٢	٢	١	١
٩٢	١٢	١٢	٢	١	١
٩٣	١٢	١٢	٢	١	١
٩٤	١٢	١٢	٢	١	١
٩٥	١٢	١٢	٢	١	١
٩٦	١٢	١٢	٢	١	١
٩٧	١٢	١٢	٢	١	١
٩٨	١٢	١٢	٢	١	١
٩٩	١٢	١٢	٢	١	١
١٠٠	١٢	١٢	٢	١	١

تلمع أسماء قرى ناحية كرك و نوح و احصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

اسم القرية	ط.د. ٤٣٠	ط.د. ٢٨٣	ط.د. ٤٠١	ط.د. ٥٤٣	ط.د. ١٧٧
(ج. ١٩٣٠ / ١٩٢٢م) (ج. ١٩٣٧ / ١٩٢٠م) (ج. ١٩٥٠ / ١٩٤٢م) (ج. ١٩٧٤ / ١٩٦٦م) (ج. ١٩٨٥ / ١٩٧٦م)	٤٣٠ - ١١٩	١٧٧ - ١١٢	٢١٥ - ٢٤٥	٥٣٤ - ٥٦٢	١٠ - ١٤
ص ٨٢ - ١١٩	ص ١١٢ - ١٧٧	ص ٢١٥ - ٢٤٥	ص ٥٣٤ - ٥٦٢	ص ١٠ - ١٤	ص ٢٤٠ - ٢٥٣
٦ بحوشية	٤	—	٤	—	٥
مجرد	٢	—	٢	—	٢
امام	—	—	—	—	—
٧ براق البصل	١٣	١٦	١٨	١١	٩ لكن مجموع
مجرد	—	٢	٦	١	٤ الاسماء
امام	١	١	١	—	— فقط
٨ بشوات	١٦ نصارى	٤٤	٣١	١٠	٨
مجرد	—	٥	١١	—	٢
امام	—	—	—	—	—
٩ بودية	٢٨	٤٧	٤٥	٥٤	٤٠
مجرد	٥	—	٥	١	١٥
امام	١	—	١	—	—
١٠ بيت سابه (شامة ٢)	٨	١٨ (جاءت خطأ ٨)	١٩	١٩	٢٦
مجرد	٢	٤ ومجموع	٤	١	١٣
امام	١	الاسماء (٢٢)	١	—	١
١١ بيت نايل (مايل)	٢٢	٤٩	٢٨	٣٧	٢٦
مجرد	٤	—	١٢	٣	١٣
امام	١ + ٢ اعمى	—	١	—	١

تلحق أسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطبو التالية

ط.د. ١٧٧	ط.د. ٥٤٣	ط.د. ٤٠١	ط.د. ٢٨٢	ط.د. ٤٢٠	اسم القرية
(ج. ١٠٠٥٩٦/٥١٠٠٥٣)	(ج. ١٩٧٤ / ١٥٦٦ م)	(ج. ١٩٥٠ / ١٥٤٣ م)	(ج. ١٩٣٧ / ١٥٢٣ م)	(ج. ١٩٢٠ / ١٥٢٣ م)	
ص ١٤ - ١٠	ص ٥٦٢ - ٥٢٤	ص ٢٤٥ - ٢١٥	ص ١٧٧ - ١١٣	ص ١١٩ - ٨٢	
ص ٢٤٠ - ٢٥٢					
٥٠	٥٢	٣٥	٥٦	٢١	خانة
١٥	٣ + ٣ مصاق	٨	-	٧	مجرد
-	-	١	١	١	امام
٢٤	٣٢	١٢٦	١١٣	٩٤	خانة
٨	-	٣٦	-	١٠	مجرد
-	-	٢	-	٢	امام
٤٤	٥٩	٦٣	٧٠	٤٨	خانة
١٥	-	١١	-	١	مجرد
-	-	١	-	١	امام
٣٥	٣٩	٣٦	٥١	١٨	خانة
١١	٧	٢	-	٦	مجرد
-	-	١	-	١	امام
١٥					ثيها
١٦					حارسا (٩)
١٧					حدث الفستق
١٢٠	١٥٤	١٧٩	٢٥٢ (٨٧ خانة محلة يمن)	٩٩	خانة
٤٠	٥	٣٥	١٦٥ خانة قيس	١٩	مجرد
-	١	٢	(١٩ مجرد قيس)	١٨	امام
				١	

تليق أسماء قرى ناحية كرك نوخ واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطوبو التالية

ط.د. ١٧٧	ط.د. ٥٤٣	ط.د. ٤٠١	ط.د. ٣٨٣	ط.د. ٤٣٠	لحسم القرية
(ح. ١٠٠٠ / ١٥٩٦)	(ح. ٨٧٤ / ١٥٩٦)	(ح. ٨٩٥ / ١٥٩٢)	(ح. ٨٩٣٧ / ١٥٩٢)	(ح. ٨٩٢٠ / ١٥٩٢)	
ص ١٠ - ٤٤	ص ٥٢٢ - ٥٢٤	ص ٢٤٥ - ٢٤٥	ص ١٧٧ - ١١٢	ص ١١٨ - ٨٢	
ص ٢٤٠ - ٢٥٢					
١٦	٢٣	١٤	١٥	١٣	خانة
٧	-	٩	٦	-	مجرد
-	-	١	١	١	امام
١٥	٢٠	١٩	٢٦	١١	خانة
٥	-	٦	-	٢	مجرد
-	-	١	-	١	امام
٦١	٨٧	١٣٠	١٢١	٩٧	خانة
٢٠	٣	٤	١٢	٩	مجرد
					امام
٢٥	٥٠	٤٢	٥٥	لم يذكر أسماء	خانة
١٥	-	٢٣	١٠	السكان ولا	مجرد
-	-	١	-	عدد هم	امام
(لكن المجموع)					
٤٢ (سجل على النحو)	٣٦	٣٣	٥٨	٢٣	خانة
٩٠ (التالي خطأ)	١٦	١٦	-	٣	مجرد
١ (خانة مجرد امام)	-	١	١	١	امام
١ ١٠ ٢٤)					

تليق اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دوائر المطابع التالية

اسم القرية	ط.د. ٤٢٠	ط.د. ٢٨٣	ط.د. ٤٠١	ط.د. ٥٤٤	ط.د. ١١٨٧
(ج. ٨٢٠ / ١٥٢٤) (ج. ٨٩٣٧ / ١٥٢٠) (ج. ٨٩٥٠ / ١٥٤٢) (ج. ٨٩٧٤ / ١٥٦٦) (ج. ٨١٠٠ / ١٥٩٦)	ص ١١٩ - ١٨٢	ص ١١٢ - ١٨٧	ص ٢١٥ - ٢٤٥	ص ٥٢٤ - ٥٦٢	ص ١٠ - ١٤ و ص ٢٤٠ - ٢٥٢
٣٢ قوساية (لا قوسانة)	خانة مجرد امام	٨٣ ١٩ ١	١٧٦ ١٧ -	٩٦ ٦٤ ١	١٥٢ - -
٣٣ نفس كرك نسوح	خانة مجرد امام	١٢١ ٤٥ + ٢ خطيب ٢	٥٩٠ - -	٢٠٠ ٨٢ ٤١٣	٥٢٠ ٧٥ ١
٣٤ كفردان	خانة مجرد امام	١٩ ٦ ١	٢٢ ٣ -	٢٧ ٥ ١	١٨ ٢ -
٣٥ كفرديش	خانة مجرد امام	١١ - ١	٤٥ - -	٢٤ ٨ ١	٣٦ ٤ -
٣٦ كفرديد	خانة مجرد امام	٢٠ ٤ ١	٥١ ٤ ١	٣٧ ١٠ ١	٥٤ ١ -
					٣٤ لكن المجموع ٣٨ نفرا

١
١
١

تجميع أسماء قرى ناحية كركه نوح واحصاءات سكانها بموجب دوائر الطلوع التالية

اسم القرية	ط.د. ٤٣٠	ط.د. ٣٨٣	ط.د. ا.د. ٤٠١	ط.د. ٥٤٣	ط.د. ١٧٨
	ج ١٠٩٢٠ / ١٠٥٢٢ (ط.د. ٣٨٣ / ٣٨٣٧) (ح ١٠٥٢٠ / ١٠٥٤٣) (ح ١٠٩٧٤ / ١٠٩٧٦) (ح ١٠٩٩٦ / ١١٠٠٥)	ص ١١٢ - ١٧٧	ص ٢١٥ - ٢٤٥	ص ٥٣٤ - ٥٦٢	ص ١٠ - ١٤ ص ٢٤٠ - ٢٥٣
٣٧ كوسته	خانة مجرد امام	غير مذكورة	٦	٧	٥ ٢ -
٣٨ لمونة	خانة مجرد امام	٩ (٣٦) ١٠ (٣٤) نصاري	٨ (٨٠) ٣٣ نصاري	٨ (٨٠) ٣٣ نصاري	٥ (١٤) نصاري ٣ (٦) نصاري -
٣٩ معصيرين ؟ معوان ؟	خانة مجرد امام	١٥ ٤ ٣	٣٨ - -	١٤ ٦ ٣	١٣ - ١١
المجموع	خانة مجرد امام سيد شريف	٣٢٠ + ١٢٢٩ ٣٣ ١٩٩ ٣١ ٢	٢٦٦ + ٢٦٤٧ ٨ ١٧٤ ١٤	٤٧٧ + ٢٠٧٢ نصاري ٨ ٣٤١ ٣٦	٤٠٤ + ٢٢٤٢ نصاري ٢٠ ١٨٦ ٤
				٤٨٣ + ١٧٥٧ نصاري ٧٥ ٤٥٣ ٨	
					٤٨٣ + ١٧٥٧ نصاري ٧٥ ٤٥٣ ٨

نلاحظ عند استقراء الارقام الواردة في هذه الدفاتر ما يلي :

١ - الزيادة المضطردة والملاحظة في عدد السكان المسلمين على مستوى الاسر (الخانات) . وجاءت هذه الزيادة ، على الأرجح نتيجة للاستقرار الذي وفره العثمانيون للبلاد في مطلع عهدهم بها ، ثم نلاحظ أن هذه الزيادة تأخذ بالهبوط في نهاية القرن السادس عشر . وهاتان الملاحظتان تتوافقان مع ما لوحظ في بقية النواحي التابعة لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ولم يستطع الباحثون الى الآن ، اعطاء تفسير مقنع لظاهرة النقصان هذه . وهناك تخمينات لتفسير هذه الظاهرة كانتشار الامراض والابوة او موجات الجراد والكوارث الطبيعية . ولكن عند دراسة الشواهد التاريخية المتوافرة في المصادر التاريخية لانجد ان المنطقة كانت قد تعرضت لمثل تلك النكبات بشكل مكثف يدعو الى حدوث هذا الهبوط في مجموع السكان . وهناك احتمال آخر ، ان مجموع عدد السكان ، في حقيقة الامر لم يهبط بهذا الشكل ، بل ان الادارة العثمانية والقائمين على امر الاحصاءات لم يعودوا دقيقين في اجراء احصاءاتهم السكانية .

٢ - نلاحظ ان عدد المجردين المسلمين كان يتأرجح ما بين الزيادة والنقصان ، ثم يعود الى الارتفاع في نهاية القرن السادس عشر ، وربما كان مرد ذلك الى حالة عدم الاستقرار وانتشار الاضطرابات الداخلية التي شهدتها بلاد الشام في اواخر القرن السادس عشر .

٣ - فيما يتعلق بالسكان المسيحيين ، نلاحظ الزيادة المضطردة بأعدادهم ولا نلاحظ هبوطا بارزا كالذي لاحظناه في احصاءات السكان المسلمين . وربما اهتم رجل الاحصاء العثماني بالتدقيق بأعداد المسيحيين لاغراض جمع الجزية .

٤ - اذا ما نظرنا الى مجموعة الائمة والخطباء نجد ان عددهم قليل بالنسبة لمجموع عدد السكان من المسلمين . ولعل مرد ذلك ان نسبة مهمة من سكان كرك نوح كانوا من الشيعة ، هذا مع ان الدفاتر العثمانية المعروفة بالطابو لم تشر الى ذلك ، وكما هو معروف فان الدولة العثمانية من الناحية الرسمية لم تعترف بالطوائف الشيعية واعتبرت الجميع سنة . واذا صحت هذه الملاحظة فانها لم تكن تعفي رجال الدين من الشيعة من الضرائب على غرار رجال الدين السنة الذين كانوا يعفون من الموارض الديوانية ومن التكاليف العرفية . ويجدر بنا هنا ان نلفت النظر الى اشارة

أحد الدفاتر لثلاثة من السادة وإشارة دفتر آخر إلى أربعة وأربعين من الإشراف . وكما هو معروف فإن كلا من السادة والإشراف كانوا يعفون من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية . كما أن وجودهم بهذا العدد البارز يلفت النظر إلى وجود عنصر شيعي بارز في المنطقة .

٦ - أبرزت هذه الدفاتر ، التقاليد الإدارية العثمانية في تدوين وإحصاء أعداد المهاجرين والمرضى والعميان وأهل العاهات من السكان ، بهدف إعفائهم من الضرائب .

٧ - يلاحظ وجود تجمعات سكانية كبيرة في كل من القرى التالية : حدث الفستق ، دارية ، الفرزل ، زحلة ، نفس كرك نوح وتمنين التحتا .

٨ - من الأمور اللافتة للنظر أن دفتر رقم ٢٨٣ (ح ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م) عند تعداد سكان قرية حدث الفستق ، قد قسم السكان على أساس يمنية وقيسية ، وأن كلا منهما كان له محله الخاصة به .

٩ - نلاحظ أن مجموع السكان كانوا من العاملين في الزراعة ولا تشير الدفاتر إلى وجود عناصر بدوية أو تركمانية في تلك الناحية .

١٠ - يلاحظ عدم التطابق ما بين الأسماء المدونة وما بين المجاميع المرفقة في آخر قائمة الأسماء . وهذا أمر معروف لدى الباحثين والدارسين الذين توفروا على دراسة دفاتر الطابو العثمانية .

أن تناول الباحثين لموضوع الأوقاف في بلاد الشام جاء لما ومقتضيا ، ففي الوقت الذي نجد بعض الدراسات الجادة عن الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٧٣) ، لا نجد ما يوازيها في الكتابات التاريخية التي عالجت بلاد الشام . لقد قامت بعض المحاولات من أجل نشر بعض الوقفيات المتعلقة في بلاد الشام (٧٤) ، إلا أن كميات الأوراق الوقفية المتوافرة تستدعي من الباحثين دراستها على ضوء السجلات والدفاتر العثمانية . وأنا إذ أقدم نص وقفية الأمير محمد بن ناصر الدين بن الحسن على مقام النبي نوح في كرك نوح من بلاد البقاع ، نجد أن دفتر طابو ٥٤٣ ، يقدم كغيره من الدفاتر مادة تاريخية ثرة عن الأوقاف ، الذرية منها والخيرية . ومما يستلفت النظر هنا كثرة أوقاف العمارة في قرى ناحية كرك نوح ومزارعها التي شيدها السلطان سليمان القانوني في مدينة دمشق الشام . فيورد لنا هذا الدفتر أسماء القرى التالية في ناحية كرك نوح على أنها من أوقاف هذه العمارة : أريث ، بيت شامة ، تمنين الفوقا ، دلهمية ، فرزل

قصر بنا ، وقوساية . اما اوقاف معلم السلطان سليم الثاني ووالي الشام ، فيما بعد ،
لالا مصطفى باشا صاحب الخيرات والعمائر العديدة فقد شملت اوقافه في بلاد الشام
عددا كبيرا من القرى والمزارع والبساتين والدكاكين والطواحين . فمن اوقافه في
ناحية كرك نوح ، قسم من قرية اشرفية وعدد من المزارع واذا ما دققنا في وقفية لالا
مصطفى باشا فاننا نجد تطابقا كبيرا بين ما توردته الدفاتر وما تذكره وقفيته
المنشورة (٧٥) . ومن جملة الاوقاف الخيرية ، واردات قرية حشمش المخصصة كوقف
لجامع السلطان الملك الاشرف سيف الدين برسباي ، وما يرد من قرية دارية الذي
كان ينفق على برج القنطاري بطرابلس الشام ، كما نلاحظ أن نصف ما يتحصل من
قرية كفردان كان يخصص للانفاق على البرج في بيروت ، واذا ما اجلنا النظر في
الجدول المرفق فاننا نتبين بالاضافة الى ذلك اوقافا على المدارس والمساجد وعلى فكاك
الاسرى . كما نجد ذكرا للوقف الذري ومنها قرية بيت نايل اذ كانت بكاملها وقفا ذريا
محبسة من قبل محمد منجك .

ومن ناحية ثانية نجد ذكرا لاسماء القرى والمزارع التي كانت تجبى كجزء
من خاص العاملين في دفتردارية دمشق الشام ، كقرية كفردان ، وقرية تربل التي
كانت مقطعة لمراد بن علي دفتر دار الخزانة العامة ببلاد الشام ، ويلاحظ ادماج زعيم
اسرة آل الحنش ، محمد بن ناصر الدين ، في نظام التيمار فخصص له ربع قرية رقادة
مع قسم من حاصلات مزرعة وقسم من مزرعة ثانية تابعة للقرية المذكورة .

اما انواع الضرائب التي كانت تجبى والمبينة في الجدول المرفق فان ضيق المجال
لا يفسح لنا أن نستطرد في تحليلها ووصفها ، ونكتفي منها بالاشارة الى الدراسات
الحديثة التي تمت مؤخرا وتناولت هذا الموضوع (٧٨) .



(الضرائب تدفع بالاجرة - وحدة النقد العفاني للخدمة من الخدمة)

- 117 -

الملاحق

- ١ - ترجمة رسالة ابن الـهنش الى السدة السعيدة ٢٨ صفر ٩٢٣ هـ / ٢٢ آذار ١٥١٧
 - ٢ - ترجمة ملخصات رسائل من ابن الـهنش الى السلطان سليم وليونس باشا، والى خير بك .
 - ٣ - رسالة ناصر الدين ابن الـهنش رقم ١٠٧٣٤ الى السلطان سليم .
 - ٤ - وقفية الامير محمد بن ناصر الدين المعروف بالـهنش .
 - ٥ - ترجمة الحكم السلطاني الشريف ، ١٧ صفر سنة ٩٧٨ / ١١ تموز ١٥٧١ .
- وثيقة رقم ٦٣٤١ المحفوظة بمكتبة طوب قبو ، باسطنبول
- ترجمة مكتوب ابن هنش الوارد الى السدة السعيدة

بعد تقبيل الارض عند حضور الصدقات الشريفة ، بورود المراسيم الشريفة لعبدكم ، والمتضمنة ما من به الله تعالى من النصر على الجراكسة الظلمة ومن تملك السلطان لتخت يوسف عليه السلام وتتضمن هذه المراسيم الشريفة الذكر بأن عددا من اصحاب السيوف الجراكسة قد هربوا الى هذه الجهات ، ولما يعرف عنا وعن رجالنا من اليقظة فان المطلوب ملاحقة هؤلاء الظلمة والقاء القبض عليهم وقتلهم .

وانه بعد ان تسلم المراسيم الشريفة قراها على مسامع الجميع وعلى رؤوس الاشهاد ويشهد الله ورسوله انه قد زاد سروره وسجد شاكرا لله على نعمته التي اسداها للاسلام والمسلمين كما انه كتب الى سائر الجهات والمواضع التي يعتمد عليها من اجل القاء القبض على (السيوف) الهاربين ، واوعز الى كافة الاطراف انه اذا قبض على احدهم ان يقتل حالا . كما يذكر انه لا يوجد بطرفه أي خلاف وانه يعمل حسب ما هو وارد في المراسيم الشريفة حيث انه واحد من خدم الاستانة ومعترف بفضلته وصدقه واخلاصه . ومنذ ان توجه الركاب الشريفة الى مصر المحروسة عم البلاد الامن واثبت اجتهاده في احسن الطرق كما انه خدم نائب الشام ولم يتوان في خدمة الصاكر المنصورة مهما كان (مستوى) من حضر منها ولو كان عبدا اسود لقام على خدمته واكمل ما يريد ويبقي . وهذا ديدنه في كافة اطراف البلاد . كما انه يقسم

انه منذ أن تحرك الركاب الشريف في البلاد الشامية وبعد المغادرة منها الى القاهرة المحروسة فان أحدا من الصاكر المنصورة لم يفقد ولا درهما واحدا ولله الحمد والمنة. كما يريد أن يبلغ المسامع الشريفة انه عندما غادرت متوجهة الى القاهرة بحرز الله وسلامته وقع في صفد فتنة وقتال بسبب اعتقال شخص من اهالي صفد وكان الخلاف بين اهالي صفد ونائبها . وانه (ابن حنش) حالما اطلع على هذا الامر يشهد الله انه جمع رجاله فورا وارسل الى نائب صفد : انه اذا اراد التوجه الى الشام فهو على استعداد لمساعدته للذهاب الى الشام واذا اراد التوجه الى مصر فهو على استعداد لآخذه الى مصر ولكن نائب صفد ارسل شاكرا هذا العرض ويصر على البقاء في صفد ، مقررا تخويف الاهالي بالسلطة الشريفة وبالسطوة . وبقي الوضع على هذا المنوال ثلاثة أيام لم ينزلوا من القلعة وبعدها جمع الاعيان (ابن حنش) وشرح لهم طبيعة الحال على صورة جلية واضحة ولكن والي صفد لم يقبل التفاوض . وبعد ذلك ارسل (ابن حنش) رسالة تهديد الى اهالي واعيان صفد وحذرهم من قوة وسطوة الدولة وسلطانها فتفرقوا في جميع انحاء البلاد بعدما خافوا من الانتقام خاصة بعدها علموا بالنصر والاستيلاء على العرش الشريف (مصر) . وتوزعوا على سائر الاراضي ومن هؤلاء جماعة يدعون جماعة ابن حامد شيخ الاسلام وشخص مشهور باسم ابن دوادار وهو قاضي صفد وقد حضر الى ولاية خادمكم المطيع هذا . وعندما عرف نائب صفد ذلك ارسل اليهم رسالة يستدعيهم للخدمة لديه وقد استدعاهم ابن حنش اليه وطيب خاطرهم وضمن لهم الوصول الى كل الخير مع الصدقات الشريفة وقد اعلم سابقا بهذا صاحب الصدقات الشريفة واسع الحلم (السلطان) . وقد اعتذروا بشدة وابدوا ندمهم واسفهم حتى انهم طلبوا أن يسجنوا جزاء لهم على وقوعهم في خطيئة الجهل والخوف من نائب صفد وقد عرضت سابقا هذه القصة على المسامع الشريفة مع طلب الرحمة من الصدقات الشريفة . وقد صدر مرسوم شريف بالامان لهم .

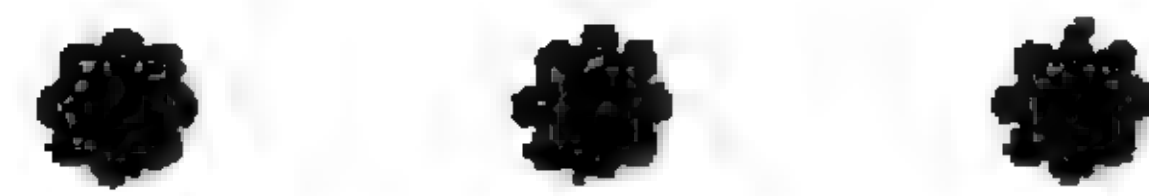
ومن القضايا التي يريد أن يعرضها على المسامع الشريفة ايضا انه يوجد بطرابلس من اهالي طرابلس قاضي حنفي كما يوجد نائب طرابلس في زمن الجراكسة دواداري وخزينة داري (صاحب الخزينة) وقد حضروا لطرف ابن حنش واعلنوا ولاءهم واخلاصهم . ومن أجل زيادة التأكيد والابرام على طاعتهم فانهم مستعدون للذهاب والتمسح بالاعتاب السنية والدخول في الطاعة الشريفة . وقد افادوا انهم بينما كانوا يرافقون مجموعة من حريم طرابلس بفية تأمينهن بمكان أمين مرورا بقرية اسمها البترون وكان في هذه القرية مجموعة من الاكراد وقد باتوا تلك الليلة في هذه القرية وفي الليلة الثانية كان يوجد شخص اسمه موسى التركماني وكان عدوا لهؤلاء الاكراد وقد ذهب الى نائب طرابلس وأعلمه أن قاضي طرابلس والدوادار وبعض رجال ابن الحنش قد حضروا

ومرادهم الهجوم على طرابلس وعندما سمع نائب طرابلس هذا الامر توجه فورا الى البترون وحاصر من فيها من الاكراد وقتلهم جميعا وبلغ عدد القتلى سبعين نفرا بما فيهم القاضي وقد جرى كل ذلك بسبب اغراض موسى التركماني هذا . وقد حاول الدوادار الهرب والذهاب الى مكان اسمه ظنية ولكن الخيالة تتبعته وقبض عليه وقتل فورا . كما ذكر (اي موسى التركماني) أن ابن حنش هو الذي جهز هؤلاء وأرسلهم الى هناك .

ان ابن حنش خادمكم المطيع يشهد الله ورسوله ويقسم على القرآن المجيد انه لم يرسل أي فرد من جماعته لا مع هؤلاء ولا مع غيرهم الى أي مكان كان وانه لم يغادر مكانه ولم يركب حصانه وانه لم يذهب الى أي مكان كان بغير حاجة ماسة . وخوفا من كلام المفسدين فانه يتوجه الى الصدقات الشريفة ويسألها ان ترسل استفسارا عنه عما اذا كان قد ركب للحرب أم لا ، منذ أن توجه الركاب الشريف : ان ابن حنش خادمكم المطيع قائم على خدمة نائب الشام وكان قد أرسل خبرا مع القاصد (رجل نقل الاخبار والرسائل) في تاريخ سابق ، وقد جهز الهجانة القادمين في الخدمة الشريفة وهو حاليا يهيء قاصده لتهنئة الصدقات الشريفة لما منه الله تعالى على المسلمين ، وان خادمكم المطيع هو خادم صدقاتكم الشريفة ويدعو الله بدوام أيامكم وعزكم وليكن دعاؤه مقبولا ولينصر الله الصدقات الشريفة ويجعل الظفر دوما في ركبها على كل من عاداها . فليقبل الله هذا الدعاء من خادمكم المطيع ومن داعي مخلص ، آمين بمحمد وآله وصحبه أجمعين .

الثامن والعشرين من شهر صفر / ثلاث وعشرين وتسعمائة

(٢٢ آذار ، ١٥١٧ م)



١ - وفي مكتوب ثان من ابن حنش مؤرخ بالعاشر من ربيع الاول (٢ نيسان ١٥١٧ م) وحسب ما ورد بشكل مفصل فانه يذكر وجود الضفينة والبفض من بعض اصحاب الحسد ضده ويطلب الكشف عن احواله ويشير الى انه قد وقعت فتنة بين اصحاب الرتب والحكام ولكن يوجد شخص لايشك بأنه من أولياء الله الصالحين ولا يوجد أي شبهة بولايته وهو الشيخ ابن عراقي ومعروف عنه انه لا يقول أي شيء غير الصدق ويطلب السؤال عنه (عن ابن حنش) .

كما انه علم ان نائب طرابلس قد قام بتعذيب وقتل بعض من قبض عليهم حتى يدلوا بما يريد هو عن خادمكم المطيع (ابن حنش) والله وحده عليم بأحواله وهو متأكد انكم سوف تحسنون اليه بالكشف عن الحقيقة .

٢ - وقد ورد في مكتوب آخر من ابن حنش المذكور لحضرة يونس باشا ومؤرخ الثامن والعشرين من شهر صفر (٢٢ آذار ١٥١٧)، بعد ان فصل بكتابه هذا تقريراً عن جملة أحواله ذكر في الحواشي انه من الامور المهمة التي يجب ان تصل الى المسمع الشريفة هو ان العدا والمشااحنات الشخصية والعداوات كثيرة ولذا تجدهم يتكلمون عن بعضهم البعض الكلام السيء مما يؤدي الى ايقاع الناس ببعضهم البعض بعداوات ومشاحنات .

وان هذه الظاهرة كانت موجودة لديهم من زمن الجراكسة ومنذ ذلك الزمان وهم يتعرضون الى كافة انواع الزجر ولكنهم لم يرتدعوا وفي الوقت الحاضر وبعد الاستيلاء على العرش الشريف (عرش مصر) فانهم يأتون الى نائب الشام ويتحدثون اليه بأحاديث الفتنة مما أدى الى ازاحة الدماء والقتل وان خادمكم المطيع (ابن حنش) يخاف ان تزداد الفتنة وتمتد وتغلق طرق الولاية وتصبح الولاية خراباً .

ان اهل هذه الولاية هم رعايا المقام الشريف وحيث ان مقر خادمكم هو قانوني ورسمي وبهذا الخصوص ارجو ان يصل الى المسمع الشريفة ضرورة ارسال مرسوم شريف يمنع المفرضين عن تماديهم في الفتنة ويمنع اعتقال اي شخص الا لجريمة ارتكبتها حيث ان جميع أهالي بلاد الشام هم في اكمل الطاعة والولاء ولا يوجد بينهم اي خارج او متمرّد وسيسجل هذا الثواب في الكتاب المحفوظ وفي هذا الباب الاجر العظيم والخير الكثير .

كما يرجو (ابن حنش) ان يصل الى المسمع الشريفة ايضاً انه يوجد شخص باسم سنطباي كان حاجباً سابقاً في الشام في زمن الجراكسة وكان يوجد بينه وبين ابن حنش مودة سابقة منذ زمن بعيد وقد التجأ وحريمه واهل بيته الى خادمكم المطيع (ابن حنش) وأعلن طاعته وولائه . ويتضرع خادمكم المطيع (ابن حنش) بالاحسان اليه بالامان الشريف وانه يقبل الاعتاب السنية وانه يريد ان يدخل في سلك الخدم الشريف . واذا غاب المذكور بيت ابن حنش فانه لو كان ابنه فلن يكون له عقاباً سوى قطع راسه . وهو شرقي مسكين وقد التجأ الى حريم خادمكم المطيع (ابن حنش) وقد اتخذ ابن حنش وسيلة للوصول الى الصدقات الشريفة وان ابن حنش هو مملوك الصدقات الكريمة والمراحم الشريفة وانه واقف على قدم الطاعة .

٣ - كما أن المکتوب الذي بعثه ابن حنش المذكور الى خير بك هو نفس المکتوب الذي بعثه الى حضرة الباشا بلا زيادة ولا نقصان .

كتاب ناصر الدين ابن الحنش الى السلطان سليم الاول

ماخوذة عن وثيقة رقم ١٠٧٨٤ المحفوظة بمكتبة طوب قيو ، باستنبول

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

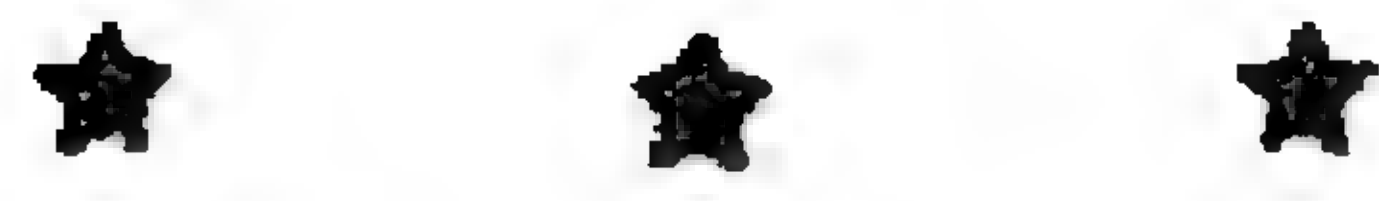
الملكي المظفري القضائي

يقبل الارض وينهي أن الموجب عرضها على السامع الكريمة . . . بالله تعالى انه ليس بخاف من العلوم الكريمة ما انصمت به الصدقات الشريفة الخندكارية ضاعف الله شرفها على الامير محمد بن قرقماس ببلاد الملوك ، وتوجه الركاب الكريم . . . الكافلي ملك الامراء جان بردى الغزالي ومن صحبته من العساكر المنصورة الى بلاد سيدي . ولم يعلم الملوك سبب ذلك ، والذي . . . انه ما كان هذه المدة مقيم في بلاده الا بالمراسيم الشريف . . . الشريف وما وقع من الملوك تقصير في خدمة المقام الشريف ولا جماعته

ولما حل الركاب الكريم بمنزلة قطية عائدا من القاهرة برزت المراسيم الشريف والمراسيم الكريمة على يد أحد الخاصكية بالخدمة الشريفة يتضمن اطابة خاطر الملوك واستمراره على جاري عادته في بلاده وعليه امان الله تعالى وأمان رسوله ، والامان الشريف وان الملوك يضمن البلاد والطرق ، قابل الملوك المراسيم الشريف والكريمة بمزيد السمع والطاعة وتضاعفت ادعيته بدوام الايام الشريفة والكريمة ولما حل الركاب الشريف بدمشق المحروسة ورد على الملوك امثلة كريمة من الصدقات ومن المقر الاشرف محمد باشا ومن المرحوم حليمي شلبي بمعنى ذلك ، وفي مثال المشار اليه على لسان المقام الشريف عز نصره يخبر الملوك في ثلاث وجوه : اما ان الملوك يحضر نفسه الى الاعتبار الشريفة بعد ايقاع حلف شريف ، او يجهز أحد . . . خدمة الابواب الشريفة او يستمر على جاري عادته ويدعو للمقام الشريف ويستمر على ما كان . . . من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرق والوقوف في الخدمة الشريفة . وهذه الثلاث وجوه متساوية الاطراف عند المقام الشريف . هذه عبارة المثال العلوي للمشار اليه فلما قرا الملوك المثال الكريم المشار اليه جهز ولده السى خدمة

الابواب الشريفة وعاد مجبور الخاطر وورد على يده مرسوم شريف باستمرار المملوك في بلاده على عادته واطابة خاطره ، بكل ممكن ، فتضاعفت ادعية المملوك في الصحايف الشريفة . هذا والمملوك من حين حلول الركاب الشريف من المملكة الرومية . . . والى يوم تاريخه لم يقع من المملوك تقصير في حق احد من ممالك المقام الشريف ولا في مهم من المهمات . . . ولم يحدث من المملوك ما يغير الخواطر الشريفة وما علم المملوك له ذنب سوى اخلاصه في الطاعة الشريفة ووقوفه على اثبت قدم والمملوك يحاشي . . . الشريفة السلطانية من نقض كلامها الشريف بغير سبب يقتضي ذلك فان كلام المملوك ملوك الكلام . وما شهر فيه عن المقام الشريف ولا عن ابائه واجداده سقى الله عهدهم صوب الرحمة والرضوان . والصدقات الكريمة لاتصفي لكلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والآراء الكاسدة . . . والمملوك ما قصد ذلك الا ليزيد ما . . على الصدقات الشريفة والكريمة ان شاء الله تعالى . ولما حل ركاب الكافلي جان بردي الغزالي بوادي التيم جهر للمملوك مثال كريم يتضمن طواع المملوك من البلاد وعدم حدوث خلل فيها وتطمين أهلها ، امثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزيد السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبدها ، وابن سر نعمتها ، وجهر المملوك جماعته الى خدمة المشار اليه ليتوجهوا صحبة ركابه الكريم الى مدينة صيدا ويسلموه الناحية المذكورة ، عامرة أهلة امثالا للمراسيم الشريفة ، هذا والمملوك مستمر على الاخلاص في الطاعة الشريفة وهو مقيم على العهد والميثاق وباق عليهما واينما كان وحيث سار هو مملوك الابواب الشريفة ، وسؤال المملوك من الصدقات الكريمة التي ما خاب سائلها ولا رد املها (؟) استعطاف الخواطر الشريفة على المملوك بكل طريق ممكن وان انعمت الصدقات الشريفة على المملوك فيكون قد توجه الركاب الشريف ، فان المملوك يخشى ان بعد توجهه في حرز الامن والسلام يحدث في المملكة خلل من ساير اهل الفساد . وربما ينسب للمملوك والمملوك يخشى . . من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها ، فان المملوك ما يمكنه ان يتوجه الى عند امير من الامراء يكون في خدمته ولا يرى على نفسه ان يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف فان المملوك ما ينسا الاحسان والانعامات الشريفة وهو ولد حلال . ان شاء الله تعالى سؤال المملوك من الصدقات الكريمة تجديد العناية الكريمة في عمل مصلحة المملوك في شيء يكون خلاصه وخلاص الصدقات الكريمة من الله تعالى ، فان المملوك ليس هو معتمد الا على الله تعالى ثم على المراحم الكريمة ولا تخلي الصدقات الكريمة مملوك ابوابها العالية الولد امام (اقام ؟) على من حسن نظرها الكريم فانه مملوكها وفي خدمتها وان انعمت الصدقات الكريمة على المملوك كتابة مرسوم شريف الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدا دينه المشدودة في البقاع والساحل فيكون ذلك اسعافا

للملوك وعمارة بيته فان المملوك ما يسد جميع الامور الا بما يتحصل من الغل والملوك وما يملكه للصدقات الشريفة ومهما حسن في الآراء الكريمة واقتضته ففيه اليمن والبركة والملوك ليس هو معتمد الا على الله تعالى ثم الصدقات الكريمة سائلا استمراره على الخواطر الكريمة ليفوز وأخرا والملوك واقف على قدم الطاعة لما يرد عليه من المراسيم الكريمة المطاعة . انتهى الملوك ذلك (على الهامش : ان شاء الله تعالى ، الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .



لقد سعت على مدار عدد من السنين في البحث من أجل الاطلاع على النسخة الأصلية لـ « وقفية الأمير محمد بن الأمير ناصر الدين المعروف بالحنش » لكنني لم أوفق في العثور عليها ، لان النصوص الأصلية لمجموعة وقفيات دمشق مجهولة المكان وغير متوفرة للباحثين ، ويخشى أن تكون قد فقدت .

والنص الذي أقدمه هنا مأخوذ عن النص الأصلي ، وموجود في المجلد الثاني لمجموعة أوقاف دمشق المحفوظ في مديرية أوقاف مدينة دمشق ، ويقع ما بين الصفحة ١٩٦ - ٢٠٠ من المجلد .

والدعوة التي أتوجه بها هنا الى المعنيين بالدراسات الاقتصادية والاقاف أن يصار الى تشكيل هيئة علمية لحصر وقفيات بلاد الشام ومن ثم فهرستها والتعريف بها والعمل على نشرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

ولفية الامير محمد ابن الامير ناصر الدين المعروف بالحنش

(٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين : « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبئت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء . والله واسع عليم » (٧٩) « ولا يضيع اجر المحسنين » (٨٠) وعلى الله وعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام وارث علوم الانبياء والمرسلين مفيد الطالبين حجة الحق على الخلق اجمعين ، المحفوف بعناية الملك المعين ، أبو المناقب شمس الدين محمد (٨١) ابن مفتي المسلمين ملك الفقهاء والمحدثين ، المرحوم طاهر قاضي قضاة الاسلام وينبوع الفضل والعلوم ، وهو بمجلس حكمه العزيز بدمشق الشام ادام الله تعالى اجلاله ونفذ احكامه وختم بالصالحات اعماله بحق محمد وآله حضر مفخر الامراء ذو القدر والاحترام جامع المجد والكرم والسيف والقلم الامير الجليل محمد بن المرحوم الامير الجليل ناصر الدين المعروف بالحنش ادام الله تعالى مجده ورحم اباه وجده الامير على البقاع مع كركن نوح النبي عليه السلام ونواحيهما . واحضر معه مفخر السادة الاجلاء العالم المحقق المدقق المحدث فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصاة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذوالحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر النسابة في الديار البعلية وامير السادة الاشراف الحسينية قدوة علماء السادة الشافعية ودرتهم الباهجة المضية مولانا وسيدنا مفخر السادة الاجلاء الاشراف الكرام السيد علوان (٨٢) ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين مولانا السيد علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين جامع الشرف والتقوى والدين مولانا السيد حسين اعزه الله تعالى وزاد شرفه عظما ونجحه في الدارين قصده ورحم اباه وجده . وهو النقيب على السادة الاشراف الكرام والمتولي الناظر على اوقاف حضرت النبي نوح (٨٣) على نبينا وعليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة واتم السلام . واشهد على نفسه لمولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه انه وقف وحبس وأبد واخرج عن ملكه جميع وقفه هذا على الشروط الاتي ذكرها فيه من غير زيادة ولا نقصان ولا تعدي بوجه ولا بسبب من سائر الاوجه وسائر الاسباب الشرعية :

وذلك جميع الطاحون المعروفة بالمخطبية تابع البقاع حجرين الراكبة على نهر
الغزير ومنه دورانها التي حدها قبله الطريق وشرقا النهر وتمامه الباب ، وغربا النهر
وتمامه أرض داخله في الوقف سيأتي ذكرها وشمالا النهر ومن ذلك جميع الطاحون
المعروف بالجامعية تابع كرك حجر واحد الراكب على نهر البردون (٨٤) ومنه دورانها
الكائنة فوق الجسر بالقرب منه حدها من القبلة النهر وشرقا الطريق وفيه الباب وغربا
النهر وشمالا كذلك . ومن ذلك جميع القطعة الأرض الكائنة لصيق طاحون المخطبية
وينتهي حدها إلى الجسر وشهرتها في مكانها تفني عن التحديد . ومن ذلك جميع القطعة
الأرض المعروفة في المبدية تابع بر الياس حدها من القبلة أراضي الصاوة ؟ العادة ؟
وشرقا أراضي بلوطيا وغربا تل الصرحون وشمالا أراضي تربل (٨٥) ومن ذلك جميع
القطعة الأرض المعروفة بالبرقية تابع البقاع ولها أوصاف وشهرة في مكانها تفني عن
الوصف والتحديد . ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بحقل التوت من أرض
قرية عليين التي حدها قبله أرض البحصاص وشرقا أرض الممالك وغربا الطريق
وشمالا أرض محمد عبد الله . ومن ذلك جميع القطعة الأرض ، المعروفة بالحمرا من
أراضي (١٩٦) كفر عنا تابع الفرزن (٨٦) الكائنة قرب الجسر حدها من القبلة
الطريق وشرقا كذلك وغربا النهر المنيع ، وشمالا الأرض سليخ . ومن ذلك جميع
القطعة الأرض تابع رعيث (٨٧) المعروفة بالوقف التي حدها من القبلة ساقية
حشمش (٨٨) وشرقا الطريق يدور مع الساقية وغربا أرض الكفيرات وشمالا كذلك .
ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بعين حميدة تابع كرك التي حدها من القبلة
أرض الحقل وشرقا كروم دار لاباس وغربا أراضي عرجموش وشمالا ملك عبد الله .
ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالحفوف تابع الكرك التي حدها من القبلة
الطريق وشرقا جسر مسعود وغربا البستان وشمالا الطريق .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالرجم تابع كرك التي حدها من القبلة
حقل الروض وشرقا البستان وغربا الطريق وشمالا في يد أربابه .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروف بالبرانية تابع كرك التي حدها من القبلة
أرض وقف جامع السيد وشرقا ملك محمد وغربا كذلك وشمالا حقل سليخ بيد أربابه .
ومن ذلك جميع البستان التوت تابع كرك الذي حده من القبلة ملك الحاج أيوب
وشرقا البستان وغربا ملك السيد وشمالا النهر .

ومن ذلك جميع البستان المعروف بالطحان تابع كرك وشهرته في مكانه تفني عن
الوصف والتحديد .

ومن ذلك جميع نصف البستان الكاين قرب الحمام المشتمل على اشجار توت وجوز وغير ذلك الذي حده من القبلة الطريق السالك وشرقا بستان السيد وغربا البيادر وشمالا ملك الشيخ عبد المال .

ومن ذلك جميع كامل البستان المعروف بالشمعة تابع كرك الذي حده من القبلة البستان بيد اربابه وشرقا الفريجة (الفريجية ؟) وغربا الطريق وشمالا بيد اربابه .

ومن ذلك جميع نصف البستان تابع كرك المشتمل على اشجار توت وجوز وغير ذلك حده من القبلة الطريق وشرقا بستان الحاج ايوب وغربا بيد الجاموس وشمالا البستان بيد اربابه . يجمع حقوقها كلها طرقها ومرافقها من كل حق هود داخل فيها وخارج عنها وقفا مؤبدا ومحرمات وايقافا ثابتا ومحبا سمرديا لايباع اصل ذلك ولا يوهب ولا ينافل ولا يتلف ولا يخرج الى ملك احد كل ما مر به زمان اكده وكلما اتى عليه حين واوان اطده وسدده فهو محرم بحرمت الله تعالى مدفوع عنه بقوة الله تعالى يبتغي فيه مرضات الله تعالى لا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم انه لربه الكريم صابر ينقص هذا الوقف ولا يغيره ولا يزيده عن وجهه وشروط الاتي ذكرها لا بوجه ولا بسبب .

على مبتدأ أن يكون جميع غلال ذلك على عمارة المشهد الذي فيه النبي نوح المشار اليه صلى الله عليه وسلم . وعلى عمارة اوقافه وعلى خدامه المقيمين به ، وللمتولي والناظر .

وسلم جميع ذلك لمولانا وسيدنا السيد علوان المشار اليه فاعترف بالتسليم تسليم مثله شرعا . ثم شرط له التولية والنظر على وقفه هذا له ، ثم من بعده لاولاده واولاد اولاده ، ولاعقابه وانساله أبدا ما داموا ودائما ما بقوا الارشد منهم . وفوض لهم التصرف في ذلك وعلى انه لا توجه وظيفه ولا خدمة الا لمن يرضاه المتولي منهم ، وعلى أن وقفه هذا لا يؤجر لمقلب ولا لسفيه ولا لذوي شوكة ولا يؤجر الا سنة بسنة شرطا شرعيا . وقبل ذلك منه مولانا السيد علوان المشار اليه القبول الشرعي وفوض له التصرف في ذلك وان يكون في ذلك متابعا لما شرطه المرحوم المغفور له تنكزا (٨٩) أمير امراء بدمشق الشام سابقا في وقفه رحمه الله تعالى المبرز من يد مولانا السيد علوان المزبور في المجلس فتأمله الحاكم المشار اليه ثم أمر بنقله حرف بحرف بهذا الكتاب وهو مضمونه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحابه اجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين حجة الله على الخلق اجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين قاضي القضاة علاء الدين مفتي المسلمين اوحيد العالمين صدر المدرسين ولي امير المؤمنين ابا الحسن علي بن سيدنا ومولانا قاضي القضاة مفتي المسلمين مفيد الطالبين اوحيد العلماء والمدرسين ولي امير المؤمنين المرحوم ابي بكر محمد القاضي بمدينة دمشق الشام وأعمالها ادام الله تعالى تأييده حضرة امير الامراء الكرام وكبير الكبرا الفخام ذو القدر والاحترام صاحب الخيرات والمبرات رافع الكرب والمضرات ابو الفقراء والمساكين قائد جيوش المسلمين المحفوف بعناية الملك المعين امين مولانا وسيدنا سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي كافل ولاية دمشق الشام ايد الله ايامه وختم بالصالحات اعماله بحق محمد وآله . واحضر معه مفخر العلماء والمدرسين قدوة الفقهاء والمحدثين السيد الجليل الشريف الحسين الفسيب فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصاة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذا الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر مولانا وسيدنا السيد حسين بن المرحوم السيد الجليل شيخ الاسلام والمسلمين وصدر المدرسين السيد موسى بن المرحوم السيد الجليل الشريف شيخ الشيوخ والمحدثين السيد علي الحسيني زاد الله تعالى شرفه عظما وهو الامير على السادة الاشراف ، ونقده وحكم بصحته وأوقعه على وجه مولانا شيخ الاسلام والمسلمين تقي الدين ابو بكر ابن الشيخ محمد المتولي على وقف جامع المرحوم تنكز الواقف المشار اليه بالالتماس الشرعي من مولانا السيد حسين المتولي المشار اليه اعلاه ، مؤرخ اواسط شهر المحرم الحرام سنة اثنين وستين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ حسن ابن الشيخ محمد وبشهادة الشيخ عمر بن الحاج عبد الله جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين ولي امير المؤمنين عبد الله محمد قاضي القضاة بدمشق من الاتصال والحكم والايقاع وسائر ما نسب من الاتصال اليه لمولانا شيخ الاسلام قاضي القضاة صدر المدرسين ولي امير المؤمنين ابي العباس احمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من مفخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف علاء الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد حسين المشار اليه اعلاه مؤرخ في اواخر شهر شعبان سنة تسعين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ علي بن الشيخ احمد المالكي وبشهادة الشيخ ابراهيم ابن الشيخ عبد الله جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا قاضي القضاة صدر المدرسين ولي امير المؤمنين ابي العباس احمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق من الاتصال والتنفيذ والحكم والايقاع ، وسائر ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام ابي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم يومئذ ببلدك ، الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من مولانا

وسيدنا شيخ الاسلام السيد الجليل الشريف علای الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام السيد الشريف حسين المتولي على الوقف المرقوم المشار اليه مؤرخ في أوائل شهر رجب سنة خمسة وعشرون (كذا) وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ محمد ابن الشيخ عمر البوني وبشهادة الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد الحافظ جميع ما نسب لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم بمدينة بعلبك من الاتصال والحكم والتنفيذ وسائر ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين اوجد العالمين صدر المدرسين أبي الوفاء شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبو (كذا) المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من فخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف محمد ابن المرحوم السيد الشريف علي الوصي الشرعي على الطفل القاصر السيد الشريف علي بن المرحوم شيخ الاسلام السيد الجليل نقيب السادة الاشراف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين المشار اليه المنحصر به التولية والنظر على هذا الوقف الاقتضاء الشرعي . واذن مولانا الحاكم للسيد المزبور ان يتعاطى مصالح الوقف المزبور الى حين رشد السيد علوان المزبور ، وذلك حسب ما أوصى به والده رحمه الله تعالى اتصالا وتنفيذا واذنا مقبولات شرعا ، مؤرخ في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة خمسة وخمسين وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ عبد الفني ابن الشيخ محمود بشهادة الشيخ علي ابن الشيخ عز الدين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي الوفاء شمس الدين محمد بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام من الاتصال والاذن والتنفيذ وسائر ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين اوجد العلماء والمدرسين أبي الفضل علای الدين ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خير الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي . أوقعه على وجه الشيخ حسن ابن الشيخ محمد الخطيب ايقاعا شرعيا بالتماس شرعي من مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف حسين الحسيني المتولي على الوقف المزبور حسب ما هو مشروط له فيه ومنعه من الاحداث على الوقف والطلب والتعرض له عملا بشرط الواقف المزبور مؤرخ في يوم الخميس الثاني عشر من شهر الحجة الحرام سنة خمس وسبعين وثمان مائة وهو آخر ما وجد فيه من الاتصالات والتقاييد . وفي أدناه رسم شهادة تسعة انفار الاول ما قرأته (١٩٩) شهد بذلك العبد الفقير محمد بن علي الثاني ما قرأته شهد بذلك أفقر الوري محمد الحسيني والثالث ما قرأته شهد بذلك الفقير عمر الصدوي والرابع ما قرأته شهد بذلك العبد الضعيف علي

الشاكى والخامس ما قرأته شهد بما فيه شمس الدين الشاكى والسادس ما قرأته شهد بذلك الفقير حسن البصري والسابع ما قرأته شهد بذلك ابراهيم الوفاء والثامن ما قرأته شهد بذلك العبد الضعيف علي الانطاكي والتاسع ما قرأته شهد محمد العدوي وقوبل على أصله حرف بحرف وكلمة كلمة وانصال بعد انصال ، المقابلة الشرعية وثبتت مقابلة لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام الامر بنقله الثبوت الشرعي بشهادة شهود آخرة ، ثم اتصل بشهادة المذكورين سيدي الشيخ عمر العدوي والشيخ شمس الدين الشاكى والشيخ محمد العدوي لطف الله تعالى بهم وبالمسلمين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوجد العلماء والمدرسين أبي الفضل علاء الدين بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين وقدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خير الدين القاضي بدمشق الشام سابقا رحمه الله تعالى من الاتصال والحكم والتنفيذ والإيقاع والمنع وسائر ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين حجة الله على الخلق أجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين المحفوف بعناية الملك المعين أبي المناقب شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين طاهر ، الاذن بنقلها المشار اليه أعلاه الاتصال الشرعي .

فعمد ذلك عين مولانا الامير محمد الواقف المشار اليه أعلاه أن يكون جملة هذا الوقف مشاعا وان يصرف على عمارة النبي نوح عليه السلام وعلى عمارة أماكنه وعلى عمارة أوقافه والقرار فيها وما فيه التماس المزيد في الوقف . ثم على تنويره وفرشه ثم على مطبخه في ثلاثة أشهر شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان المعظم وأطعام العبدین والواردين والمنقطعين ، ثم على المتولي والناظر عليه ثم على خدامه وأرباب شعائره حيث أنه لايزاد ولايحدث على الوظائف الآتي ذكرها وهي : امام وخطيب والمؤذنين وقيم وتريدار وكاتب وجابي ومن يتعاطى مصالح المطبخ والطبخ ولوازمه ومن يخدم الاسمطة والماء وذلك كله يكون تبعا للمتولي والناظر المزبور ينصب لذلك من يختاره ويرضاه ويصرف ذلك بحسب ما يراه مفوض في ذلك حسب ما عينه الواقف المشار اليه . ثم اشترط التولية والنظر على وقفه لمولانا وسيدنا السيد الشريف علوان ابن المرحوم السيد الشريف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين الحسيني المشار اليه أعلاه ، ثم من بعد لاولاده واولاد اولاده واولاد اولاده وأحفاده وانسأله أبدا ما داموا ودايما ما بقوا للارشاد في الارشاد منهم وعلى أن لا توجه خدمة ولا وظيفة الا لمن يرضاه المتولي منهم وان لا تزاد على هذه الوظائف المذكورات ولا يحدث عليها ، وعلى أن وقفه لا يؤجر لتغلب ولا لذوي شوكة بل يؤجر سنة بسنة لمن يرضاه المتولي المزبور وان فضل شيء

عن ذلك فللمتولي المزبور ان خاس في سنة من السنين عن المصروفات المزبورة فليستدين المتولي على المستقبل بحسب ما يراه . وان وقفه لا يداخله حاكم ولا محاسب في محاسبة او في توجيه وظيفة بل انه مفوض الى رأي المتولي المزبور او الى رأي من يكون من ذريته بالتفويض الشرعي وتعويض شرعيين في ذلك ذلك ومن بدله او تعده فعليه لعنة الله ثم لعنة الله ثم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه » (٩٠) « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » (٩١) .

وجرى ذلك بحضور الحاج عبد القادر بن كحيل والحاج محمد ابن الشيخ عراق بالصنهاجي (٩) وبحضور الآخرين هما عواد بيك وعلي بيك أولاد المرحوم الامير محمد عم الواقف المشار اليه وصدقوا على صحة هذا الوقف وشروطه وانه صادر فعله (٩) في محله . وقبل منهم ذلك السيد علوان المتولي المشار اليه القبول الشرعي وتصدقوا على ذلك كله التصادق الشرعي تحريرا في اليوم المبارك الثاني عشرين شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعمائة (سنة ٩٥٠ / ١٥٤٣ م) وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبه شهد علي مولانا الواقف بما صدر لدى الحاكم علي بن محمد الحسيني

محمد حمزه الحسيني

وبه شهد مولانا الشيخ

شمس الدين محمد

محمد العدوي

الامير حسين بن الحرفوش

علي بن يوسف

الشيخ عدي بن عمر شيخ

المقدم علي بيدمر

قرية بر الياس

الشيخ محمد بن الشيخ علي البقاصي

عمر الخطيب بقرية المرج

علي بن شمس الدين الخطيب

الشيخ محمد القاضي شيخ قرية المرج

محمد بن نور الدين

فخر الدين السعداوي

من افقر الوري

محي الدين عثمان العباسي

الحكم السلطاني الشريف

رقم ١٤٨٧ تاريخ ١٧ صفر سنة ٩٧٨ هـ / ١١ تموز ١٥٧١ م

من دفتر المهمة رقم ١٤ ، ص ١٠٠٠

حكم الى امير امراء الشام وقاضيه ودفتردارها :

بناء على دفتر القضايا الذي ارسلته الى سدتنا السعيدة (سدة سعادتنا) بصفتك دفتردار والذي تذكر فيه ان المقدم المدعو محمد بن حنش ملتزم مقاطعة خواص كرك نوح والشوف في ولاية الشام سابقا الذي كان بدمته ١٣٣٣٤ قطعة ذهبية قد اتي الى الشام في زمن امير امراء الشام (السابق) مراد دام اقباله (وامن) ثلاثة - اربعة آلاف قطعة ذهبية لاجل تسليمها . الا ان امير امراء المذكور سجنه في المدينة في تلك الاثناء وقتله بدعوى عصيانه (تمرده) . كما تذكر بأن المباشرين الذين كانوا معه قد بلعوا (اكلوا) وكتموا الاموال والارزاق وما كان سيسلم الى الخزينة من نقود ولم يسلم اقجة واحدة للخزينة وبقيت هذه النقود بدون تسليم .

والان فقد امرنا :

هند وصوله ، عليك بالتفتيش شخصا وبشكل محكم وذلك بمقتضى الشرع الشريف على النقود الموجودة في ذمة المذكور الذي مات قبل تسليمها . واذا كان المباشرين قد نهبوا فعليك بتحصيل واخذ المبالغ والاموال الميرية دون نقص من اي شخص تكون في يديه . وعليك ايها الدفتردار بقبض المال الميري وضبطه واعلامنا من مقدار المال الميري الموجود في ذمة مراد دام اقباله لتطلب منه .

الحواشي :

(١) انظر شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) ، التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة ، ١٣١٢ ، ص ١٧٩ ، وانظر ايضا احمد بن علي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ١٠٤م ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٠٨ - ١١١ .

(٢) القلقشندي ، المصدر نفسه ، م ، ص ٢٠١ .

(٣) راجع مقالة :

Francis Hours, S.J. and Kamal Salibi, «Muhammad Ib al-Hanas Muqaddam de la Biqa, «1499-1518» Melanges De l'Universite Saint-Joseph, Fasc. 1. Tome XIII (1968) pp. 3-23.

(٤) ولاء الظاهر برقوق نيابة السلطة بمطية سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م ، فجمع حوله التركمان وظهر المصيان ، التف حوله عدد من امراء المماليك البحرية ، وعناصر المشير وخاصة عشائر نمير ، عاث ببلاد الشام الى أن تم القضاء عليه بمكيدة سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م ، حول حياته راجع شهاب الدين أحمد بن حجر الصقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، م ، ص ١٣٤ - ١٣٦ . راجع ايضا علاء الدين علي ابن خطيب الناصرية الحلبي ، (٨٤٢ / ١٤٣٨ م) الدرر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ، رقم ١٢١٢ م ، ورقة ١٩٩ (ب) او صفحة ٢٤٥ وما بعد .

(٥) سيف الدين يلبغا الناصري : تولى نيابة حلب في أول دولة الصالح حاجي بن الاشرف ، وبنى في حلب جامعا ، عزله برقوق وسجنه بالاسكندرية واعاده الى حلب سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٩ م ، شارك منطاش في حركته ثم اختلف مع منطاش ، وتصالج مع برقوق ، حول حياته راجع ابن حجر ، المصدر نفسه ، م ، ص ٢١٥ - ٢١٨ . لمزيد من المعلومات عن حياة يلبغا راجع ايضا علاء الدين علي بن خطيب الناصرية الحلبي الدرر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ، رقم ١٢١٢ م ، م ، ص ٤٢٨ .

(٦) ابن تفرى بردى ، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، م ١١ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، لا . ت . ص ٢٢٧ وما بعد .

(٧) حول حركة منطاش راجع محمد بن صبرى ت اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (؟) ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، نشره مع ترجمة انكليزية له William M. Brinner م ، جامعة كاليفورنيا ١٩٦٣ ، م ١ ص ١٣٩ من النص العربي ، كذلك راجع اخبار هذه الحركة لدى تقي الدين أحمد بن علي ، القرظي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، كتاب السلوك لمركبة دول الملوك ، الجزء الثالث ، القسم الثاني ، حققه سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، اخبار ٧٨٩ هـ /

١٢٨٧ م وما بعد ، في ص ٥٦٧ وما بعد ، كذلك راجع جمال الدين يوسف بن تفرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في دول ملوك مصر والقاهرة ، م ١١ ، وم ١٢ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، م ١١ ، ص ٣١٩ - وما بعد ، م ١٢ ، ص ١ - ، كذلك راجع ابن صغري ، المصدر نفسه ، م ١ ، ص ٧ .

(٨) ابن صغري ، المصدر نفسه ، م ١ ، ص ٧ .

(٩) راجع ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٩ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ وما بعد .

(١٠) راجع صالح بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٩ م) تاريخ بيروت : أخبار السلف من ذرية بهتر بن علي أمير العرب ببيروت ، حققه فرسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٥ ، الخبر يرد مفصلاً بشكل أوسع لدى اسطفان اللويهي ، (ت ١٧٠٤) ، تاريخ الإزمنا ، تحقيق الأب فرديناند نوتل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(١١) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٧٣ ، ابن تفرى بردى ، المصدر نفسه م ١١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ ، ص ٣٦٢ ، ص ٣٦٥ .

(١٢) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٩٢ - ٦٩٥ .

(١٣) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩٥ ، ابن تفرى بردى ، المصدر نفسه ، م ١١ ، ص ٣٧١ .

(١٤) ابن صغري ، المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(١٥) ابن صغري ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(١٦) ابن صغري ، المصدر نفسه ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(١٧) ابن صغري ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١٨) ابن صغري ، المصدر والمكان نفسهما .

(١٩) ابن صغري ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢٠) نعيم بن حيار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن نافع بن حديثة بن غصبة بن فضل بن ربيعة الأمير شمس الدين ، أمير آل مهنا بالشام ، كان أميراً مهيباً ولي أمراً العرب مدة سنين . كانت معظم أقامته بسلامية . قتله نائب حلب في شوال سنة ٨٠٨ هـ / آذار ١٤٠٦ م ، وبموته انكسرت شوكة آل فضل وولي الأمرة من بعده ابنه المعجل ، راجع عنه الترجمة الواهية لدى ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، م ٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٦ ، وراجع ترجمته لدى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ م نسخة مصورة منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لا . ت ٩ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، راجع أيضاً مصطفى الحياوي ، الإمارة الطائفة في بلاد الشام ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٦ - ٧٨ .

(٢١) كانت كلا من قريتي عنرا وضمير من ناحية المرج وتفيدنا احصاءات دفاتر الطوبو من سكان تلك القريتين انهما كانتا على النحو التالي :

(ط . د . ٤٠١)	(ط . د . ٢٦٢)	(ط . د . ٤٧٤)
خانة مجرد امام	خانة مجرد امام	خانة مجرد امام
١ - قرية ضمير ٢٠٠ ٩ ١	٢٥١ - ١	١٧٥ - -
ب - قرية عنرا ١٥٦ ٤ ١	١٩٩ - ١	١٢٦ ٢٢ ٢
ص ٨٥ - ٩٢	ص ٢٢٢ - ٢٢٧	ص ٥٦٥ - ٥٦٧
٥٢٨ - ٥٣٠		

(٢٢) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٢٣) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٢٤) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢٥) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٢٦) اسطفان الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٠٨ ، انظر أيضا كمال سليمان الصليبي ، منطق تاريخ لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٢ .

(٢٧) شمس الدين محمد بن طولون ، (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢م ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ، ١م ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢٨) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ١م ، ص ٢١٢ ، انظر أيضا : اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٩٥ - ١٩٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ١م ، ص ٩٣ .

(٣٠) كانت قرية قب الياس في القرن السادس عشر تابعة لناحية قورنه من سنجق (لواء) الشام ، وكان تعداد سكانها على النحو التالي

أسرة آل الحنش

ط . د . ٢٤٠	ط . د . ٢٨٣	ط . د . ٤٠١	ط . د . ٤٧٤
٨٥	١٢٥	١٤٠	١٢٠
٢٢	١٥	٦٥	—
١	٢	٢	—
١	—	—	—
ص ١٤٦	ص ١٧٩	ص ٢٤٧	ص ٢٩٨ — ٢٠٠

(٣١) حول قرية زنتون راجع القائمة المرفقة لفهارس قرى كرك نوح . رقم ٢٢ .

(٣٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م ، ص ١١٤ — ٢١٥ ، اعلام ، ص ٩٥ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م ، ص ٢٢٤ ، اعلام ، ص ١٠١ .

(٣٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م ، ص ٢٤٥ .

(٣٥) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٧) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٦١ ، النويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٤٥ ، لاحظ ان النويهي يجعل تاريخ خروج والي دمشق قانصوة الحموي سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ، اما قرية مشغرا في القرن السادس عشر فكانت تابعة لناحية شوف البيضاء وكانت احصاءات سكانها على النحو التالي :

ط . د . ٤٣٠	ط . د . ٢٨٣	ط . د . ٤٠١	ط . د . ٤٧٤
ص ٢١٣	ص ٦٣١	ص ٢٨٢ — ٢٨٤	ص ٩١٧
٨٣	٢٨٩	٤٠٨	٢٧٣
٧	٢٦	٢	٢٣
١	٢	٧	١

(٣٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٣٩) شيخين : تقع الى الجنوب الشرقي من صور وعلى بعد ٢٠ كم . وكانت في العهد المملوكي جزءا من ولاية صور . أما في العهد العثماني فكانت تابعة لناحية تبنين من لواء صفد ، راجع طه الطراونة ، مملكة صفد في عهد المالك ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٣ ، راجع ايضا

Harold Rhode, The Administration and population of the Sancak of Safed in the sixteenth century, ph.D. Thesis, Columbia University, 1979.pp.77:

حول اصل اسرة بشارة ودورها في تاريخ جبل عامل كاسرة شيعية متنفذة منذ مطلع العهد البرجي في بلاد الشام ، راجع طه الطراونة ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ - ٢٢٤ .

(٤٠) النويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٢٦ .

(٤١) ابن طولون ، مفاكهة ، م ١ ، ص ١٧٧ ، ٢٧٨ ، اعلام ، ص ١٦٣ .

(٤٢) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٦٧ .

(٤٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م ١ ، ص ١٩٢ - ٢٩٣ ، اعلام ، ص ١٧٧ ، حول حياة جان بردي بن عبد الله الفزالي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) راجع الفزي ، الكواكب ، م ١ ، ص ١٦٨ - ١٧١ . اما قبة يلبغا اليحياوي او قبة الحاج ، الواقعة بقرب قرية القدم جنوبي دمشق فكانت محطة لاستقبال الهجاج وكبار المسؤولين ، بنيت في عهد والي الشام يلبغا اليحياوي ٧٤٦ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٧ م ، راجع :

M.A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, p. 113:

(٤٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م ١ ، ص ٣٠٤ ، اعلام ، ص ١٨٣ ، حول حياة سيباي امير امراء دمشق لرتين ونائب حلب سابقا ، راجع اعلام ، ص ١٧٥ وما بعد .

(٤٥) ابن طولون ، مفاكهة ، م ١ ، ص ٣٠٥ .

(٤٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ .

(٤٧) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ١٩ .

(٤٩) ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ٢٦ .

٥٠] ابن طولون ، مفاكهة الخللان ، م ٢ ، ص ٣٢ . لم اتبين ما المقصود « بلخيرة ابن السلطان » فمن المعروف ان خط ابن طولون دقيق وان محقق المفاكهة قد اخطا في اكثر من مكان في قراءة النص .

(٥١) حول دور وتاريخ هذه الاسرة راجع علنان البخيت ، « الاسرة الحارثية في مرج بني عامر ، ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م - ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م » ، الابحاث ، م ٢٨ ، ص ٥٥ - ٧٨ .

(٥٢) انظر ابن طولون كما أورده محمد بن عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي الصالحي ، (ت ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م) ، في كتابه : حقائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والولاة التي نشر محمد احمد دهمان جزءا منه ملحقا لكتاب ابن طولون اعلام الوري ، ص ٢٩٠ .

(٥٣) هذه الرسالة محفوظة بمكتبة طوب قبو تحت رقم ٦٣٤١ وتجد ترجمة لها مطبوعة بهذه الدراسة . والجدير بالذكر ان السلطان سليم كان قد غادر القاهرة يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ / ١٠ .

أيلول ١٥١٧ م. انظر محمد بن أحمد بن أبياس الحنفى ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، بدائع الزهور في وقائع الزهور ، م ٥ ، حققه محمد مصطفى ، م ٥ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ . أما موسى التركمانى فهو على الأغلب الشخص الذي ذكره دفاتر الطابو ، والذي عهدت اليه الدولة المملوكية في مطلع عهدها ببلاد كسروان . راجع :

M.A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, p:176:

(٥٤) يونس باشا : أحد وزراء السلطان سليم ، تسلم مدينة دمشق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . كما أرسله السلطان سليم لطاردة ابن مساعد الفزاوي بمنطقة عجلون . شارك في فتح مصر حيث يذكره ابن أبياس بقوله : « وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع التراكمة وكان قراره أولا في أن يكون نائبا عنه بمصر ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك في النيابة وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى النهاية بخلاف بقية الوزراء » قتله السلطان سليم في شعبان وهو في طريقه الى بلاد الشام في الخطارة واخذت امواله التي كانت بدمشق للسلطان سليم . انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ٤٣ - ٤٥ ، ص ٦٧ ، ابن أبياس ، بدائع ، م ٥ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٥٥) على الأغلب يقصد بذلك شهاب الدين أحمد بن يخشى اوغلو ، تولى دمشق في رمضان سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، سكن في منزل سنطباي بدمشق ، يذكر الشيخ عبد القادر بن محمد النعماني الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) أنه كان قد زاره فسي خيمته شمالي مصلى الميدين « فراه محتشما وروى له عدة أحاديث » عزله السلطان سليم في شوال سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م فهاجر الى اسطنبول ، انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ ، ص ٦٢ ، ص ٧٠ .

(٥٦) سنطباي - بدأ عمله في دمشق كنقيب لقلعتها ثم يذكر في اخبار سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م ، أنه كان يعمل نائبا لنفس القلعة ، ثم ترقى لبصبع سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م حاجب الحجاب وأمير الحاج ويذكر أنه أعيد ثانية لمنصب الحجوجية سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ، واحتفظ بهذا المنصب الى حين انهزام المماليك . راجع ابن طولون ، مفاكهة ، م ١٣ ، ص ٣٥٤ .

(٥٧) حول نص هذه الرسالة المحفوظة تحت رقم ٦٣٤١ راجع ترجمتها العربية الملحق بهذه الدراسة .

(٥٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ١٦٢ .

(٥٩) ابن طولون ، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، م ٢ ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، م ١ ، ص ٢٧١ .

(٦٠) محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الدمشقي (٨٧٨ هـ / ١٤٧٢ م - ٩٢٣ هـ / ١٥٢٦ م) من أقطاب الصوفية في بلاد الشام ، رابط ببيروت وتوفي بمكة . حول حياته راجع نجم الدين الفزي ، الكواكب السائرة ، م ١ ، ص ٥٩ - ٦٨ .

(٦١) انظر ترجمته الرسالة في الملحق .

(٦٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م ٢ ، ص ٧٧ ، ص ٧٨ ، اعلام ، ص ٢٢٦ .

(٦٣) راجع نص الرسالة وهي ركيكة اللغة ، وبخط سيء جدا ومشوش ، تحت رقم ١٠٧٣٤ من مخطوطات طوب قاب وملحقة بهذه الدراسة .

(٦٤) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦٥) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٣ .

(٦٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٣٣ .

(٦٧) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٣٦ .

(٦٨) حول حياة الامير منصور بن عساف (ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م) راجع

M. A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, pp. 176-9.

كذلك انظر الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٦٩) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٥٤ ، ٢٨١ .

(٧٠) انظر T.D 543 ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ، والجدير بالذكر انه بموجب T.D. 177 تاريخ ١٠٠٥ هـ

هـ/١٥٩٦ م ان هذه القرية خصصت لكيوان بن عبد الله وشخص اخر باسم حسن عبد الله ، ٢٤١ ، راجع قائمة قرى كرك نوح المرفقة .

(٧١) راجع ترجمة الحكم المرفقة بهذه الدراسة .

(٧٢) الاخبار عن هذه الاسرة في حمص عبارة عن اخبار شخصية من زواج وظهور وما الى ذلك ، انظر

مخطوط محمد مكي بن السيد : مذكرات احب ابناء حمص ١١٠٠ - ١١٣٥ هـ / ١٦٨٨ - ١٧٢٢ م ، الجامعة الامريكية ببيروت ، المحفوظة تحت رقم T 181/956.9 ، ص ٣١٥ ، ص ٣٥٣ ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ولقد قام عمر العمر ، بتحقيق هذا المخطوط كجزء من رسالته للماجستير تقدم بها لقسم التاريخ بجامعة دمشق سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣١ ، ٣٦٤ ، ٤١٤ .

(٧٣) انظر على تسهيل المثال محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ /

١٢٥٠ - ١٥١٧ م ، دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ٢٢٩ - ٩٢٢ هـ / ٨٥٣ - ١٥١٦ م منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨١ . انظر ايضا مقالة محمد محمد امين ، « الشاهد العنق في الشرع الاسلامي : دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك » القاهرة ، عدد ٢ ، ٨٢ ، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م) ، ص ١٢٦ - ١٥٧ .

(٧٤) انظر كتاب الوزير الايلا مصطفى باشا ويلييه كتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك

الاشرف قانصوه الغوري ، حققه خليل مردم بك ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٥ ، وقف سنان باشا (ت ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م) دمشق . لا . ت . ، اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين في الوبة غزة ، القمص الشريف ، صفد ، نابلس ، عجلون حسب الدفتر ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن الماشر الهجري ، تحقيق محمد ابشرلي ومحمد داود التميمي ، استانبول ، ١٩٨٢ .

(٧٥) راجع كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، ص ٧٩ - ٨٤ .

(78)* B . Lewis , « Studies in the Ottoman Archives . » Nazareth in the Sixteenth Century According to the Ottoman Tapu Registers » . « Jafa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers .
« Notes and Documents From the Turkish Archives: A Contribution to the History of the Jews in the Ottoman Empire.»

وهذه المقالات جمعت ونشرت معا مع دراسات اخرى تحت عنوان :

Studies in Classical and Ottoman Islam (7th - 16th Centuries).
Variorum Reprints, London. 1976.

وانظر ايضا

Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in 16th Century, Erlangen. 1977.

وانظر ايضا

Amnon Cohen & Bernard Lewis.
Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, 1978.

ففي هذه الدراسات مادة وافية عن الضرائب يمكن الرجوع اليها من اجل استيضاح ما جاء في الجدول لرفقة .

(٧٩) آية رقم ٢٦١ من سورة البقرة .

(٨٠) « لا يضيع اجر الحسنين » ذكرت ثلاث مرات في القرآن الكريم ، في آية ١٢٠ من سورة التوبة ، في آية ١١٥ من سورة هود ، وفي آية رقم ٩٠ من سورة يوسف .

(٨١) لم اعثر له على ترجمة .

(٨٢) السيد علوان لم اعثر له على ترجمة .

(٨٣) حول مقام النبي نوح في كوك البقاع انظر علي بن ابي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤ م) كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، نشرته جانيين سورديل - طومين ، دمشق ، ١٩٥٣ ، ص ١٠ ، وانظر تفاصيل اكثر لدى الشيخ عبد الفني النابلسي (١١٤٣ هـ / ١٧٢٠ م) ، حلة الذهب الابريز في رحلة بطبك والبقاع العزيز ، تحقيق صلاح الدين النجد ، المعهد الالمانى للابحاث الشرقية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، نشرت الرحلة مع رحلة العطيفي باسم رحلتان الى لبنان .

(٨٤) حول الطواحين على نهر البردون راجع كشف اسماء القرى والمزارع وقطع الاراضي واصناف الضرائب في الجدول المرفق .

(٨٥) حول تريبل راجع جدول اسماء القرى قرية رقم (١٢) ، انظر ايضا عفيف بطرس مرهج ، اعرف لبنان ، موسوعة المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧١ - ١٩٧٢ ، ٢م ، ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

(٨٦) حول الفرزن راجع كشوف اسماء القرى رقم ٣٠ ، انظر عفيف مرهج، المرجع نفسه. ٨م، ص. ٧٠-٧٢.

(٨٧) حول رعيث راجع كشوف اسماء القرى رقم (٢) .

(٨٨) حول حشمش راجع كشوف اسماء القرى رقم (١٨) .

(٨٩) تنكر ، ابو سعيد سيف الدين تنكر الحسامي (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) ، ولي نيابة دمشق سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م - ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، كان صاحب نفوذ كبير لدى السلطان الناصر محمد ، وشهد كلا من معركتي وادي الخازندار ومعركة شقشب، والذي يهمننا هو انه كان وراء بناء وتجديد عدد من المساجد والمدارس والترب اوقف عليها عددا من القرى وقطع الاراضي والمزارع . كما انه وسع الطرقات وجند القنوات ، صادره السلطان سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م . تذكر المصادر املاكه في دمشق وحمص وبيروت والبقاع وبقارا بالتفاصيل اما فيما يتعلق باملاكه في كل من صفد وعطون والقدس ونابلس والرملة وجلعولية والديار المصرية فلم تفصلها . حول حياته راجع محمد بن شاكر الكتبي ، (ت ٧٦٤ هـ / ١٢٦٢ م) ، فوات الوفيات والذيل عليها ، ٢٤ تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١م ، ص ٢٥١ - ٢٥٨ ، انظر ايضا شهاب الدين احمد بن حجر المسفلافي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، ٥ م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ٢م ، ص ٥٥ - ٦٢ ، راجع ايضا حياة ناصر الحجي ، « الامير تنكر الحسامي نائب الشام » من منشورات حوليات كلية الاداب ، جامعة الكويت ، ١٩٨٠ م .

(٩٠) اية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٩١) اية رقم ٣٠ من سورة آل عمران .



تَطَوُّرُ مَفْهُومِ اللامركزية عِنْدَ الْعَرَبِ الْعُثْمَانِيِّينَ ١٩٠٠ - ١٩١٨ م

د. سهيلة الرجاوي
الجامعة الاردنية

لمحة تاريخية :

ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية هي مرحلة تبلور ((مفهوم اللامركزية)) ، والمطلوبة بتطبيق ((اللامركزية)) في مواجهة ((المركزية الشديدة)) التي كانت تطبقها الدولة العثمانية في ارجاء الامبراطورية .

وطرح مصطلح ((عدم مركزي)) او اللامركزية لأول مرة في مؤتمر الاحرار العثمانيين الذي عقد في باريس في هذه السنة ايضا (١٩٠٢) ، أما تعريف اللامركزية فهي تعني من الناحية الاجتماعية : رد الاشياء الى نصابها الطبيعي ... وتعني من الناحية السياسية : توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة التي يتألف منها الجسم السياسي - الاجتماعي ، عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم ، مع حفظ الصلة بالمركز حرصا على مصلحة الكل .

لقد كان تبلور هذا المفهوم اللامركزي وليد حركة طويلة المدى ، يتطلب البحث العلمي مواكبتها طيلة القرن التاسع عشر ، على الاقل ، باعتبار ان هذا القرن كله وحدة متكاملة ، ذلك ان الاحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية ، تكون في هذا القرن مرحلة خاصة و متميزة من مراحل تاريخ الامبراطورية العثمانية .

لقد شهد هذا القرن منذ بدايته وحتى نهايته ، سلسلة متماسكة الحلقات من الصراعات والتناقضات ، نتجت عن تفاعل ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد بمثابة السمات الرئيسية لهذا القرن وهي :

القي هذا البحث في اليوم العلمي لكلية الاداب، الذي اقيم في الجامعة الاردنية بتاريخ ١٩ نيسان ١٩٨٢

أولا : حركة البقظة القومية ، عند الاقوام التي تتكون منها الامة العثمانية .

ثانيا : حركة الرأسمالية الاوربية النامية والغازية وتطورها السريع الى حركة استعمارية تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل الثروات الطبيعية والبشرية اسوا استغلال .

ثالثا : حركة محاولة اصلاح الامبراطورية العثمانية واوضاعها ، مع محاولة تقوية السيطرة المركزية للدولة ، وخاصة على المنطقة العربية .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية بدأت تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير والتمرد في أنحاء الامبراطورية ، كما بدأت تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، من مدارس وصحف ومطابع وتأسيس جمعيات ... الخ . وقد تفاعلت تلك الحركات الثلاث كعوامل اساسية مع عوامل اتساع الثقافة وازدياد وسائل انتشارها .

واخذت ارجاء الامبراطورية منذ مطلع القرن التاسع عشر - بل قبل ذلك - تموج بأفكار وتيارات تعبر عن التمرد على الوضع في الامبراطورية بجميع معانيه من - استبداد وتسلط وتخلف وجمود - وبصفة خاصة بلاد الوطن العربي ، ومهما كانت الصيغ والشعارات التي ارتفعت في ربوع الامبراطورية ، اصلاحية كانت او ثورية ، فان جوهر هذه الصيغ والشعارات والتحركات كان يدور حول مشكلة الاستبداد والتسلط ، وحول حقوق القوميات والتشبيث بالساواة في الحقوق السياسية ، اي حول مفهوم اللامركزية وتطبيقه ، مهما اختلفت الاسماء .

وكانت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية اشد هذه التيارات واعنفها ، وبالرغم من انها حركة دينية ، الا انها في الوقت نفسه كانت ذات مضمون قومي - سياسي - لا مركزي .

وكان من بين هذه التيارات ، تيارات تتحدى سيطرة الامبراطورية وتسمى للاستقلال عن الباب العالي ، حتى لو اُبقت على خيط رفيع من التبعية الشكلية للخليفة امير المؤمنين ، ولعل حركة محمد علي واصلاحاته في مصر ابرز مثل على تلك التيارات ، خاصة بعد اعلان الحرب على سورية ووصوله الى كوتاهيه مهددا عاصمة الخلافة .

وكان ثمة تيارات لاتنادي بالاستقلال عن الدولة أو الانفصال عنها ولكنها تطالب بالاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الدستوري ، ومثال ذلك التيار الذي تبلور في وضع نظام اداري خاص للبنان بعد حوادث سنة ١٨٦٠ فمنحه كثيراً من الامتيازات .

وثمة تيارات أخرى كانت تنكر حق السلطان العثماني في الخلافة الاسلامية وامارة المؤمنين ، كالتيار الذي قام في اليمن ، فقد انكر الائمة الزيدون على آل عثمان التلقب بلقب أمير المؤمنين ، وتمادوا في تحديهم بأن اطلقوا اللقب على أئمتهم ، إيماناً منهم بأن الخلافة لقرشي عامة ولزيدي بصورة خاصة .

وقد بدأ سلاطين آل عثمان مع مطلع القرن التاسع عشر ، يخشون النتائج السياسية التي قد تنشأ عن حركة الإصلاح في العقيدة ، وهي الحركة الوهابية ، والنتائج السياسية التي تنبع عن حركة الإصلاح العلمية والعسكرية . . . التي قام بها محمد علي في مصر ، ومما زاد في خطورة الحركتين المذكورتين أن مجالهما كان الولايات العربية ، وكان السلطان محمود قد ساورته الريب في موقف هذه الولايات عن الإدارة المركزية ، فتمكن بسلسلة من التدابير أن يشدد قبضة الدولة على أطراف الامبراطورية بعد أن تمكن من إلغاء الاستقلالات الذاتية والاقطاعيات ، وتمكن من ضرب القوتين الناشئتين أحدهما بالآخرى ، حيث كلف محمد علي والي مصر ، بالقضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية .

كما حاول السلطان محمود اصلاح الادارة والقضاء فأقدم على اختصار عدد الايالات ودمجها في أربع ايالات - بعد أن كان عددها ١٨ ايالة - ليتمكن من تطبيق سياسة مركزية قوية في البلاد ويضمن السيطرة على أنحاء الامبراطورية .

ثم بدأ عهد التنظيمات في الامبراطورية باصدار مرسومين سلطانيين : سنة ١٨٥٦ . (خط كلخانه الهمايوني) سنة ١٨٣٩ ، و (منشور التنظيمات الخيرية) ثم صدرت عدة قوانين تنفيذاً لاحكام هذا المنشور الاخير ، كان أهمها قانون الولايات الذي سنته الدولة في عهد السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٤ ، وحددت فيه صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقامين .

ولم يكتف طلبية الإصلاح من الشباب بمفهوم الإصلاح واجراءاته التي باشرها السلاطين فبدأت تنمو حركة المطالبة بالدستور بزعامة مدحت باشا . وقد لمس الأحرار العثمانيون أهمية العامل الاقتصادي والوضع الاجتماعي ، ناهيك عن الوضع

السياسي ، في الدولة العثمانية ، وأشار برنامج مدحت باشا الى أن : « التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فان نظارة المالية ترسل الاموال الى السلطان الذي يصرفها في ملذاته » وأشار الى كيفية شراء الوظائف : « فالنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ، فالوالي يشتري وظيفة من الصدر الاعظم ويذهب الى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم حتى خربت الولايات » . ثم يشير بيان مدحت باشا الى الحل وهو : « تبديل الادارة الحالية » ويطرح طريقة التبديل : « عن طريق انشاء مجلس نيابي وجعل النظار مسؤولين امامه وان يكون هذا المجلس مجلسا قوميا ، فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب وان يوضع في الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية » .

ونادت حركة الاحرار العثمانيين بشكل عام : بتوسيع المأذونية ، وبأن الشورى هي الطريق الصحيح لحفظ الامبراطورية ، وان لا امل للدولة العثمانية بحياة حرة شريفة الا باعلان الدستور .

وهكذا انفجر الصراع بين الاحرار العثمانيين وبين الحكومة العثمانية التي كانت تحاول جاهدة السيطرة على الامبراطورية المترامية الاطراف المتعددة القوميات . وكان الخط الواضح لسياستها هذه هو تشديد الحكم المركزي وتسخير ما تم من اصلاحات في هذه الفترة لتدعيم هذه السياسة المركزية .

وبالرغم من انتصار هذا الفريق الاصلاحى الذي تمكن من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش ومبايعة السلطان عبد الحميد ، وفرض اعلان الدستور سنة ١٨٧٦ ، الا ان الموقف تفجر من جديد عندما علق السلطان الدستور وأصبح الخط الواضح لسياسة الدولة العثمانية تشديد الحكم المركزي ، بعد ان ادرك السلطان عبد الحميد ان التطورات المحلية في ارجاء الامبراطورية ومنها - الوطن العربى - كانت تسير في اتجاه مناقض لمركزية الدولة العثمانية واصلاحاتها التي تمت لتدعيم هذه السياسة ، وأحس ان رياح التمرد ضد « التسلط والاستبداد والتخلف » قد بدأت تهب في ارجاء الامبراطورية العثمانية . . فحاول السلطان عبد الحميد أن يستقطب التيارات السياسية والادارية والفكرية التي طرحت حول ضرورة الدستور وتوسيع المأذونية لصالح تجمع ديني تحت اسم الجامعة الاسلامية .

كان الفكر السياسى - والتيارات الفكرية عموما - قد تأثر بهذه الفعاليات التي واكبت الاحداث والحركات التاريخية التي اشرت الى ظهورها في القرن التاسع عشر ، فظهر عدد من المفكرين في ارجاء الامبراطورية ، أسهمت افكارهم في نضج الوعي

السياسي ، وبالرغم من ان القاعدة الاساسية لانطلاقهم الفكري هي قاعدة دينية ، الا ان منطلقاتهم الفكرية كانت تدور حول مفاهيم وقيم اجتماعية وسياسية جديدة تدور حول واقع الامبراطورية ، وحول النظم السياسية للدولة على البعدين الداخلي والخارجي .

اما على الصعيد الداخلي ، فقد تطرقت افكار هؤلاء الرواد الى النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها ، وكيفية ادارة الولايات ، وتوسيع المأذونية ، وضرورة اعلان الدستور ، وضرورة تواجده اللغة المحلية للولاية الى جانب اللغة التركية في التعليم ...

وقد اشار عبد الرحمن الكواكبي صراحة ، في كتابه أم القرى ، الى ان الاسباب السياسية والادارية العثمانيين ، « وتمسك الدولة باصول الادارة المركزية مع بصد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز على أحوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها » ، وهي من جملة الاسباب الكثيرة التي ادت لفتور المسلمين وتأخر الامبراطورية .. وبمعنى آخر ان عبد الرحمن الكواكبي وغيره ، قد طالب صراحة بتطبيق اللامركزية الادارية في الدولة العثمانية حتى تتمكن من التقدم وتقضي على الفتور ... بل أكثر من ذلك فقد طالب الكواكبي بأن يحمل الامبراطور العثماني تاجا مزدوجا « التاج التركي والتاج العربي » كما يحمل آل هابسبورغ تاج النمسا - المجر ، وبذلك تصلح أحوال الامبراطورية العثمانية .. وبهذا يكون عبد الرحمن الكواكبي قد طالب بوضوح بتطبيق « اللامركزية » .

من توسيع المأذونية الى اللامركزية الادارية :

يمكننا القول ان اول من طرح مسألة المركزية واللامركزية في الادارة العامة ودعا الى بحثها بصورة جماعية هو (الامير صباح الدين) ابن الداماد (محمود باشا) (١) وكان يقيم مع والده في باريس هربا من استبداد السلطان عبد الحميد ، وفي سنة ١٩٠٢ دعا الامير الى عقد مؤتمر في باريس للاحرار العثمانيين فلبى طلبه اكثرية المعارضين لحكم السلطان عبد الحميد ، وعلى الرغم من ان المؤتمرين كانوا متفقين على مقاومة الحكم الاستبدادي المطلق ، كما كانوا متفقين على المطالبة بقيام حكم دستوري في الدولة العثمانية ، الا انهم اختلفوا وانشقوا حول ثلاث مسائل رئيسية كانت مطروحة على بساط البحث ، في مقدمتها مسألة : « المركزية الادارية واللامركزية الادارية » ، ثم مسألة حقوق الاقليات القومية ومسألة السياسة الخارجية .

وقد أدى البحث في هذه المسائل الى الانشقاق داخل المؤتمر ، فالتفت الاكثرية حول الامير (صباح الدين) وتكونت جمعية برئاسته أطلق عليها اسم جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » أما الاقلية فالتفت حول (أحمد رضا) وكانت تواء لتشكل الفئة المعارضة التي أسفرت فيما بعد عن جمعية « الاتحاد والترقي » بعد أن دمجت بالتنظيمات الحزبية التركبية السرية التي تتطابق آراؤها وآراء (أحمد رضا) ذات المضمون العنصري وأسلوب الحكم المركزي (٢) .

وعندما طرحت جمعية « عدم مركزيت » أو اللامركزية ، برئاسة (البرنس صباح الدين) برنامج الجمعية ، كانت المادة الاولى تنص على : « التشبث باللامركزية » وطالبت أن يكون الحكم في الامبراطورية حكما لا مركزيا . واما البند الثاني فكان يطالب بالتوسيع في المأذونية (الصلاحية) في الولايات ، وهذا يتطلب ان تنتخب مجالس الادارة العمومية والبلديات انتخابا سريا ، وان يكون لاعضاء هذه المجالس الصلاحية التامة في شؤون الولاية المالية ، والمسائل والمعاملات المتعلقة بقوانينها وأنظمتها ، كما تطرقت الجمعية الى أعضاء (مجلس المبعوثان) ، وطالبت ان تنتخبهم مجالس الولايات العمومية لتمثيل الولاية في المركز بعد اعلان المشروطة ..

اما الموظفون الاداريون فقد أجازت الجمعية تعيينهم من قبل الحكومة المركزية في الولايات ، واما باقي موظفي الولاية المدنيين وغيرهم فيختارهم الولاة من افراد مختلف القوميات في الولاية بحسب النسبة العددية ... (٣)

وهكذا يمكننا القول ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية ، من حيث اثاره طرح قضية اللامركزية ضمن برنامج لجمعية تنظيمية ، أي طرح اللامركزية بشكل عملي والمطالبة بتنفيذها ، وقد انتشر برنامج الجمعية في أنحاء الامبراطورية بعد أن افتتحت الفروع لها في دمشق برئاسة (رفيق العظم وحقى العظم) وفي عاليه برئاسة (محمود العلالي) وفي اللاذقية وغيرها من المدن السورية .. وفي سنة ١٩٠٦ انتشرت افكار الجمعية في أرجاء الامبراطورية بعد أن أصدر البرنس صباح الدين في باريس جريدة تحمل اسم « ترقى » وبدأ ينشر فيها آراءه مبينا أن « المركزية » في الادارة تقتل روح « التشبث الشخصي » وان الاستبداد يقتل العدالة التي تحققها المشروطة (٤) .

تطور مفهوم اللامركزية بعد اعلان المشروطة سنة ١٩٠٨

الدستور والمركزية لا يجتمعان :

بدأت النداءات الجماهيرية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، ومنذ اليوم الاول ، بأن الدستور والمركزية لا يجتمعان ، وان الدستور يقتضي اشتراك عناصر الامة في كل الحقوق والواجبات ، والمركزية تنافي هذا الاشتراك . . . وهكذا طرح مفهوم اللامركزية بصورة أكثر شمولاً ، وتحول الى مطلب جماهيري .

وقد لمس الاتحاديون منذ اليوم الاول لاعلان الدستور حقيقة مطالب القوميات وأمانيتها ، وشهدوا كذلك مدى التأيد الهائل الذي اكتسبه بعد الانقلاب الدستوري ، فقد عبرت عن تلك المطالب وعن هذا التأيد جميع قوميات الامبراطورية باشتراكها في اخراج اعياد انقلاب ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ ، وخاصة عن طريق المسيرات الجماهيرية في الشوارع وعن طريق الخطب والمحاضرات الثقافية التي القيت من قبل أعضاء الجمعيات العربية السرية بعد ان أعلنت عن وجودها . وقد جاء ذكر توسيع المأذونية ، وحرية التعليم ، وحقوق القوميات في أكثر هذه الخطب من منطلق : ان الدستور والمركزية لا يجتمعان (٥) .

فكانت المحافظة على هذه الشعبية مع التنكر لتلك المطالب هي المعادلة الصعبة التي واجهتها جمعية الاتحاد والترقي لدى تطبيق برنامجها في التريك من جهة والمركزية من جهة أخرى (٦) ولكنها تجاوبا مع الواقع لجأت للأساليب التالية :

أولاً : أعلنت جمعية الاتحاد والترقي ، في برنامجها السياسي الموقت ، والتي وعدت بعرضه على مجلس المبعوثان في حينه - مساواة جميع المواطنين أمام القانون في الحقوق والواجبات ، دون تفريق بين الأديان والأجناس .

ثانياً : أعلنت الجمعية في ذلك البرنامج أيضاً عن : « حرية التعليم وحرية تأليف الجمعيات التي تشمل حرية تأليف الأحزاب » (٧) .

ثالثاً - جعلت من السلطان العثماني - خليفة المسلمين - امبراطوراً يملك ولا يحكم . . . « وقد قبل السلطان صدارة شرف الجمعية وقاه بها علناً » (٨) .

رابعاً : قررت الهيئة الادارية لجمعية الاتحاد والترقي أن لا تتسلم الجمعية مركز رئاسة الوزراء ، أي (الصدارة العظمى) ، وأن تحكم الجمعية من وراء ستار . وقد وقع اختيار الجمعية على شخصية كامل باشا الذي كان مبعداً من قبل السلطان عن الاستانة مدة (١٢) سنة ، ولم يمتنع عن القبول ، كما أن السلطان « المفلوب على أمره » لم يعترض على هذا التعيين (٩) .

وبهذا (التكتيك) السياسي الاستبدادي المقنع بالدستور ، سار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في تطبيق مخططهم المركزي الطوراني تجاه القوميات الاخرى والاحرار العثمانيين ، والجمعيات السياسية ، وكل من نادى باللامركزية .

وكان من البديهي ، أن تبدأ جمعية الاتحاد والترقي بتطبيق برنامجها بالقضاء على جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » التي كانت تنادي باللامركزية وبحقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية قبل اعلان الدستور ، وخاصة أن رئيسها عاد الى الاستانة واستقبله الشعب بحفاوة بالغة ، فلم يرق هذا الالتفاف الشعبي حول الامير صباح الدين للاتحاديين ، فحملوا عليه حملة صحفية ، واخذوا يهاجمونه غني الاجتماعات العامة ، ويتهمون أفكاره بتشجيع العناصر غير التركية على طلب الاستقلال ، - وخاصة ان الجمعية أصبح لها العديد من الفروع في البلاد العربية كما اشرنا .

عند ذلك دعا البرنس صباح الدين الى عقد اجتماع عام ، وأعلن ، مضطراً ، ان اللامركزية التي ينادي بها هو وأعضاء جمعياته في الاستانة وفي بقية البلدان . انما هي « توسيع المأذونية » التي ينادي بها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (١٠) ثم وافق على دمج جمعياته مع جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة وأعلن بذلك تصفية حزبه في شهر تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٨ (١١) .

ولكن مفهوم اللامركزية لم يقض عليه بعد ان نجح الاتحاديون في مخططهم المشار اليه سابقاً ، اذ طرح هذا المفهوم اللامركزي في ساحتين كبيرتين : الساحة الاولى : **الساحة الشعبية** : عندما تأسس حزب الاخاء العربي العثماني وجوهر تفكيره تطبيق اللامركزية ، والساحة الثانية : هي **الساحة البرلمانية** : عندما تأسست الاحزاب والكتل النيابية في مجلس المبعوثان وبدأت تطالب بتطبيق اللامركزية ، اُضيف الى ذلك الجمعيات العربية السرية ، القحطانية والعربية الفتاة .

وبالرغم من أن حزب الاخاء العربي العثماني الذي تأسس سنة ١٩٠٨ في ٥ آب (اغسطس) ، لم يدع صراحة الى تطبيق اللامركزية الادارية او الى الاستقلال او الانفصال ، فإن الحزب نادى صراحة بالمحافظة على أحكام **القانون الاساسي** ، وجميع **كلمة الملل** ونادى دستور الحزب : « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بين ابنائها كتأسيس مدارس وطبع الكتب والجرائد وتعليم اللغة العربية ... » (١٢) . وبينت الجمعية ان كل ما تقدمه وتدعو اليه « هو قائم بدوام الدستور المتكفل بالحرية الشخصية » .

وعندما اراد أعضاء جمعية الاخاء تطبيق برنامجهم « وحفظ حقوق العرب » ضمن الرابطة العثمانية ، اعلنوا عن تأييد مرشحي الحزب للانتخابات في دمشق ، وبدأوا بنشر آرائهم في جريدتهم التي تحمل اسم الجمعية ، وقف الاتحاديون في مواجعتهم ، فنجح اثنان منهم فقط هما : شفيق المؤيد العظم ، ورشدي الشمعة (١٣) ونجح الاتحاديون في مخططهم تجاه الانتخابات فلم ينجح من المستقلين سوى ١٠ نواب بينما نجح من الاتحاديين ٢٦٥ نائبا أخذوا عليهم تعهدا وقسما بأن يلتزموا بالطاعة العمياء لجمعية الاتحاد والترقي ، ونجح نائب واحد من حزب الاحرار (١٤) ولم تكن أهداف هذه الجمعية خافية على جمعية الاتحاد والترقي لذلك اغتنم الاتحاديون فرصة انتصارهم على الثورة المضادة في ١٣/٤/١٩٠٩ ، فوجهوا اليها تهمة الاشتراك في الانقلاب واعلنوا حلها .

أما في ساحة البرلمان : فقد تشكلت عدة كتل برلمانية ، كانت سماتها الرئيسية المشتركة تتلخص بالتالي :

- ١ - من حيث المبدأ : المناهضة باللامركزية الادارية ومقاومة المركزية بشكل عام .
- ٢ - من حيث أسلوب العمل : العمل العلني .
- ٣ - من حيث التكوين : عثمانية شاملة .
- ٤ - ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة .

ومن هذه الاحزاب : حزب الاحرار ، الذي تأسس في ١٤ ايلول سبتمبر سنة ١٩٠٨ .

وحزب الاحرار المعتدلين ، او « الحر الدستوري المعتدل » ، تأسس في ٢١ تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٩ .

وحزب الاهالي ، الذي تأسس في ٢١ شباط ١٩١٠ .

وحزب الحرية والائتلاف ، الذي تأسس في ٨ ت ٢ سنة ١٩١١ .

وقد استقطب الحزب الاخير (الحرية والائتلاف) هذه الاحزاب البرلمانية كلها عند تأسيسه . . لقد طرح هذا الحزب مفهوم اللامركزية الادارية من خلال مبادئه التي تتركز في مبادئ « الحرية » و « المساواة » وهما المبدآن الاساسيان ، « وأن الروح الاصلية في هذا البرنامج - يعني البرنامج - هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لا يتغير » (١٥) .

ومن هذا المبدأ الذي أعلنه الحزب عن طريق أحد أعضائه العرب ، وهو عبد الحميد الزهراني ، يتبين لنا أن مضمون الحرية والمساواة كان ينصرف للأفراد والجماعات أو للأفراد والعناصر (القوميات) ، أن نوع الحكم اللازم لامكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وأن مبادئ الحرية والمساواة هما مبدآن لا يتغيران كما يبدو في تعبير « هذا لا يتغير » .

وقد حدد الزهراني أيضاً أهداف الحزب عندما قال : « الفرض الأعظم لهذا الحزب شيان : مقاومة الاستبداد ولاسيما الاستبداد تحت ستار القانون ، واصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

ويحدد الحزب « العناصر » التي يسعى لاصلاح البين بينها في ثلاثة انواع : عنصر الجنسية وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد الاجتماعي ، وكان يؤمن أن سكان الامبراطورية العثمانية امة واحدة وليس مجموعة أمم ، وأن الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، ولذلك ودراً لكل الشبهات حول هدف الحزب فإن الزهراني يقول : « هذا لاننا لا نسعى الى غاية شخصية أو قومية وانما نسعى لادامة حياة هذه الدولة واعلاء شأنها وسعادة الامة العثمانية وانجاح بلادها وترقية عرانيها أسسنا هذا الحزب »

- وواضح من هذا النص ان الحزب ينكر انه يسعى الى غايات « قومية » ، بينما هو يسعى « للحرية » العنصرية ، الامر الذي يؤكد بصورة حاسمة أن هذه العناصر الجنسية ليست أمما أو قوميات ، وأن حريتها وحقوقها لاتعني حريسات وحقوقاً قومية ، لأن الحريات والحقوق القومية تجيز بل تقتضي أن تكون للأمة لا دولتها

القومية المستقلة » وقد ترتب على هذا المفهوم أن كانت عضوية الحزب مفتوحة لجميع العناصر أو على حد قول الزهراوي : « لذلك يضم هذا الحزب ضمنا حقيقيا المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي » ويطلب من هذه العناصر : « أن تكون كلاً متآلفة مع التخالف ، متماونة مع التغاير » .

وانسجاما مع تلك المبادئ والاهداف فان حزب الحرية والائتلاف كان ينادي باللامركزية الادارية ولم يرتق الى مستوى المناداة باللامركزية السياسية .

كان الحزب يضم الاحزاب البرلمانية المعارضة التي اشرت اليها سابقا ، وقد توصل الى الحكم بعد أن تمكن من اسقاط حكم الاتحاديين بتاريخ ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩١٢ .

وكرست صحف المعارضة مقالاتها لشرح مبادئ هذا الحزب واهدافه ، كما شكل اكبر كتلة برلمانية وقفت في وجه الاتحاديين « كتلة المعارضة » وانضم النواب العرب الى هذه الكتلة وطرحوا في الساحة البرلمانية مشاكل الوطن العربي وقضية الصهيونية ، ومشكلة حقوق العرب والثورة القومية في اليمن ، ومشكلة الغزو الايطالي لطرابلس الغرب ، من خلال جواب الاستانة - قبل تأسيس الحزب - « ان الدولة عليه ستطلب من ايطاليا بلهجة ودية طيبة الافصاح عن نواياها في طرابلس الغرب وبأمل الباب العالي ان يجد واسطة لحل المسألة قبل أن تصبح حرجة » (١٦) كما ان سفير الدولة العثمانية في روما تقدم بتقرير الى مجلس المبعوثين شرح فيه كيف انه كتب مرارا للصدر الاعظم من روما لينذره بالخطر الذي يلحقه من تصرف ايطاليا واستعداداتها للاغارة على طرابلس الغرب ولكن الصدر الاعظم حقي باشا اهمل هذه التقارير ولم يعرضها على مجلس الوزراء (١٧) . هذا بالاضافة الى التقرير الذي قدمه نواب طرابلس الغرب يطلبون فيه تقديم (حقي باشا) - الذي كان سفيراً للدولة في روما - الى المحاكمة « الديوان العربي » مع وزارته - وكان في هذه الاثناء يشغل منصب الصدارة - لاهماله واستهتاره تجاه خفايا المطامع الايطالية (١٨) .

بدأت الانسحابات تتوالى من حزب الاتحاد والترقي (العرب وغيرهم) وانضموا الى حزب المعارضة « الحرية والائتلاف » وكان اول مجلس ادارة للحزب يضم من الاعضاء العرب : النائب سعيد الحسيني نائب القدس ، وشكري العسلي نائب دمشق .

لقد تخطى هذا الحزب المناذاة « بتوسيع المافونية » المناذاة باللامركزية ، وكان هذا كافيا لتكتل أبناء القوميات غير التركية حوله . ومما زاد في انتشار مبادئه ، ان افتتحت له الفروع في دمشق والبصرة وبيروت وحمص وحماء وغيرها من المدن السورية ، امثال اللاذقية ونابلس وطرابلس الشام وعاليه وكسب ، وغيرها من المدن . . . حتى لقد بلغ الامر ان انسحبت نوادي (اي فروع) حزب الاتحاد والترقي بمجموع اعضائها في حمص وحماء ودمشق وغيرها من مدن سورية ، لتنضم الي الحزب الجديد » واصبحت الامة تعاضده لانها ذاقت آلام مقاصد الحزب الآخر وعلمت ان لا هم للقابضين على زمامه اليوم الا انفسهم وتأمين منافعهم . . . » (١٩) . . .

وقد أدت قضية المركزية واللامركزية بين الاتحاديين والمعارضين الى حل المجلس النيابي « المبعوثان » وانتخاب مجلس جديد بقوة الحديد والنار لصالح الاتحاديين من جهة (٢٠) كما أدت الى ثورة ضباط الجيش من جهة أخرى ، وكان الضباط الثائرون خليطا من اللبنانيين والأتراك وغيرهم وبلغ عددهم نحو اثني عشر طابورا في فترة وجيزة (٢٢) واطلقت الهيئة التي تزعمت هذه الحركة على نفسها اسم « عصبة ضباط الانقاذ » . وقد لجأ هؤلاء الى الجبال في ١١ حزيران سنة ١٩١٢ بقيادة اليوزباشي اللبناني « طيار بك » وطالبوا بتشكيل حكومة من غير الاتحاديين وبتطهير اركان حرب الجيش من الاحزاب ، وبمنع جمعية الاتحاد والترقي من التدخل بادارة السلطة ومنع جميع عناصر الامة الحرية والمساواة ، وتنظيم الادارة على طريقة مثلى بحيث تكون الاسبقية للكفاءة ، دون النظر الى الانتماء الحزبي . . .

ومما زاد في قوة هذه الحركة العسكرية ، دعمها بحركة قومية ثورية من قبل اهالي البانيا الذين تقدموا بمطالبهم التي تشتمل على ١٢ مطلباً نادوا بها وقدموها باسم جميع العناصر التي تتألف منها شعوب الامبراطورية العثمانية ، وكان اهم هذه المطالب : حفظ اللغة المحلية في كل منطقة واعتبارها لغة رسمية ، وحفظ قوميتهم بحيث تكون ذات وحدة مستقلة . . . وعندما حاولت حكومة الاتحاديين الماطلة ، واصلت فرقة ضباط الانقاذ تهديدها للوزارة ، ووجه الضباط كذلك بيانا على اخوانهم في السلاح ، وحصل البيان على انحراف اعضاء الاتحاد والترقي عن اهداف ثورة سنة ١٩٠٨ (٢٢) وقد تجاوب مع هذه البيانات ضباط حاميات ازمير ودمشق وحلب وغيرها من المدن ، مما دعا حكومة الاتحاديين الى تقديم استقالتها في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩١٢ ليبدأ حكم انصار حزب الحرية والائتلاف ، الذي ينادي باللامركزية .

الائتلافيون ومحاولة تطبيق اللامركزية :

بقي حكم انصار حزب الحرية والائتلاف من ١٠/٧/١٩١٢ الى ١٣/١/١٩١٣ ، وتميزت هذه الفترة بالمناداة العلنية بتطبيق الاصلاح الاداري على اساس اللامركزية ، وثبتت هذه المناداة عدة جمعيات اصلاحية تأسست في بيروت ودمشق والبصرة ، كما نادى أعضاء المنتدى الادبي - الذي أسسه الشبيبة العرب في الآستانة منذ سنة ١٩١٠ - بتعليم اللغة العربية والاصلاح اللامركزي . وكذلك ظهرت في هذه الفترة الاحزاب العربية التي تنادي علانية باللامركزية ، وفي مقدمتها حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في مصر .

وكان أهم ما قام به حزب الحرية والائتلاف ، هو اقناع الصدر الاعظم (كامل باشا) صديق الائتلافيين باعلان : ان وزارته ستطبق الاصلاح اللامركزي استجابة الى طلب الاصلاحيين رغم خطورة الموقف الخارجي على الحدود .

ذلك ان العرب اخذوا يتذمرون من تجاهل الحكومة المؤيدة من حزب الائتلاف لبرنامج اللامركزية ، واخذ اشرف بغداد والبصرة ودمشق وحلب وبيروت والقدس يبرقون الى الحكومة طالبين منها ان تصدر ارادة باعلان « لامركزية الحكم » في البلاد العربية صيانة لها من الوقوع في براثن الغرب كما وقعت طرابلس الغرب (٢٣) .

وراجعت الشخصيات العربية في الآستانة - بعد عقد عدة اجتماعات - المسؤولين في الحكومة حول ذلك المطلب ، وكان على رأس وفد تلك الشخصيات شفيق المؤيد ، وشكري الحسيني ، وزكي مفامر ، وعبد الرحمن العابد وغيرهم ، كما ان برقيات الولاية الائتلافيين كانت تتوارد على رئيس الوزراء (كامل باشا) طالبة تطبيق برنامج وزارته في الاصلاح اللامركزي ، وكان أشدها اضراا برقيات والي بيروت الائتلافي : بوجوب جمع مجلس الولاية العمومي للمذاكرة في الاصلاحات المطلوبة وتنظيم اللوائح بمطالب السكان ، وقد أجيب الى طلبه ببلاغ ، عم على بقية الولايات ، تشكلت على اثره في بيروت وحلب ودمشق والبصرة جمعيات اصلاحية اخذت تدرس وتحضر اللوائح الاصلاحية اللازمة للبلاد العربية ، واسفرت عن طرح برنامج اصلاحي يطالب باللامركزية الادارية الموسعة ..

اللامركزية الادارية الموسعة :

وضع الاصلاحيون من أعضاء النادي الائتلافي في مدينة بيروت لائحة اصلاحية صادرة عن لجنة انتخبها أهالي بيروت انفسهم (٢٤) وقعت عليها اللجنة في الجلسة الثالثة للجمعية العمومية المنعقدة في ٣١/١/١٩١٣ وصدقها .

د. سهيلة الربيعي

أما السمة العامة التي نظمت على أساسها اللائحة فهي : الإدارة واللامركزية الواسعة وأما المادة الأساسية لللائحة ، فإنها تنص على أن الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية ، أما المادة الأولى ، فإنها تقسم إدارة الولاية إلى قسمين :

القسم الأول : هو المشتغل على الأعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الأساسية ، وهي المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوستان والتلفراف وسن القوانين ووضع المكوس ...

والقسم الثاني : وهو المشتغل على الأعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة .

فكل ما يتعلق بالقسم الأول منوط بتقريره وإجراؤه بالحكومة المركزية ، وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط بتقريره بمجلس الولاية العمومي .

وتحدد اللائحة صفات الوالي القانونية في المادة الثانية : فالصفة الأولى : تمثيل الحكومة المركزية وبهذه الصفة يتولى إجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول طبقاً لقرارات الحكومة المركزية ، والصفة الثانية تمثيل حكومة الولاية التي يرأسها وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقاً لقرارات المجلس العمومي

ثم تعين اللائحة وظائف الوالي وحقوقه ، وحقوق المجلس العمومي ووظائفه ، وتبحث في مالية الولاية والبلديات والأوقاف ولجنة المجلس العمومي ، وكيفية تعيين الموظفين ثم المستشارين ومجلس المستشارين ..

كما بحثت اللائحة مسألتين مهمتين وهما : مسألة اللغة ومسألة الخدمة العسكرية أما بخصوص اللغة : فقد نصت اللائحة على أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية في مجلسي النواب والأعيان (مادة ١٥) ، كما طلبت اللائحة تخفيض الخدمة العسكرية إلى سنتين ، وأن تقضى أيام السلم في الولاية ، وأشارت إلى تنزيل قيمة البدل النقدي للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف (أي الجندي بعد الأربعين) الذي أدى الخدمة العسكرية ، وللاحتياط (أي الجنود الذين أدوا الخدمة ولم يتجاوزوا هذه السن) إلى عشرين ليرة عثمانية . (٢٥)

وتمكن الائتلافيون في دمشق من وضع لائحة مشابهة للائحة بيروت الإصلاحية ، ولكنها « لم تكن معبرة عن كل ما تتوق اليه نفوس السوريين من اصلاح ورقي تام » (٢٦) .

وتجاوب السوريون المقيمون في مصر مع برامج الجمعيات الإصلاحية ، فنرى صاحب المنار يشكر أهل بيروت على عملهم الاصلاحى ويشني على التضامن الوطنى الذى حققه أهل بيروت ، وفي الوقت نفسه طلب منهم ان « ينقحوا لائحهم تنقيحا يتقون به الخطر » ويقصد بهذا الخطر تدخل المستشارين الاجانب الذى طالب به البيروتيون ، وتمنى عليهم لو « لم يقيدوا انفسهم بهذه القيود الثقيلة » (٢٧) .

وبدا المجلس العمومى بمناقشة اللوائح الإصلاحية من قبل الائتلافيين . ولكن لم يكد يمضى اسبوع واحد على دراسة « لائحة دمشق » حتى حصل الانقلاب الاتحادي ، فأهملت هذه اللوائح الإصلاحية ثم كان نصيبها الالفاء . . . ولم يكن نصيب اللائحة الإصلاحية في البصرة بأفضل من ذلك . . . وبدأت عمليات القمع ، فصادر الاتحاديون كل ما يتعلق بنادي الاصلاحيين وجمعيتهم وأوقفوا صحفهم بحجة ان هذه الجمعيات الإصلاحية : « لم تتبع جادة الاعتدال بل تخطت في طلباتها حدود الواجب » وان الوالى اضطر لالفائها : « لتفادى الخطر وحرصا على الراحة العمومية » (٢٨) لقد ايد الرأي الجماهيري موقف الاصلاحيين وعبر عن ذلك بالمظاهرات الصاخبة كما احتجّت الصحف المؤيدة للاصلاحيين على قرار الوالى باغلاق النادي ، الذى اصدره بتاريخ ٩ نيسان سنة ١٩١٣ واحاطت القرار باطار اسود (٢٩) فصدر الامر بمصادرة الصحف المعارضة للاتحاديين ، ومنها : المفيد والاتحاد العثماني ولسان الحال ، والنصير ، والحقيقة ، وغيرها من الصحف الإصلاحية على فترات متلاحقة ، ووجهوا اليها تهمة : « تشويش الافكار وتهيج الخواطر » .

اما بقية الصحف فقد صدرت بيضاء خالية من الاخبار ، واكتفت بنشر الامر في صفحاتها الاولى دون تعقيب ، وازادت بذلك ان تترك للشعب ان يقدر هول المصيبة : « التي عجزت أقلام كتابها عن وصفها » (٣٠) .

حزب اللامركزية الادارية العثماني : ك ١ / ١٩١٢

اعتقد الاتحاديون عندما قاوموا هذه اللوائح الإصلاحية التي تنادي باللامركزية الادارية الموسعة ، ان سياستهم قد انتصرت وان مبدأ المركزية الادارية الذي ينادون به انتصر على مبدأ اللامركزية ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . . .

ففي هذه الاثناء كان العرب السوريون في القاهرة يؤلفون اكبر حزب عربي نادى باللامركزية الادارية واشتق اسمه منها وهو « حزب اللامركزية الادارية العثمانية » كنتيجة « لما اندرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ». ويقول رشيد رضا أحد مؤسسي الحزب : « كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا وقد كنا نعتقد ان الدولة لا يمكن ان تعيش طويلا اذا اصررت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة » (٣١) .

لقد بدأ هذا الحزب ، الذي تأسس في كانون الاول ١٩١٢ ، أعماله بتوحيد جهوده مع أعضاء جمعية بيروت الاصلاحية ، وارسل الحزب برنامجا مع عبد الكريم الخليل ، واقترح أن يطلب الاصلاح لجميع الولايات العربية على أساس اللامركزية بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت وحدها . . « حتى تكونيدا واحدة في العمل » والمطالبة بتحقيق رغبة أعضاء الحزب بأن « لا يذكر اسم الحزب ، وان تكون المراسلات عن طريق حقي العظم » (٣٢) .

وعندما اغلق والي بيروت الاتحادي ، مكتب الجمعية الاصلاحية في بيروت - بعد استلام الاتحاديين الحكم في ٢٣ كانون ثاني سنة ١٩١٣ - كما اشرت ، احتج حزب اللامركزية في مصر ، وطالب بعزل والي لان عمله غير قانوني واندرهم بقوله : تداركوا سوء العاقبة ، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القانون . . (٣٣) .

لقد انتخب حزب اللامركزية هيئته الادارية بتاريخ ١٢ كانون ثاني سنة ١٩١٣ وبدأ بشرح مفهوم اللامركزية على صفحات الجرائد، وقد كتب شبلي الشميل مقالا عرف فيه اللامركزية بقوله : « يراد بها في عرف السياسيين توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم مع حفظ الصلة بالمركز حرصا على مصلحة الكل » (٣٤) . ولم يخرج الحزب عن هذا المفهوم في صياغة مبادئه واهدافه . . .

فقد صاغ هذا الحزب مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها « بيان الحزب وبرنامجه السياسي » (٣٥) وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا ، فقد كانت علنية الحزب تسمح له بهذا التفصيل . . .

أما الجزء الأول من هذه الوثيقة وهو « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته بـ : « فلسفة الحزب أو نظريته السياسية » ثم تحليل الأوضاع الواقعة للإمبراطورية العثمانية ، وينتهي بعد ذلك إلى تأكيد اللامركزية الإدارية كحل ضروري لما تقوم عليه تلك الأوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

أما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته دستور مقترح لنظام اللامركزية الإدارية التي يطالب بها الحزب (٣٦) .

ويتألف هذا البرنامج من ست عشرة مادة تحتوي على المبادئ الدستورية الأساسية على الشكل التالي :

١ - وحدة الدولة العثمانية .

٢ - تأكيد وحدة السيادة فيها .

٣ - إقامة مركزية محددة القسمات .

أما أهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة ووحدة السيادة فيها ، فقد حددها برنامج الحزب على الشكل التالي :

أولا : السلطان هو رأس الدولة الواحدة أي (الإمبراطورية العثمانية) .
والسلطان يعين والي وقاضي القضاة فيها .

ثانيا : وان : « مجلس المبعوثان والأعيان » هو المجلس التشريعي المركزي للإمبراطورية .

ثالثا : النظارة المركزية (أي الحكومة) وتتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

رابعا : يطالب البرنامج في أن تكون اللغة التركية لغة رسمية في جميع الولايات ، ولكن إلى جانب لغة الولاية المحلية .

وفي الوقت نفسه ، فقد أشار البرنامج إشارات واضحة تؤكد مظاهر اللامركزية الإدارية في الإمبراطورية ، وتبدو أساسا على الشكل التالي :

اولا : تكوين أربع مؤسسات محلية هي :

ا - المجلس العمومي

ب - مجلس الادارة

ج - مجلس المعارف

د - مجلس الاوقاف

وتحدد مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة صلاحيات هذه المجالس وسلطاتها على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي وهي : « المراقبة على حكومتها » - والظاهر هنا من سياق الكلام ان كلمة حكومة تعني مجلس الادارة . ومن صلاحيات المجلس العمومي ايضا النظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الدولة وامور الامن العام والمعارف والنافعة والاوقاف والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها ، وسن النظمات لها . واما ما كان من امور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية او السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعها الى العاصمة .

وواضح من هذا النص ، ان جماعة حزب اللامركزية كانوا يريدون من هذا المجلس العمومي ان يكون بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها ، اي « مجلس ادارتها » كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظمات التي تقابل القوانين في احوال المجالس النيابية .

اما صلاحيات مجلس ادارة الولاية فهي : القيام باعمال الحكومة الادارية واهمها : وضع ميزانياتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الاخرى فهي : ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون التي تدخل في اختصاصه ووضع موازنتها .

فاذا أمعنا النظر في هذه الصلاحيات نرى وتلمس تشابك المركزية باللامركزية بشكل واضح ، ومن مظاهر هذا التشابك في رأينا النقاط التالية :

أ - ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ، ومعنى ذلك أنها نافذة بدون حاجة الى تصديق ، لا من الوالي ولا من السلطان - كما يفهم من النص .

ب - وجوب رفع رأي المجلس العمومي الذي يتصل بأمور (النافعة) المتعلقة من بعض الوجوه بالامور السياسية العسكرية ، كسكك الحديد ، فيرفعه بعد ابداء رأيه لى العاصمة ، فليس للمجلس العمومي قرار نافذ في هذه الامور ، كما ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق الوالي الذي يتسلم السلطة المركزية .

د - ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي ، وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون اهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ويكون عسكرها على قدم الاستعداد في زمن السلم ، واما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وعلى الرغم من ان مجموع الصياغة اللفظية تؤكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا اننا نلمح في النصوص ، مرونة ، بل غموضا احيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

فلسفة الحزب وتركيزها على اللامركزية :

فاذا انتقلنا الى النظرية السياسية «الفلسفة» التي طرحها بيان حزب اللامركزية نراها تركز على عدة مبادئ أهمها :

١ - ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو « الحياة » ويشير الى « الحياة الاجتماعية » و « الحياة السياسية » بمعنى ان يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت . .

٢ - انه من الضروري ان تسمى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بها جميعا ، بمعنى ان لا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر .

هذان المبدآن العامان رتبت عليهما النظرية السياسية للحزب المبدأ الثالث للنظرية وطرحته على الشكل التالي :

٢ - ان القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية ، قل أن تضمن الحياة للامة ، اذا لم تكن قائمة على اساس متين هو : « القوانين السياسية » ووضحت النظرية مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا تركز على اساس متين من القوانين السياسية ، حيث اوضحت نقطتين مهمتين :

النقطة الاولى : بينت انه مهما عنت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة واكثر من مشروعات الاصلاح في المملكة ، سواء كان ذلك في التعليم او الاقتصاد او الإدارة ، او القضاء ، ونحو ذلك ، فانها « لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على معجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حمايته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد » .

والنقطة الثانية : تستند على النقطة الاولى وتنبع منها : « لذا اصبح لهذا المهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل امة من الامم ، وصار من المسلم باليداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين مجاميع الانسان الحية متوقف على شكل الحكومة ، فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة اكثر ، كان ذلك لدوام وجوده اضمن » .

وخلصت نظرية حزب اللا مركزية من ذلك كله الى صياغة المبدأ الرابع وهو المبدأ الاكثر أهمية لهذا البحث ، وينص على التالي :

٤ - لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم : « حكومات دستورية شعبية » اي لا شأن فيها لسلطة الافراد ، بل الشأن : « لعامة الامة » ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا انها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا واضحا ، اذ روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقبالية والاستعداد ..

وبعد تأكيد المبادئ الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية لتي انتهت الى تأكيد أن : « افضل شكل من اشكال الحكومات هو الدستوري » ، يمضي بيان حزب اللا مركزية الادارية فيؤكد ان : « افضل اشكال الحكم الدستوري هو اللا مركزية خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر ان تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد حزب اللامركزية في تأكيد هذا المبدأ على التجربة التي ساقها كمثل حي، عندما عقد وصفاً مقارنة للوضع القائم في سويسرا ، والوضع القائم في الامبراطورية العثمانية ، وبين أن الفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا سببها اللامركزية التي تحكم بها سويسرا ، وان التخلف والاضاع القائمة في السلطنة العثمانية سببها المركزية التي تحكم بها الامبراطورية العثمانية .

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ أيضاً على تحليل تخطي مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان « اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على افراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من انحاء المملكة فيكونوا كالمحرك في آلة كبيرة جدا ، اذا اصابه عطب او ضعف تعطلت اجزاء سائر الآلة عن العمل دون ان يكون لاي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه ، ودون ان يكون مسؤولاً عن نتيجة وقوفه عن العمل » .

وعلى هذا الاساس ، يصبح من البديهي ان « الشعب غير المسؤول » عن أي خطأ يصدر عن حكومته ، لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج الحكومية الا بعد الوقوع فيها ذلك لانه يسير بارادة غيره ، لا سلطة له حتى ولا على نفسه ، لانها محكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وان خالف رغبته ومصالحته وهواه .

هـ - ويتوصل حزب اللامركزية الى مبدأ خامس ، يشير في جوهره الى أن : اللامركزية توزع التبعة على افراد الامة بمقدار ما تعطيه من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية - حياة الاعتماد على غير النفس - وتفسح امام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة ، وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من اقرب سبيل وفي وقت قصير ، والعكس بالعكس . .

وبعد ان توصل حزب اللامركزية الى تأكيد هذه المبادئ التي تكون عناصر « نظريته السياسية » ، قدم وصفاً وافياً لاضاع الامبراطورية العثمانية وحللها ، من نواحي التعليم ، والنافعة ، والادارة ، والدفاع ، وانتهى الى تقرير موقفه في قوله :

وقد ظهر للعيان أن المماكة اكملها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية ، مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزاً في وطنه آميناً من تسلط المغيرين عليه . .

وانتهى حزب اللامركزية الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف ، انما هو في الاخذ باللامركزية الادارية .

لقد فتح باب الحوار السياسي على مصراعيه بعد ان طرح حزب اللامركزية بيانه السابق ، وكانت الساحة الصحفية هي الساحة التي تبنت قيادة هذا الحوار ، للمؤيدين والمعارضين .

كانت (المنار) اول مجلة نشرت برقيات التأييد للامركزية التي ارسلها (طلاب اللامركزية) في سورية وفلسطين والجزيرة والعراق واوروبا وامريكا ، وهذه البرقيات موجهة للصدر الاعظم ، وجوهر هذه البرقيات ان : « الدولة لا تبقي ولا تحيا الا بادارة اللامركزية الواسعة » وان طلاب اللامركزية والاصلاح : « كلمتهم واحدة ، والامة كلها معهم تتد ازرهم وتنبذ من يخالفهم نبذ النوى » . (٣٧)

وقدم المنار دراسة مقارنة تعرض فيها لفوائد اللامركزية ، وضرر المركزية ، مبينا ان الحكومة قد اعجزها تنائي اطراف المملكة ، و « اختلاف لغات واجناس ومشارب أهلها عن أن تنفذ قوانينها في كل ولاياتها ، فجاءت اللامركزية توزع التبعة على افراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن » .

ويصل المنار الى النقاط التالية : ان الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن اكثر البلاد العثمانية اذا هاجمها عدو اجنبي ، ولذلك : « فان المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال » وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال ، وتبين المنار ان جوهر الفكر الاصلاحي هو هذه النقطة الاساسية : « لان اللامركزية تضمن سلامة هذه المملكة وتكفل تضامن شعوبها واتحادهم على العمل الانفع ل عمران البلاد وسعادتها وقوة بقائها » . (٣٨)

اما معارضو اللامركزية ، فقد تهجموا على الفكرة برمتها لانها حسب رأيهم : « رواية سياسية هزلية ذات فصل مضحك » الفها د. شبلي شميل ورفيق العظم ، ثم يتابع الكاتب فيقول « تسلمها الاساتذة داوود بركات ورشيد رضا ومحب الخطيب فوضعوا لها الالحن الموسيقية ، ثم اخذها حقي العظم وسامي قصيري فوضعوا لها ما لزمها من الزخرفة الفنية » (٣٩) .

ومما يلفت الانتباه ، ان هؤلاء المعارضين كانوا يفسرون كلمة اللامركزية وكأنها مرادفة لكلمة الاستقلال : فيشير الكاتب الى ان « لا صلاح لسورية باللامركزية ، وخير

اصلاح لها هو انتخاب الحكام الاكفاء ومراقبتهم .. وان الاصلاح والعدل والنظام هو الدواء الوحيد للفوضى المنتشرة في الولايات العثمانية ، ولكن اللامركزية او الاستقلال المطلوب هو الداء القاتل فالخطر منه ثم الخطر « (٤٠) . وقد رد الدكتور شبلي الشميل على هؤلاء مبينا أن اللامركزية ليست « بدعة في اللغة العربية » ويوجه كلامه للذين ينفرون من كل جديد ، كما ينفي عنها صيغة « المهزلة السياسية » ، ويدعم قوله بأنه قد سبق للأطباء والحكماء والفلاسفة ان استعملوا مثل هذا التركيب من قبل فقالوا : « اللا اسم له » وقالوا « اللانهاية » وقالوا « اللادارية » . ثم بين ان العمران مدفوع الى اللامركزية قسرا لان « اللامركزية هي النظام الوحيد ، الذي يتكفل احسن من كل نظام آخر ، بالقدرة على معرفة احتياجات كل جزء وسدها بالوفرة والسرعة اللازمين » .. ثم يقدم صورة للاوضاع في الامبراطورية العثمانية : « ضعف في المركز الرئيسي ، وضعف في المراكز الاخرى المحيطة ، وتفكك في صحة الروابط التي تربط هذا الجسم ، وخلل في الاعماق عموما ، واذا دام الحال اكثر فلا بد من وقوع الفساد التام في الاعضاء وانفصالها بالكلية عن الجسم كله » (٤١) .

اما رفيق العظم رئيس حزب اللامركزية فقد بين ان اللامركزية شيء وطلب الاستقلال شيء آخر ، ونبه المعارضين الى الخطر الذي تواجهه الامبراطورية والى سلسلة المصائب التي امت بانحائها وكان نهايتها « ذهاب طرابلس الغرب والولايات المكدونية » ودخول الدولة متاهة السيطرة الاوربية في شكل يراه ويعلم نتائجه الذين يهاجمون اللامركزية ، ويصل الى النتيجة التالية : « كل ذلك جعلنا نذهب الى ان الادارة الماضية لهذه الدولة ادارة لا تصلح لهذا الملك وان تغييرها ضروري لسلامة البقية الباقية من الاوطان العثمانة اذا بقي امل السلامة » (٤٢) .

ويشير رفيق العظم في مقالاته التي نشرها في جريدة المؤيد الى ارتفاع اصوات (خطباء السياسة) من فوق المنابر في مصير بلاد الدولة العثمانية خصوصا سورية ، وبلوغ الامة حالة من الجزع على بقية الاستقلال يعلمها كل من كان عنده عرق ينبض من العثمانيين ..

وقد بقي هذا الجدل الصحفي قائما مدة طويلة واتسعت دائرته حتى شملت صحف المهجر ، وصحف الجمعيات العربية ، والمنتدى الادبي ، وصحف الجمعيات الاصلاحية وكذلك الصحف التركية ، ولم يتحرك الاتحاديون لتطبيق البرامج الاصلاحية ، او بحث قضية اللامركزية بشكل جاد ، وعندها فكر أعضاء (جمعية العربية الفتاة) السرية في باريس ، تخطي هذا العمل الى عمل اكثر صلاية والكثير

ايجابية لمواجهة الاتحاديين . . وانتهى الى ضرورة عقد مؤتمر عربي في باريس ، تدعو اليه جمعية العربية الفتاة ، ويتبناه حزب اللامركزية الادارية العلني ، الموجود في مصر . وبالرغم من الحملة الصحفية التي تبنتها صحف الاتحاديين ، ومؤيديهم من معارضي اللامركزية ، ومحاولة قتل هذه الفكرة الاصلاحية في المهد ، الا ان المؤتمر عقد في الوقت المحدد له ، وهو ١٨ حزيران ١٩١٣ .

اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية « الكونفدرالية »

في المؤتمر العربي الاول :

طرحت قضية اللامركزية في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس بتاريخ ١٨/٦/١٩١٣ وانتهى بتاريخ ٢٣/٦/١٩١٣ ، وكانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد وزعت بيانا تحت عنوان « نداء الى الامة العربية » تدعو العرب فيه « الى ان يتمثلوا في المؤتمر الذي نظمته الجالية العربية في باريس للمطالبة بالاصلاحات اللامركزية والاعتراف بحقوق العرب في السلطنة » (٤٣) .

وقد تطرقت اكثر خطب المؤتمر الى هذه القضية الحيوية التي كانت تشكل الراي العام العربي في ذلك الوقت (٤٤) غير ان مندوب حزب اللامركزية السيد (اسكندر عمون) ركز على هذه المسألة في خطبته التي تحمل عنوان « الاصلاح على قاعدة اللامركزية » وكان جوهر الخطبة هو جوهر الفكر الذي طرحه حزب اللامركزية من خلال برنامج الذي شرحته سابقا ، وبين ان هذا الحكم المركزي يحصر ادارة امور الامة في قوم قليلين ويقصي عنها سائر أبنائها ، شأنه شأن الجسم الذي يتولى عضو واحد منه قضاء كل حاجات ذلك الجسم ويقضي على باقي الاعضاء بالشلل

ثم بين الاسباب التي تستوجب تطبيق اللامركزية ومنها : ان الامة العثمانية مكونة من عناصر متباينة في اصولها ولفاتها وتاريخها واخلاقها وحاجاتها وعاداتها ، « وكل فريق ادري بحاجاته الخاصة » هذا من ناحية . . .

ومن ناحية اخرى ان « المركزية لا يمكن ان تتفق مع الحكم الدستوري » ، لان هذا الحكم يقتضي اشتراك ابناء الامة جميعا في كل حق وفي كل واجب ، والاشتراك مع ذلك التباين غير ممكن على مبدأ المركزية ، ثم اشار اسكندر عمون الى ان الحكم المركزي يقتضي بطبيعته ان تكون السلطة محصورة في عنصر واحد من عناصر الامة ، فيصبح

موقف هذا المنصر تجاه سائر العناصر موقف الخصم الغالب من الخصم المفلوب على أمره كما هو الحال في الامبراطورية . ثم توصل الى النتيجة التالية وهي : ان هذا النظام الفاسد هو السبب في انحطاطنا وعلّة كل المحن والمصائب التي حلت بنا ، وانه هو الذي اضاع نصف المملكة ويوشك ان يذهب بباقيها (٤٥) .

لم يكن العرب في هذه الفترة ينادون بالانفصال عن الدولة العثمانية كما كان يتوهم بعض انصار النظام المركزي ، واكد اسكندر عمون : ان هذا الامر بعيد عن الصحة ، وان الامة العربية لا تريد الا استبدال شكل الحكم الذي يرجى منه وحدة الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية ، بالحكم الفاسد - الذي يكاد يؤدي بالدولة - . . اما اذا ابت الامة التركية الا الهلاك - لم يقل العثمانية - فالعرب معذورون اذا هم ترددوا قبل ان يلحقوا بنفسمهم معهم في الهوة . . واكد انه يريد استبدال حكم يناسب حاجة كل العناصر على اختلاف شؤونها بنظام الحكم القائم ، فيكون بمقتضاة لاهل كل ولاية الكلمة العليا في ادارة شؤونهم الداخلية ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لادارة الشؤون العامة . وختم مندوب اللامركزية كلمته موضحا :

« ومعنى ذلك اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية ، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين عربيا كان أو تركيا، أرمنيا أو كرديا مسلما أو مسيحيا اسرائيليا أو درزيا »

هذه هي فوائد اللامركزية التي نطلبها ، فاذا نفذ الاصلاح بمقتضاها امكننا غوائل الحداث واسترجعنا باذن الله مركزنا القديم بين الامم الكبرى . هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة، وان كان لابد لهذه القاعدة أيضا من شهداء فكلنا مستعدون» (٤٦) .

ولم يكن ممثلو حزب اللامركزية وحدهم قد اتجهوا الى ابراز اللامركزية كصلاح لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب ، بل ان ممثلي جمعية العربية الفتاة السرية ، اتجهوا الى ابراز مبدأ القومية ، وأشار عبد الغني العريسي الى ان للعرب حق الوجود السياسي وان للعرب حقوق رئيسية تتعلق بقوى الدولة الثلاث :

السلطة ، والقوة التشريعية ، والقوة الاجرائية .

وطالب بقسط مشروع من كل وزارة في الامبراطورية ، وبحق الامة العربية فيما يتعلق بالنافعة : « فان كل قرض يقترض من الدول الاجنبية للامور النافعة لنا فيه حق مشروع ، لان هذه القروض تعقد باسم المملكة وما دمنا نؤلف نصف المملكة فلنا حق بأن تصرف نصف هذه القروض للمشروعات العامة في بلادنا العربية » .

كما طالب الرئيس بأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية تذكر في القانون الاساسي ، لا قانون حكومة مؤقتة يمكن الفأوه من حين الى آخر بتقلب الوزارات المستعجلة ... (٤٧)

كما ان رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهرراوي اشار الى : « وجوب اشتراك الفريقين (ويعني العرب والترك) بسياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحا انه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب اضاءة البلاد ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهي ان هذا الاشتراك لا ينافي الاخاء بل الذي ينافي الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » وبين الزهرراوي ان : « أساس تربيتنا السياسية بعد الان هو بث هذه الفكرة والتعصب لها » ثم يخلص الزهرراوي الى القول : « وقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور اثر هذا الاشتراك خارج العاصمة » (٤٨) كما اكدت كلمة تصوم مكرزل التي القاها باسم المهاجرين ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية ، على ان المهاجرين من وراء البحار « يتمنون لمبادئ اللامركزية الانتشار والانتصار » .

نلمح في خطب المؤتمر العربي الاول في باريس التركيز على اللامركزية الادارية بالاضافة الى اللامركزية السياسية ، أي ان المؤتمر كان يتكلم بما يؤمن به أعضاء حزب اللامركزية الذي تبني المؤتمر ، وما دعت اليه جمعية العربية الفتاة السرية .

ولكن مما لا شك فيه ان المناقشات التي دارت اثناء المؤتمر تلقي ضوءا واضحا حول محاولة استغلال هذه المفاهيم التي طرحها أعضاء المؤتمر ...

فقد حاول بعض المتفرنسين مناقشة مبدأ المركزية واللامركزية من منطلق ان العرب لا يمكنهم ان ينجحوا بأي طريقة من طرق الادارة الا اذا استعانوا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الاجانب كمستشارين للعرب ، وقد تزعم هذه المناقشة المحامي (شارل دباس) الذي كان يحضر المؤتمر عن الجالية العربية في باريس ، وختم مناقشته بقوله : « وصفوة القول انه لا اصلاح حقيقي الا بالمستشارين الاجانب » (٤٩) .

وقد رد عليه كل من الشيخ أحمد طيارة وسليم سلام واسكندر عمون بأن : « كل ولاية ادري بحاجتها واعرف بدخائل نفسها واحق بطلب ما فيه مصلحتها وهذا هو معنى اللامركزية » بمعنى أنه اذا كان هذا يصلح لولاية ما ، فانه لا يصلح لولاية أخرى .

وقد أيد كلام شارل دباس ، الدكتور أيوب ثابت وتساءل : أليست حرية الكلام مباحة للجميع ؟ فأجابه الرئيس بالإيجاب ، وعندها طلب الاثنان وضع نص بهذا الخصوص في برنامج حزب اللامركزية وفي قرارات المؤتمر . . .

وعلى العموم فقد أجاب اسكندر عمون أن : « لا داعي يدعو الى وضع نص مخصوص في برنامج الحزب يوجب تعيين الاجانب ما دام لكل ولاية في نظر الحزب حق ادارة شؤونها » وليس للحزب أن يحتتم على ولاية أمرا بما كان في حالاتها الخاصة بها ما لا يتفق معه مؤكدا : « ان تقرير حالة واحدة لكل الولايات هو ما نشكو منه اليوم ؟ » وهكذا خيب عضو حزب اللامركزية أمل هذه الفئة ، وصدرت قرارات المؤتمر خالية من طلب الاستعانة بالمستشارين الاجانب . وكانت أهم نقاط قرارات المؤتمر العربي الاول في باريس تشير الى : ضرورة الاصلاحات الحقيقية في البلاد العثمانية ، وان يضمن للعرب حق التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، وان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها ، ويجب ان تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، وان تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى .

كما صادق المؤتمر ايضا على لائحة بيروت الخاصة وهي قائمة على مبادئ اساسيين وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين اجانب ، وكان قد صدق عليهما في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ ، وطلب المؤتمر تنفيذ هذين المطلبين ، كما طالب الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمصرفية لبنان وسائل تحسين مالياتها .

والحققت قرارات المؤتمر الاصلية بماحق ينص على عدة نقاط أهمها : « اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها » .

وقد تقرر أن تكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

غير أن هذه الآراء التي وردت في مقررات المؤتمر العربي الأول في باريس قد عدلت ، بالاتفاقية التي تمت بين أعضاء المؤتمر ووقع عليها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب في الاستانة ، وبين جمعية الاتحاد والترقي ، ووقع عليها مندوب الاتحاديين مدحت شكري ، وهو اتفاق يقصر عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر وتتكون من اثنتي عشرة مادة ، وإنما حافظ على عدة نقاط جوهرية منها : التعليم في جميع البلاد العربية يكون باللسان العربي في القسم الابتدائي - والإعدادي ويكون بلسان الاكثرية في القسم العالي ، كما يشترط في جميع رؤساء المأمورين ما عدا الولاة معرفة اللغة العربية ، والاقواف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية تترك ادارتها لمجالس الجماعات المحلية ، وتترك الامور النافعة (الاشغال) للادارة المحلية ، والعسكر يخدمون في البلاد القريبة منهم ، أما العسكر الذي يلزم ارساله الى اليمن والحجاز وعسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية . أما بخصوص الوظائف فقد تم الاتفاق على أن يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الاقل من اولاد العرب ، وكذلك في محكمة التمييز ودائرة المشيخة وجميع الدوائر ، ويعين خمسة ولاة على الاقل من أبناء العرب وعشرة متصرفين ، ويعين في مجلس الاعيان من اولاد العرب بنسبة اثنين من كل ولاية ، ويعطى مقدار لسد عجز ميزانية الدوائر التي تترك ادارتها للولايات فيضاف هذا المقدار الى ميزانية الولاية ويعطى غير ذلك نصف رسوم العقارات على ان يصرف للمعارف ، وكان البند الثاني عشر ينص على التالي : يقبل مبدئيا ان تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي وينظر في امر تنفيذه بالتدريج . لقد وقع رئيس الشبيبة على هذه البنود بالرغم من انها ، بالمقارنة ، كانت دون المطالب العربية ، وقد وقعت الاتفاقية تدليلا من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية وتعبيرا منهم عن مرونة سياسية ارادوا بها اعطاء الاتحاديين وانصارهم من العرب ، فرصة اخيرة للتفاهم مع احرار العرب اللامركزيين .

ومن المعلوم أن اتفاقية باريس لم تنفذ ، ذلك ان حكومة الاتحاد والترقي عندما قررت تنفيذ (الاصلاح) استصدرت ارادة سنية بذلك ، كشفت فيها عن حقيقة سياستها ونواياها ، فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في اكثرية بنوده وتراجعا تاما عن اهم هذه البنود وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

ووقف طلعت باشا خطيبا في الحفل الذي اقيم يوم ١٩١٣/٨/٥ في الاستانة ، بمناسبة صدور تلك الارادة السنية ، فأعلن على مسمع من الحضور والقادة العرب : أن موقف العثمانيين من نظام اللامركزية « كان مبنيا على اوضاع الشعوب البلقانية ، انا

كنا نعلم نزعات تلك الشعوب ونواياها وكنا نخشى ان يؤدي نظام اللامركزية الى تسهيل وتسريع انفصالهم عنا » ثم يشير الى انفصال تلك الشعوب ولم يعد هناك : « ما يستوجب الاستمرار في سياسة المركزية . . لاننا نعرف نزعاتكم الحقيقية » واكد طلعت باشا للعرب ان السياسة الجديدة ستكون مبنية على التفاهم والمودة الصحيحة ، قائلا : « لن نتردد في المضي معكم الى آخر حدود التساهل في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم لاننا نعتمد على اخوتكم » (٥٠) .

واذا كان الكلام على هذه الصورة ، فان التطبيق كان غير ذلك . اذ بدأت مماطلة الاتحاديين في تحقيق بنود الاتفاقية من جهة ، ومماطلتهم في قضية اعادة افتتاح الجمعيات الاصلاحية وخاصة في بيروت ، بل ومقاومة الاصلاحيين عن طريق المجلس العرفي ، ثم موقفهم من الانتخابات لمجلس المبعوثين . .

واهم من ذلك فقد تمكن الاتحاديون بهذه الطريقة التي اتبعوها من شق أعضاء المؤتمر ، وقد كان لانشقاق عبد الكريم الخليل (رئيس الشبيبة العرب في الاستانة) وعضو مؤتمر باريس ، ثم انشقاق عبد الحميد الزهراوي (رئيس المؤتمر) وقبوله منصب (عضو مجلس الاعيان) ، كان لانشقاقهما اكبر الاثر على تصدع الجبهة العربية وحركة طلاب الاصلاح واللامركزية ، مما ادى الى مطالبة الاحرار العثمانيين وفي مقدمتهم أعضاء جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى مقاومة الاتحاديين وحكومتهم وانصارهم ، والاصرار على ضرورة اعلان الحكم اللامركزي ، اما العسكريون فقد وجدوا في ذلك الانشقاق ومقدماته الدليل الذي وجده أعضاء الجمعيات الاصلاحية والاحزاب اللامركزية ، ولكنهم وجدوا فيه فوق ذلك دليلا على عدم قدرة المدنيين وعملهم السياسي - العلني على تحقيق المطالب العربية فاندفعوا نحو تأسيس تنظيم عسكري سري ، تبلور في جمعية العهد العسكرية السرية والتي تخطت اللامركزية الادارية الى اللامركزية السياسية .

اللامركزية السياسية : « الكونفدرالية » :

طرح مفهوم اللامركزية السياسية في الدولة العثمانية بشكل ظاهر عندما تأسست جمعية (العهد) (٥١) بعد انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، أي بعد أن ظهرت نوايا الاتحاديين في تجميع ما توصل اليه المؤتمر من بنود ، واتضحت نواياهم تجاه المشكلتين الرئيسيتين القائمتين في الامبراطورية العثمانية آنذاك وهما مشكلة الاستبداد ، ومشكلة التسلط القومي .

فقد اتضحت تلك النوايا وهذه السياسية على أنها مركزية استبدادية مقنعة
بالدستور تجاه المشكلة الاولى ، وعلى أنها مركزية عنصرية طورانية مقنعة بالخلافة تجاه
المشكلة الثانية .

ان تلك النوايا وهذه السياسة قد دفعت بمؤسسي جمعية العهد من ناحية
المبادئ والاهداف ، الى المزيد من التمسك « بالقومية العربية » التي تتجسم في تأكيد
واضح للامركزية سياسية تحل محل اللامركزية الادارية ، وتتخطاها على طريق المزيد
من الحقوق القومية ، أو التي تتجسم ، بلفة أخرى ، في حل لاوضاع الامبراطورية
العثمانية لتحقيق به مقومات الاستقلال القومي السياسي دون ان يصل الى درجة
الانفصال عن الدولة العثمانية (٥٢) .

ان بين فكرة اللامركزية الادارية وبين الاستقلال بالانفصال الكامل ، نقطة وقفت
عندها جمعية العهد هي :

اللامركزية السياسية ، أو الكونفدرالية ، أو الاستقلال القومي ، في نطاق
امبراطورية ثنائية ذات رأس رمزي واحد ، كما نصت المادة الاولى من مبادئ الجمعية
وأهدافها .

ولم يكن وصول أعضاء جمعية العهد الى هذا الموقف وتبنيه ، أمرا فجائيا يفتقر
الى المقدمات ... فقد كانت حقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية - كما بينا -
مسألة أساسية ومطروحة ، تعددت صيغ الحلول التي تبنتها (الجمعيات) والتنظيمات
السياسية تجاهها ، وتطورت هذه الصيغ تطورا سريعا ومتواصلا بلغ مرحلة جديدة
نوعيا في مؤتمر باريس ، ولم يلبث ان انتهى في الحرب العالمية الاولى الى مطالبة العرب
بالاستقلال والانفصال .

ان المناداة بتكوين مملكة ثنائية ، لحل المشكلة العربية التركية ، لم يكن الاتجاه
الذي نادى به العرب وحدهم ، بل اننا نجد اشارات تقول بأن هذا الاتجاه هو اتجاه نادى
به بعض الاتراك أيضا . فنجد الكاتبة التركية خالدة أديب تتحدث عن هؤلاء
القادة الذين لم تذكر أسماءهم فتقول : « ... كان لديهم رغبة بصورة معقولة
في الوصول الى تفاهم مع العرب ، وخلق مملكة ثنائية برلمانية منفصلين تحت رئاسة
ال خليفة السلطان على غرار النموذج النمساوي - المجري ، وكانت هذه الفكرة الاخيرة
هي التي حلت بالاتراك للحديث عن عاصمة جديدة ، ولقد اقترحت حلب من حيث
كونها على الحدود العربية التركية » (٥٣) .

ولا بد لنا هنا من الإشارة الى أن الجمعية القحطانية السرية - التي شكلت بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ - بوقت قصير ، كانت قد سبقت جمعية العهد في الدعوة الى صيغة الكونفدرالية الثنائية ، اذ تبنت الدعوة الى مشروع جديد وجريء هو : « تحول الامبراطورية العثمانية الى ملكية ثنائية » ، وكانت هذه محاولة أخرى لمواجهة المشكلة التي خلقتها مركزية الاتحاد والترقي ، ووفقا لذلك المشروع كانت الولايات العربية ستكون مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية ، وتكون اللغة العربية هي لغة مؤسساتها ، وكانت هذه الملكة جزءا من امبراطورية تركية عربية يقام بنيانها على غرار بنيان الامبراطورية النمساوية - المجرية .

وهكذا كان على السلطان العثماني في القسطنطينية ان يلبس بالاضافة الى تاجه التركي ، تاج المملكة العربية ، كما كان امبراطور هابسبورغ يلبس تاج المجر والنمسا .

وتشير الوثائق والكتب (٥٤) الى أن أعضاء القحطانية هم أنفسهم أعضاء جمعية العهد - باستثناء المدنيين - وان رئيس الجمعيتين هو عزيز علي المصري ، فليس من المستبعد ان يكون برنامج العهد ، هو برنامج الجمعية القحطانية التي لم تعمر طويلا بعد تأسيسها اذ انضم اعضاؤها المدنيون الى الجمعيات العربية ، السرية والعلمية ، التي تأسست فيما بعد ، وأسس العسكريون جمعية العهد بعد فشل تحقيق متطلبات المؤتمر العربي الاول .

ولكن مما يلفت النظر ان الاستاذ توفيق برو يقول : ان عزيز المصري قد أكرر التمثل بذلك النظام اثناء مقابلة شخصية زاره فيها برفقة الدكتور حسن صعب - قبل وفاته في الستينات - وفسر وجود هذا البند في برنامج جمعية العهد الذي أورده أمين سعيد وغيره ، انه قد يكون تعديلا متأخرا ادخله رفاقه المشرقيون فيما بعد ، ولكن هذا القول لا بد وان يقيم في ضوء أوضاع عزيز المصري وقت هذه المقابلة (الناحية الصحية ، والمسن) خاصة وان التطلع الى النموذج النمساوي - الهنغاري لم يكن غريبا على الفكر العربي ، فقد كان عبد الرحمن الكواكبي قد أشار اليه قبل ظهور جمعية العهد بفترة طويلة في كتابه المشهور « ام القرى » كما ذكرت سابقا ، ومن ناحية أخرى ان المطالبة باللامركزية لم تعد تؤدي الغرض نفسه بعد الحرب العالمية الاولى ، ولم تعد مطروحة على بساط البحث ، حتى يطالب بها أعضاء جمعية العهد المشرقيون ، بل ان الجمعية نفسها قد انقسمت الى جمعية العهد العراقية ، وجمعية العهد السورية ...

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه ان عزيز علي المصري قد نادى بثنائية التاج في الجمعية القحطانية التي أسسها بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ وكرر النداء في جمعية العهد ثم تخطى هذا النداء الى المطالبة بالاستقلال في برنامج الجمعية الثورية التي أسسها اثناء الحرب ، ويقول احمد قدرى في مذكراته ان منشورات هذه الجمعية قد وقعت بين يدي جمال باشا السفاح وتم شنق القافلة الاولى والثانية للاحرار العرب في سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ على اثر ذلك (٥٥) .

لقد فكرت الجمعيات العربية التي نادت باللامركزية ان تعقد مؤتمرا عربيا آخر ، قبل الحرب العالمية الاولى ، وبدأ الاستعداد له من قبل جمعية العربية الفتاة ، وكانت قد نقلت مركزها من باريس الى بيروت واصبح على مقربة من متابعة الاحداث وتقييم نتائجها ، وكتب عبد الغني العريسي الى محب الخطيب - عضو جمعية الفتاة وحزب اللامركزية - ان يهيء أعضاء حزب اللامركزية وخاصة رفيق وحقي العظم لقبول الفكرة ، على ان يتولى حزب اللامركزية اعداد المؤتمر . .

وقد أصدرت جمعية العربية الفتاة ، ثلاثة منشورات قبل الحرب ، عرفت باسم الصرخات الثلاث (٥٦) تدرجت بالمطالبة من المركزية الى اللامركزية الموسعة ، ثم المطالبة بالاستقلال ، وكانت جميعها تطالب بسرعة تحقيق بنود المؤتمر العربي في باريس ، وقد كتبت الاول بأسلوب من يرغب بالتفاهم مع المسؤولين ، وكان عنوانه « الى اولي الامر في العاصمة » وكانت الجملة الاولى على الشكل التالي : نحن عصبة العرب نمد ايدينا اليكم نصافحكم مصافحة الكريم للكريم . . .

ثم تبدأ الجمعية بتحديد مطالبها ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ - ان من حق العرب مشاطرة الاتحاديين سياسة الملك فيما هو خاص بشأن الامة العربية « فالعرب قاعدة جامعتكم من قبل ومن بعد » .

٢ - ان يكون ممثلو العرب في مجلس (المبعوثان) على نسبة عددهم وخصوصا في مجلس الاعيان .

٣ - ان تكون الوزارات الجديدة عثمانية لا تركية : « فنحن والارمن كفلاء معكم بحفظ بلادنا وبلادكم ، فكما يكون في الوزارة لجماعتكم حق ، ان يكون لشركائكم » .

أما في السياسة الداخلية فقد طالبت الصرخة الاولى (باللامركزية) وبينت الجمعية ضرر السياسة المركزية التي تتبعها حكومة الاتحاديين بقولها :

« لقد عرف الصغير والكبير ان المركزية في ادارة الشعوب المختلفة لغة وطبيعة تفضي الى انقراض المجموع ، فلكم أيها الاولياء أسوة بالدول العظمى حيث تنفصل الادارات العامة عن الخاصة ، فيقوم كل فريق بشأنه ، فتأتي النتيجة بقوة مادية لا غلبة عليها ومعنوية لا خلاص اليها » وتطالب الصرخة بتقسيم المملكة الى ثلاث مناطق : ولايات تركية ، ولايات عربية ، ولايات أرمنية ، وعلى رأس كل منطقة وزارة صغيرة - خاصة - يرأسها رئيس يعينه جلالة الخليفة من أهل البلاد ، وهي تتألف من نظارات الداخلية والمعارف والاوقاف والنافعة والزراعة والبوليس والحق العام ، ومجلس نيابي من كل منطقة ينتخبه أهلها .

وبعبارة جامعة مائة ان كل ما هو عائد لمجموع الامة فمرجه الوزارة العليا وكل ما هو خاص لكل منطقة فمرجه وزارة هذه المنطقة دون غيرها (٥٧) .

لقد كانت الصرخة الاولى لجمعية العربية الفتاة تسودها روح التفاهم ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الاتحاديين لمدايديهم بمساعدة العرب والارمن ، وبذات الوقت كان فيها الشيء الكثير من الوعيد : « فان أجاب أولو الامور الى هذا النداء فأيدينا معقودة بأيديهم ، فهم جوانحنا ان استظللنا ، ونحن ردوهم ان استنجدونا والا كانوا كشاد الحبل وهو في وسطه ، فلا ينتهي العقد حتى ينتهي الشاد بقتل نفسه ... »

أما الصرخة الثانية فكانت موجهة الى أبناء العرب عامة ، وقد كتبت بأسلوب ثوري ، يستفز العرب وضماثرهم لآحياء مجدهم ... تبين الصرخة اضرار الحكم المركزي المتبع في البلاد والذي تعاني منه الامة العربية ، ويؤكد أعضاء جمعية الفتاة : « ان الغاية من صرختهم هذه ليس الانسلاخ عن الدولة العثمانية » أو « التنكر للامة التركية » ، ولكن الغاية منها ان يفهم أبناء العروبة « حقيقة التاريخ الحاضر فيعلموا ان الدولة العليا أصبحت لا تستطيع ان ترد عنهم غارة المغيرين » وتضرب مثلاً ضياع طرابلس الغرب وفشل الدولة في البلقان (٥٨) .

وتتعرض الصرخة الثانية الى الحركات الاصلاحية وتشير الى انها غير كافية لحفظ البلاد ، ويطالب أعضاء الفتاة بتطبيق « اللامركزية الواسعة » ويضربون مثلاً بدولة المانيا ، والولايات المتحدة ودولة النمسا والمجر وسويسرا وأمريكا الجنوبية والشمالية ، ويطلبون في صرختهم تطبيق النظام الاداري الذي قدموه في صرختهم الاولى .

وتختتم الصرخة الموجهة الى أبناء العرب عامة بنداء : « الى اللامركزية ايها القوم » مع برنامج لتطبيق اللامركزية كانت قد ذكرته الصرخة الاولى واكدته الصرخة الثانية ومؤداه : « ثلاث وزارات خاصة ووزارة عامة » ثم تنبه الصرخة الى الخديعة : « اياكم والخديعة فتهازأ بكم جماعة العاصمة فيمنحون للولاة توسيع المأذونية » التي يصفها أعضاء جمعية الفتاة بأنها : « أضر حالا وشر مآلا من طراز الحكم الحاضر » معللين ذلك بقولهم : « فنحن نشكو فعالهم وهم تحت مراقبة الاستانة فكيف بهم لو رفعت هذه المراقبة » . ثم يكررون نداءهم ثانية : « فاياكم والخديعة فتوسيع المأذونية ليس من اللامركزية في شيء ، فتبقون بها اما تحت خرق الولاة او استعباد الاجانب ... » (٥٩)

لم تحمل هذه الصرخات تاريخا معينا لصدورها ، ولكن يمكننا تحديد تاريخها من وثائق أخرى ، في ما بين ٣١ آذار و ٢٥ نيسان سنة ١٩١٤ ، اذ ان الصرخة الثالثة صدرت بعد هذا التاريخ بقليل . واهم ما جاءت به هذه الصرخة (الثالثة) دعوة صريحة للانفصال ، وتضرب مثلا بدولة اليونان التي انفصلت عن الدولة فأصبحت « أرقى من الترك بدرجات ... والجبل الاسود فكان آية في الانتظام ، وانفصل الصرب ... وانفصل البلغار ، ... ان تلك العناصر قد انقذت نفسها من القبر التركي - كما تقول الصرخة - وجعلت لنفسها مكانة ومنزلة قد تكون لامتنا العربية بل من المحقق ان تكون ... » (٦٠) .

لقد قرر أعضاء جمعية الفتاة ان لاجدوى من التفاهم مع الترك بعد مخاتلتهم ومراوغتهم لتحقيق المطالب الاصلاحية التي تقدم العرب بطلبها : « ... وليعلمن المختالون والمراوغون ان هذا اليوم له ما بعده ، وليعلمن العرب ان حركتهم لن تقف دونها دسائس الساسة وانهم ضاربون هذه الدولة من اركانها حتى تخفق في البلاد راية العرب على سكانها » .

كما أصدر حزب اللامركزية الادارية بيانا شرح فيه اللامركزية وفوائدها ، وطالب بأن تطرح قضية اللامركزية على الامة لاخذ رأيها بان تصادق على منهاج الحزب عامة كما في كل مملكة دستورية ، واكد البيان على ان « افراد هذه الامة رغم مطالبتهم باللامركزية الا انهم يريدون البقاء للدولة العثمانية والحياة مع اخوانهم الاتراك تحت راية الهلال وان العنصر العربي والعنصر التركي لاغنى لاحدهما عن الآخر » كما ان البيان يشير الى « ان العرب قد اجتمعت كلمتهم في آتحاء الامبراطورية العثمانية والمهجر على طلب تحقيق الحكم الاداري اللامركزي » حسب مقررات المؤتمر العربي في باريس ، وأشار البيان « ان العرب سيقومون بمظاهرة سلمية يوم نشر البيان وهو

٩/١٠/١٩١٣ فيقف طلاب اللامركزية في العراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وأوروبا وأمريكا أمام إدارات البريد يخاطبون الصدر الأعظم بلسان ينطق بالاخلاص للدولة والحرص على سلامتها ، ويناشدونه تنفيذ أحكام اللامركزية الإدارية الواسعة في الولايات العربية واعطاء الشعب حرية في هيئاته النيابية وأمور المعارف والنافعة وجميع الشؤون الاقتصادية المحلية واعتبار اللغة المحلية لغة رسمية « (٦١) » .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد مؤتمر ثان يدعى اليه « أبناء الأمة العربية » ويحتج على حكومة الاتحاديين لأنها تطارد أعضاء الحزب بتهمة « أنه موجود عندهم ما يسمونه « الأوراق المضرة » . . . وبقيت المداولات ما يقارب العام ، فقد وجدت عدة وثائق حول هذا الموضوع منها ، محضر الجلسة الأخيرة للحزب وكانت بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩١٤ ، ووجدت مسودة الدعوة بين أوراق محب الدين الخطيب الذي تمكن من أن يقنع حزب اللامركزية بتبني المؤتمر الثاني للعرب كما اقترحت جمعية العربية الفتاة السرية ، ولكن هذا المؤتمر لم يعقد ، لأن الحرب العالمية الأولى قد أعلنت قبل وضع جدول أعمال المؤتمر وتعيين وقت انعقاده وتحديد مكانه . . . (٦٢) .

أعلنت الحرب العالمية الأولى بعد خمسة أيام من تاريخ هذه الجلسة ، فقلبت الأوضاع رأساً على عقب ، وطرحت مفاهيم جديدة وحلول جديدة للعديد من القضايا ، خاصة بعد أن زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في أتون الحرب إلى جانب ألمانيا في ٣٠/١٠/١٩١٤ ، فكان ذلك بداية لمرحلة جديدة تعيشها أوضاع (الرجل المريض) .

مفهوم اللامركزية خلال الحرب العالمية الأولى :

١ - في بداية الحرب : التراجع عن طلب تحقيق اللامركزية والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية .

قد يستغرب البعض تقلص انتشار مفهوم اللامركزية وشموليته في بداية الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن شبح المطامع الأوروبية في أملاك (الرجل المريض) وخاصة البلاد العربية ، قد أصبح واضحاً .

وبالرغم من أن موقف العرب في تقرير المصير كان في منتهى الخطورة ، ألا أنهم وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية ، بالرغم مما يحمله هذا القرار من تراجع عن المطالب العربية وخاصة عن مطلب تحقيق اللامركزية ، وصدرت بيانات الجمعيات والهيئات الشعبية تطالب أن يقف الجميع إلى جانب تركيا . .

د . سهيلة الريماوي

فقد كتب رئيس جمعية العهد بيانا أرسله الى أنصاره في الاستانة ودمشق يطلب فيه : « ان لا يغريهم شيء في الدخول في أعمال عدوانية ، ضد الامبراطورية العثمانية ، لأن دخولها الحرب سوف يعرض الولايات العربية للفتح الاوربي ، وان عليهم أن يقفوا الى جانب تركيا لحين الحصول على ضمانات فعالة ضد المخططات الاوربية » . (٦٣)

كذلك أصدر حزب اللامركزية عدة بيانات بهذا المعنى . وكتب رشيد رضا الى أصدقاء الحزب ، والى مسلمي سورية خطابا عاما ، يقول فيه : « ... أشكركم على ما أظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة وبذل الانفس والاموال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة » (٦٤) .

وهناك (بعض الوثائق) على شكل رسائل متبادلة بين بعض قادة الحركة العربية ، ورسائل من أعضاء الجمعيات الاصلاحية ، تشير الى اتجاهات وآراء اقل تحفظا في تأييد الدولة العثمانية من الاتجاهات والآراء المذكورة ، ولكنها في النهاية تحبذ ضرورة الوقوف الى جانب الدولة العثمانية في الحرب (٦٥) .

غير ان أعضاء جمعية العربية الفتاة طرحوا مفهوم الاستقلال ، بدلا من مفهوم اللامركزية ، اثر اعلان الدولة العثمانية الحرب في ٣٠ / ١٠ / ١٩١٤ الى جانب الالماني ، فأصدرت الجمعية قرارا واضحا جاء فيه : « ان غاية العرب هي الاستقلال حفاظا على كيان الدولة العربية لاعداء الاتراك ، أما اذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الاوربي فان الجمعية تعمل مع احرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنبا الى جنب مع الاتراك » (٦٦) .

وهنا لابد من الاشارة الى نقطتين مهمتين تدلان على معالم الصورة في واقع الوطن العربي هذه الفترة :

الاولى : ان قوة الحركة العربية ، المتمثلة بالجمعيات العربية وما يلتف حولها من قوى مؤيدة ، لم تكن في ظروف الحرب وصراع قواها ، القوة الاولى الموجودة على الساحة في المنطقة ، سواء من ناحية الحجم ، أو التأثير أو الوسائل ...

الثانية : ان الاوضاع العامة في البلاد العربية ، حينذاك ، كانت أوضاعا سيئة ، سواء اكان ذلك من الناحية المعنوية أو المادية : « فالحالة الاقتصادية سيئة جدا وهي قاسية الميون ، وانا على مقربة من المجاعة ، وما أشاهده من بؤس بعض العائلات يمزق احشائي ... اما الدقيق فقليل في البلدة فضلا عن ان كثيرا من العائلات لا تملك قسيرا ، لان أبواب الرزق قد سدت في وجه العامل والتاجر وسواهما » (٦٧) .

وهذا الوضع كان له أكبر الاثر في تأييد الدولة العثمانية من قبل الجمعيات العربية بل والرأي العام العربي ، وان كان مشوبا بالحذر من حيث ربط هذا التأييد بتحقيق المصلحة العربية ، وتعليق استمراره على تنفيذ متطلباتها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رفض التطلع نحو أعداء الدولة العثمانية ، رفضا نابعا من وعي الحركة العربية وجمعياتها ، لمطامع هؤلاء الاعداء في الوطن العربي ذاته .

ويشير لورنس الى أن وحدات الجيش الموجودة في دمشق وحلب كانت مستعدة للثورة ، وكان بإمكانها أن تسيطر على المنطقة في أول محاولة لأنه لم يكن للعثمانيين إلا فرقة تركية واحدة عند طوروس ، ولكنها لم تعلن ثورتها (٦٨) .

وهكذا فإن الحركة العربية ، بذلك الموقف ، فتحت أفقا رحبا أمام الاتحاديين وحكومتهم ، لفتح صفحة جديدة في التعامل معها ، يقوم على تناسي الصراعات الماضية والالتحام في المعركة القائمة التحاما يمليه ادراك خطورة الموقف ، وعلى الاعتراف بالحقوق العربية التي كانت تلك الحركة قد حددتها وناضلت من أجلها . .

وبالمقابل رفع الاتحاديون شعارات التضامن العثماني تحت راية الجهاد المقدس عن طريق النصر ، ومن أبرز مظاهر تلك السياسة التوددية تعيين الفريق زكي باشا الحلبي - وهو من كبار ضباط العرب - قائدا عاما للجيش العثمانية المرابطة في سورية والتي كانت أكثريتها الساحقة ، ضباطا وجنودا ، من العرب ، كما كان من مظاهرها كذلك ، اسناد عدد من المراكز العسكرية والمدنية الكبيرة في سورية الى ضباط العرب ورجالهم . ولكن عمر هذه السياسة التوددية كان قصيرا قصرا مذهلا ، وتغيرها كان تغيرا داميا ، فلم يمض على دخول الدولة العثمانية الحرب أكثر من بضعة أشهر حتى حل جمال السفاح محل الفريق زكي الحلبي في القيادة العامة في سورية .

بدا جمال باشا عهده في سورية بالسير في تلك السياسة التوددية ، التي كان من أبرز مظاهرها مثلا أقواله في الحفلة الادبية التي دعا اليها زعماء الحركة العربية قبل الهجوم على قناة السويس ، حيث قال : « ان البرنامج الذي عقد حزينا عزيزته على تنفيذه بخدا فيره لاصلاح حالة العرب لاوسع بكثير مما قد يخطر ببالكم ، ولست انا من الذين يتوجسون شرا من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد ، مع انفصال احدهما عن الآخر كشعبين متحالفين » (٦٩) .

ولكن سياسة جمال باشا تجاه العرب كان فيها الكثير من الدهاء . اذ عمل على تشتيت القوة العسكرية العربية التي كانت مركزة في سورية ، تحت ستار « حاجة الحرب الى كفاءات الضباط والجنود العرب ، في ساحات أخرى » ، وهذا مخالف

لوعوده من جهة ، ومخالف لمطالب الحركة العربية في أن تحصر مهمات الجيوش العربية في الدفاع عن البلاد العربية ، كما كسب جمال باشا ثقة بعض قادة الحركة العربية وأعضاء المؤتمر العربي في باريس ، وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، وهما من دعاة اللامركزية ، وعندما اكشف القناع عن وجهه كسفاح ، كان الاول احد شهداء القافلة الاولى والثاني احد شهداء القافلة الثانية من شهداء العرب . وحدث ذلك بسرعة مذهلة فلم ينقض أكثر من بضعة أشهر على أقواله حتى نصبت المشانق في دمشق وبيروت في آب (أغسطس) سنة ١٩١٥ وفي مايس سنة ١٩١٦ . وبالرغم من أن تنفيذ حكم الاعدام قد تم بسرعة مذهلة فان جمال باشا كان يبرر أعماله تجاه قافلة الشهداء الاولى بالنشرات التي تدعو الى تطبيق اللامركزية الادارية ، فيشير الى أنه قرا في الصحف في شهر مايو سنة ١٩١٥ حملات عنيفة موجهة من اللجنة اللامركزية على الحكومة العثمانية ، وانه لم يجد مبررا لذلك ، خاصة عندما جاءه اسعد الشقيري ، مفتي الجيش ، وأخبره ان الثورة بدأت علاماتها في سورية ، كما أكد له كامل الاسعد : ان جماعة المصلحين قد أسأؤوا استعمال الثقة التي وضعها جمال باشا في رضا الصاح وعبد الكريم الخليل وغيره وأكد كلام اسعد الشقيري (٧٠) .

اما الاعمال المادية المعزوة للمتهمين من قافلة الشهداء الثانية ، فهي اعمال متباينة تختلف من مجموعة الى أخرى ، ولكنها تتركز أساسا في نقطتين : الانتساب الى جمعية عربية هي حزب اللامركزية ، وهي على حد نص بيان جمال باشا السفاح الصادر سنة ١٩١٦ - في معرض تفسير أحكام الديوان الحربي العربي « الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطة العثمانية وجعلها امارة مستقلة » (٧١) والنقطة الثانية احرار رسائل سياسية اختلق الاتحاديون بعضها وعزوا البعض الاخر الى زعماء الحركة العربية اللامركزيين . . .

ان أقصى ما يمكن قوله حول هذه التهم ان نفرا قليلا من أعضاء حزب اللامركزية ، بالتعاون مع بعض زعامات القطاعات الطائفية من اصدقاء الحزب ، المتصلين بفرنسا والمتعاملين معها ، كانوا هم المتحركين في ذلك الوقت ، وبقطع النظر عن ثبوت التهم أو عدم ثبوتها ، فان السياق التاريخي العام للوقائع يدلنا على أن هناك سياسة تعبر عن خطة مرسومة مسبقا للتخلص من احرار العثمانيين العرب الذين يطالبون باللامركزية ، وان مشانق جمال باشا نصبت للتخلص من هؤلاء اللامركزيين ، وان السياسة التوددية للاتحاديين كانت سياسة تكتيكية لضرب القضية العربية بعد أن ينالوا ثقة قادة الحركة ، وهكذا يمكننا القول ان الحركة العربية أصيبت بضربة شديدة فخرت عددا كبيرا من خيرة شبابها وقاداتها ، وكان حزب اللامركزية ، والذين نادوا باللامركزية ، أكثرهم

ثأثرا بتلك الضربة ، لدرجة أن حزب اللامركزية انتهى على أثرها ، وتحولت المطالبة باللامركزية الادارية ، والمطالبة باللامركزية السياسية ، الى المطالبة بالاستقلال التام والانفصال عن الدولة العثمانية ، بل وبالثورة على هذه الامبراطورية ، فأعلن الشريف حسين في مكة - بمؤازرة قادة الحركة العربية - الثورة العربية الكبرى ، وكان هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال ، وهو الهدف الذي حددته جمعية العربية الفتاة ، وجمعية المهدي وغيرها . .

ان الهدف العربي الذي ظهر قبل الحرب العالمية الاولى ، قد تحدد وتأكد خلالها ، وقامت الثورة العربية الكبرى من أجل تحقيقه الا وهو : اقامة دولة مشرقية كبرى ، تضم الاجزاء العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، فتكون دولة عربية كبرى ، موحدة ومستقلة ، وتكون خطوة على طريق وحدة عربية شاملة ، وقد حدد العرب دولتهم هذه : بخط يمتد من الاسكندرونة ويتجه نحو الجنوب حتى يصل رفح فالحدود المصرية ، ثم التيه فالبحر الاحمر حتى باب المندب ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران ، ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد ، ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهي عند الاسكندرونة « (٧٢) » .

وقد ظهرت هذه المطالب العربية في محادثات حسين - مكماهون ، بعد أن سلم اعضاء الجمعية العربية ، هذا (المصور الجغرافي) الى الامير فيصل ، فحمله بدوره الى والده الشريف حسين لتصبح الثورة العربية ، واراض الحجاز ، النقطة المنطلق لرجالات الحركة العربية وتحقيق الهدف العربي الموحد .

ان مشاورات الحسين كانت سببا في كف الاتحاديين عن محاولة ابادة العرب في سورية والعراق ، وقد أدت الى تخفيف ما شرعوا فيه من مذابح ، ثم انها كانت خطوة هامة واولية لاجراء القضية العربية من حيز الفكر والخاطر والامنية الى ميدان الحقيقة الواضحة (٧٣) .

وعندما أخذت القبلة والمنار ، تنشران الاهداف التي تسمى الثورة العربية التي تحقيقها وبأن « الحسين قام بأعظم خدمة للعرب والمسلمين » لانه « باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة اسلامية خالصة ، ويوشك أن يكون هذا مقدمة لدولة عربية اسلامية كبيرة » (٧٤) أخذت وفود المسلمين والعرب تتوجه نحو الحجاز لتحقيق الحلم الذي طالما راود العرب الاحرار بعد أن تأكد أن « الحركة العربية لم تقم الا لصرب » (٧٥) .

ولم يكن هذا التأييد مقتصرًا على البلاد العثمانية ، بل انه كان أكثر شمولاً من ذلك ، اذ تجاوز البحار الى المهجر ، فأيد اللامركزيون - الاستقاليون هذه الثورة ورحبوا بقيامها داخل البلاد التركية ، وتفاءلوا بتحقيق الاستقلال للعرب واصبحوا يمتنون النفس بالمستقبل المشرق المنير بزوال دولة الاتراك الهرمة (٧٦) .

أما صحف المعارضة فقد كانت تلوح بتعذر قيام هذه الدولة العربية الكبرى المستقلة ، خاصة وان العداء بين أمراء الجزيرة يحول دون تأسيس دولة عربية ، كانت الصحف الموالية تؤكد : « ان الشريف لقادر على تلافي ذلك بعقد اتفاقية بين الجميع على قاعدة اللامركزية » . وتهون الامر على المعارضين بقولها : « اذا سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز أحد أسباب سقوطها ، وان سلمت من الحرب ومن هؤلاء (الملاحدة) وعادت دولة اسلامية قوية ، لم يكن فيما تقدم من استقلال الشريف ما يمنع من العودة الى الوفاق والاعتصام » (٧٧) .

وهكذا بقيت قضية الاستقلال مطروحة بشكل علني منذ اعلان الثورة وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ولا بد لنا من الاشارة الى ان الاستقاليين المؤيدين للاستعمار قد كشفوا الاقنعة عن وجوههم مهللين لتدفق الجيوش الفرنسية على السهول السورية « كالسيل العارم الجارف الذي لا يقف في سبيله عائق ولا يرد لتياره حاجز ... » (٧٨) فهذا التيار له مجال آخر في بحث آخر .

الوثائق :

وثائق : من مكتبة محب الدين الخطيب

سيرة جيل : مذكرات محب الدين الخطيب (مخطوط لم يطبع بعد) .

الكتب العربية :

أحمد قلدي : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ط ١

اسعد داغر : ثورة العرب ، القاهرة ١٩١٦ .

أمين سميد : الثورة العربية الكبرى ، دار احياء الكتب العربية بمصر

توفيق بسرو : العرب والترك ، معهد الدراسات - القاهرة ١٩٦٠

- جمال باشا : مذكرات جمال باشا ، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٣
- حقي العظم : حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وسورية وفلسطين ، القاهرة ١٩٢٤
- رفيق العظم : مجموعة آثار رفيق بك العظم ، القاهرة ١٣٤٤ هـ
- ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ط ٣ ١٩٦٥
- عنوت دروزة : الحركة العربية الحديثة ، ط ١ ، صيدا
- محيب الدين الخطيب : المؤتمر العربي الاول ، القاهرة ١٩١٣
- مصطفى الشهابي : القومية العربية - تاريخها وقوامها ومراحلها ، معهد الدراسات ، ط ٢ ، ١٩٦١

الصحف والمجلات :

- ١ - أبابيل ، بيروت ، حسين محي الدين حبال سنة ١٩١٢ - سنة ١٩١٣ .
- ٢ - الاتحاد العثماني ، بيروت ، أحمد حسن طيارة ، سنة ١٩١٢ - سنة ١٩١٣ .
- ٣ - الاهرام ، القاهرة ، جبرائيل بشارة تقلا ، سنة ١٩٠٩ - سنة ١٩١٤ .
- ٤ - الحضارة ، القسطنطينية ، عبد الحميد الزهراوي ، سنة ١٩١١ - سنة ١٩١٢ (جريدة أسبوعية سياسية) .
- ٥ - السهام ، البرازيل ، جورج اسحق ، سنة ١٩١٧ - ١٩١٩ .
- ٦ - القبلة ، مكة المكرمة ، محب الدين الخطيب ، ١٣٣٤ - ١٣٣٦ هـ (نصف أسبوعية) .
- ٧ - المنار ، القاهرة ، محمد رشيد رضا ، سنة ١٩٠٨ - سنة ١٩١٨ (مجلة اسلامية) .
- ٨ - المحروسة ، القاهرة ، الياس زيادة ، سنة ١٩١٤ .
- ٩ - المفيد ، بيروت ، عبد الفني العريسي وفؤاد حنتس ، سنة ١٩١١ - سنة ١٩١٣ .

- ١٠- المقتبس ، دمشق ، محمد كرد علي ، سنة ١٩٠٨ - ١٩١٦ .
- ١١- المقتطف ، القاهرة ، فارس نمر - يعقوب صروف ومكاريوس شاهين ، ٣٣م ، ج١
- ١٢- المؤيد ، القاهرة ، علي يوسف ، سنة ١٩٠٩ - ١٩١٣ .

Correspondance d'Orient: Revue economique, politique, et litteraire, Directeur Georges simma, Paris, 1906 - 1915.

الكتب الاجنبية :

- T.E Laurance, **Seven Pillars of Wisdom**, Oxford 1943.
- SAAB, Hassan, **The Federalists of the Ottoman Empire**, Amsterdam 1958.
- Z. N. Zeine, **Arab Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism**, Beirut, 1958.



الحواشي :

(١) نطلق كلمة داماد علي (صهر) آل عثمان ، وكان (الداماد محمود) قد هرب مع ولديه سنة ١٨٨٩ الى فرنسا ، وبدأ يرسل رسائله الى السلطان واغلبها كتب بلهجة شديدة وينبه السلطان فيها الى الاعمال التي يرتكبها بحق شعبه ، ويطالب بالاصلاحات الدستورية كشرط اساسي لمودته ، وقد توفي الداماد سنة ١٩٠٢ فاحتل ابنه (صباح الدين) مركزه واخذ على عاتقه تحقيق رسالة والده .

وكان الامير « قد اغرم بمدرسة - لوبلاي - الاجتماعية ، واعجب بآراء - ادمون دوطن - الذي كان من اركان هذه المدرسة حول التربية اللاتينية والتربية الانكلوسكسونية ، لذلك اعتقد بوجوب اتباع مبادئ التربية الانكلوسكسونية والاهتمام بتنمية قابليات - التشبث الشخصي - في الافراد » ، (ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية) ، ط ١٩٦٤ ، ص ١١٩ .

(٢) من هذه التنظيمات : «عثمانلي حریت جمعيتي» من اعضائها جمال وطلعت ، و « الجمعية السرية » ومن اعضائها كمال اتاتورك وجمعية : « الاتحاد الثماني » « ومنظمة المركز العمومي » .. (راجع كتاب عثمان نوري ، عبد الحميد ودور سلطنتي .

(٣) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ماخوذ عن مؤلف تركي بعنوان : الاحزاب السياسية في الدولة العثمانية .

(٤) راجع ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٩ وما بعدها .

(٥) اعلنت جمعية النهضة العربية السرية عن وجودها ، وكذلك جمعية الشوري العثمانية ، واحتفل اعضاء الجمعيتين باعلان الدستور في الامستان ودمشق والقاهرة وبينوا في خطبهم كيف يصون العدة لئلا هذا اليوم « فتحل المشاكل على مبادئ دستورية وتتألف القلوب » .

(٦) من مبادئ جمعية الاتحاد والترقي : النهوض بالامبراطورية العثمانية على اساس مركزي بقيادة وسيطرة المنصر التركي الطوراني .

(٧) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٨٠ .

(٨) المنار ، م ١٢ ج ٤ ، ص ٣٩٨ ، من مقال لمحمد انشاء الله .

(٩) المقتطف ، م ٢٤ ج ٤ ، ص ٢١٢ .

(١٠) جريدة المؤيد ، بتاريخ ١٨/٤/١٩١١ .

(١١) Z. N. Zeine. Arab Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut 1958, P. 187.

(١٢) د . سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخية العدد التاسع .

(١٣) المقتبس ١٩٠٨/٢/٢٦ ، والهلل سنة ١٧ ، ج ٥ سنة ١٩١٩ ، ص ٣١١ .

Correspondance d' Orient mc Annee N. 8, 15/1/1909, p: 51. (١٤)

(١٥) عبد الحميد الزهراني ، جريدة الحضارة ، عدد ٨٦ ، ٨٧ ، ١١/٢٠ و ١٩١١/١٢/٧ .

(١٦) جريدة الفيد ، ٢٨ ايلول سنة ١٩١١ .

(١٧) جريدة الاهرام ، ٩ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٩١١ .

(١٨) المنار ، م ١٤ ، ج ١١ ص ٨٦٢ - ٨٦٧ (من تقرير نائبي طرابلس ناجي بك وصالح بك) .

(١٩) الفيد ١٩١٢/١/٦ .

(٢٠) راجع كتاب حقي العظم ، حقائق من الانتخابات النيابية في العراق وسوريا وفلسطين ، ص ٩ - ص ١٥ .

(٢١) الاهرام ١٩١٢/٧/٥ ، والمؤيد ١٩١٢/٧/١٧ .

(٢٢) راجع نص بيان عصبة ضباط الانقاذ في جريدة المؤيد بتاريخ ١٩١٢/٨/١ .

(٢٣) الاهرام ١٩١٢/٢/١٦ .

(٢٤) راجع اسماء اعضاء اللجنة في الفيد (١٩١٢/١٢/٢٢٠) ومنهم : سليم علي سلام ، احمد مختاربيهم ، احمد طيارة ، كامل الصلح ، حسن الناطور ، البير سرمق ، جميل الحسامي و (خليل رينة والدكتور ايوب ثابت من جمعية النهضة اللبنانية المسيحية) وفيهم . وتالف اللجنة من ٢٥ عضوا .

(٢٥) راجع اللائحة في ، المنار م ١٦ ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، وكتاب اسعد دافر ، ثورة العرب ، ص ٦٢ - ٦٧ .

(٢٦) الفيد في ١٩١٢/١/٢٢ .

(٢٧) المنار ، م ١٦ ، ج ٤ ، (ابريل) سنة ١٩١٢ .

(٢٨) ابابيل ، بيروت ، ١٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٢ .

(٢٩) الفيد ، بيروت ، ٩ نيسان سنة ١٩١٢ .

(٣٠) الاتحاد الثماني ، بيروت ، ١٨ نيسان سنة ١٩١٢ .

(٣١) وليق العظم ، آثاره ، المقدمة بقلم رشيد رضا .

(٣٢) من وثائق محب الدين الخطيب .

(٣٣) جريدة الاهرام ١٩١٢/٤/١٥ .

(٣٤) جريدة المحروسة ، مقالة بقلم د . شبلي شميل بتاريخ ٢٥ آذار سنة ١٩١٢ بعنوان الامركزية والعمران .

- (٣٥) وثيقة : من أوراق محب الدين الخطيب .
- (٣٦) وثيقة : من أوراق محب الدين الخطيب .
- (٣٧) المنار ، م ١٦ ، ج ٦ ، سنة ١٩١٢ .
- (٣٨) المنار ، م ١٦ ، ج ٣ ، ٨ مارس سنة ١٩١٢ .
- (٣٩) الانسيريس ، الاسكندرية ، تاريخ ٩ مارس ١٩١٢ .
- مما تجدر الإشارة اليه ان هذه الاسماء هي اسماء الهيئة الادارية لحزب اللامركزية .
- (٤٠) المصدر السابق .
- (٤١) الحروسية ، القاهرة ، ٢٥ مارس سنة ١٩١٢ .
- (٤٢) المؤيد القاهرة ، ٢٩ مايو سنة ١٩١٢ .
- (٤٣) القنصلية العامة الفرنسية في سورية رسالة من السيد كوجيه قنصل عام فرنسا في بيروت ، الرقم ٩٧ تاريخ ٦ (مايو) ايار سنة ١٩١٢ .
- (٤٤) القى الزهراوي خطابة حول : تربيته السياسية وعبد الفنى الرئيسى : حقوق العرب في المملكة العثمانية ، ونذرة مطران : الحياة الوطنية في البلاد العربية والعثمانية ، ونموم مكرزل : المهاجرون ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية .
- (٤٥) كتاب المؤتمر العربي الاول صادر عن اللجنة العليا اللامركزية ، القاهرة ١٩١٢ .
- (٤٦) كتاب المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس ، صادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، القاهرة ١٩١٢ ، وكتاب وجيه كوشاني ، ص ١٠٤ ، دار الحدادة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٠ .
- (٤٧) راجع : خطاب عبد الفنى الرئيسى ، في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ٢ - ص ٥ .
- (٤٨) من خطبة الزهراوي ، راجع كتاب المؤتمر الاول ، ٣٦ - ٣٧ .
- (٤٩) من الواضح وجود بعض المتفرنسين بين اعضاء المؤتمر ، ولكن لا يجوز ان تعمم هذه الصفة على جميع الاعضاء كما يفعل البعض .
- (٥٠) ساطع الحصري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٦ .
- (٥١) ان ربط الاحداث بعضها مع البعض في تلك الفترة يرجع تاريخ تأسيس العهد في اواخر سنة ١٩١٢
- (٥٢) نص المادة الاولى : على ان جمعية سرية انشئت في الاستانة وفاتيها السمي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (من أوراق محب الدين الخطيب) يؤيده (امين سميد في كتابة الثورة العربية الكبرى) م . ص ٢٦ .
- (٥٣) Dr. SAAB, The Arab Federalists of the Otto. Empire, p. 237.

(٥٤) وثائق محب الدين الخطيب ، وكتب : امين سميد ، وجورج انطونيوس ، وهزت ثورة ... وغيرها .

(٥٦) من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٧) المرحلة الاولى ، من وثائق محب الدين الخطيب .

(٥٨) المرحلة الثانية ، من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٩) المصدر السابق .

(٦٠) من اوراق محب الدين الخطيب ، المرحلة الثالثة .

(٦١) راجع نص البيان في المنار ، م ١٦ ج ١١ ، ص ٨٤٩ - ٨٧٩ ، وايضا وثائق محب الدين الخطيب .

(٦٢) محضر جلسة ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ ، من اوراق محب الدين الخطيب .

ومن المعلوم انه في ٢٨ تموز يوليو ١٩١٤ اعلنت امبراطورية النمسا - المجر الحرب على العرب .

Dr. SAAB: The Federalists of the Ottoman, Empire (٦٣)

(٦٤) من اوراق محب الدين الخطيب يؤيده : اسعد داغر ثورة العرب ص ١٢٧ .

(٦٥) رسالة للضابط سليم بك الجزائري وهو من اعضاء القحطانية والمهد ، ورسالة من مختارهم

وهو من اعضاء اللجنة الاصلاحية في بيروت (من اوراق محب الدين الخطيب) .

(٦٦) احمد فتوي ، مذكراتي من الثورة العربية ، ص ، يؤيده اوراق محب الدين الخطيب .

(٦٧) من اوراق محب الدين الخطيب رسالة من عبد الضي الريسي بتاريخ ١٤/٩/١٩١٤ .

T. E. Lorraine: seven Pillors of wisdom p. 51, (٦٨)

(٦٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٢٤٠ .

(٧٠) مذكرات جمال باشا ، ص ٢٤١ .

(٧١) المصدر السابق .

اكثرهم من اعضاء جمعية العربية الفتاة ، ولكن الجمعية كانت سرية ولم يكشف الاوراق وجودها

فمنسبوا الحزب الامركية الطني ..

(٧٢) د . سهيلة الزيملاوي ، مجلة قضايا عربية ، السنة السابعة ، عدد ١١ ، تشرين ثاني (نوفمبر)

١٩٨٠ .

مفهوم الامركزية

- (٧٣) النار ، م ١٩ ج ٢ ، سنة ١٩١٦ .
- (٧٤) المصدر السابق .
- (٧٥) جريدة القبلة ، مكة المكرمة ، ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ هـ .
- (٧٦) جريدة السهام ، البرازيل ، ٢٥ أيار سنة ١٩١٨ .
- (٧٧) النار ، م ١٩ ، ج ٢ ، سنة ١٩١٦ .
- (٧٨) اللطائف السورية ، مصر ، ٧ أكتوبر و ٤ مارس سنة ١٩١٨ .



الطباعة ودورها في النهضة الأوربية وفي اليقظة العربية

د . زوقان قرقوط

جامعة دمشق

يعرف (جان دلومو Jean Delumeau) النهضة بأنها ((ارتقاء أوروبا في ذلك العصر الذي تقدمت فيه حضارتها بصورة حاسمة ونهائية على الحضارات الأخرى (أونيفر سالس) . ولقد كانت وسائل النهضة التي أخذت تنتشر وتعم أهم أوروبا بداية التفاوت بين هذه الأمم الأوروبية وسائر أمم العالم . ولابد لنا لفهم تخلف العالم الثالث من العودة بأصوله إلى ذلك العصر ، العصر الذي فتحت فيه الاجتياحات البرتغالية والإسبانية الأفق أمام أوروبا للهيمنة على العالم ، وراحت خيرات الدنيا وكنوزها وذخائرها تتدفق إليها .

ففي حين خرجت أوروبا بوسائل النهضة (مخترعات ، اِرتيادات جغرافية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، نهب الشعوب ، تجديد أساليب العلوم والتعليم ، نشر التراث القومي والعالمي ...) من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، دخلت أهم أخرى ، كالأمة العربية ، على الرغم من تقدمها الحضاري ، بل وتفوقها حينذاك ، إلى ظلمات التأخر ((العصور الوسطى)) . وهكذا اختل التوازن . فالبعض يعتبر أن عدم قدرة العرب على تجاوز الظروف التي حالت دون تفاعلهم تفاعلاً إيجابياً مباشراً مع عوامل النهضة يشكل بحد ذاته قصوراً ذاتياً . ويرى آخرون للعرب مبرراتهم في ظروف الصراع المحتدم حينئذ بين العرب المسلمين وأوروبا ، وأن ما يكشف عن القصور الذاتي أو عدمه هو مدى استجابة العرب الآن لتحديات العصر . ولا شك في أن أولى وسائل النهضة الأوروبية إلى التفوق كانت ، في ذلك الحين ، هي الطباعة الحديثة ، كوسيلة متقدمة لنشر التراث والفكر . هذه الوسيلة التي نستعرض هنا جانباً من تطورها في الغرب وفي البلاد العربية .

قبل انتشار فن الطباعة في أوروبا ، كانت الوسيلة إلى المعرفة في العالم واحدة ، وأن تفاوتت العناية والاهتمام بها من بلد إلى آخر ، وتكاد تنحصر بالسماع والرواية

والاخبار المتناقلة والمخطوطات المتداولة .. لذلك كان النسخ والاستنساخ ، الى جانب الرحلات القليلة وتناقل التجار للاخبار والقصص والجواسيس والعيون .. وسيلة الحضارات في العالم للاتصال والتقدم .

الا ان هذه الوسيلة لم تعد تكفي اوربا القرن الخامس عشر ، حيث كانت الاقوام ، اثر عصر الامبراطوريات ، تتشكل في امم ودول آخذة في التمايز بعضها عن بعض ، وراحت لغاتها تنفصل عن اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة ، وتكون ، من لهجاتها المحلية ، في لغات جديدة ، سرعان ما اتخذت طابعا قوميا اقليميا .. وقياسا على ذلك كانت المعرفة بالوسائل المألوفة تقتضي عملية مزدوجة : من جهة اتقان اللغات القديمة ، مصدر هذه المعرفة : اليونانية ، اللاتينية ، العبرية ، العربية ، الفارسية ، الهندية ، الصينية .. ومن جهة اخرى استيعاب اللهجة الجديدة او اللغة الناشئة ، الآخذة في التكون : الفرنسية ، الايطالية ، الالمانية ، الانجليزية .. الخ . واذا كان من السهل تعلم اللغة الناشئة واتقان الكتابة بها ، لارتباطها بالحياة اليومية ، وبالامور الدارجة ، وبالتالي القيام بعملية النسخ المطلوبة حينئذ لنقل المعرفة ونشر الراي ، فان تعلم اللغات القديمة كان متمذرا الا على القلة النابغة ، وهي بالقطع ممن لا يتوافر لها الوقت الكافي للقيام بعملية النسخ او الانقطاع لها .

ومن جانب اخر قد يكون الاهم ، والحافز الاقوى ، كان عهد الحروب الصليبية قد ولى وهو العهد الذي كان بالحرب والتجيش وضبط التعصب ... يحمي العقيدة من التفتت والانحلال ... وصار الاسلام ، تحت رايات العثمانيين ، بعد سقوط القسطنطينية وبيزنطة ، يدق ابواب اوربا بعنف ، وانطلق حدة النهضة والاستنهاض من امثال ايراسم (Erasme) يجوبون اوربا ويقرعون اجراس الخطر .. للوقوف في وجه الاسلام . ومن هنا اشتداد الحاجة الى ترويج الفكر والتنوير والحماية ، وبالتالي الى (فن) الطباعة للايقاء بمتطلبات الصراع السياسي والمذهبي المحتدم في الداخل والخارج .



ولم تكن فكرة التدوين والطباعة ونشر الراي واذاعته ، بنت ساعتها او جاءت من الفراغ . فقد مرت ، عبر تاريخ البشرية ، بمحاولات عديدة ، نابغة من النزعة الخالدة للبقاء ، فالمصريون كتبوا على ورق البردي ونقشوا على الصخر ، والسومريون

(1) ايراسم Erasme هو ديديه ايراسم من رواد الحركة الانسانية في اوربا النهضة (١٤٦٩ - ١٥٣٦) يتمتع بفكر موسوعي. تناول المجتمع في عصره، وبخاصة الاجواء الدينية فيه ، بنقد عنيف ولكن بتعقل هذر . اهم اعماله « مديح الجنون » الذي طبع لأول مرة في بلال (سويسرة) .

والاكاديون توصلوا الى كتابة الاوامر والمعلومات على قوالب من الاجر تنقش قبل حرقها ، وشاعت هذه الطريقة عند الصينيين حوالي سنة ٦٠٠ م ، غير انهم اتخذوا الخشب بدلا من الاجر في البداية ، ثم الوزق (١) وذهب المستشرق (هامر بورجستال Håmmer Purgstall) الى ان العرب اخذوا هذه الطريقة عن الصينيين على اثر فتح العرب لاجزاء من الهند واتصالهم بالصين ، ثم نقلوها معهم الى الاندلس . ويستدل على ذلك بنصوص من بعض الكتب الاندلسية ، منها ما ورد في كتاب الحلة السرية لابن الاثير من ان بلرا مولى الامير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعث بها فتطبع . ومنها ان تجار المرية بالاندلس كانوا يصمون بضائعهم بخاتم محفور من الخشب يرجع تاريخه الى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٥٠ م) (٢) وذلك قبل محاولة غوتنبرغ بمائة عام .

غير ان المقصود بفن الطباعة هنا ليس مجرد كتابة كلام على ورق او حفره على خشب او احداث صورة لشيء بمداد وانما المقصود بذلك فن الطباعة الذي توصل اليه غوتنبرغ لأول مرة عام ١٤٤٠ م ، والذي أحدث انقلابا في فكر الانسان وحياته ، ونقل أوروبا عشرات السنين الى الامام ، وهو نقش الحروف المفردة على المعادن بشكل يجعلها تجمع فتصبح كلاما يطبع على الورق ، ثم تحل ويعاد جمعها بصيغة اخرى فتطبع كلاما اخر وهكذا . . . ثم وضع هذه الحروف المجموعة في آلات تطبع منها نسخا كثيرة في وقت قصير . فاذا به وسيلة لنشر العلوم والمعارف وترقية الافكار وبالتالي نشر الرأي والاطلاع على مجريات الامور .

وما كاد فن الطباعة ، على هذا النحو ، يظهر حتى اتجه به الاوربيون وجهة دينية متلازمة مع الروح التي كانت حينئذ تصبغ كل شيء بصفتها ، غرضها طبع الانجيل بلغته الاصلية من جهة ، ثم نشر آرائهم الدينية بين غيرهم من أصحاب اللغات الشرقية من جهة اخرى . ولذا لم يمض على اختراع الطباعة بالحروف المفردة قليل وقت حتى كان ابطال تلك الصناعة قد اتجهوا الى عمل حروف لطبع اللغات الشرقية . فكانت العبرية اول لغة شرقية اجتذبت عناية المهتمين بالطباعة ، باعتبارها لغة الانجيل والتوراة ، وكانت العربية ثانيها (٣) .

(ج) ج . غوتنبرغ J. Gutenberg . مخترع الطباعة بالحروف المتحركة (١٤٤٠ م) . عمل في (ماينس) منذ ١٤٤٨ م بالاشتراك مع (ج. فوست J. Fust) وطبع الطبعة الشهيرة من الكتاب المقدس المسماة بطبعة « الاثنين واربعين خطرا » .

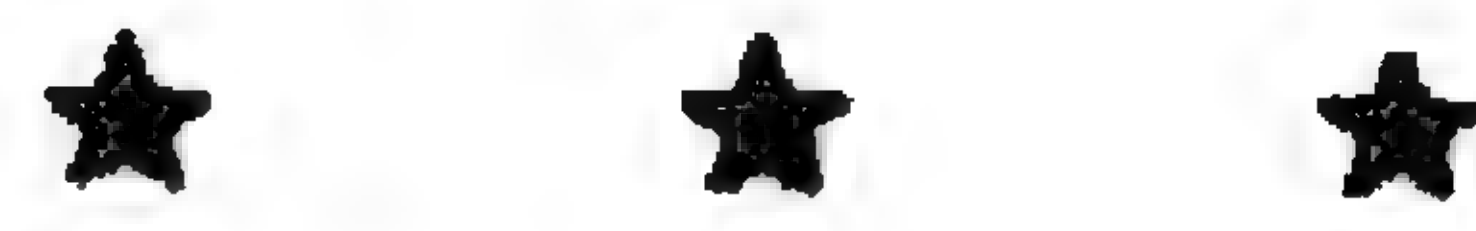
قامت اول مطبعة عربية في (فانو Fano) بإيطاليا ، امر بإنشائها البابا يوليوس الثاني في اوائل القرن السادس عشر ، وعهد بها الى الطباع جريجوري جرجس البندقي . وقد أصدرت هذه المطبعة في سنة ١٥١٤ أول كتاب طبع باللغة العربية وهو كتاب « صلاة السواعي » حسب طقوس كنيسة الاسكندرية ، ويقع في ٢١١ صفحة . ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه ، فطبع بها في سنة ١٥١٦ م سفر الزبور بأربع لغات ، هي العبرية واليونانية والعربية والكلدانية ، ومع كل منها ترجمة لاتينية مطابقة لها . ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلك الى البندقية ، وطبع بها القرآن باللغة العربية في سنة ١٥٣٠ م . لكن النسخ اعدمت خوفا من تأثيره في عقائد المسيحيين .

وما لبثت الطباعة باللغة العربية ان نالت النصيب الاوفر من عناية المطابع ، فكثرت مطبوعاتها العربية ، وعلى الاخص مطابع روما . ففي سنة ١٥٦٦ أصدرت مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما كتاب « اعتقاد الامانة الارثوذكسية في كنيسة رومية » لأحد آباء اليسوعيين . وتلاه كتاب جدل في صحة الدين المسيحي لنفس الاب سماه « مصاحبة روحانية بين عالمين » ومن المطابع العربية التي اشتهرت في روما مطبعة آل ميديتشي ، التي أصدرت كتبا عربية عديدة كان اولها كتاب الاناجيل المقدسة في عام ١٥٩١ م . وقد قيل انه جميل الطبع متقن الصور اذ قام بنقشها على الخشب (تمبيستا Tempesta) (امهر حفاري ذلك العصر) . ومنها أيضا مطبعة جمعية انتشار الايمان ، وقد طبعت كثيرا من الكتب الدينية . وبانتشار الطباعة في سائر بلدان اوربا أصدرت مطبعة ليدن بهولندا ، التي أنشأها (اريبنوس Erpenius) سنة ١٥٩٥ « أمثال لقمان » سنة ١٦١٥ ، و « العهد الجديد » سنة ١٦١٦ ، و « قصة يوسف » من القرآن ، وكان أول كتاب يطبع مضبوطا بالشكل الكامل . وخطا (سافري دي بريف Savary de Brèves) ، الذي كان قنصلا لدى الباب العالي ومال به شغفه بالعلوم الشرقية الى الانصراف للطباعة ، خطوة في اتقان الطباعة باللغة العربية ، فحفر في باريس (امهات) للحروف العربية أجمل من حروف مطبعة آل ميديتشي ثم نقلها الى روما وكان أول كتاب طبعه بها هو « التعليم المسيحي » سنة ١٦١٣ و « المزامير » ١٦١٤ (٥) .

الا ان الطباعة ما لبثت ان تحولت تدريجيا من الاغراض الدينية الصرفة الى النواحي العلمية . وواضح ان المخاوف التي انبعثت في أرجاء اوربا اخذت تتبدد ، وبدأت آفاق التفوق تلوح امامها بعد الاجتياحات التي قامت بها في اسيا وامريكا اللاتينية ، وتدفق الثروات اليها . لذلك صار الاهم لديها نبش ذخائر الشرق وكنوزه

الفكرية والعلمية ... ففي عام ١٥٨٤ م تم طبع اول كتاب علمي في مطبعة مدرسة الابهاء اليسوعيين بروما باللغة العربية وهو « البستان في عجائب الارض والبلدان » . واصدرت مطبعة آل ميديتشي بروما عام ١٥٩٢ م كتاب « مبادئ اللغة العربية » ليوحنا ريموندي ، ثم كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » لابني عبد الله محمد المعروف بالشريف الادريسي . وفي عام ١٥٩٣ م نشرت هذه المطبعة ايضا « قانون ابن سينا في الطب » وباخره كتاب « النجاة » ثم الحقته بكتاب « تحرير اصول اقليدس » لنصر الدين الطوسي عام ١٥٩٥ م . واخرجت مطبعة سافري دي يريف « مبادئ اللغة العربية » سنة ١٦٢٢ م لمنصور شلق ، و « نحو اللغة العربية » بعد عامين لبطرس المعوشي الماروني ، وكتاب « ايساغوجي » في المنطق بعد عام ... ومن اهم منشورات مطبعة لندن ، في بداية انشائها « تاريخ الدولة الخوارزمية » لابني الفداء سنة ١٦٥٠ م ، كما كان كتاب عبد اللطيف البغدادي في الامور المشاهدة بمصر سنة ١٨٠٠ م من اهم ما اصدرته مطبعة اكسفورد ... وهكذا راحت تتابع الكتب العربية المنشورة ، ويتسارع ، من المطابع المنتشرة في عواصم اوربا : من غوتنجن وفيينا وبرلين وباريس وغيرها بما لا يقع تحت الحصر .

وقضلا عن المخطوطات التي تجمعت لدى افواج الصليبيين فنقلوها معهم وكانوا يتفاخرون باقتنائها ، كان من مهام قناصل الغرب الاولى اينما كانوا ان يعملوا ما في وسعهم لنقل تراث الحضارات في العالم القديم ، وبخاصة التراث العربي . ففي القسم العربي بمكتبة باريس الوطنية مثلا ، مما حالقني الحظ بالاطلاع عليه ، وآمل ان يوفقني الى نشره قريبا ، رسائل عديدة مازالت محفوظة بخط اليد ، متبادلة بين القناصل في لبنان وسورية ، او موجهة الى من يتصلون معهم من غير رجال الدين ، من مسيحيين ومسلمين وغيرهم . وهي تشير الى مدى ذلك الاهتمام ونوعيته (٦) ، حتى يمكن القول انه لم يهل القرن التاسع عشر ، قرن الاهتمام المركز بالمسألة الشرقية والانصراف الى التمهيد لاستعمار البلاد العربية ، حتى انضحت للغرب تيارات الحضارة العربية الاسلامية ومنافذ السيطرة عليها .



كانت الحضارة العربية الاسلامية قد تجاوزت ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، منذ زمن طويل ، المرحلة التي اخذت تمر بها امم اوربا في مطلع النهضة ، بما تم للعرب ، من قبل ، من نقل عن اليونان والحضارة الهيلنستية ، والفرس والهند وبيزنطة ، مما يلائم اتجاهاتهم ، الى الانتاج في مختلف مجالات الفكر . واشتدت حاجة الناس الى الاطلاع والمعرفة والبحث . وتلبية لهذه الحاجة كثر الوراقون وانتشرت المكتبات

في جنبات الوطن العربي وتزايد عدد النساخ . وكثر الطلب على المؤلفات والمؤلفين . فكثيرا ما كان بعضهم ينتقل من اقصى الغرب الى المشرق سعيا وراء مخطوط سمع بذكره ، او للتلمذ على عالم طارت شهرته ، او بالعكس . وكان يعتبر عملا مقدسا وجليلا ان يبني الانسان مكتبة عامة او مكانا يجمع فيه الكتب لنشر المعرفة بين الناس الى جانب نسخ الكتب وكتابتها (٧) . فقد روى الدكتور احمد جاب الله شلبي بما يدعو الى الدهشة والاعجاب عن النساخ في عصور الاسلام المزدهرة انه كان ، مثلا ، « . . بمكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهارا ، بحيث لا ينقطع النسخ . ولم يقل عدد الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخا في اية ساعة من ساعات النهار والليل » (٨) .

ولم يلبث الحال بفئة النساخ حتى باتوا يشكلون « طائفة » حرفية ذات أهمية وفعالية في المجتمع . تكتسب أهميتها ، الى جانب ترابطها وتماسكها للدفاع عن مصالحها ، من امور عديدة : من عناية كل فرد بقُدسية اللغة العربية وحرصه على الا تقع ورقة فيها كتابة عربية ، على الارض فيطأها احد بقدمه ، ومن بلوغ التعصب والحماس لفكرة النسخ واتقان الحروف المكتوبة بالخط اليدوي والتفنن بها ، حدا عظيما ، ومن ارتباط هذا الفن بالدين واعتباره تعبيرا عن العاطفة الدينية .

لذلك لا غرابة اذا ما اعتبرت الطباعة ، عند انتشارها ، رجسا من اعمال الشيطان ، من ناحية لان جلد الطباعة يصنع من الحيوانات النجسة فلا يجوز ان تطبع به اللغة العربية المقدسة ، بله الكتب الدينية وخصوصا القرآن الكريم . ومن ناحية ثانية لان الالاف من الناسخين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق نسخ الكتب ، راوا ان مهنتهم اصبحت في خطر وهكذا تضافرت متطلبات العقلية الدينية السائدة حينئذ ودواعي المصلحة ، للحيلولة دون ادخال الطباعة الى البلاد الاسلامية ، وبالتالي الى بلاد العرب . فعندما سمع المسلمون ، في البلاد العربية خاصة ، والبلاد العثمانية عامة ، اول اشاعة عن التجديد المقترح بادخال فن الطباعة ، تولاهم الفرع ، فرأى علماء الدين في ذلك انتهاكا للشريعة ، مدعين ان ثمرة التفكير البشري التي طالما توارثتها الاجيال عن طريق النسخ لا ينبغي لها ان تخضع لوسيلة اقل دقة في النقل واقل رقابة عليها . وظهر الذين تعشقوا الادب لذاته ، مخاوفهم من ضياع فن النسخ الذي طالما أضفى العظمة والجمال على انبل الافكار بنسخها بالخطوط الجميلة وبالتشابك الرمزي البديع للحروف وعلامات التشكيل (٩) . . الخ . ومن الواضح ان العامل الاقتصادي لم يدخل في حسابهم ، على الرغم من ان قيمة نسخ

القرآن الكريم بريشة حافظ عثمان ، أو أي ناسخ مشهور آخر مساو له ، بحروف نسخية ، كانت تتراوح بين مائة ومائتين وخمسين جنيها ذهبيا (١٠) بل لعل هذا نفسه كان مدعاة للتمسك بفن النسخ ، كذلك لم تدخل في الحسابان ديموقراطية الثقافة وشمعية الفكر .

كان الوازع الديني هو المؤشر الأكبر وهو الموجه الفعّال في دار الاسلام وفي بلاد المسيحية، ولكن شتان بين توجهه هنا، وتوجهه هناك ، كان اثره هنا جامدا . . وكان اثره هناك دافعا الى الامام . ولم يكن ذلك من جوهر الدين في شيء . ففي اوربا كان النزاع الطائفي والاقليمي ، كما كان صراعها السياسي وعلى رأسها البابوية ضد الدولة العثمانية الفتية ، التي تمكنت من السيطرة على عاصمة المسيحية الثانية المتقدمة ، هو الموجه الاساسي . . وعلى الرغم من ان طبيعة الحكم لم تكن ، حينذاك ، لتختلف هنا كثيرا عنها هناك ، وكذلك عقلية رجال الدين ، الا ان ظروف اوربا الداخلية والخارجية كانت تعمل على توحيد اكثر المواقف بين رجال الدين والحكم . وعلى العكس من ذلك اكان العامل الديني في بلاد المسلمين من جهة ، ومصلحة الاعداد الهائلة من الناسخين من جهة اخرى ، العاملين الاساسيين اللذين اخرا الاخذ بفن الطباعة، وكانا سببا في كبح ارادة الدولة . ذلك ان ارتباط طائفة الناسخين برجال الدين بات يشكل عقبة في وجه أي تصرف يضر مصالحهم مالم يضمن موافقتهم . وطيلة قرنين من الزمان باءت بالفشل جميع المحاولات لادخال فن الطباعة العربية الى البلاد العثمانية . حتى تمكن اخيرا الصدر الاعظم ابراهيم باشا ، المثقف المتنور ، بنفوذه ، من استمالة السلطات الدينية ، التي انتقلت اليها السيادة وحالت دون استقدام أي اختراع اوروبي ، لتوافق على ايجاد مؤسسة للطباعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد ان قدمت للسلطان تقارير الموفدين الى اوربا التي تعتبر الطباعة اساسا لكل تقدم (١١) . ومع ذلك فقد اضطرت الحكومة الى أن تقطع عهدا على نفسها يرضي الطرفين : اذ وعدت بانها لن تسمح بطبع الكتب الدينية ، وانها سوف تتكفل باعالة الناسخين . ولقطع الطريق على الاعتراضات وتسكيننا للتمصب لجا السلطان الى اخذ فتوى من شيخ الاسلام عبد الله أفندي* ، تجيز طبع الكتب غير الدينية ، هذه صيغتها :

★ تذكر بان السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني قد سقطوا نتيجة فتوى من شيخ الاسلام ، وان السلطان محمود الثاني لم يكن ليقوى على حل الفرق الانكشافية لولا الفتوى التي دعمته .

سؤال :

« اذا كان زيد الذي يدعي انه ذو قدرة في فن الطباعة ، وانه يستطيع ان ينقش على القوالب اشكالا للحروف والكلمات من كتب في اللغة والمنطق والفلسفة وعلم الفلك وعلوم دنيوية مماثلة ويأتي لنا بنسخ لتلك الكتب عن طريق ضغط الورق على القوالب فهل يسمح القانون الوضعي لزيد بممارسة مثل حرفة الطباعة ؟ ... »

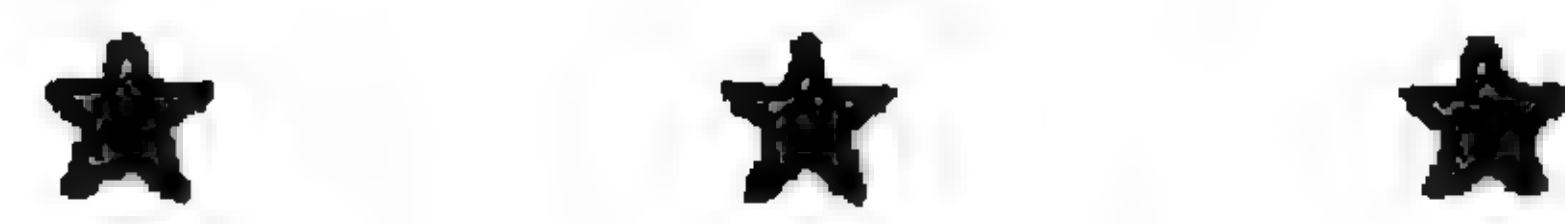
انما نطلب فتوى في شأن زيد هذا وفي شأن الطباعة »

الجواب : « والله أعلم »

« اذا قام شخص ذو قدرة على الطباعة بنقش الحروف والكلمات لكتاب مصحح على قالب بصورة صحيحة واتي لنا بنسخ كثيرة في مدة وجيزة بدون عناء عن طريق ضغط الورق على ذلك القالب فان كثرة الكتب قد تقلل من ثمنها ويترتب على ذلك زيادة اقتنائها وبما ان في ذلك فائدة هائلة فان هذا الموضوع جدير بالثناء العميم . وينبغي ان يعطى الاذن لذلك الشخص ، ولكن يجب ان يعين علماء لتصحيح الكتاب الذي سوف تنقش حروفه « (١٢) .

وعلى اثر هذه الفتوى صدر قرار سلطاني في ٥ تموز (يوليو) ١٧٢٧ باعتماد طبع الكتب وبالتصديق على تعيين اربعة من المراقبين للاشراف على اعمال مكتب الطباعة . وكان اول كتاب ظهر في عاصمة « الخلافة » الاسلامية العثمانية ، قاموسا تركيا - عربيا احتوى على نفس الفتوى وعلى موضوعات عن فوائد الطباعة اكتبها عدد من رجال العلم ذوي مكانة عالية في السلطة الدينية (١٣) .

وفي رأي الاستاذ ساطع الحصري ان اول كتاب طبعته « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطبية قسطنطينية صانها الله من الافات والبلية » هو المعجم المعروف « صحاح الجوهري » مع ترجمته التركية في سنة ١١٤١ هـ / (١٧٢٩ م) (١٤) .



والحقيقة ان فن الطباعة قد انتقل من اوربا الى الشرق قبل هذا التاريخ بكثير . وكان ذلك لاغراض دينية ، كما كان انتشار الطباعة باللغات الشرقية في اوربا لاغراض دينية بادية الامر . وكما كانت اللغة المصرية هي اولى اللغات الشرقية التي نالت

عناية المشتغلين بالطباعة ، ثم تلتها اللغة العربية ، كذلك كان دخول الطباعة الى بلدان الشرق على هذا الترتيب ايضا : اللغة العبرية ثم اللغة العربية . فقد انشأ اليهودي ربي اسحق جرسون اول مطبعة عبرية في الاستانة : جاء الى الشرق خصيصا لينشر بين اليهود كتبهم الدينية . فاحاطها اليهود بنفوذهم لضمان اطراد نجاحها وكان الاطباء منهم وكبار التجار على اتصال وثيق بأولي الامر في « دار الاسلام » (١٥) وقد ظلت هذه المطبعة تخدم الاداب العبرية زهاء ثلاثمئة سنة طبعت فيها ما يزيد على مائة كتاب في جميع العلوم والفنون ، الا ان اغلب ما طبع فيها كان كتباً دينية . وأول كتاب طبع بها هو ملخص تاريخ اليهود ليوسيفوس بن كربون ، وكان طبعه في سنة ١٤٩٠ م . كما قامت بطبع بعض الكتب العربية بالحروف العبرية لا بالحروف العربية ، ومنها بعض رسائل بن ميمون في الدين اليهودي ، وترجمة التوراة الى العربية لسعيد الفيومي عام ١٥٥١ م (١٦) .

وقد انشأ اليهود بعد مطبعة الاستانة مطابع عديدة ، كان اهمها مطبعة سالونيك في اوائل القرن السادس عشر ، وطبعت كتباً دينية وعلمية كثيرة ، منها خطب مدينا بن صموئيل سنة ١٥٢٠ م ، ومجموعة في الطب سنة ١٧٩٦ م . وتأتي اهمية هذه المطبعة من ان الحركة اليهودية العالمية كانت تعمل على تركيز جهودها في سالونيك للتسرب منها الى الخلافة العثمانية ، وبالتالي لاحداث الانقلابات فيها ولا شك في قيامها بالدور المطلوب في كل ذلك .

وكانت مطبعة حلب اول المطابع العربية التي انشئت في الشرق وقد اختلف في أمرها كثيراً ، وبخاصة حول حروفها . الا ان المسام به ان الذي انشأها هو اثناسيوس الرابع البطريرك الانطاكي ، الذي رحل في سنة ١٦٩٨ الى بخارست وطبع هناك بعض الكتب الدينية باليونانية والعربية ، ولما عاد الى حلب انشأ فيها هذه المطبعة (١٧) ، وكان اول مطبوعاتها كتاب طقوس كنسية سنة ١٧٠٢ م ، ثم الانجيل في سنة ١٧٠٦ . وعلى كل حال فالهم في الامر هو انتشار فن الطباعة بصورة رسمية لما له من علاقة وثيقة في النهضة الفكرية وبعث التراث واحياء التاريخ . . . الخ .

وايا ما كان الامر فان الطباعة قد بدأت رسمياً في الدولة العثمانية بالقرار السلطاني (٥ تموز ١٧٢٧) ، وبفتوى شيخ الاسلام ، واخذت تنتشر في ارجاء الوطن العربي بعد ظهورها في الغرب باكثر من مئتين وسبعين عاماً . ومع ذلك فانها في مدة قرن ونيف من الزمان اي من عام نشوئها رسمياً الى عام ١٨٣٠ (باستثناء ما اخرجته مطابع الحملة الفرنسية ومطبعة بولاق) - لم يزد عدد مطبوعاتها على اربعة وتسعين

كتابا ، منها تقاويم اولى بها ان لا تحسب ، ناهيك عن رداءة طبعها لتآكل الحروف وعدم تغييرها ، وما كان يصيبها من تعطيل وصدا أو عدم وجود من يديرها (١٨) . الخ فضلا عن ان عدد النسخ من اي كتاب طبع بها لم يزد على خمسمائة نسخة اذا استثنينا « لغاتي ومنقولي » و « تحفة الكبار في اسفار البحار » اللذين طبع من كل منهما ألفا نسخة . ومع ذلك فحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر لا نجد كتابا واحدا بين ما أصدرته مطبعة الاستانة والمطابع الاخرى في حلب والشويز وبيروت والقدس وبغداد والقاهرة ، يعطي فكرة عما يجري في بلاد الغرب وعن التطور الذي حدث هناك وعن التغير الذي ألم بدوله ، منذ منتصف القرن الخامس عشر . في حين نرى العكس في بلدان اوربا : فانها كانت قد اصبحت على علم بكل مجريات الامور في بلادنا .. وقبل انشاء المدارس التبشيرية في لبنان وارساء اساس الجامعة الامريكية ، وقيام المدارس في عهد محمد علي باشا في مصر وابنه ابراهيم في سورية ، كانت البلاد ما تزال تسير في التعليم وتربية النشء على نمط الكتاتيب والتكايا والجوامع ، ولا تعرف شيئا منظما عن الطرق الحديثة في التعليم ...



- ١ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : مطبعة بولاق ، المطبعة الاميرية بالقاهرة عام ١٩٥٢ ص ١ من المدخل .
كذلك الاب لويس شيخو «أصول فن الطباعة» ، مجلة المشرق عدد ثاني عام ١٩٠٠ حيث يرى انه شاهد نماذج من الورق الصيني مكتوبة بهذه الطريقة في المتحف البريطاني .
- Hammer Purgstall: «Sur l'Art d'imprimer Chez les Arabes en Espagne» J. AS. 4^{em} Serie, T.XX P254
- ٣ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٦-٧
- ٤ - جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١ - ١٩١٤ ص ٤
- ٥ - جورجى زيدان : المصدر السابق
- ٧ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ، ص ١٧ دار المعارف بمصر .
- ٨ - الدكتور أحمد جاب الله شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٥٠
- ٩ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ١٩
- ١٠ - الدكتور شمس الدين الرفاعي نفس المصدر السابق ص ٢١
- ١١ - سامي الكيالي : الحركة الادبية في حلب ص ٢٠٥
- ١٢ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١
- ١٣ - الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق .
- ١٤ - ساطع الحصري : آراء واحاديث في التاريخ والاجماع ، دار العلم للملايين : مقالة الريخ انتشار الطباعة في الدولة العثمانية .
- ١٥ - الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٩
- ١٦ - مجلة المشرق ، السنة الثالثة عدد ٤ ص ١٧٥ حيث يجد المستزيد بيانا بأكثر هذه المطبوعات .
- ١٧ - يقول شنورر Schnurrer أن حروفها هي نفس حروف بخارست . ويخطئ دى ساسى De Sacy رأيه ويقول أنه وجد خلافا كبيرا بين حروف حلب وحروف بخارست . في حين يرى الاب لويس شيخو ان انتييموس الكاهن الذي قام بطبع الكتب للبطريرك في بخارست صحبه الى حلب حيث قام بصب الحروف على غرار حروف بخارست وعلم هذا الفن لاناس من حلب . ويروي جورجى زيدان عن جورج خياط أحد معلمي حلب أن الذي حفر الحرف وصبها هو الصائغ الماهر عبد الله زاخر الحلبي .
- ١٨ - تاريخ جودت: ترجمة عبد القادر افندي الدنا، بيرز ١٣٠٨ هـ ص ص ٨١ - ٨٤ حيث توجد قائمة مفصلة بالمطبوعات : الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ١٢، ١٣، ١٤ .

مؤتمرات تاريخية

سيُعقد في جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب وسيحتفل خلال المؤتمر بمرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب ومؤرخ الطب العربي ابن أبي أصيبعة ، وذلك يومي الأربعاء والخميس ١١ - ١٢ نيسان ١٩٨٤ م . ويهدف المؤتمر الى تقديم ابحاث أصيلة لم تنشر سابقا في موضوعات تاريخ العلوم الأساسية والتطبيقية عند العرب ، وذلك تمشيا مع اهداف معهد التراث والجمعية السورية لتاريخ العلوم ، وقد تقدم الكثير بابحاثهم ، ونأمل ورود ابحاث اخرى تتعلق بمواضيع المؤتمر وتساهم في تحقيق اهدافه من حيث ابراز مساهمة الحضارة العربية في اغناء الحضارة الانسانية .

* * *

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د. شاكِر الفحام رئيس التحرير : ناظم كلاس

العددان : الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني - ايار ١٩٨٤

لجنة كتابة تاريخ العرب :
رئيس جامعة دمشق د. محمد زياد الشويكي ،
رئيس قسم التاريخ د. عادل زيتون ،
د. عادل العوا ، د. نبیه عاقل ،
د. محمد حرب فرزات ، د. خيرية قاسمية ،
ناظم كلاس

هيئة الاشراف على المجلة :
د. شاكِر الفحام ، د. محمد خير فارس ،
د. نبیه عاقل ، د. عبد الكريم رافق ،
د. احمد بدر ، محمد محفل ، ناظم كلاس

المراسلات :

جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية
لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية

تنويه

- ☐ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

ثمن العدد : (١٠) ل.س عشر ليرات سورية

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية أو ما يعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية أو ما يعادلها

**تضاف اليها اجور البريد الجوي أو العادي حسب
رغبة المشترك**

**يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة
في السنوات السابقة بالقيمة نفسها**

في هذا العدد

الصفحة

- | | |
|-----|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٤ | دعوة لتشكيل اتحاد دولي عربي
لجسميات تاريخ العلوم وفلسفتها عند العرب |
| ٥ | د. عبد الكريم رافق
مظاهر سكانية من دمشق
في العهد العثماني |
| ٢٩ | نساء عالمي
لانتقال آثار حوض الخابور الاوسط |
| ٣٢ | د. احمد بدر
المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني
في عصر ملوك الطوائف |
| ٦٧ | د. صالح درادكة
لمحات من تاريخ ايلة (العقبة)
في العصر الاسلامي |
| ١١١ | د. عبد المرشد المزاري
حدود الجزيرة الفراتية
عند الاصطخري وابن حوقل (بين شمشاط وسميساط) |
| ١٣٣ | د. نجدة خماش
تصريب النقد
واثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الاقتصادي |
| ١٤٧ | د. نعيم فرح
اضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام
ودورها في التجارة المالية في العهد البيزنطي |
| ١٧٣ | د. سهيلة الريماوي
صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام
(١٩٠٨ - ١٩١٨) حزب الامركزية الادارية العثماني |
| ٢٠٧ | زهير فزال
مؤتمرات تاريخية
حول مؤتمر ستراسبورغ عن الاقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية |

دعوة لتشكيل اتحاد دولي عربي لجمعيات تاريخ العلوم وفلسفتها عند العرب

ان الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب تتوجه بالدعوة الى الجمعيات والهيئات والمنظمات من الاقطار العربية كافة ، التي تهتم بتاريخ العلوم عند العرب والكشف عن تراثنا العلمي العربي الاصيل ، لتشكيل اتحاد دولي عربي لتاريخ العلوم وفلسفتها عند العرب .

فيرجى ممن يود المساهمة في تكوين هذا الاتحاد المراسلة الى العنوان التالي :

الاستاذ الدكتور خالد ماعوط
رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم
معهد التراث العلمي العربي
جامعة حلب

حلب - الجمهورية العربية السورية

رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم

مَظَاهِرُ سَكَانِيَّةِ مَدِينَةِ دِمَشْقَ فِي الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ

د. عبد الكريم رافو

جامعة دمشق

مقدمة

تواجه الباحثة صعوبات جمة في معرفة عدد سكان مدينة ما ، أو قطر ما ، في مختلف فترات التاريخ العربي ، قبل اعتماد الإحصاءات الرسمية ، والمصادر التاريخية العربية لا تزودنا بمعلومات عن أعداد السكان ، سواء في المدن ، أم في البلاد ككل ، كما أن معلوماتها بالنسبة لأعداد الجماعات ، بما في ذلك أعداد المقاتلين في المعارك ، تعوزها الدقة . ولم تكن تقديرات المراقبين الأجانب ، وبخاصة الرحالة منهم ، أقرب إلى الصحة ، إذ اعتمدت ، في كثير من الأحيان ، على اعتبارات خاطئة أو مبالغ فيها ، أو على معلومات مستقاة من مصادر غير موثوقة .

وإزاء هذا الارتباك في المعلومات عن أعداد السكان ، وتزايدهم أو تناقصهم ، لجأ الباحثون المحدثون إلى اعتماد معايير عدة لمعرفة أعداد السكان في الماضي . ومن هذه المعايير اعتماد عدد الحمامات في مدينة ما لمعرفة عدد سكانها . وذهب بعض الباحثين إلى القول أن الحمام الواحد يخدم مائتي بيت يتألف كل منها من خمسة أشخاص . وعلى هذا فإن مجموع السكان هو حاصل ضرب عدد الحمامات بالف (٢٠٠ x ٥) . وقال أحد الباحثين أن الحمام الواحد يخدم ثلاثة آلاف نسمة . وقدر آخر العدد بأربعة آلاف .

واعتمد باحثون آخرون مساحة الجوامع في التوصل إلى معرفة عدد السكان في مدينة ما ، وذلك بتقسيم المساحة على ما يحتاجه المصلي الواحد من مكان للصلاة ، تقدر أبعاده ، حسب قول أحد الدارسين للجامع الكبير في مدينة سوسة التونسية ، بـ ٢٠ سنتيمترا عرضا ومتر وخمسة وثلاثين سنتيمترا طولاً . وبعد التوصل إلى عدد المصلين الذين تستوعبهم مساحة ذلك الجامع ، يضرب العدد بالرقم ثلاثة ونصف ، وهو ما يمثل وسطى عدد الأسرة في سوسة ، لتقدير مجموع عدد السكان

في تلك المدينة . وضيبي أن هذا المصير لا يمكن استخدامه في كل بلد اسلامي ، نظرا لاجتهاد المذاهب فيما بينها بالنسبة لصلاة الجماعة .

ومن الباحثين من اعتمد المساحة المسكونة في المدينة وقسمها على وسطي مساحة البيت ، لمعرفة عدد البيوت المسكونة ، ثم ضرب العدد بخمسة ، وهو وسطي عدد افراد الاسرة المتعارف عليه بين عدد من المؤرخين . وتصطدم هذه التقديرات بصعوبات كثيرة منها ان وسطي عدد افراد الاسرة يختلف من منطقة الى اخرى ، ومن فترة الى اخرى . وكذلك يختلف عدد ساكني البيت الواحد فيما بين الاسرة الصغيرة ، والاسرة الكبيرة التي تضم جيلين او اكثر (١) .

واعتمد بعض الباحثين السجلات المالية العثمانية ، ومقدار الضرائب والجزية لتقدير عدد السكان . ولكن هذه التقديرات بدورها لم تكن لتخلو من الاخطاء ، سواء بالنسبة لمجموع السكان في المدينة او اللواء او الولاية ، ام بالنسبة للسكان حسب طوائفهم . وقد ذكر أحد الباحثين ، مثلا ، ان سكان مدينة حلب تناقصوا من سبعة وخمسين الفا ، في الفترة ما بين ١٥٢٠ - ١٥٣٠ م ، الى ستة واربعين الفا في عام ١٥٨٠ ، وحدث مثل ذلك بالنسبة لسكان دمشق ، الذين تناقصوا من سبعة وخمسين الفا الى ثلاثة واربعين الفا في المدة ذاتها . وعزي هذا التناقص الى الطاعون الكبير الذي اصاب السكان في عام ١٥٥٥ (٢) .

وقد حدثت الطواعين بشكل متكرر في العهد العثماني وشملت مناطق واسعة من بلاد الشام وغيرها . وبعضها انتشر بالعدوى من مناطق اخرى ، وبعضها الاخر حدث في اعقاب الزلازل والدمار الذي لحقته بالانسان والحيوان ، والتلوث الذي اصاب المياه . وتفص كتب التراجم باسماء الذين « طعنوا » ، وتوفوا بسبب ذلك . وأسهب ، بل بالغ الاخباريون في وصف حوادث الطاعون والاصابات التي خلفها . ومن ذلك قول ابن جمعة في احداث عام ١١٤٤/١٧٣١ - ١٧٣٢ :

« وفيها كان الطاعون بارض الشام ونواحيها حتى فني خلق كثير وعم غالب البلدان » (٣) . ومن الطواعين الشديدة التي اصاب بلاد الشام ، في العهد العثماني ، ذلك الذي حصل في عام ١١٧٣/١٧٦٠ ، في اعقاب سلسلة من الزلازل العنيفة (٤) . وكان طاعونا مخيفا مكث ، على حد قول رسلان القاري (٥) ، اربعة اشهر . وذكر اخر انه دام ستة اشهر (٦) وبلغت ضحاياه كل يوم في دمشق ، كما ذكر القاري ، « الف او ازيد » ، ووصف أحمد البديري الحلاق الدمشقي هذا الطاعون بقوله : « فقبل عيد الفطر بيومين وبعده بيومين يخرج من كل باب من ابواب دمشق ممن مات مطعوناً في كل يوم نحواً من الف جنازة والعياذ بالله . وهذا شيء ما سمع من عهد

طاعون عمواس ، نسأله تعالى اللطف فيما جرت به المقادير « (٧) . وهذا دليل على اضطراب الروايات في ذكر الضحايا التي يميل الاخباريون الى تضخيمها نظرا لضخامة الحادث .

وقد قدر سكان بلاد الشام ، ابان الحكم المصري، في الفترة بين ١٨٣١-١٨٤٠، بما يتراوح بين (١٣٧٩٤٤٦ر١) و (١٧٩١٠٧٦ر١) نسمة ، وذلك بالاستناد الى سجلات الضرائب المصرية (٨) . وجاء في الاحصاء العثماني لعام ١٨٩٣ ان ولاية حلب ، بما فيها ألوية حلب ومرعش وأورفة ، بلغ عدد سكانها ، باستثناء البدو ، (٧٨٧٧١٤ر٧) نسمة ، منهم (٣٨٨٠٨٣ر٣) من الاناث و (٣٩٩٦٣١ر٣) من الذكور . وضمت ولاية سورية ، التي كانت تتألف من لواء الشام (ويضم دمشق ودرعا وحاصبيا وراشيا ووادي العجم وبعلبك والبقاع والنبك) ، ولواء حماة (ويضم حماة والسلمية وحمص والحميدية) (٧٤٨ر٤٠٠) نسمة ، منهم (٢٠٢٧٤١ر٢) من الاناث و (١٩٨٠٠٧ر١) من الذكور . واشتملت ولاية بيروت ، التي تألفت من لواء بيروت (ويضم بيروت وصيدا وصور ومرجعيون) ، ولواء عكا (ويشتمل على عكا وحيفا وصفد والناصرية وطبرية) ، ولواء اللاذقية (ويضم اللاذقية وجبلة والمرقب وصهيون) ، ولواء طرابلس الشام (ويشمل طرابلس وعكار وصافيتا وحصن الكراد) ، ولواء البلقاء (ويضم نابلس وبني صعب وجماعين وجنين) على (٥٦٨٠١٤ر٥) نسمة ، منهم (٢٧٣٤٨٥ر٢) من الاناث و (٢٦٤٥٢٩ر٢) من الذكور . وعلى هذا يبلغ مجموع سكان هذه الولايات التي كانت تشكل القسم الاكبر من بلاد الشام (١٧٥٦٤٧٦ر١) في عام ١٨٩٣ (٩) . وبالمقارنة مع عدد السكان في فترة الحكم المصري يتضح ان الزيادة كانت طفيفة ، ان لم تكن معدومة ، في احسن الاحوال . وربما يفسر ذلك بالاحداث التي جرت ، ومنها اضطرابات فترة ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ، والهجرة التي اعقبتها الى الخارج ، واصابات الطاعون المتكررة في القرن التاسع عشر .

سجلات التركات واهميتها في دراسة السكان

تزودنا سجلات التركات ، او المخطفات ، في العهد العثماني ، بمعلومات هامة عن السكان ، وبخاصة فيما يتعلق بحجم الاسرة ، ونسبة الجنس الواحد الى الاخر بين الاولاد ، ووسطى الاعمار ، والاوزاع الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بذلك .

وقد عني بسجلات المخطفات نوعان من القضاة ، عرف كل منهما بلقب قسام ، واشير الى الواحد بلقب القسام العربي او البلدي ، والى الاخر بلقب القسام العسكري ، فالقسام العربي هو القاضي الذي قام بحصر وتسجيل او بيع ، مخطفات

المتوفى ، واقتطاع ما كان بذمته من التزامات وديون وما ترتب على حصر التركة من نفقات ، ثم توزيع ما بقي من الثروة بين الورثة . وعالج هذا القسم بخاصة أمور الأوصياء والقاصرين وثرواتهم ونفقات معيشتهم . وعرفت المحكمة التي ترأسها القسم العربي بمحكمة القسمة العربية البلدية ، وباختصار القسمة العربية أو القسمة البلدية . والقسم العربي غالبا ما يعينه قاضي قضاة دمشق ، وهو القاضي انحنفي الرئيسي فيها ، الذي يعين من استانبول ، وكان طيلة الفترة العثمانية روميا ، أي عثمانيا تركيا ، باستثناء حالات نادرة عين فيها اشخاص من اصل محلي لمنصب قاضي القضاة . ولا تتواءم معلومات واضحة حول مكان عمل القسم ، وعمما اذا كانت له باستمرار محكمة خاصة به ، تشمل بناء معين ، على غرار المحاكم الشرعية .

ويستدل من بعض النصوص ان القسم العربي اقام في محكمة الباب بدمشق (١٠) وهي مقر قاضي القضاة ، وتقع في مواجهة المدرسة النورية الكبرى ، لذا عرفت بالمحكمة النورية (١١) ، أما القسم العسكري فقد عالج شؤون العسكريين ، من الجنود والموظفين . وعين القسم العسكري من قبل قاضي عسكر الاناضول ، وعرفت محكمته بمحكمة القسمة العسكرية . ولا يعرف مكان اقامة هذا القسم ولا المكان الذي مارس عمله فيه ، ولكن وجدت سجلات كثيرة للقسمة العسكرية .

وتعد سجلات القسم العربي من اهم السجلات بالنسبة لدراسة السكان ، فهي تذكر المتوفين من مختلف طبقات الشعب . ولكنها لا تشكل بحال مسحا دقيقا لجميع المتوفين . فبعض الورثة يحلون قضاياهم فيما بينهم دون اللجوء الى القسم ، كما ان معظم السكان من غير المسلمين كانوا يلجأون الى محاكمهم الدينية الخاصة بهم . ومع ذلك ذكرت سجلات القسم اعدادا لا بأس بها من المتوفين غير المسلمين . ولا يرد في سجلات القسم ذكر للمتوفين القاصرين الا فيما ندر من الحالات ، حين يكون هؤلاء من اصحاب الثروات ، بحكم الوراثة ، وعندئذ يقتضي تدخل القسم لحصر ثرواتهم وتوزيعها بين الورثين . وعينت سجلات القسم بالمتوفين من الجنسين ، الذكور والاناث ، كما انها عالجت مخلفات المتوفين في القرى المحيطة بدمشق ، وفي المدن الأبعد أحيانا حين تكون الوفاة قد حدثت في دمشق أو بجوارها ، أو اذا كان الوارثون في دمشق .

ومما تجدر ملاحظته ان هذه السجلات تعطي مسحا شبه كامل لمخلفات المتوفين الاغراب ، ومعظم هؤلاء من الاروام (الاتراك) ، الذين قدموا الى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامي المتجهة منها الى الحجاز . وترد قوائم المتوفين هؤلاء في سجلات القسم العربي عقب عودة قافلة الحج الى دمشق ، في النصف الاول من شهر صفر

غالباً . ومن الحجاج من يتوفى في طريق العودة ، ويدفن هناك ، ومنهم المرضى الذين يصلون دمشق ويتوفون فيها . ويذكر هؤلاء جميعاً في سجلات القسام العربي بدمشق .

ويقوم القسام بحصر ورثة المتوفى ، أو المتوفاة ، من زوجات ، أو أزواج ، وأولاد وأقرباء . ويتم حصر الممتلكات في البيت وفي مكان العمل (الدكان أو الخان) وتحصى الديون إن وجدت ، ثم تطرح الممتلكات في المزاد ، لتقدير ثمنها ، أو بيعها ، وغالباً ما اشتراها أبناء المتوفى من حصصهم بالميراث ، كما اشتراها أحياناً أغراب على اختلاف مذاهبهم . وكثيراً ما أجل بيع الممتلكات غير المنقولة ، مثل العقارات والأراضي ، التي تبقى مشاعاً بين الورثة . أما في الحالات التي لا يوجد فيها وارثون للمتوفى فتنقل الثروة إلى بيت مال الدولة . وبالنسبة للحجاج الإغراب الذين لهم وارثون في أماكن إقامتهم البعيدة ، فتسلم ثروة المتوفى التي تكون بحوزته وغالباً ما شملت نقوداً وحاجيات وسلعاً ، إلى وصي من بلده ، يكون المتوفى قد عينه سلفاً كتدبير احتياطي ، لينقل ذلك إلى وارثيه .

ولم تذكر سجلات القسام العربي تاريخ الوفاة بدقة ، بل اكتفت بترديد العبارة التالية : « المتوفى قبل تاريخه » . وهذا يعني أنه قد يمر بعض الوقت ، قد يبلغ شهوراً أو سنوات ، على الوفاة ، قبل الشروع بحصر التركة ، وبخاصة إذا كانت كبيرة وتشمل ديوناً كثيرة وهامة .

ولا تذكر السجلات عمر المتوفى ولا مكان إقامته أي حيه أو داره . وإذا كان قروياً ذكرت القرية التي ينتسب إليها . وإذا كان غريباً أشارت إلى بلده والولاية التي تقع فيها . وفي الحالات التي تذكر فيها دار المتوفى الدمشقي ، ويعين موضعها وحدودها ، بمناسبة تقدير سعرها ، وتوزيعها بين الورثة أو بيعها ، يمكن عندئذ معرفة الحي الذي كان يسكنه المتوفى . ولم تكن سجلات القسام تذكر عمل أو مهنة المتوفى ، ويمكن تقديرها من لقبه الذي يحمله ، مثل الدباغ أو الصباغ ، ومن الأدوات والسلع التي توجد في دكانه .

وقد اهتم القسام العربي بمحاسبة أوصياء القاصرين كل سنة ، فيما عهد إليهم من ثروة القاصرين وتوظيفها ومبلغ الربح ، أو المراجعة ، الذي نجم عن ذلك . واهتم أيضاً بمعرفة النفقات التي أنفقها الوصي على القاصر ، وتقتطع من مبلغ ثروته .

دراسة عينتين من سجلات القسام العربي

تزودنا سجلات القسام العربي بمعلومات هامة عن تركيب الأسرة ، وبالتالي

السكان ، رغم الثغرات التي سبقت الإشارة إليها . ومع ان المخلفات التي نظر فيها القسم عنت بالدرجة الاولى بشؤون القاصرين ، فان بعض المخلفات اقتصرت على ورثة من البالغين فقط . ومن شأن ذلك ان يطلعنا على فئات الاعمار بين السكان بشكل عام ، وتعد محتويات هذه السجلات مصدرا هاما لقطاع كبير من السكان آنذاك .

وقد قمنا بدراسة عينتين من سجلات القسم العربي بدمشق ، احدهما (١٢) تشمل الفترة بين اول شعبان ١١٦٣ و ٢٨ ذي الحجة ١١٦٥ / ٦ تموز ١٧٥٠ و ٧ تشرين الثاني ١٧٥٢ ، والثانية (١٣) تشمل الفترة بين أول ذي القعدة ١٢٣٢ و ١٦ ربيع الثاني ١٢٣٥ / ١٢ ايلول ١٨١٧ واول شباط ١٨٢٠ . وتتألف كل فترة من هاتين الفترتين من حوالي تسعة وعشرين شهرا . وقد اختيرت هاتان العينتان ، بفصل سبعين سنة تقريبا ، لمعرفة المتغيرات السكانية التي حدثت خلال تلك المدة . وقد جرت احداث جسام ، بالنسبة لدمشق ، في تلك الفترة ، مثل الزلازل الشديدة التي اصابتها عام ١١٧٣ / ١٧٥٩ ، والطواعين التي اعقبتها واودت بحياة الآلاف من سكانها ، كما سبق القول . وحدث أيضا في تلك الفترة هجوم علي بك المملوكي من مصر على بلاد الشام واحتلاله دمشق لمدة عشرة ايام ، بين ٢٤ صفر و ٥ ربيع الاول ١١٨٥ / ٨ - ١٨ حزيران ١٧٧١ (١٤) ثم تلاه هجوم مملوكي اخر من مصر على الجزء الجنوبي من بلاد الشام في عام ١٧٧٥ ، كما ان احمد باشا الجزائر والي صيدا المملوكي الاصل ، الذي عين على ولاية الشام اربع مرات ، بين عام ١٧٨٥ ووفاته في ١٨٠٤ ، والذي صد حملة نابليون بونابرت على عكا عام ١٧٩٩ ، قد روع الاهلين بظلمه وفرضه السخرة عليهم ، وتسخير الطاقات البشرية والاقتصادية لمصلحته . وشهد الربع الاول من القرن التاسع عشر توغل قوات الوهابيين في بلاد الشام وحروبهم مع السلطة العثمانية .

تضم العينة الاولى مخلفات ٣٣٦ متوفى ، منهم (١٤٢) مسلما محليا (من دمشق والقرى المجاورة والمدن السورية ومن نزلاء دمشق) و (١٠٤) مسلمة محلية ، و (٨٢) من الاغراب المسلمين ، وهم باكثريتهم من الاتراك ، ويضمون بعض المصريين والمغاربة ، و (٧) مسيحيين ، وامراة يهودية واحدة . ومن ال (١٤٢) محليا ، حمل (٧١) منهم لقب حاج ، و (٣٢) لقب سيد ، و (١٤) لقب شيخ ، و (٦) لقب اسطه او استاذ او معلم (اسطه تحوير لكلمة استاذ ، وتشير هذه الالقاب الى معلم الحرفة) وكان (١٩) منهم بدون لقب . ويبدو ان لقب سيد حل محل بقية الالقاب نظرا لاهميته في التدليل على ان صاحبه ينحدر من السلالة النبوية الشريفة . وفي بعض الحالات لم يحمل والد السيد هذا اللقب مما يدل على ان المتوفى قد اكتسب الشرافة عن طريق امه التي كانت من الاشراف . ويلاحظ ان الذين حملوا لقب شيخ ، ويدل

على درجة من التفقه في العلوم الدينية ، كانوا يتحدرون من اباء يحملون ذلك اللقب ، مما يشير الى انتقال الاهتمام بالعلوم الدينية من الاء الى الابناء ، بدليل شيوع تعبير ان فلانا من اسرة علماء .

ويلاحظ في قائمة المتوفين الـ (١٤٢) ان (٧٣) منهم كانت لكل منهم زوجة واحدة عند وفاته ، و (٣١) كانت لكل منهم زوجتان . وفي (٢٧) من بين الـ (٣١) حالة هذه اشير الى الزوجة الثانية بانها زوجة سابقة ، وقد تكون مطلقة او متوفاة ، ولكنها خلفت اولادا حق لهم وراثة والدهم . اما الحالات الاربع اخرى فاشارت كل منها الى زوجتين كانتا في عصمة المتوفى عند وفاته . وفي أربع حالات من أصل (١٤٢) كان للمتوفى ثلاث زوجات ، وفي حالتين منها كان اثنتان منهن في عصمته وزوجة سابقة ، وفي حالة واحدة كانت له زوجة واحدة في عصمته وزوجتان سابقتان وامرأة رابعة اشير اليها بمستولדתه ، أي انها ولدت له اولادا ، ولم تكن بزوجه . وفي (٣٤) حالة من (١٤٢) لم يذكر للمتوفى اية زوجة مما يعني انه لم يكن متزوجا ، أو ان زوجته قد توفيت ، أو كانت مطلقة ولم تخلف له اولادا . ويلاحظ في هذه الاحصاءات ان ٦٧.٥٩ ٪ من المتوفين المتزوجين كانت بعصمتهم زوجة واحدة حين وفاتهم ، وربما دل عدا الاتجاه بالاكثفاء بزوجة واحدة على اوضاع مادية محدودة ، وذلك على تدني مستوى العمر بين المتوفين كما سنشير الى ذلك لاحقا . ونستنتج من عدد الحالات التي كان للمتوفى فيها زوجة سابقة او اكثر ، ويبلغ عددها (٣١) حالة تعادل ٢٨.٧٠ ٪ من مجموع المتزوجين ، ان نسبة تعدد الزوجات ، وما يرتبط بذلك من طلاق ، كانت متدنية بالقياس مع اعداد المتوفين المتزوجين بزوجة واحدة .

واذا ما استعرضنا عدد الاولاد الذين خلفهم المتوفون لتوصلنا الى احصاءات هامة . فمن مجموع المتوفين الـ (١٤٢) خلف (٨٩) منهم اولادا ، وبلغ مجموع هؤلاء الاولاد (٢٥١) ينقسمون الى (١٣٩) قاصرا و (١١٢) بالفا . وينقسم القاصرون الى (٦٣) ذكرا و (٧٦) انثى . اما البالغون فيتألفون من (٤٣) ذكرا و (٦٩) انثى . وبالإضافة الى العدد (٢٥١) كان تسع من زوجات المتوفين حاملات . وكان الحمل قبل ولادته يخمن دائما بذكر ، وذلك عند اقتسام الميراث ، وهذا ضمن لحقوق المولود مما او خمن بانثى ، لان حصتها نصف حصة الذكر ، ومن شأن ذلك ان يسبب الارباك المالي بين الورثة فيما بعد .

ونستنتج من كون عدد القاصرين بين اولاد المتوفين اكثر من عدد البالغين ان المجتمع الدمشقي كان فتيا . ولكن ذلك يعني من ناحية اقتصادية انه كان اقل انتاجا لان موارد صاحب الاسرة تنفق على عدد اكبر من القاصرين غير المنتجين .

ونلاحظ ايضا من ارتفاع نسبة القاصرين الى البالغين ، بين اولاد المتوفين ، ان متوسط اعمار المتوفين كانت متدنية . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان ٦٧ر٥٩٪ من المتوفين المتزوجين كانت لهم زوجة واحدة ، وان الزواج في المجتمعات الزراعية التقليدية يتم عادة في سن مبكرة ، وان الولادات تتلو الواحدة منها الاخرى ، في فترات قصيرة ، فال كثرة القاصرين تغدو ذات مدلولات هامة .

ويلاحظ كذلك من مقارنة مجموع عدد الاولاد ، وهو (٢٥١) بعدد الاسر التي ضمتهم وهو (٨٩) ان وسطي عدد الاولاد في الاسرة الواحدة هو (٢ر٨٢) . واذا اضعنا الى ذلك ان نسبة القاصرين من الاولاد كانت ٥٥ر٣٧٪ فان التفسير الارجح لهذا التدني في وسطي عدد الاولاد في الاسرة هو ارتفاع نسبة الوفيات ، سواء بين الاطفال ام الاباء . ومن بين المتوفين الـ (٨٩) ، هناك اربعة كان لكل منهم ستة اولاد ، وواحد له سبعة اولاد ، واخر له تسعة اولاد ، والجدير بالذكر ان ثروة المتوفى الذي خلف الاولاد التسعة كانت اعلى ثروة بين جميع المتوفين . اما غالبية الاسر فيتراوح عدد اولاد كل منها بين ولد واثنين . كما سنلاحظ في الجداول اللاحقة .

ويلفت الانتباه ان نسبة الاناث بين القاصرين بلغت ٥٤ر٦٧٪ ، ونسبتهم بين الاولاد البالغين بلغت ٦١ر٦٠٪ . وارتفاع نسبة الاناث بين البالغين عنها بين القاصرين ربما يدل على مقاومة الاناث للأمراض اكثر من الذكور . وينتج عن ازدياد نسبة الاناث بين اولاد المتوفين تجزؤ الملكيات الموروثة الى حصص اصغر مما لو كان الامر عكس ذلك ، لان الانثى ترث نصف ما يرث الذكر .

والى جانب المتوفين المحليين الـ (١٤٢) ، في العينة الاولى ، هناك (١٠٤) من النساء المتوفيات من المسلمات المحليات . وقد حملت ثمانى منهن لقب حاجة ، اي بنسبة ٧٦٪ بينما كانت نسبة الذين يحملون لقب حاج بين الرجال المحليين المتوفين ٥٠٪ . ولم يكن تدني نسبة النساء اللواتي ذهبن الى الحج ليفسر بسبب اقتصادي بحث لان وسطي ثروة النساء المتوفيات فاق وسطي ثروة الرجال المتوفين ، ويبدو ان الاسباب تتعلق بالتقاليد السائدة وبصعوبات الطريق ومخاطره . ووجد بين النساء اربع عشرة امرأة حملن لقب شريفة ، اي بنسبة تبلغ ١٣ر٤٦٪ من مجموع النساء المتوفيات . ويقابل ذلك واحد وثلاثون رجلا حملوا لقب سيد ، اي بنسبة تبلغ (٢١ر٨٣) من مجموع المتوفين المحليين . ونستدل من هذه النسب انه لم يكن ضروريا أو شائعا ان يتزوج الاشراف من شريفات دون غيرهن .

ولدى استعراض عدد النساء وازواجهن ، في العينة الاولى ، نجد ان (٧١)

امراة من اصل (١٠٤) قد تزوجت كل منهن مرة واحدة . وهناك (١٧) امراة تزوجت كل منهن مرتين . وليس هناك من امراة واحدة ذكر انها تزوجت ثلاث مرات ، وطبيعي ان المعيار الذي نعتمده في معرفة عدد مرات الزواج هو وجود الاولاد وانتسابهم وحقهم في الارث ، اما بقية النساء ، وعددهن (١٤) ، فلم يكن متزوجات عند وفاتهن . ونستدل من ارتفاع نسبة النساء المتزوجات مرة واحدة ، وتقدر بـ (٧٨٨٨٪) بين المتزوجات ، وكذلك نسبة الرجال المتزوجين من زوجة واحدة ، والمقدرة بـ (٦٧٥٩٪) ان المجتمع المحلي الشامي كان يميل الى عدم تعدد الزوجات او الازواج . وربما يفسر ذلك باسباب اقتصادية او بتدني وسطي الاعمار ، رغم ان نسبة الاناث فاقت نسبة الذكور بين البالغين ، كما ذكرنا .

وبلغ عدد الاولاد الذين خلفتهن (٦٠) متوفاة من اصل (١٠٤) ، (١٢٦) ولدا كان من بينهم (٨٧) من القاصرين و (٣٩) من البالغين . وتبلغ نسبة الاولاد لكل امراة متزوجة (١٩٣) ، في حين بلغت النسبة بين الرجال (٢٨٢) ، لان الرجال امكنهم الزواج اكثر من مرة بالمقارنة مع النساء . ويتألف القاصرون من (٤٤) ذكرا و (٢٣) انثى ، والبالغون من (٢٠) ذكرا و (١٩) انثى . وارتفاع نسبة القاصرين بين اولاد النساء المتوفيات والبالغة ٦٩.٤٪ تفوق نسبة القاصرين بين اولاد الرجال المتوفين والبالغة ٥٥.٣٧٪ والنسبة في الحالتين تؤكد كون المجتمع فنيا .

وباستعراض اسماء النساء الـ (١٠٤) تبرز نسب الاسماء المستعملة انذاك ، فقد حملت (٢٣) امراة اسم فاطمة ، و (١١) زينب ، و (٨) خديجة ، و (٧) عائشة ، و (٥) آمنة وخانم وسعدية ، و (٤) حامدة ورحمة ، و (٣) مريم و (٢) سالحة وصفية ولبلى ونجيلة . وحملت امراة واحدة اسم كل من اسامي واسمهان وجميلة وحديفة وحليمة ورايحة ورقية وزاهدة وست وستوت وسعدية وشرف وصادقة وصافية وعاتكة وعفيفة وعيني وفايقة وكرافة ونفيسة وهبت .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب الذين قدر عددهم بـ (٨٢) فكان معظمهم من الاتراك الذين انضموا الى قافلة الحج الشامي المتجهة الى الحجاز . وقد ذكرت مخلفات المتوفين منهم في طريق العودة (يرجح ان المتوفين منهم في طريق الذهاب قد نظر في مخلفاتهم احد القسامين في الحجاز ، او في دمشق بعد وصولهم اليها) . وقد ذكرت مخلفاتهم بصورة متتالية تقريبا في سجل القسام العربي . وأشار السجل الى اسم البلدة التي قدم منها المتوفى ، والولاية التي تقع فيها ، واسم الوصي الذي يهتم بتركة المتوفى ، وغالبا ما اختاره صاحب المخلفات قبل وفاته ووافق عليه القسام ، واسماء الوارثين . ولكن لم تذكر تفاصيل كثيرة عن هؤلاء وفيما اذا كانوا

قاصرين أو بالغين لأن سجل القسام يذكر الوارثين على سبيل العلم بهم لكي لا تنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وينقل الوصي التركية ، بعد اقتطاع الرسوم والمصاريف الاخرى الى اصحابها في البلد الاصلي .

وذكرت العينة الاولى اسماء سبعة متوفين من المسيحيين بينهم امرأة ، واسم امرأة يهودية واحدة . وكان لمعظمهم مشاكل اقتضى عرضها ، كما يبدو ، على القسام العربي . فاحدهم توفي في عكا ، والاخر كان ارمنيا توفي في احد خانات دمشق ولم يكن له وارث ، والثالث توفي في القاهرة ، والاخرون كان احدهم من حلب ، وثنائهم صائغا ، وثنائهم طبيبا . اما المرأة المسيحية فقد تركت زوجا وابنتين بالغتين . ولم تكن المرأة اليهودية متزوجة . وكان ستة من المسيحيين السبعة متزوجين ، ولثلاثة منهم اولاد بلغ عددهم ثمانية جميعهم من القاصرين ، وقد اهتموا على ستة ذكور وانثيين ، ولا تشكل هذه الاعداد القليلة من المتوفين غير المسلمين نماذج ذات دلالات يمكن تعميمها .

وتتألف العينة الثانية التي درسناها ، والتي تعود الى الفترة بين ١٢٣٢ - ١٨١٧/١٢٣٥ - ١٨٢٠ ، من (٢٧٧) متوفى ، يضمون (١٢٠) مسلما محليا ، و (٧٦) مسلمة محلية ، و (٧٥) من الاغراب ، و (٦) مسيحيين . وضم المسلمون المحليون (٣٧) شخصا يحملون لقب حاج ، و (٢٦) لقب سيد ، و (١٣) لقب شيخ ، وشخصا واحدا يحمل لقب معلم ، أما الاسماء الاخرى فلم تحمل لقباً .

وبلغ عدد المتوفين المحليين الذين كانت بعصمة كل منهم زوجة واحدة عند وفاته (٦٦) من اصل (١٢٠) . وهناك سبعة كان لكل منهم زوجتان عند وفاته ، و (١٥) لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة خلفت اولادا . وذكر اثنان لكل منهما زوجتان بالاضافة الى زوجة ثالثة سابقة . ولم يكن لـ (٣٠) منهم اية زوجة حين وفاتهم . ولكن احد عشر منهم كان لهم اولاد ، مما يدل على وجود زوجات لهم في السابق .

وقد خلف (٨٢) متوفى ، من اصل (١٢٠) ، اولادا بلغ مجموعهم (٢٣٧) . وضم هؤلاء (١٣٦) قاصرا و (١٠١) بالغا . واشتمل القاصرون على (٧٦) ذكرا و (٦٠) انثى . اما البالغون فضموا (٤٨) ذكرا و (٥٣) انثى . ووجد الى جانب هؤلاء الاولاد اثنا عشر حملا . ويلاحظ أنه بعد مضي سبعين سنة على العينة الاولى زادت نسبة القاصرين الى البالغين في العينة الثانية ، وبلغت ٥٧ر٣٨٪ من مجموع الاولاد ، في حين ان النسبة في العينة الاولى كانت ٥٥ر٣٧٪ . ونلاحظ تناقصا في نسبة الاناث الى مجموع الاولاد ، اذ بلغت في العينة الثانية ٤٧ر٦٧٪ في حين كانت ٥٧ر٧٦٪ في العينة

الاولى . ويبلغ متوسط عدد الاولاد في الاسرة ، في العينة الثانية ، (٢.٨٩) . وهذا يزيد بقليل عن متوسط العدد في العينة الاولى التي سبقت بسبعين سنة ، والبالغ ٢.٨٢ ، مما يدل على ان التزايد السكاني كان بطيئاً جداً .

وبالنسبة للنساء في العينة الثانية ، فقد حملت امرأتان من (٧٦) امرأة متوفاة لقب حاجة ، ولم تحمل أية امرأة لقب شريفة . ووجد لـ (٣١) امرأة زوج لكل منهن عند وفاتها ، ولامرأتين زوج سابق لكل منهما رزقت منه اولادا . وكان لثلاث فقط زوجان سابقان لكل منهن . ولم يذكر سجل القسام لـ (١٩) امرأة اي زوج عند وفاتهن ، ولكن خمسا من هاته النسوة ، كان لهن اولاد ، مما يعني انهن كن مطلقات من أزواجهن ، او ان أزواجهن قد توفوا .

ولم تختلف الاسماء المفضلة للنساء كثيرا في العينة الثانية عنها في العينة الاولى ، فقد بقي اسم فاطمة يحتل المرتبة الاولى ، اذ حملته (١٨) امرأة ، وتلاه اسما آمنة وزينب (٦) مرات لكل منهما ، وخديجة وسعدية وصالحة (٥) ، وعائشة (٤) ، ورقية (٣) ، وحنيفة وحواء وكلسن ومروه وصديقة مرتين ، واسماء واسمهان وحسنة وحفظة وحنيفة ودرة ورحمة وساقية وصديقة وعاتكة وغوا وقادرية ومحجوبة ومريم مرة واحدة .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب ، وعددهم (٧٥) ، فكان معظمهم من الاناضول وقلة من روميلية . وكانوا جميعا يحملون لقب حاج . وكتبت تفاصيل تركات هؤلاء باللغة العثمانية خلافا للعينة الاولى التي كتبت فيها تركات الاغراب باللغة العربية . وربما دل ذلك على ان الدولة العثمانية في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وقد بدأت بتطبيق الاصلاحات وفرض سلطة المركز على الولايات ، قد عمدت الى دعم اللغة العثمانية .

وذكرت في العينة الثانية اسماء ستة متوفين مسيحيين ضموا امرأة . وكانوا جميعا متزوجين ، وتزوج احدهم مرتين . وبلغ مجموع اولادهم (٢١) ولدا ضموا (١٢) من القاصرين (٧ ذكور و ٥ اناث) ، وتسعة من البالغين (٣ ذكور و ٦ اناث) . ويشتركون مع المتوفين المسلمين بازدياد نسبة القاصرين بين الاولاد .

استنتاجات

بمقارنة العينتين ، وفق الجداول اللاحقة ، نصل الى الاستنتاجات التالية :

١ - الالقاب

العينه الاولى

١١٦٣ - ١١٦٦ / ١٧٥٠ - ١٧٥٣

متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	شريف	شيخ
العدد : ١٤٢	٧١	%٥٠	٣٢	%٢٢ر٥٣	١٤	%٩ر٨٦
متوفيات محليات						
العدد : ١٠٤	٨	%٠ر٧٦	١٤	%١٣ر٤٦	-	-

العينه الثانية

١٢٣٢ - ١٢٣٥ / ١٨١٧ - ١٨٢٠

متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	شريف	شيخ
العدد : ١٢٠	٣٧	%٣٠ر٨٣	٢٦	%٢١ر٦٦	١٣	%١٠ر٨٣
متوفيات محليات						
العدد : ٧٦	٢	%٠ر٢٦	-	-	-	-

يتضح من هذين الجدولين ان نسبة الذين ادوا فريضة الحج في العينة الثانية قد تناقصت عما في العينة الاولى ، وذلك بالنسبة للرجال والنساء معا . ويمكن

تفسير هذه الظاهرة بالضائقة الاقتصادية التي أصابت جزءا من السكان المحليين في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اي في السنوات الاخيرة من حكم احمد باشا الجزائر وابان حكم احد عشر واليا تعاقبوا على حكم دمشق من بعده وحتى نهاية فترة العينة الثانية (١٥) . ولكن السبب الاهم من ذلك هو اتساع هجمات الوهابيين في العقد الاول من القرن التاسع عشر ووصولهم الى اطراف دمشق ، وعدم خروج قافلة الحج الشامي الى الحجاز لبضع سنوات نتيجة لذلك . ثم تلا القتال بين قوات الوهابيين وقوات والي مصر محمد علي باشا الذي كلفه السلطان العثماني بمهاجمتهم . وتمكنت قوات محمد علي من البطش بالقوات الوهابية - السعودية اثر حملات متعددة ضدهم واحتلت عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨ (١٦) .

وبلاحظ في العينتين ان نسبة الاشراف بين المتوفين الرجال كانت متقاربة مما يدل على ان عدد الاشراف في دمشق كان متوازنا وطبيعيا ، خلافا لما حدث في حلب في فترة السبعين سنة التي فصلت بين العينتين ، اذ ازدادت اعداد الاشراف وقوتهم فيها الى درجة كبيرة جعلت نقيب الاشراف في استانبول يكتب الى نقيب الاشراف في حلب يحثه على التدقيق في صحة النسب واتخاذ العلامة الخضراء ولقب السيد . وكان الاشراف في حلب يدافعون عن مصالح السكان المحليين فيها ضد الانكشارية العثمانيين ، وبالتالي ضد تسلط الدولة العثمانية . وحدثت مواقع دامية بين الفريقين بلغت ذروتها في مذبحة جامع الاطروش ، قرب القلعة ، في عام ١٧٩٨ وذهب ضحيتها عدد كبير من الاشراف . ونظرا للاهمية العسكرية للاشراف في حلب آنذاك فقد استنجدت بهم الدولة العثمانية لمقاومة حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧) .

٢ - نسب الزواج

العينة الاولى

١١٦٣ - ١١٦٦ / ١٧٥٠ - ١٧٥٣

عدد المتزوجين	زوجة واحدة	زوجتان	ثلاث زوجات	بعون زوجة
العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد
١٠٨	٧٣	٣١	٤	٤٣
٦٧	٥٩	٢٨	٣٧	٣١
٣١	٧٠	٤	٣٧	٣١
٣١	٧٠	٤	٣٧	٣١
عدد المتزوجات	من زوج واحد	متزوجات مرتين	متزوجات ثلاث مرات	بعون زوج
العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد
٨٨	٧١	١٧	٣١	١٦
٨٨	٧١	١٧	٣١	١٦
٨٨	٧١	١٧	٣١	١٦

العينة الثانية

١٢٣٢ - ١٢٣٥ / ١٨١٧ - ١٨٢٠

عدد المتزوجين	زوجة واحدة	زوجتان	ثلاث زوجات	بدون زوجة	عدد المتزوجات	من زوج واحد	متزوجات مرتين	متزوجات ثلاث مرات	بدون زوج
العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٩٠	٦٦ ٪ ٧٣ر٣٣	٢٢	٢٤ر٤٤ ٪	٢	٠ر٢٢ ٪	٣٠	٣٣ر٣٣ ٪		
٤٦	٣١ ٪ ٦٧ر٣٩	١٢	٢٦ر٠٨ ٪	٣	٠ر٦٥ ٪	١٩	٤١ر٣٠ ٪		

يلاحظ في الاعداد والنسب السابقة ان ٦٧ر٥٩ ٪ من المتزوجين في العينة الاولى كانت لهم زوجة واحدة عند وفاتهم . وازدادت النسبة الى ٧٣ر٣٣ ٪ بعد سبعين سنة من ذلك ، مما يدل على ان المجتمع الشامي كان يميل في غالبيته الى الاكتفاء بزوجة واحدة . اما بالنسبة للنساء فنلاحظ ان نسبة المتزوجات من زوج واحد قد تدنت من ٨٠ر٦٨ ٪ في العينة الاولى الى ٦٧ر٣٩ ٪ في العينة الثانية . وربما كان سبب ذلك تدني نسبة الاناث في العينة الثانية الى ٤٧ر٦٧ ٪ ، وكانت في العينة الاولى ، قيل سبعين سنة ، ٥٧ر٦٧ ٪ . ولكن ما يعدل ذلك ارتفاع نسبة المتزوجات مرتين الى ٢٦ر٠٨ ٪ في العينة الثانية ، بينما كانت ١٩ر٣١ ٪ في العينة الاولى . وتبعاً لهذا الاتجاه في الاقلال في عدد الزيجات فمن الطبيعي ان يكون المتزوجون من ثلاث زوجات ، او المتزوجات ثلاث مرات ، اقل من المتزوجين من زوجتين ، او من المتزوجات مرتين . ويلفت النظر ضمن هذه النسب ان عدد المتزوجين باكثر من زوجة ، في العينة الاولى ، ومجموعهم (٣٥) ، ضم ست حالات فقط كان للمتوفى فيها زوجتان في عصمته حين وفاته ، اما الزوجات الاخريات ، ممن خلفن اولادا ، فكن زوجات سابقات . وفي العينة الثانية نلاحظ ان من مجموع (٢٤) متوفى لكل منهم اكثر من زوجة ، وجد سبعة فقط لكل منهم زوجتان في عصمته حين وفاته ، وهناك خمسة عشر لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة . وفي حالتين كان للزوج زوجتان وزوجة اخرى سابقة . وتؤكد هذه التفاصيل ماورد في العينتين ، على مدى سبعين سنة ، من الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة .

ويفت النظر ان عدد المتوفين بدون زوجة ، بلغ في العينة الاولى ٣١٤٨٪ وفي العينة الثانية ٣٣٣٣٪ . أما نسبة المتوفيات بدون زوج فبلغت ١٨١٨٪ في العينة الاولى و ٤١٣٠٪ في العينة الثانية . وربما يفسر هذا الازدياد بالنسبة للمتوفيات بدون زوج بارتفاع متوسط العمر بينهن بالنسبة لمتوسط عمر الأزواج . كما أن هذا ينصب في النتيجة باتجاه عدم تعدد الزوجات أو الزيجات .

٣ - حجم الأسرة

العينة الاولى

١١٦٣ - ١١٦٦ / ١٧٥٠ - ١٧٥٧

البالغون		القاصرون		مجموع الاولاد	متوفون اعقبوا اولادا
النسبة	العدد	النسبة	العدد		
٤٤٦٢٪	١١٢	٥٥٣٧٪	١٣٩	٢٥١	العدد = ٨٩

البالغون		القاصرون		مجموع الاولاد	متوفيات اعقبن اولادا
النسبة	العدد	النسبة	العدد		
٣٠٩٥٪	٣٩	٦٩.٤٪	٨٧	١٢٦	العدد = ٦٥

العينة الثانية

١٢٣٢ - ١٢٣٥ / ١٨١٧ - ١٨٢٠

البالغون		القاصرون		مجموع الاولاد	متوفون اعقبوا اولادا
النسبة	العدد	النسبة	العدد		
٤٢٦١٪	١٠١	٥٧٣٨٪	١٣٦	٢٣٧	العدد = ٨٢

البالغون		القاصرون		مجموع الاولاد	متوفيات اعقبن اولادا
النسبة	العدد	النسبة	العدد		
٣٤١٧٪	٢٧	٦٥٨٢٪	٥٢	٧٩	العدد = ٤٢

ويتضح من هذا ان نسبة القاصرين بين اولاد المتوفين كانت تتجه نحو الازدياد خلال السبعين سنة التي فصلت العينة الثانية عن الاولى . ويفسر ذلك بتدني وسطي العمر بين الالباء نظرا لكثرة انتشار الاوبئة والطواعين بصورة خاصة ، و يترتب على كثرة القاصرين بين الاولاد ان الاب يضطر للانفاق عليهم لاعاشتهم ولا يستفيد كثيرا من عملهم قبل وفاته .

وبلاحظ ان متوسط مجموع الاولاد في الاسرة بالنسبة للمتوفين الذكور كان (٢٫٨٢) في العينة الاولى و (٢٫٨٩) في الثانية ، ويبدو ان تفسير هذه النسبة المتواضعة في عدد الاولاد يعود الى تدني وسطي العمر وكثرة الوفيات ثم الضائقة الاقتصادية . وسنعالج العلاقة بين الوضع الاقتصادي للأسرة وعدد الاولاد فيها في جدول لاحق . واذا اصفنا الابوين الى وسطي عدد الاولاد لوصلنا الى ما يقرب الخمسة ، وهو الحجم المتعارف عليه للأسرة في بلاد الشام في العهد العثماني . ونظرا لان الاتجاه نحو الاكتفاء بزوج واحدة كان هو الغالب فان حجم الاسرة لا يزيد عن الخمسة الا في حالات قليلة ، كأن يكون في الاسرة زوجتان او اكثر في وقت واحد .

وباستعراض عدد الاولاد في اسر المتوفين والمتوفيات في العينتين تصل الى النسب التالية :

العينة الاولى				العينة الثانية			
عدد الاولاد في الاسرة							
المتوفون	المتوفيات	المتوفون	المتوفيات	المتوفون	المتوفيات	المتوفون	المتوفيات
(المجموع : ١١٠)	(المجموع : ٨٨)	(المجموع : ٩٨)	(المجموع : ٥٢)	(المجموع : ١١٠)	(المجموع : ٨٨)	(المجموع : ٩٨)	(المجموع : ٥٢)
العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
بدون اولاد	٢١	١٩ر٠٩ (١)	٢٣	٢٦ر١٣	١٦	١٨ر٥١	١٠
ولد واحد	٢٤	٢٦ر٦٦ (٢)	٢٩	٤٤ر٦١	١٨	٢٢ر٢٢	٢٣
ولدان	٢٠	٢٢ر٢٢	٢١	٣٢ر٣٠	٢٢	٢٧ر١٦	٧
ثلاثة اولاد	١٥	١٦ر٦٦	٨	١٢ر٣٠	١٧	٢٠ر٩٨	٩
اربعة اولاد	١٨	٢٠ر٢٢	٤	٠ر٦١	١٤	١٧ر٠٧	١
خمسة اولاد	٦	٠ر٦٦	٣	٠ر٤٦	٦	٠ر٧٣	١
سته اولاد	٤	٠ر٤٤	—	—	١	٠ر١٢	١
سبعة اولاد	١	٠ر١١	—	—	٣	٠ر٣٦	—
تسعة اولاد	١	٠ر١١	—	—	—	—	—
احد عشر ولدا	—	—	—	—	١	٠ر١٢	—
مجموع الاولاد (٢) ٢٥١				١٢٦			
				٢٣٧			
				٧٩			

١ - حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين .

٢ - حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين ذوي الاولاد .

٣ - لا يتضمن عدد الاولاد تسع حالات حمل في العينة الاولى واثنى عشرة حالة حمل في العينة الثانية

يتضح من الجدول السابق ان عدد أسر المتوفين ، في العينة الاولى ، التي ضم كل منها ولدا واحدا : بلغ (٢٤) أسرة . يليها (٢٠) أسرة ضم كل منها ولدين ، وهذا يعني ان (٤٤) أسرة ، من أصل (٨٩) أسرة ذات اولاد ، ضمت (٦٤) ولدا ، أي ان ٤٩ر٤٣٪ من عدد الاسر ضم ٢٥ر٤٩٪ من عدد الاولاد . ويدل هذا على ان الأسرة كانت اقرب الى الصغر . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد فيها من ثلاثة الى اربعة فبلغ عددها (٣٣) أسرة ، شكت ٣٧ر٠٧٪ من مجموع الاسر ، وضمت ١١٧ ولدا . أي بنسبة ٤٦ر٦١٪ من مجموع الاولاد . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة الى عشر أسر ، تشكل نسبة ١١ر٢٣٪ من مجموع الاسر ، وقد ضمت (٥٤) ولدا ، أي بنسبة ٢١ر٥١٪ .

وبالمقارنة مع المتزوجين في العينة الثانية نجد ان عدد الاسر التي ضمت ولدا واحدا بلغ ١٨ أسرة . يليها (٢٢) أسرة ضم كل منها ولدين . وهذا يعني ان (٤٠) أسرة من أصل (٨٢) أسرة ذات اولاد ضمت (٦٢) ولدا ، أي ان ٤٨ر٧٨٪ من عدد الاسر ضم ٢٦ر١٦٪ من عدد الاولاد . وتشابه هذه النسب مع نسب العينة الاولى مما يعني استمرار الاسر ذات الحجم الصغير بعد سبعين سنة من العينة الاولى . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من ثلاثة الى اربعة فقد بلغ عددها (٣١) أسرة ، تشكل نسبة ٣٧ر٨٠٪ ، وضمت (١٠٧) اولاد تبلغ نسبتهم ٤٥ر١٤٪ . وتتقارب هذه النسب بدورها من نسب العينة الاولى . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة فتشكل نسبة ٨ر٥٣٪ وقد ضمت (٣٦) ولدا يشكلون نسبة ١٥ر١٨٪ من مجموع الاولاد .

اما بالنسبة للمتوفيات في العينة الاولى ، فقد بلغ عدد اللواتي خلفن ولدا أو ولدين (٥٠) امرأة ، أي ٧٦ر٩٢٪ من مجموع المتوفيات اللواتي خلفن اولادا . وبلغ عدد اولادهن (٧١) ولدا من أصل (١٢٦) ، أي بنسبة ٥٦ر٣٤٪ . ثم يهبط عدد اللواتي خلفن ثلاثة أو اربعة اولاد الى (١٢) امرأة ، نسبتهن ١٨ر٤٦٪ ، وعدد اولادهن (٤٠) ولدا ، بنسبة ٣١ر٧٤٪ .

ويقابل ذلك في العينة الثانية (٣٠) امرأة خلفت كل منهن ولدا أو ولدين ، بنسبة ٧١ر٤٢٪ من عدد المتوفيات ذوات الاولاد ، وبلغ مجموع اولادهن (٣٧) ولدا ، بنسبة ٤٦ر٨٣٪ من مجموع الاولاد . وتقل هذه النسب قليلا عن نسب المتوفيات من فئتي الولد أو الولدين في العينة الاولى . اما اللواتي خلفت كل منهن ثلاثة الى اربعة اولاد فبلغ عددهن (١٠) نساء ، أي بنسبة ٢٣ر٨٠٪ ، ومجموع اولادهن (٢٨) ولدا ، تساوي نسبتهم ٣٥ر٤٤٪ من مجموع الاولاد . وهذا اكثر بقليل من العينة الاولى ، أي ان

العينة الثانية تؤكد الاتجاه السائد نحو شمول الاسرة ولداً أو ولدين مع بعض الزيادة في عدد الاسر ذوات الثلاثة والأربعة اولاد .

٤ - العلاقة بين وضع الاسرة الاقتصادي وعدد اولادها

يمكن ايجاد علاقة بين عمل رب الاسرة ووضعه الاقتصادي ، وحجم أسرته . ويلاحظ من تفاصيل العينتين ان بعض الحرفيين الذين اقتضى عملهم الجلوس ، مثل القوافين (بائعي الاحذية) والقاووقجية (صانعي غطاء الرأس المعروف بالقلنسوة) ، وكذلك النسيج ، كان لهم اسر متوسطة الحجم ، بمقاييس ذلك الزمن ، تضم الواحدة منها ولدين الى اربعة اولاد . ويشترك معهم في ذلك الحرفيون المشتغلون بالطعام ، مثل الحلوانية والاقسماوية (بائعي المرطبات) ، والسمانين . ولكن الحرفيين الذين اقتضى عملهم الحركة الدائمة ، مثل الحلاقين والحمامين والطحانيين والكيالين فكانت اسرهم اقل عدداً ، تضم الواحدة منها ولداً الى ثلاثة اولاد . اما المشتغلون بالعلم ، فيلاحظ انهم لا يتزوجون ، او يتزوجون وينجبون اولادا كثرا . واصحاب الاسر الكبيرة ، اي التي يضم كل منها اربعة اولاد او اكثر ، يكونون في الغالب اما من اصحاب الدخول القليلة او الثروات الضخمة . فالفئة الاولى تنظر الى الاولاد كمورد اقتصادي ، والفئة الثانية تتباهى بالاولاد ، كقوة وجاه ، وبالقدرة على الانفاق عليهم .

وقد قمنا بدراسة العلاقة بين صافي ثروات المتوفين (اي المبالغ المتبقية من ثروتهم للورثة بعد اقتطاع التزامات المتوفى وديونه ونفقات دفنه) وعدد الاولاد الذين خلفوهم ، فوصلنا الى النتائج التالية :

يلاحظ في العينة الاولى ان اصحاب الدخل المحدود الذين يراوح صافي ثروتهم بين قرش ومائة قرش ، بلغ عدد اولادهم (٥٦) ولداً وهذا اعلى رقم لمختلف فئات الثروة في حدود العينة الاولى . ويلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الاسر التي رزق كل منها بولد واحد بلغ عددها ، بقطع النظر عن دخلها ، اربعا وعشرين أسرة ، وهي اعلى نسبة بين الاسر على الاطلاق . مما يظهر ان الاسرة ذات الولد الواحد هي الغالبة . وبلي ذلك الاسر ذات الولدين .

۱۰۰

1405-140. / 1177-1178

الملاقة بين صافي الثروة وعدد الأولاد لتوفين ديمقراطيين

(عدد المتوفين ١١٠ خلف ٨٩ منهم اولاد)

[illegible]

بدون اولاد	١	٩	٢	٥	٢٢	٣١	٢٢	٢٩	٨٩	متوفى
ولد واحد	—	١٣	٤	٢	٢	—	—	—	—	—
ولدان	—	٧	٤	٢	٢	—	—	—	—	—
ثلاثة اولاد	٢	٢	٥	٢	١	—	—	—	—	—
اربعة اولاد	٢	٢	٢	٢	٢	—	—	—	—	—
خمسة اولاد	—	١	٣	—	—	—	—	—	—	—
ستة اولاد	—	٢	—	—	—	—	—	—	—	—
سبعة اولاد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
تسعة اولاد	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
المجموع	١٦	٦٥	٥٥	٢٨	٢٢	٣١	—	—	—	—

אֵלֶּיךָ יְיָ אֱלֹהֵינוּ

1A77-1A78/1A90-1A99

(عدد المتوفين ٩٨ خلف ٨٢ منهم اولاد)

عدد الأولاد في الأسرة	مجلس	١-١٠	١٠-٢٠	٢٠-٤٠	٤٠-٦٠	٦٠-٨٠	٨٠-١٠٠	١٠٠-١٥٠	١٥٠-٢٠٠	عدد الأسر حسب عدد الأولاد
بدون أولاد	١	٣	٤	٣	١	١	-	٢	١٦	
ولد واحد	١	١	٣	٤	٢	٢	-	٣	١٨	
ولدان	٢	٥	٢	١	١	١	-	٧	٢٢	
ثلاثة اولاد	-	١	٢	١	٢	١	٤	٥	١٧	
اربعة اولاد	-	-	-	٢	٤	١	-	٦	١٤	
خمسة اولاد	-	١	-	-	-	١	١	٣	٦	
ستة اولاد	-	-	-	١	-	-	-	-	١	
سبعة اولاد	-	١	-	-	-	١	-	١	٣	
اكثر من سبعة اولاد	-	-	-	-	-	-	-	-	١	
المجموع	٥	٢٦	١٣	٢٣	٢٨	١٨	٢١	٧٨	٨٢	

ويحدث تبدل جذري في العينة الثانية ، اذ يزداد عدد الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروة اصحابها على (١٥٠٠) قرش . ويبلغ عدد اولاد هذه الفئة (٧٨) ولدا من اصل (٢٣٧) ، اي بنسبة ٣٢٫٩٠٪ ، في حين ان نسبة الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروتها على (١٥٠٠) قرش في العينة الاولى كان ١١٫٥٥٪ . وتحتل الاسر ذات الدخل الاقل (من قرش الى مائة قرش) المرتبة الثالثة من حيث عدد الاولاد ، اذ بلغ مجموعهم (٢٦) ولدا ، اي بنسبة ١٠٫٩٧٪ من مجموع عدد الاولاد ، في حين كانت نسبة اولاد هذه الفئة من الدخل في العينة الاولى ٢٥٫٨٩٪ ، ويطرا تحسن في حجم الاسرة اذ يزداد عدد الاسر التي تضم الواحدة منها ولدين وتصبح هي الغالبة ، ثم تتلوها الاسر ذات الولد الواحد ، ثم ذات الثلاثة والارعة اولاد . وتبقى اعلى نسبة بين الاسر هي تلك التي تضم من ولد الى اربعة اولاد ، وتتساوى في ذلك العينتان الاولى والثانية . ففي العينة الاولى بلغت نسبة هذه الاسر ٨٦٫٥١٪ ، وفي العينة الثانية ٨٦٫٥٨٪ . ويظهر هذا ان الغالبية العظمى من الاسر خلال سبعين عاما لم تتجاوز حدود الولد الى اربعة اولاد .

نخلص الى القول ان ما تقدم عرضه هو محاولة لالقاء الضوء على حجم الاسرة ووسطي العمر ، وربط ذلك بالوضع الاقتصادي والصحي . ورغم ان سجلات القسام عنيت اكثر من كل شيء بمخلفات المتوفين الذين تركوا قاصرين ، ولا تشكل مسحا لجميع المتوفين ، فانها هامة جدا لانها تطلعنا على مظاهر سكانية لقطاع كبير من السكان ، وما يترتب عليها من نتائج شتى في مختلف الميادين . ونذكر على سبيل المثال اثر الاسرة الصغيرة الحجم بالنسبة للملكية . فقلة الافراد في الاسرة من شأنه الا يفتت الملكية العقارية فتتجه هذه الى التجمع في اسر قليلة . ويصح ذلك بالنسبة للاوقاف الاهلية (النرية) التي ينتفع بها عدد اقل من المستفيدين . واذا كان ازدياد الثروة لدى بعض الفئات في الربع الاول من القرن التاسع عشر قد نتج عنه ازدياد حجم الاسرة ، فان الكثرة من طبقات الشعب الادنى دخلا لم تبدل كثيرا في حجم الاسرة ، ربما لانها بقيت تقليدية في اطرها وتقاليدها ودخلها . ولاشك ان اثر اوربا الصناعية على بلاد الشام قد زاد من الهوة الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، بين طبقة قليلة اصبحت تجني الثروات الضخمة من تعاملها مع اوربا ، واخرى تضم غالبية الشعب وتدفع ثمن منافسة البضائع الاوربية لمنتجاتها الحرفية . ولا شك ان هذا الوضع كان له انعكاساته على حجم الاسرة . وقد تحسنت ، في القرن التاسع عشر ، الخدمات الصحية وطرق مكافحة الاوبئة ، واستحدثت اماكن الحجر (الكارانتينا) في مراكز الحدود . ومن شان ذلك ان يحد من الوفيات ويزيد من عدد السكان .

الحواشي :

١ - انظر المناقشة الواهية لهذه الآراء المختلفة التي قام بها الرحوم الدكتور انطوان عبد النور في كتابه بالفرنسية (وهو طروحة دكتوراه دولة من جامعة باريس) وعنوانه :
Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie Ottomane (XVI^e-XVII^e siècle),
Beyrouth, 1982, pp. 41-56.

٢ - المصدر السابق ، ص ٥٧ - ٦٠ .

٣ - محمد بن جمعة ، الباشات والقضاة ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاية دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٦٥ .

٤ - انظر حول ذلك : الشيخ محمد احمد دهمان ، « زلزل سنة ١١٧٣ هجرية » ، مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) . ص ٣٣٣ - ٣٤٧ . وانظر ايضا سيد رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاية دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ .

٥ - رسلان القاري ، ص ٨٢ .

٦ - قدر الاخباري الدمشقي المعاصر للطاعون الخوري ميخائيل بريك أن الطاعون دام حوالي ستة اشهر انظر كتابه : تاريخ الشام ، ١٧٢٠ - ١٧٨٢ ، نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٢٠ ، ص ٧٠ . وانظر تفاصيل اخرى عن هذا الطاعون مستقاهن مراسلات القناصل الاجانب في بلاد الشام وغيرها ، في كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, 2nd printing (paperback),
1970, pp. 232-233.

٧ - احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، نشره الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٢٨ .

٨ - انظر المقال التالي :

Daniel Panzanc , « L'Affrontement Turco - Egyptienne de 1830 - 1840 » ,
Economie et Société dans l'Empire Ottoman (fin du XVIII^e-début du
XX^e siècle), publié par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont,
CNRS, Paris, 1983, pp. 232-233.

٩ - انظر تفاصيل هذا الإحصاء في مقال :

Kemal Karpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», *International Journal of Middle Eastern Studies*, Vol. 9, No. 2 (1978), pp. 258-274.

١٠ - انظر مثلاً : السجلات التالية : رقم ٢٢ ص ١ ، رقم ٣٤ ص ١ ، رقم ٤٠ ص ١ ، رقم ٤١ ص ١ .

١١ - انظر : محمد الأمين الخبي ، خلاصة الآثار في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٩/١٢٨٤ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، ٣١٧ ، ج ٤ ، ١٤٣ ، محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، بولاق ١٢٠١ ، ج ١ ، ٦٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٤ ، ج ٢ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ج ٤ ، ١٠٢ .

١٢ - انظر سجل القسام ، رقم ١٣١ .

١٣ - انظر سجل القسام ، رقم ٢٩٠ .

١٤ - انظر تفاصيل ضافية عن هذا الهجوم في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 260-282.

١٥ - انظر حول أوضاع دمشق الاقتصادية في هذه الفترة : تاريخ حسن أغا العبد ، حققه يوسف جميل نميسة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٩ .

١٦ - انظر حول توقف قافلة الحج بسبب تلك الأخطار ، تاريخ حسن أغا العبد ، ص ١٣٢ ، ١٤٣ - ١٤٤ . وانظر حول توغل القوات الوهابية في بلاد الشام ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

١٧ - انظر : محمد راقب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ - ١٣٤٥ / ١٩٢٣ - ١٩٢٦ ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ - ٣٧٤ . وانظر : تاريخ حسن أغا العبد ، ص ٦٣ - ٦٤ . وانظر كتابنا : العرب والمتمثليون ، ١٥١٦ - ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٨ - ٣٢٠ . وانظر الدراسة الضافية حول صراع الانكشارية والإشراف في حلب في كتاب :

Herbert L. Bodman, Jr., *Political Factions in Aleppo, 1760-1826*, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102.

* * *

سِداءُ عالمي

لإنقاذ آثار حوض الخابور الأوسط

أصدرت وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية - المديرية العامة للآثار

والتاحف - النداء التالي :

تقوم السلطات المختصة في الجمهورية العربية السورية بإنشاء سد كبير على نهر الخابور جنوبي مدينة الحسكة في سبيل رفع مستوى منطقة الجزيرة السورية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والانسانية . وسيشكل هذا السد عند انجازه في عام ١٩٨٨ بحيرة اصطناعية على منسوب + ٣٠٠ م بطول ٢٥ كم وعرض وسطي ٥ كم تضرع قرابة ثلاثين موقعا اثريا مختلف الهمية .

وقد أوضح المسح الاثري الاولي في المنطقة أن عهود هذه المواقع تتراوح بين طور تل حلف في الالف الخامس قبل الميلاد حتى العهد العربي الاسلامي . ومن المؤكد أن التحريات الادق ستوضح مستقبلا آثار العصر الحجري الحديث وغيره .

إن الأثاريين وعلماء اللغات القديمة والاثنولوجيين وغيرهم من مختلف الاختصاصات يرون في إنشاء هذا السد مناسبة لالقاء الاضواء الساطعة على هذه المنطقة الرئيسية من « الجزيرة » التي كانت في العصور الاكادية والاشورية والبابلية القديمة مركزا ناشطا في اقتصاد بلاد الهلال الخصيب واصبحت خلال الالف الاول ق.م. من المقاطعات الاشورية بعد اخضاع الدويلات الارامية في هذه المنطقة التي كانت قائمة منذ نهاية الالف الثاني ق.م .

واظهرت الدراسات الاولية في أسماء المدن المكتشفة امكانية تحقيق هوية مدائن أخرى من العهود القديمة في هذا الجزء من الخابور نظرا لوقوعه على شبكة مواصلات وقنوات مياه هامة .

وفي العهود اليونانية - الرومانية لعبت هذه البقاع دورا استراتيجيا حاسما في صراع الشرق والغرب حتى اذا جاء الاسلام ووحدت دولة العرب أجزاء العالم القديم كلها كانت الجزيرة السورية وخاصة حوض الخابور من مواطن الخير العميم والصراع المصيري بين العرب والبيزنطيين ثم الصليبيين .

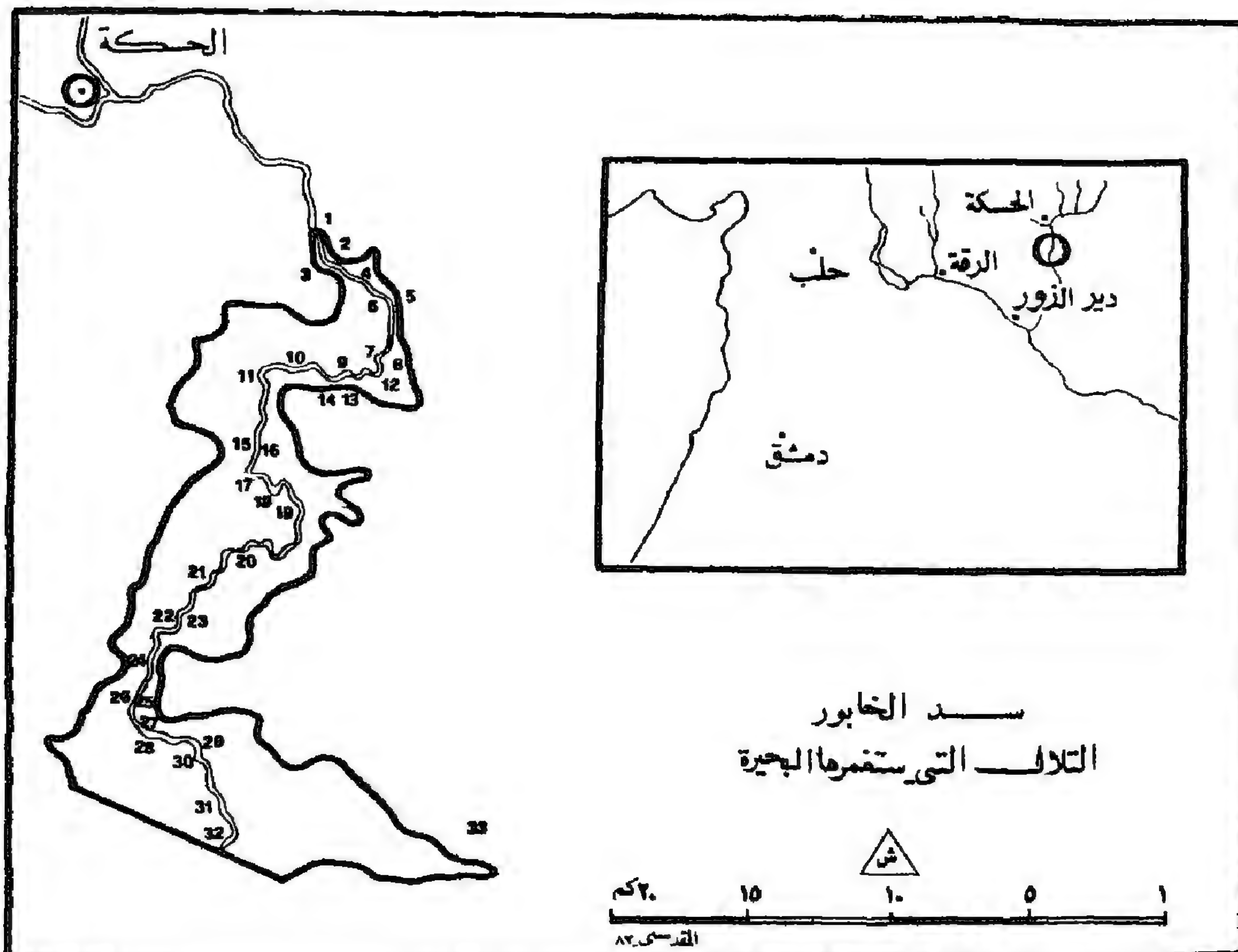
ان المواقع المهددة بالغمر قد لا تكون اطلاقا اثرية ظاهرة تحتاج للنقل أو التقوية أو الحماية ولكنها في الغالب من الحالات هي تلال على ضفاف النهر تدل مقاطعها الستراتيغرافية على غنى بالشواهد الاثرية الكثيرة التي قد تنبئنا بما سكنت عنه النصوص والروايات .

والسلطة الاثرية اذ تدعو للاسهام في تلك الحملة العالمية ستقدم للبعثات التي تلي الدعوة كل التسهيلات والمؤازرة التي تقدمها للبعثات الاجنبية العاملة حاليا في اراضي الجمهورية العربية السورية والتي يتجاوز عددها الثلاثين . فضلا عن ذلك انها تسمى لدى المراجع العليا في البلاد لاستصدار الصكوك القانونية اللازمة لمنح البعثات بعض الاثار المكتشفة كما تم سابقا في حملة انقاذ آثار الفرات في السبعينات . ويمكن للؤسسات العلمية والاثرية الراغبة في الاسهام ، الاتصال مباشرة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف (دمشق - سورية) . للحصول على المزيد من التفاصيل ... علما بأن العمل ببناء السد سيبدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٤ وينتهي خلال عام ١٩٨٧ وهي الفترة التي يمكن ممارسة التنقيب الاثري خلالها .

المدير العام للآثار والمتاحف

— مخطط لمنطقة غمر السد —

- ١ - تل رد شقرا ٢ - تل كرما ٣ - تل مطار ٤ - تل رجائي ٥ - تل جابي
- ٦ - تل جديدي ٧ - تل خوين ٨ - تل تنينير ٩ - تل زيدية ١٠ - تل ناجة
- ١١ - تل ميليبيا ١٢ - تل شيخ عثمان ١٣ - تل ام قصير ١٤ - تل حسن
- ١٥ - تل بويض ١٦ - تل البديري ١٧ - تل مسيحة ١٨ - تل النهاب
- ١٩ - تل النهاب الجنوبي ٢٠ - تل صور ٢١ - تل كنيديج ٢٢ - تل دكاك
- ٢٣ - تل تعبان ٢٤ - تل دغيرات شمالي ٢٥ - تل ذهب ٢٦ - تل دغيرات
- ٢٧ - تل مطرية ٢٨ - تل مشنقة شمالي ٢٩ - تل مشنقة غربي ٣٠ - تل مشنقة
- ٣١ - تل فليتي ٣٢ - تل مقبرة فليتي ٣٣ - تل تليلات .



المجتمع الأندلسي، والمجتمع الإسباني في عصر ملوك الطوائف

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

استمرت الوحدة السياسية في الأندلس ثلاثة قرون ، منذ فتحها في أواخر القرن الأول الهجري وحتى آخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . وزادت في القرن الأخير مركزية الحكم والإدارة ، وبلغت الأندلس أوج قوتها وازدهارها ، فأصبحت دويلات الشمال الإسبانية تدور في فلكها ، وقرابة نصف المغرب العربي الإسلامي يخضع لنفوذها المباشر في قسم منه ، وغير المباشر في القسم الآخر . وارتقت بنتيجة قوتها السياسية وازدهارها الحضاري إلى مرتبة الدول الأولى في العالم .

انهارت هذه الوحدة السياسية في خضم ما سمي بالفتنة ، وكانت عبارة عن ربع قرن من الحرب الأهلية ، التي جرت بالعاصمة قرطبة بين عناصر متعددة من المجتمع الأندلسي ، حاول فيها كل عنصر تنصيب شخص من الأسرة الأموية على سدة عرش الخلافة ، كي يحكم الأندلس به ومن ورائه . لكن الفشل حاق بالجميع ، ففقدت كل قوة بالاكتماء بحكم منطقة من الأندلس تتوافر لها فيها القوة . كما أن حرب المركز أدت لانحلال سلطة سلطانه واستقلال القوة المحلية عنه . ودعيت الدويلات هذه باسم الطوائف التي تعني الزمر والفئات والاشتات ، دون أن يكون لها صلة بمذاهب فكرية أو فرق دينية أو منهجية .

* * *

ومن الصعب تحديد عدد الدويلات التي نشأت لان الانحلال كان عاما وشاملا ، والتمزق كان شديدا . فقد قامت أسر اقطاعية قديمة بالاستقلال في مناطقها ، كما هو حال بني نجيب وبني هود في الثغر الأعلى منطقة سرقسطة ، وبني ذي النون في الثغر الأوسط ، طليطلة وماحولها ، وبني الأقطس المكناسيين في الثغر الأدنى بطليوس . وقام الجند والعبيد الصقالبة بإنشاء دول عديدة لهم في شرق الأندلس ،

في دانية والجزر ، في بلنسية وفي المرية ومرسية . أما الجند المغاربة ، أو من سماه الاندلسيون بالبربر ، فاقاموا عدة دول في الجنوب ، اكبرها دولة بني زيري فسي غرناطة ، معتدة على عصبية العشيرة الزيرية ، وتليها دولة بني برزال في قرمونة بين قرطبة واشبيلية ، اضافة لعدة دويلات اصغر في الجنوب والجنوب الغربي من الاندلس . اما في الحاضرتين الكبيرتين على نهر الكبير الشمالي ، فاقامت الارستقراطية العربية دولة بني عباد في اشبيلية ، وعلى رأسها قاضي المدينة وكبير اغنيائها ، وفي قرطبة عاصمة الخلافة اقامت ارستقراطية الوظيفة ، او طبقة موالي الامويين ، دولة ترأسها ابن جهور . اضافة لهؤلاء الذين سادوا مناطق توفر دعامة مادية وبشرية لقيام دولة استقل العشرات من الاشخاص الصعاليك ، او من سماهم الاندلسيون بالدابرة ، بحكم بلد صغير او حتى حصن ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا ان ابتلعوا من قبل الدول الاكبر المجاورة ، التي استطاعت ان تعيش العصر كله ، وهو ثلاثة ارباع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . اما عدد السكان الذين تقاسم السلطان عليهم ملوك الطوائف فلا يمكن معرفته على وجه الدقة او وجه اليقين . وان كان من المفيد هنا ذكر أحد التقديرات عند الباحث الاسباني رامون ميننديث بيدال ، الذي يبنينا على رسالة موجهة من البابا غريغوريوس السابع لالفونسو السادس غازي طليطلة ، ينعت فيها بأنه صاحب رعية من مليون رجل ، ويخلص في تقديره الى ان عدد سكان الجزيرة الايبيرية كلهم يصل الى مابين ثمانية وتسعة ملايين نسمة منهم ستة يخضعون للملك الطوائف . ومع ذلك قدر للعدد الاقل ان يتغلب على العدد الاكثر ، الذي كان يعاني من تفكك وتمزق على صعد مختلفة ، اضافة لشيوع انحطاط معنوي في مجالي العقيدة والاخلاق في قطاعات واسعة من ابنائه . وتبين لنا الابعاد الدقيقة لهذه الاوضاع التي كانت سبب قوة للبعض ، وعامل ضعف للبعض الاخر ، اذا استعرضنا اوضاع المجتمعين : العربي الاسلامي من جهة ، والاسباني الكاثوليكي من جهة ثانية ، عبر المجالات المختلفة .

السلطة في مجتمع الطوائف - بين الاساس النظري والواقع الفعلي .

وفقا لما ترسخ في العقول وقر في النفوس بالاندلس ، من ان مصدر السلطة هو الله عز وجل ، مارسها الرسول الكريم ، وخلفه خلفاؤه في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وهم امراء للمؤمنين ، وعن ثالثهم عثمان بن عفان انتقلت الى معاوية لتتسلسل في الامويين في المشرق حتى مروان بن محمد ، ومنه انتقلت الى عبيد الرحمن الداخل في الاندلس ، وتوارثها بعده الامراء والخلفاء الامويون حتى هشام المؤيد بالله ، والذي حدثت الفتنة في عهده واعلن موته خلالها اكثر من مرة .

حاول اغلب حكام الطوائف ، من الجيل الاول ، الاعتماد على اساس شرعي في حكمهم ، فلم ينخدوا القابا سلطانية واكتفوا بالقابهم السابقة ، كلقب القاضي ، او اتخذوا لقب حاجب وادعوا انهم يحكمون باسم خليفة ، كما فعل زعماء المغاربة من بني زيري حين بايعوا خليفة مغربيا من بني حمود وادعوا ان هشاما المؤيد ، اخر الخلفاء الامويين ، تنازل له . ورد خصومهم العباديون من العرب الاندلسيين ، بالادعاء بان هشاما المؤيد حي وانهم عثروا عليه وبايعوه . لكن اخرين مثل اسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة ، لم يعترف بامامة الامويين قائلا : « والله لو نازعني هذا السلطان الصديق لقاتلته عليه ، فكيف اسلم سلطاني لمن يدعى اليه من بني امية ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خبط باطل ، الذين لم تسبق لهم صحبة ولا ادخلهم السلف في شوري الامامة » ثم نفى فكرة حصر الخلافة بقريش قائلا : « توارثوا هذه هذه الامامة ممزقة وصنعتها قريش لاستعباد الناس ، والناس لام واب والفخار باطل » (١) ثم تجاوز هذه الفكرة ليقول بعدم وجود اساس شرعي للسلطة وانها مبنية على القوة وذلك بقوله « احق الناس بالملك من استقل به ، والله لو نازعني فلان وفلان (ذكر هنا اسماء بعض السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم) لضربتهم دونه بسيفي » .

ساد هذا الوضع تجاه النظرة للسلطة حتى اواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، اي عدة عقود من السنين . واتي بعد ذلك جيل اخر من ملوك الطوائف راي ان يحكم دون غطاء شرعي او واجهة ، حتى ان ملكي الدولتين الحاميتين للخلفاء من أمويين وحموديين ، قاما بعملية الغاء الخلافة فأعلن ابن عباد موت هشام ، وقضى باديس الحمودي على اخر الحموديين ، واستخلص منه قاعدته مدينة مالقة (٢) . واصبحت نظرية اسماعيل بن ذي النون القائلة « احق الناس بالملك من استقل به » هي السائدة ، وعبرت القاب ملوك الطوائف انذاك عن هذا الواقع الجديد اذ كانت كالألقاب الخلفاء العظام ، وخاصة العباسيين ، مثل منصور ومأمون ومعتضد ومعتد ومتوكل . وزاد البعض على ذلك فلم يعد يكفي بلقب واحد بل تعداه الى لقبين ، وهو امر لم تكن له سابقة ، الا من الخليفة الاندلسي الاول عبد الرحمن الثالث ، موحد الاندلس وباسط سلطانه على شمال شبه الجزيرة الايبيرية ، واجزاء واسعة من المغرب ، الذي تسمى بلقبين ، لكنه تعفف عن استخدامهما معا في الداخل ، فاكفى بلقب الناصر ، بينما كانت كتبه الخارجية تضيف اليه لقب القائم ايضا . (٣) اما ملوك الطوائف فقد استخدموا اللقبين معا في الداخل وضربوهما على النقد . وهكذا لقب يحيى بن ذي النون ملك طليطلة نفسه « المأمون ذو المجددين » ولقب محمد ابن عباد ملك اشبيلية نفسه

« المعتمد على الله ، المؤيد بالله » لكن احدا من ملوك الطوائف لم يتجرا على تقلد لقب الخلفاء الشرعيين الرسمي وهو امير المؤمنين ومع ذلك فقد رأى الكثيرون من الناس ان القابهم التي اتخذوها وهي القاب خلفاء عظام ، اكبر منهم بكثير . وبالتالي فهم صغار ينفخون انفسهم ليصبحوا كبارا . وقد عبر عن ذلك احد الشعراء بالقول :

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير دولتها كالحمر يحكي انتفاخا صولة الاسد

سلطة ملوك الطوائف في واقعها الفعلي

مهما يكن من شأن الاساس النظري لسلطة ملوك الطوائف ، فانهم مارسوا هذه السلطة فعليا ، واستبدوا بها الى حد يمكننا من اعتبارها مطلقة ، وذلك منذ الايام الاولى لنشوء دولتهم ، ومن ناحية اخرى اعتبروا دولهم ملكا شخصيا لهم يورثونه بمشيئتهم كتوريثهم العقارات والاملاك الخاصة ، كما فعل سليمان ابن هود في الشجر الاعلى ، عندما قسم مملكته بين اولاده الخمسة . وعلى شاكلته ورث المظفر ابن الافطس حاضرتي دولته بطليوس وبابرة الى ولديه ، فاختص كل منهما بوحدة . ومثله ايضا فعل باديس فخص حفيدا له بعاصمته غرناطة ، وحفيدا اخر بمالقة . وحتى عندما كانت الدولة مدينة واحدة كقرطبة حصل التقسيم ايضا ، ولكن بمهام الدولة ، فقسم ابو الوليد جهور نواحي ادارتها بين ولديه . وعندما لا يفعل الملك ذلك كان ورثته يعتقدون ان من حقهم الاقتسام ، كما حصل عندما سمي اسماعيل ابن ذي النون خلفا واحدا له ، وهو يحيى المامون فنازعه على الامر عمه واخوه . وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك دولة الصاديين . حيث تم التوارث لكامل للدولة من الاب الى ابن واحد فقط .

وفي مجال الادارة لم يدع ملوك الطوائف شيئا ولم يبتكروا جديدا ، بسـلـساروا على نمط الادارة الموروثة من عصر الخلافة . ومع ذلك لم يتقنها منهمـالا البعض ممن مارسوها سابقا في عهد الخلفاء ، كبني عباد وبني جهور . وما عدا هؤلاء ، كان بعض الملوك غفلا من كل معرفة ، فاستعانوا باداريين متفقيين في الادارة الاموية كي يشرفوا على تنظيم ادارتهم ، وهذا ما فعله العبد سـابـور حاكم بطليوس ، والعبدان مبارك والمظفر حاكما بلنسية ، وكانت هذه الادارة مرتبطة بالامير مباشرة ، الا في الدول التي سيطرت فيها قوة عشائرية غربية على حواضر كبرى . فقد جعل بنو ذي النون ادارة طليطلة بيد فقهاء كبار منها كابن الحديدي

وابن الفرّج وترك الفتيان الصقالبة ادارة مرسية لفتيها ابن طاهر . اما غرناطة عاصمة بني زيري الصنهاجيين ، والتي كانت نسبة كبيرة من سكانها من اليهود ، فقد عهد بشؤونها خلال امد طويل لاب ثم لابنه من هؤلاء . وعندما ضم الزيريون لدولتهم الحاضرة الكبيرة ايضا مالقة ، جعلت رسميا تحت سيادة بلقين ابن ملك الدولة . لكنه قام ببناء على توصية والده باسناد شؤونها الى فقيه منها هو محمد ابن الحسن النباهي . الذي اعتبر وزيرا وقاضيا ، ومنح امتيازات مالية وردت في كتاب رسمي جاء فيه « هذا ما التزمه واعتقد العمل والوفاء به بلقين ابن باديس للوزير القاضي ابي عبد الله محمد بن الحسن واعتقد به اقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة رية (مالقة) وان يجري من الترفيع به ، والاكرام له ، الى اقصى غاية ، وان يجري على الحرية في جميع املاكه حاضرتها وباديتها الموروثة منه والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ، وما ابتاع منها من العالي (خليفة حمودي) وغيره لا يلزمها وظيف بوجه ولا يكلف عنها كلفة على حال ، وان يجري في قرابته وخوله وحاشيته وعامري ضياعه ، على المحافظة والبر والحرية » (٤) وصفوة القول ان سلطة ملوك الطوائف في الاندلس كانت تفتقد على الصعيد النظري الدعم الشرعي والمعنوي ، كما كانت تفتقر على الصعيد العملي الى اللحمة والتماسك ، ويزداد التمزق فيها والانحلال مع تقدم الزمن ، وكذلك عجزها عن كسب ولاء قطاع عريض من الناس او تثبيت ولاء القطاع الضيق ، بمن فيه ابناء الاسرة المالكة وكبار موظفيها ، كما يبدو ذلك واضحا في احوال دولتي بني عباد وبني زيري .

مصادر القوة البشرية والاقتصادية في مجتمع الطوائف

اعتمد ملوك الطوائف عند قيام دولتهم على دعم معين ، لامد قصير جدا ، وريثما تتمكن دولهم من الوقوف على قدميها ، وتباين هذا الدعم بتباين طبيعة الدولة ، وزعامتها ، فكان في بعضها مشيخة البلد ، واتباعهم فيها ، وفي بعضها الاخر عصبية العائلة او العشيرة ، وفي دول اخرى ، كدولة خيران العامري الاولى ، فلول متعددة من جند وصعاليك . لكن استبداد الملوك ، وحروبهم ضد بعضهم بعضا ، جعلهم يستبعدون هذه الدعائم ويستبدلون بها دعامة من الجند المرتزقة والعبيد .

وكان هؤلاء الجنود من عناصر متعددة ، يأتي في مقدمتها بنو برزال من زنانة، ويكاد الاعتماد عليهم يكون عاما لدى كل الدويلات ، وخاصة في الجنوب . وقد وصف ابن حيان دورهم بقوله « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليل عددهم منقطع مددهم اقتسموا قواعد الارض في وقت منا مضربين بين ملوكهم ، راتعين في كلثها باقرين عن فلذتها ، حلوا محل الملح في الطعام بئاسهم الشديد ،

وقاموا مقام الفولاذ في الحديد ، فلا يقاتل الاعداء الا بهم ولا تعمص الارض الا في جوارهم : فطائفة عند ابن الافطس تقاوم اصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز اهلها عن الاضداد ، فسبحان الذي اظهرهم ومكن لهم الى وقت وميعاد» (٥) ووصلت شهرتهم في الحرب والاقبال على استخدامهم ، لدرجة ان بني زيري الصنهاجيين ملوك غرناطة واصحاب الثارت مع زنانة عموما ، ومع بني برزال بوجه خاص ، في المغرب قبل الوصول الى الاندلس ، استهانوا بهم ايضا ، كما يقول الامير عبد الله الزيري « وزاد جاه النابة واستخص بني برزال واحسن اليهم وقرينهم من نفسه ، وهم كانوا اولياءه وانصاره » (٦) . كما استخدم السودان من قبل الفتيان الصقالبة العامريين رغم انهم جنود ، ومن قبل الزيريين ايضا ، وكانوا اوفياء لهؤلاء الاخيرين . ففي الموقعة بين الفتى زهير صاحب المرية وبين الزيريين غدر سودان الصقلي بسيدهم ، كما يورد صاحب الذخيرة القول : « سودان زهير غدوره اول وهلة وانقلبوا مع صنهاجة وليست بالبدع من افعالهم وكانوا قطعة خشنه يقاربون خمسمائة » (٧) وعندما هاجم العباديون مالقة ، انفرد السودان بالدفاع عن قضية سيدهم الزيري ، ولاذوا بالقصبة عند سقوط المدينة ، حيث استمروا في المقاومة ريثما وصلت امداد سيدهم (٨) . كما كان بين هؤلاء الجند مرتزقة من الاسبان او غيرهم من الاوروبيين ، وقد ورد في وصف ابن حبان لجيش ابن ذي النون الموجه لاحتلال قرطبة « اذ جمع الجيش ذا الالوف المختلفة اللسنة » (٩) وفي مكان اخر يصف اجناده بانهم « ذوو السنة شتى وبطارق اعزة يعرب عنهم التراجمة » اما الاندلسيون فقد بعد عهدهم بالجنودية والجيش ، منذ ابعادهم التدريجي الذي بلغ ذروته في عهد العامريين ، ومع ذلك كانوا يحشدون في وقت الخطر الشديد وقد برز عجزهم واضحا جليا ، وقتل الالوف منهم في الحروب التي جرت بين ملوك الطوائف ، او بين بعضهم وبين الاسبان . ومن امثلة هذه الحالات ما قام به ابن الافطس بعد هزيمة له امام ابن عباد ، في صراعهما على مدينة يابرة اذ جمع لمواجهة خصمه فلول جيشه المهزوم ، واخرج معهم « كل من قدر على ركوب ذابة من البياض ببلده وحشر رجال البوادي بعمله خلقا كثيرا » . لكن الهزيمة حلت بابن الافطس ثانية ولم يفن عنه هؤلاء شيئا ، وكانت الضحايا منهم كثيرة ، حتى ان راوية ثقة لابن حيان افاده بأن « بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والاسواق من استئصال القتل لاهلها » (١٠) وربما نجمت كثرة القتل من كون اكثرهم غير فرسان ، وبالتالي عاجزين عن الفرار السريع ، كما فعل الجنود . وقد لقي عامة الاندلسيين مصيرا مشابها في الثغر الاعلى ، وكذلك في موقعة بطرنة على مقربة من بنسليه ، عند مهاجمة فرناندو الاول لها .

اما اعداد هؤلاء الجند المعتمد عليهم فلا يمكن التعرف عليها بدقة في غياب

الاحصاءات ، وللتطورات التي كانت تطرأ عليها في كل دولة ، انما يمكن التوصل لاستنتاجات عامة من خلال الارقام التي يوردها مؤرخون ثقات ، او رجال دولة لعدد جنود دولة ما ، وذلك في معرض الحديث عن احدى المعارك . فيذكر الامير عبد الله الزيري في معرض حديثه عن هجوم تحالف من الصقالبة والاندلسيين ضد بني قومه الزيريين ، بعدما جمعوا كل قواتهم فبلغت عدتها اربعة الاف ، وجابههم بنو زيري باقل من الف (١١) وعلى الرغم مما قد يكون في الارقام من مبالغة نحو الاكثار من عدد الاعداء والتقليل من عدد ابناء القوم لتضخيم حجم الانتصار ، فان النتيجة بالنسبة لنا لاتتغير كثيرا ، وهي ان اكبر جيش جمع في الاندلس في الفترة الاولى لقيام دول الطوائف لايزيد عدده عن خمسة الاف . ومن الطبيعي ان يكون عدد الجند في جيش كل طائفة من الطوائف اقل من ذلك بكثير ، حتى ان جيش ابن ذي النون الذي جهد في جمعه كي يظفر بقرطبة ، امنيته الغالية ، والذي وصفه المؤرخون المعاصرون بانه متعدد الالسنه ويحتاج الى تراجعمة ليعربوا عن كلام البطارقة فيه ، هذا الجيش يمكننا تقدير عدده من ملاحظة عدد الجند المعادين الذين ما ان تكامل وصولهم للميدان ، حتى انسحب دون قتال ، وكان هؤلاء لايزيدون عن مائتي جندي من قرطبة ، رفدتهم نجدة من ابن عباد تتكون من مقدمة في ثلاثمائة فارس ، ثم جدد في ائرهـم الف فارس (١٢) .

ويظهر ان اعداد الجند كانت تقل بمرور الزمن في عصر الطوائف ، وخاصة لدى الدول الممزقة ، كدولة بني زيري ، فالاخوان عبد الله صاحب غرناطة وافي الحشد الاسلامي قبيل الزلافة في ثلاثمائة فارس ، واخوه تميم من مالقة في نحو مائتين (١٣) . وفي بعض الدول ذات الموارد الضعيفة ، كدولة بني جهور في قرطبة ، اضيف الى قلة العدد ، وهي مائتا جندي ، انهيار الهيكل التنظيمي للجيش ، لدرجة ان روايتهم لم تكن مدفوعة ، ومؤنهم غير محفوظة او مؤمنة ، كما يستفاد من ابن حيان وهو المؤرخ الثقة والشاهد العيان لذلك من داخل الدولة والذي يصف عملية حشدهم وتعبئتهم للمعركة بقوله : « فما ان تـامـت عدتهم مائتي فارس ، اكثرهم مسوقون ، حاقدون ، معوقون ، مستقصرون ، يشتري لهم القوت من السوق مضيقا على رعيته ، ويزدلف بهم في غد ايامهم ، ويعدهم ثواب عاجل الطعن تسيئة على مسأخر النصر » .

لذلك يمكن القول ان كثيرا مما يسمى بجيوش ملوك الطوائف كانت اقرب الى العصابات منها الى الجيوش المنظمة ، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك جند العباديين ، الذين يرتقون الى مرتبة جيش ، اذ ظهر لديهم الاختصاص فكان منهم مختصون باعمال الحصار ظهر عملهم عند احتلال شلب ، فقد دخلوها عنوة بعد

هدم سورها بالمجانيق من جهة ، وتقبه من جهة . كما كان لدى العباديين اسطولهم الحربي الذي شارك في الاعمال الحربية مثل دخول الجزيرة الخضراء وتهديد مالقة ، وفي اواخر ايام دولتهم لبوا دعوة يوسف بن تاشفين لمساعدته في احتلال سبتة بقواتهم البحرية وشاركوا بسفينة حربية ضخمة كان لها اثر كبير في اخضاع المدينة . وقد وصف ابن بسام هذه السفينة بأسلوبه الادبي قائلا : « انشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة اسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا واخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا » (١٤) .

هذا الواقع ، للجيش التي اعتمد عليها ملوك الطوائف في اقامة عروشهم ، اثر على الباحثين النظريين ، واخرج نظرياتهم منسجمة مع هذا الواقع . ومثال ذلك ابو بكر الطرطوش ، صاحب سراج الملوك الذي عاش في هذه الفترة ضمن دولة بني هود في الثغر الاعلى ، التي شابه حالها حال دول الطوائف الاخرى ، وتستعين بفارس اسباني هو السيد لدعم عرشها . ولابي بكر هذا نظرية في قيام الدولة وانتصارها مخالفة تماما لراي ابن خلدون ، الذي يجعلها العصبية في حين يجعل هو عامل قيام الدولة عدد الجند المسجلين في ديوانها ، ويعتبر سبب انتصارها توفر عدد من الشجعان داخل جيشها . وربما انتصر جيش بوجود ستة الى ثمانية ابطال لان كل واحد يقوم بجيش كامل (١٥) .

نتيجة لما مر ، يمكننا القول بان قوة كل دولة من دول الطوائف تتناسب مع قدرتها المالية ، لان هؤلاء المرتزقة ، كانوا يتقاضون اجورهم دنائير ذهبية ، كما يفهم مما يورده مؤرخ العصر ابن حيان في معرض حديثه على استخدام بني برزال كجند ، قائلا : « خلطوا الشر بين رؤسائها واستخرجوا ما اظهروه من دنائيرهم وخلصهم وجاحوا : استأصلوا ، ذات ايديهم وعلموهم كيف تؤكل الكتف » . وربما يفسر ذلك غنى بني برزال بالذهب ، حتى انهم عندما انشأوا دولة لهم في قرمونة سكوا عملة ذهبية بوفرة ، مما جعل التعامل بها يشيع في الاندلس .

وقد توافر لكل دولة من دول الطوائف الكبيرة مورد مالي كان اساس بقائها حتى نهاية العصر . ويتمثل هذا الوارد بانتاج زراعي او معدني في الغالب ، يتحول الى مال عبر التجارة به ضمن دائرة اقتصاد شبه الجزيرة الايبيرية ، او بتصديره الى خارجها ، كما هو حال قطن اشبيلية وزئبق طليطنة ، وكتان غرناطة وحريرها .

وقد ادت الحروب بين هذه الدول الى اضعاف القوة الاقتصادية لـ

الاندلس ككل . فالحاصلات الزراعية كانت تدمر لعدة سنوات متتالية بسبب الفارات ، التي تمنع في الوقت نفسه الانتقال والمتاجرة بين المناطق ، مما اضعف الدورة التجارية داخل شبه الجزيرة ، وجعل المواني ، التي تعتمد على التجارة الخارجية ، تشهد ازدهارا نسبيا ، بالمقارنة مع مدن الداخل . وتقدم بلنسية ودانية مثلا على ذلك ، والاضح منه مدينة المرية ، فقد تزايد عدد سكانها الى حد جعل داخل اسواها يضيق بهم ، فتكون لها ربض واسع قام خيران العامري باحاطته بسور (١٦) ، وفي ذلك ما يعكس نشاط الفعاليات الاقتصادية فيها ، والتي يرد وصفها في زمن المرابطين الذي تلا حكم الطوائف ويعتبر صادقا بالنسبة لهذه الفترة وفيه « كان بها من الصناعات كل غريبة ، وكان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز وتعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكلفة . وكانت فيما تقدم يصنع بها آلات النحاس والحديد ما لا يحصى . . كما ان مراكب التجار تقصدها من الاسكندرية والشام وفيها الف فندق الا ثلاثين فندقا » .

وتوفر لدول اخرى ، كدولة بني عباد ، سبيل الاتصال التجاري ، مع السلامة النسبية للسهول الفنية ، اضافة لغناها في المواد التي تعتبر حربية . وهكذا كانت فيها منطقة الشرف التي تمتد من اشبيلية الى لبلبة بطول اربعين وعرض اثني عشر ميلا ، ويجود فيها القطن الذي يعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار الى افريقيا وسجلماصة (بوابة تجارة الذهب) وما والاها . وكذلك الزيتون الذي يتجهز بزيتته الى المغرب والمشرق برا وبحرا . وفي الدلتا التي تتشكل عند مصب نهرها تتكون جزر تربي فيها الدواب لان الكلا دائم والمكان امين من الفارات . وفي مواني اخرى ضمنها ، كمدينة شلب ، يتوفر في جبالها الخشب وفي ميناء آخر الحديد ، مما جعلها قادرة على صناعة سفن وصل عدد قطعها اخر الامر حوالي ثمانين قطعة (١٧) . وربما يكمن في هذا كله تفسير تطور هذه الدولة الى اقوى دول الطوائف ، حيث استطاعت ان تسيطر على منطقة واسعة ممتدة من الاطلسي غربا الى المتوسط شرقا .

عناصر مجتمع الطوائف وعصبياته :

تميزت في المجتمع الاندلسي ، منذ نهاية عصر الخلافة وبداية الفتنة ، ثلاثة عناصر رئيسية وهي : العنصر الاندلسي ، ويشكل الاغلبية وعامة الناس ، ثم المغاربة ، او البربر ، بفرعهم صنهاجة وزناتة . اما العنصر الثالث فهو الصقالبة ، وعرف افراده بالفتيان العامريين او الفتيان الصقالبة . انقلب العنصران الاخيران في عهد الطوائف الى عنصرين حاكمين للعديد من المناطق ، وخاصة في الشرق والجنوب ، واقتصر حكم ابناء العنصر الاندلسي على بعض المناطق . وقد نشأ صدام بين هذه

العناصر منذ اواخر ايام الخلافة ، وادى الى اتيارها في خضم الفتنة ، التي كانت مجابهة حربية فيما بينها ، ثم استمر قويا بعدها في عصر الطوائف لعدة عقود من السنين ، قبل ان يتفسخ تدريجيا داخل كل عصبية . وتكثر الشواهد والظواهر على اثر هذه العصبيات العنصرية في سلوك الجميع ، من ناحية تقارب اهلها وعملهم سوا في مواجهة العصبيات الاخرى . يبرز منها في شرق الاندلس عصبية الصقالبة المعادية للمغاربة وللعرب الاندلسيين . وقد ركز بعضهم ، قبل ان يلوا في الاندلس حكما ، على تبيان فضل عنصرهم وتفوقه ، قالف حبيب الصقلي ، أحد فتیان الامويين ، كتابا يتعصب فيه لقومه وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) . وتها لهم خلال حكمهم او ممارستهم للسيادة ، ان يمارسوا على من حكموهم من الاندلسيين سياسة التمييز لعنصرهم ، واضطهاد الاخرين على الصعيد العملي . فكان الفتیان الصقليان مبارك والمظفر ، حاكما بلنسية ، حسب قول ابن حبان « حثان الرعية بسلطانهما ، ولا يعبان بما آذاها من كلفهما ، يقلدانها شرار العمال (الموظفين الماليين) ويستزیدان عليها في الوظائف (المغارم والضرائب) الثقال ، مع الايام والليال ، حتى لقدا كثير منهم بلبسون الجلود والحصر وياكلون البقل والحشيش وفر اكثرهم عن تراههم ... وصارا يتخذان ما جلا عنه اهل من تلك القرى ضياعا مستخلصة ، فاذا وقع عليها اسم كبير منهم راجع اهلها راضين عنه بالاعمال بالسهم راجين في دفاعه من الحدثان » (١٨) .

ولم يقتصر اذاهم على من وقع تحت حكمهم ، بل شجعوا هرب بني جنسهم من العبيد في المناطق الاخرى فقد « لحق بهم موالى المسلمين ومن اجناس الصقلب والافرنج والبشكنش عشيرتهم ... وانفتح على المسلمين ببلاد الاندلس امر شديد في اباقة العبيد اذ نزع اليهم كل شريد طريد وكل عاق مشاق » .

وفي مدينة دانية وجزر الباليار ، حكم الصقلي مجاهد العامري ، الذي اشتهر بتشجيعه للعلم والادب ، مما جمل صورته لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين المتأخرين عن زمنه ، كالمراكشي صاحب المعجب . لكنه من ناحية التعامل مع العرب المسلمين لم يكن اخف وطأة من الحاكمين السابقين ، فقد كان ، حسب ما بقتبسه عنه ابن الخطيب : « شديد الوطأة على رعيته ، سام اهل الجزائر الخسف ، فسطا بوجوههم ورؤسائهم ، والزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغرب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة اموالهم ، فكتبها منعوتة ، فلا تكاد الرمكة تنبج مهرا ، حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه الى ان يصلح ، فيقبض منه عند ذلك ويعطى خمسة دنانير دراهم ، لا يزيد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه ان نفق الا ببراءة من ثقته ، وقد قطع اذن رجل لقطعه اذن مهر طلب التشوية بخلقه » (١٩) .

ويزودنا الجغرافي ابن حوقل بمعلومات اضافية عن هذه الدواب التي تنبغ في الجزر ، وهي بغال من نوع خاص يختلف عن غيره لانها ، حسب قوله « تبدن وتصنع وتنجب » ، كما ان الطلب عليها كثير في مجتمع الاندلس اذ انه « قل سوق يصير اليه اهله الا على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المشي الا اهل الصنائع والارذال » وقد يختص ركوبهم بالبغال الفره التي تجلب من جزيرة ميورقة وبها يتفخرون ويتكاثرون . اما عن ثمنها : فيقول ابن حوقل : « ورأيت فيها غير بغل بيع بخمسمائة دينار فاما ما يبلغ المائة والمائتي دينار فاكثر من ان يحصى » (٢٠) .

وزاد مجاهد على من سبقه بتشجيع الهجوم على العرب فكريا ، اذ قرب اليه عددا من الشعوبيين . وقد عاش في بلاطة اللغوي المشهور ابن سيده ، صاحب معجم المخصص ، الذي رتبت فيه كلمات العربية على اساس الموضوعات ، وجاء عنه في سير النبلاء انه كان شعوبيا يفضل العجم على العرب . واذا كان هذا قد خدم العربية وهاجم العرب ، الا ان مجاهدا سبى صبيا صغيرا من البشكنش ، عرف بابن غرسية ، وقربه اليه واشرف على تربيته في جميع المجالات ، واعطت هذه التربية اشهر ثمرة لها ، متمثلة في رسالة له او مؤلف صغير ، عرف برسالة ابن غرسية في الشعوبية ، التي تفتقر الى الابداع ، لانها تقتصر على ترديد افكار الحركة الشعوبية في المشرق ، والتي تركز على ذكر عيوب حياة العرب في الجاهلية ، من حقارة ملابسهم وماكلهم ومسكنهم واختلاط انسابهم وافتقارهم لاي مجد سياسي او فكري . لكن المهم فيها الدلالة على اتجاه صاحبها ، ونشر هذه الافكار بعد جمعها على نطاق واسع في الاندلس ، وقد زادت شهرة الرسالة لكثرة من رد عليها من الكتاب الاندلسيين المشهورين (٢١) .

اما الاندلسيون فكان كرههم للعصبيات الفريية الحاكمة لهم يدفعهم للتطلع نحو سيادة حكام منهم . واوضح مثل على ذلك مالقة ، التي خضعت للمغاربة الزيريين وابن عباد على مقربة منهم في الجزيرة ، ومع شهرته في مجال القسوة ، الا انهم كانوا ، حسب رواية الوراق « اذ جرى ذكر عباد المعتضد ارتجوا له ورفعوا اصواتهم بالثناء عليه ، هذا ما كانت أعينهم تقضى من قبح آثاره ويصك سمعهم من هول أخباره ، ويلفح وجوههم من شر ناره ، تشيعا لم يكن له أصل الا شؤم الحمية ولوم العصبية » (٢٢) ولم تكن عصبية باديس ضد الاندلسيين اقل من ذلك ، اذ عندما بلغه ما حصل للملك المغربي صاحب كورة تاكرنا ، من قيام أحد أفراد رعيته الاندلسية عليه ، بالتواطؤ مع ابن عباد ، مما ادى الى مقتله سنة ٤٥٧ هـ ، أصبح باديس في حالة حداد من هجر شرابه والابتعاد عن ملاذه ، ودبر أمر الانتقام من الاندلسيين في بلده انتقاما وخشية من قيامهم بالشيء ذاته ، ودبر مذبة لهم عند تجمعهم لصلاه

الجمعة (٢٣) . لكن الوزير ، الذي كان على يقين ان في العملية قصر نظر سيودي بالدولة ، دبر اتصالا سريا بالناس كي لا يأتوا في اليوم المحدد لصلاة الجمعة ، ليتجنبوا المذبحة ، ويمكن بعدها ان تهذا ثائرة باديس ويعود الى رشده .

لكن تقدم الزمن بدويلات الطوائف وما حدث خلاله من مستجدات ، أدى الى حدوث تفسخ في كل عصبية من داخلها ودفعها للخلف في مجال الاهتمام .

وبدات بالتبلور صورة تناقض أخرى في المجتمع الاندلسي ، وهو التناقض بين الرعية والملوك ، ولعل أبرز هذه المستجدات توطد الدول ، وما يتعلق بذلك من ظروف داخلية وخارجية .

فعندما تشكلت للعصبية الواحدة دول عدة ، أصبحت مصلحة الدولة المنشأة لحساب أسرة او عشيرة او قبيلة ، تتقدم على غيرها . وهكذا لم تمنع العصبية المغربية او البربرية بني برزال من التحالف مع العباديين ، زعماء العصبية العربية ، كما ان العصبية العربية لم تمنع العباديين من الاجهاز على دويلات عرب اقحاح . واخذ تمزق العصبية يتعمق ليطل عصبية العشيرة الواحدة ، وهكذا كان المرتزقة البرزاليون عمدة جند عدة دول متصارعة متقاتلة ، اي أنهم يقتلون بعضهم بعضا . وفي دولة العشيرة الزيرية بدأ الصراع بين صاحب الدولة ، الذي يريد الاستبداد بالحكم ، وبين وجوه عشيرته ، الذين يريدون البقاء شركاء له في الحكم والسلطة . ولعل المثل البارز على ضعف العصبية ، في العشيرة والاسرة ، لجوء ملوك الطوائف الى الاعتماد على أشخاص بعيدين عن سائر درجات عصبية الحاكم ، بحيث يكونون بعيدين اما دينيا ، او موطنيا . ويعبر عن هذا الاتجاه لدى ملوك الطوائف بشكل صريح الامير عبد الله ، في معرض شرحه لمبررات جده باديس في الاعتماد على ابن النفريلة اليهودي ، وذلك بقوله : « استعمله لذلك استيحاشا من غيره ، ولما كان يرى من طلب ابن عمه له (الحكم) ، ولان هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه الى ولاية ، ولا هو أندلسي فيتقى منه ادخال داخله مع غير جنسه من السلاطين » (٢٤) . ونجد امثلة على السلوك نفسه لدى الملوك الآخرين الذين اعتمدوا على العبيد ، فقد عين ابن الافطس لثغر قلمرية الهام عبدا من عبيده يسمى (راند) ، لم يجد بينه وبين البلد ما يصله به ويدفعه لتعريض حياته للخطر من أجله . فعندما هاجم الاسبان بلده ، اتفق معهم سرا على انتقاله اليهم مقابل الامان له ولاهله ، وانتقل الى معسكرهم ليلا ، تاركا المدينة لمصيرها ولاهلها دون قائد (٢٥) .

من ناحية أخرى كان قائد جيش ابن عباد الداخل الى قرطبة يسمى محمد بن

مارتين . وكان أحد قواده ، الذي تأمر مع ابنه للاطاحة به ، عبدا يسمى (الناية) هرب الى خصمه باديس عند كشف المعتضد العبادي للمؤامرة وقتل ابنه (٢٦) . وقد يكون هؤلاء المقربون من المستعربين ، المعروف ولاؤهم ، كفتة ، ملوك الاسبان ، مثل (شيشلاند Cisnando Davidez) ، الذي كان يعيش في اراضي ابن الافطس على مقربة من قلمرية ، واسره المعتضد بن عباد في إحدى غاراته ، ولم يلبث ان أصبح من اقرب المقربين اليه سواء في شؤون السلم أو الحرب ، الا انه لم يلبث ان هرب الى فرناندو الاول ملك ليون ، واصبح واحدا من الكونتات المحيطين به ، واستخدمه في سفاراته الى ملوك الطوائف (٢٧) .

ادى هذا التفسخ في العصبية الى بروز تناقض اجتماعي من نوع طبقي ، هو ذلك القائم بين الملوك والرعية ، وقد جمع بين عناصر كل فئة قواسم مشتركة ، كما ظهرت لديهم على التوالي مصالح مشتركة أيضا .

طبقة الملوك

طبع سلوك هذه الطبقة بطابع الانطلاق من المصلحة الذاتية دون اعتبار كبير لقيم أخرى ، من الانتماء لعصبية أو أوامر الدين ونواهيها ، بشكل دقيق . ومن هذا المنطلق دفعت الجزية لملوك الاسبان رغم التحريم الشرعي لذلك ، واهتمت باحاطة اشخاصها بهالة من التضخيم والتمجيد . ومن هنا جاء استقدامها للعلماء وسخاؤها على الشعراء .

وكذلك برز اهتمامها بالعمران ، وهو امر معروف لدى أمراء الاندلس وملوكها منذ قيام الدولة الاموية . لكن ملوك الطوائف اختلفوا عن هؤلاء في أنواع المباني ، اذ لم يعمروا اهتماما كبيرا للابنية الدينية ، كما فعل الامراء والخلفاء الذين كان من نتائج فعلهم بناء مسجد قرطبة وتوسيعه الدائم ، اضافة الى مساجد الاحياء الكثيرة . اما الان فقد حل مكان ذلك اهتمام يتناسب مع الحاجات ، وهي حماية الملك وتحقيق الترف له . وبذلك ازدهر العمران الحربي وعمران القصور . ويتمثل البناء الحربي ببناء اسوار المدن والحصون . وقد كان الاهتمام بتحسين المدن في السابق منصبا على مدن الثغور ، في حين ساد الاتجاه في عصر الخلافة نحو تهديم الموجود منها من الداخل حتى لا يحتمي به الثائرون . أما ملوك الطوائف فقام كل منهم باحاطة حاضرتهم بأسوار ، وخاصة اذا كان ممن يتعرضون للهجوم .

كانت البداية بقرطبة ، عندما جعلها الزيريون قاعدتهم . وجدد بنوا الافطس

عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م سور بطليوس وجعلوه من الحجارة والكلس بعدما كان من التراب . واحاط الصبدان مبارك والمظفر بلنسية بسور ، وكذلك فعل اصحاب قرمونة (٢٨) .

وبنيت ايضا الحصون باعداد كبيرة خارج المدن لاغراض الدفاع والهجوم ، ومنها ما يبنى في اماكن مناسبة لحماية طريق يؤدي الى الحاضرة ، ويزود بكميات من الغذاء ، تكفي محاربيه امدًا طويلا ، كي يقاوموا الحصار الطويل ، فيقوم المهاجمون ردا على ذلك ببناء حصن في مقابل الحصن المحاصر ، كي يستطيع مقاتلتهم البقاء فيه شتاء وصيفا . وقد يبنى حصن المهاجمين كقاعدة انطلاق يشنون منها الغارات على سهول الخصم الغنية ، كما فعل العباديون عندما بنوا حصن بليش ، على بعد بريد من غرناطة . وقام الزيريون خلال مهاجمتهم لبني صمادح ببناء سبعة حصون . ومن ناحية ثانية ساد اتجاه اخر لبناء وتحسين القصبات ، التي تقام في مكان مرتفع داخل المدينة وبجوارها ، وفي هذه الفترة اشتهر العمل في قصبه المرية . ومن المعلوم ان القصبات مقر للحكم ، وبالتالي فقد اصبحت ضرورية للصمود في وجه اية انتفاضة داخل المدينة .

أما بناء القصور ، فان الحديث عن نشاط ملوك الطوائف في هذا الميدان يحتل مساحات أوسع على صفحات كتب المؤرخين المعاصرين . فالقصر علامة من علامات السلطان والسيادة ، ومن البدهي ان يكون لكل ملك قصر على الاقل . لكن المؤرخين اهتموا بوصف ما بدا لهم من القصور رائعا ومتميزا ، ولذلك تتكرر في اوصافهم عبارات تنم عن ذلك ، مثل « تحار فيه الابصار » و « ما لا يقدر واصف على وصفه » . ومن الامثلة على ذلك ، ما بناه ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ، اذ بنى في مدينته قصرا كبيرا ما بين الجبل والشاطئ ، احتوى على بستان فيه من جميع الثمار وغريبها ، وعدة دور يشرف الجالس في بعضها على الميناء ويشهد السفن غادية وآتية ، وكل منها يسمى مجلس افخمها دار الحكم . أما العناصر المعمارية فيه فالارض من الرخام ، والاقواس مقرنصة والنقوش والزخرفة استخدمت فيها المواد الثمينة ، ومن ضمنها الذهب الخالص (٢٩) . ولعل اكمل الصور التي يوردها المؤرخون دلالة على البذخ في التزيينات المعمارية لدى ملوك الطوائف ، صورة المجلس المكرم في قصر المأمون بن ذي النون ، الذي يقدمها لنا ابن حيان نقلا عن أحد اصدقائه من الادباء ، الذين حضروا حفلا في القصر ، ثم استقبلهم الملك في هذا المجلس . ومما يقوله هذا الاديب ، ان لهذا المجلس ازار من المرمر خرمت في جثمانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، ثم يلي هذا الازار نحو الاعلى ازار اخر من التزيينات

الكتابية ، وهي عبارة عن اشعار في مدح المأمون . اما الازار الاعلى فكان من نفيس الزجاج الملون ، وقد وضعت عليه أشكال حيوان واطيار واشجار فوق أرضية من الذهب . وبهذه الدار بحيرتان نصبت على أركانها تماثيل أسود مصنوعة من الذهب ، ينساب الماء من افواهها الى حوض رخام محفور عليه صور احياء ، من حيوان واشجار ، وغرست في كل حوض شجرة فضة يترقى الماء فيها ثم ينصب من رؤوس الاغصان الصفري على شكل رذاذ المطر أو رشاش التندية ، اما بقيته فتتدفق من ذروة الشجرة على شكل شلال (٣٠) .

واحتوت هذه القصور المترفة في تزييناتها ، على تحف ونفائس لا علاقة لها بالبناء ، واهمها تلك النفائس المصنوعة من المعادن والمواد الثمينة ، ومنها الانية الثمينة ، وتكثر الامثلة على النوع الاول عند المعتمد بن عباد ، عند الحديث عن وصف الشعراء لهذه الطرائف الملوكية ، مثل وصف فيل الفضة الذي يقذف الماء على البركة ، وتمثال لحجل من البلور ، عيناه ياقوتتان ، وقد ملئ بنفائس الدر (٣١) .

وكانت الانية من المعدن الثمين ماثلة في التصور ، وقد سخر المأمون بن يحيى ابن ذي النون من ترك والده لاكوام الفضة التي كان يملكها ، والتي ملأت مجلسا بكامله ، على شكل نقر (قطع) . وعندما عرض الفقهاء حوله صواب رأي أبيه من أنه اتخذها كذلك للاستعانة بها عند الحاجة . وانها ان صيغت واصبحت تحفا يراها الجميع ويزيد الملك الاسباني طمعا بها ، لم يقنع برايهم ، ونفذ ما يريد ، فجعلها صنوفا كثيرة « من الحلية الرائعة والانية الفاتقة ، اذ لا معنى في ابقائها نقر ، لانها تكون بالحجارة أشبه منها بالآلات الامارة » (٣٢) .

شابه هذا البذخ في زخرفة البناء واتخاذ التحف النفيسة ، البذخ في النفقة داخل القصور أيضا . وقد اشتهر تحقيق المعتمد بن عباد للرميكية نزوتها بأن تحيا مرة ثانية ، ولأمد ، شيئا من حياتها السابقة ، فتسيخ قدمها في الطين عندما تملأ جرتها ، فأعاد خلق الجو لها ، لكنه جعل الطين من معجون الكافور والعنبر . ولم يكن ابن ذي النون بأقل منه بذخا في الحفلات ، وبكفي وصف مراحل غسل اليدين بعد الاكل ، في الحفل الذي اقامه بمناسبة اعدار حفيده ، « ولما فرغت تلك الطائفة ، جيء بهم الى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش أيضا بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة متمائلة ، فأخفوا مجلسهم فيه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الاقداح والاشناندانات الفضيّات المحكمة الصناعات ، ثم ادني اليهم اثر ذلك الوضوء في اباريق الفضة المحكمة الصنعة ، يصبون على ايديهم في طسوس الفضة المماثلة . . فاستوعبوا الوضوء ،

وادنيت من ايديهم مناديل تتضائل لها ما عليهم من سني الكسوة . ثم نقلوا الى مجلس التطيب ، فشرع في تطيبهم من مجاهر الفضة البديعة بفلق الصود الهندي ، المشوبة بقطع العنبر الفستقي ، بعد ان نديت اعراض ثيابهم بشايب الورد الجوري ، يصب فوق رؤوسهم من اواني الزجاج المجدود وفياشات البلور المحفورة ، ثم ادني اليهم قوارير الما المحكمة الصنعة ، الرائقة الهيئة ، قد اترعت بالفوالي الداكية ، النامة بسرها قبل الخبرة ، المتخذة من خالص المسك التبي ، ومحض العنبر المغربي ، لاعم بينهما رشع البان البرمكي « (٣٣) » .

هذا البذخ والترف ، اضافة لسد الضرورات في البناء الحربي ، وتهيئة المال لشراء العبيد واستئجار الجند ودفع الجزية للامراء الاسبان ، احتاج الى مبالغ كبيرة من المال فرضت على الرعية ، التي كانت تنكب بين الحين والحين بالفارات ، وما يتبعها من انتساف زروع ونهب مواش . وكان ما يفرض على الرعية يتخذ اشكالا شتى من الضرائب والمفارم يعددها ابن حزم بعد مقارنتها بما كان الناس يدفعونه سابقا بقوله « والمفارم التي كان يقبضها السلاطين ، فانما كانت على الارضين خاصة فكانت تقرب مما فرض عمر على الارض . واما اليوم فانما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها متাহرة ، وضريبة على اموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما . وقبالات ما يؤدي على كل ما يباع في الاسواق » . واضاف ملوك الطوائف شيئا اخر ، وهو احتكارهم للبضائع الثمينة في كل بلد ، كقيام زيري غرناطة باحتكار نسبة من انتاج الكتان ، المادة الثمينة ، وقيام الصقالبة في دولة دانية والجزر باحتكار انواع من الدواب .

ويبدو وكأن الاحتكار قد شمل كل ما هو ثمين ولدى الدول كلها ، ففي مدينة شنترين الخاضعة لابن الافطس تنسج حلل غالية الثمن ونادرة ، وقد احاطها الاهالي بأسطورة تقول : « ان دابة تخرج من البحر هناك وتحتك بحجارة على ساحل البحر ، فيسقط منها وبرة على لون الذهب وليس الخز ، وهي قليلة عزيزة جدا ، فيجمعها الناس وتنسج منها الثياب وتزيد قيمة الثوب منها على الف دينار لحسنه وعزته » لكن الملوك يحجرون عليها ولا تنقل من بلادهم الا بالخفية (٣٤) .

الرعية :

يعتبر الجميع بعد الملوك رعية ، لان استبداد الملوك ابعد اخر الامر حتى الاقربين . وتباين وضع هذه الرعية بالنسبة للملوك ، اذ قربوا منها من تدعو الحاجة اليه ،

وارتبطت بالتالي مصلحته بمصلحتهم . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء والعلماء والمهرة في صناعات العمران والتحف والحلي . فقد عرف عن المأمون بن ذي النون البطش ، لكنه كان يقف من عريف البناء عنده موقفا أقرب الى موقف المستعطف ، فقد اظهر غيظه عندما اخلف هذا وعده بالانجاز ، ولما احضر بين يديه كتم غيظه واظهر المداراة له ، حتى قبل هذا ان ينجز المجلس المطلوب في عيد تال يجري فيه المأمون استقباله (٣٥) . وطلب العبدان مبارك والمظفر ، حسب قول ابن حيان « فاخر الاسلحة والالات ونفائس الحلي فطار اليهم عريف كل صناعة ورئيس » (٣٦) .

وكانت عطايا الملوك تساعد البعض على الخلاص من العسر ، بينما تؤمن لآخرين حياة رافهة ، فمن قدموا على العبدین السابقين مبارك والمظفر وخدموهما ، شاركوهما في الترف ايضا . واشتمل « هذا الترف على جميع اصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما . فاحتدوا فعلهما ، في تفخيم البناء وتهافتوا منه في ترهات مضلة ، وتكشفوا في اشغال متصلة ، لاهين عما كانت فيه الامة يومئذ . واتسع الخرق في عظيم ذلك الانفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزله مائة الف دينار واقل منها وفوقها » . ويمثل هذا تناقضا صارخا مع وضع رعية البلد التي اصبح الحشيش والبقل مأكولا لها ، والجلود والحصر ملبسا . ولم يكن هذا الوضع قاصرا على بلنسية بل كان عاما على ما يبدو ، اذ يورد الجغرافي العذري ، وهو معاصر ، عن بلده المرية التي شهدت ازدهارا كبيرا في هذه الفترة ، انه « أحصى بمدينة المرية في تفرقة بعض الصدقات من الضعفاء وعلى يد قاضيها موسى بن أحمد المرسى ، فوجد فيها وفي أرباضها عشرون الف ضعيف » (٣٧) ، وهو رقم كبير اذا تذكرنا ان عدد سكان الاندلس وفيها عشرات المدن مثل المرية لا يزيد على خمسة الى ستة ملايين نسمة .

وتزعم سواد الناس ، او ما تبقى من الرعية ، الفقهاء . وزعامتهم في المدن تقليدية تعود الى الفترة الاولى لقيام الدولة ، وقد كونوا الان مركز ثقل لهيمنتهم على كتل بشرية ضخمة ، خاصة وان عامة المدن قد تكاثرت بفعل الهجرة من الارياك خشية الهجمات والغارات . لذلك سعى الملوك لتقريب كبار الفقهاء ، اما بترك حكم المدينة بيدهم ، او باعفائهم من المقارم كما مر معنا . وهذه الوسيلة في التقريب ليست فقط اتقاء لشركهم ، بل لجعل قياد العامة سلسا لينا ، وتسهيل قبولها لما يفرض عليها من مقارم ، عن طريق ايجاد المبرر الشرعي ، كما قال أحد الفقهاء للامير عبد الله « فانك لو شئت ان تأخذ من أحد درهما بغير الناموس لسمع عند الناس ، واذا اخذت الفاعل على وجه الحق حل لك اخذه ولم يستبشعه أحد » (٣٨) .

لكن استجلاب الجميع كان غير ممكن ، اما بسبب المنافسة بين الفقهاء ، كما حصل في طليطلة ، حيث قرب ابن الحديدي وابن الفرج ، فنفر الفقهاء من بني مفيث

وبني اللورانكي . كما ان بعض الفقهاء ، كانوا من التقى بحيث لا يسكتون على باطل ، ففي اشبيلية كان الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، أحد رجال المشيخة ، وغادر بلده بعد ذلك خشية بطش المعتضد به ، لمكانته بين الناس . فزار المشرق واخذ العلم ، واستأذن المعتضد بعد ذلك بنزول مرسية . وعندما حصلت حادثة بستر واهتزت لها الاندلس بعث اليه برسالة يحثه على الجهاد ، فأظهر المعتضد الموافقة واستدرجه الى البلد أولا ، ثم الى القصر بعد ذلك ، حيث قتله بيديه (٣٩) . وفي سرقسطة وعظ فقيه آخر المقتدر ، بعدم جواز دفع الجزية للأسبان أعداء الدين ، فكان جزاؤه القتل ، كي يكون عبرة لغيره فلا يتناول أحد على سياسة الملوك (٤٠) . وكان جزاء البعض ممن لم يجابهه مجابهة صريحة النفي ، كما فعل باديس بابن القليعي ، الفقيه الفرناطي . وكذلك كان حال ابن حزم الذي سجن في عدة بلاطات ثم ابعد عنها ، الا انه لم يقتل رغم هجومه الصارخ على ملوك الطوائف ، حتى انه جعل منهم كفرة ، اذ انه ، بعد عرضه للمفارم التي يفرضونها ، يقول : يقدمون ايضا « على اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، وهذا كله ما يقبض المتقلبون اليوم ، وهذا هو هتك الاستار وتقض شرائع الاسلام وحل عراه عروة عروة ، واحداث دين جديد والنحل من الله عز وجل » . وفي مكان آخر يأتي تكفيره لهم علنا « ان كل مدبر مدينة ، او حصن في شيء من اندلسنا هذه اولها عن آخرها ، يحارب الله تعالى ورسوله وساع في الارض بفساد ، والذي ترونه عيانا من شتم الفارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم واباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يعصون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين يسلطون اليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الاسلام معتبرون بضرورة لا تبيح ما حرمه الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ امرهم وتهيمهم » . ويمكن للمرء ان يفترض ان نجاته من القتل كانت بسبب عدم تعرضه لملك من الملوك بالذات ، أو ربما لكونه ظاهري المذهب مخالف للاكثرية ، مما يحد من تأثير أقواله وتحريضاته . أو قد يكون لتعرض جميع الفقهاء له ومحاربتهم إياه بالكلمة لانه كفرهم ايضا ولم يكتف بتكفير الملوك ، وذلك بقوله : « فلا تغالطوا انفسكم ، ولا يفرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزيفون لاهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم » (٤١) .

وقد يجمع هذه الاصناف من الفقهاء كونهم من وجوه الناس ، اما من كانوا من الضعفاء فمنهم من غادر الى المغرب حيث قويت دولة المرابطين ، وهي دولة فقهاء تساس أمورها حسب الشرع ، مثل عبد الرحمن بن اسباط وكان فقيرا « يتحرف بالنسخ ولم يكن حسن الخط ولا فصيحاً ، وعندما ارتقت حاله قليلا أصبح أحد الكتاب في باب الديوان بالمرية ومن هذا العمل انتقل الى المغرب ودخل في خدمة المرابطين » (٤٢) .

ومنهم من كان طامحا للشهرة والمال فسلك درب الموالة للملوك انما في ثوب واعظ ، والمثل الكبير على هذا الطراز من الفقهاء هو سليمان بن خلف الباجي ، الذي كان فقيرا لكنه سافر للمشرق طلبا للعلم . حيث عمل ببغداد حارس درب ، وكان يستفيد باجارته على ثقته وبضوئه على مطالعته ، ثم ورد الاندلس وهو في عسر مادي فصار يتولى ضرب ورق الذهب للفرز ، حتى انه كان يخرج لتلاميذه وفي يديه اثر المطرقة وصدا العمل . وربما قربه الملوك بعدما ثبت لهم نفعه من خلال تصديه لابن حزم ، اذ كان عنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما مكنه من احراج ابن حزم وفضحه في نظر المالكيين ، فقدمت له الوظائف والعطايا وتنقل بين البلاطات ، بحجة اصلاح ذات البين بين الملوك وتوحيد كلمتهم . لكن اتهام الناس له وتركيزهم على كيفية اتساع وتوفر كسبه وقبول جوائز الملوك ، يدل على اعتبار الناس له من الفقهاء الذين ضمهم الملوك الى جانبهم (٤٣) .

وبدا الامر ميئوسا منه ، وزعامة الرعية بين خاضع ومقتول او منفي او خائف . وقد عبر المؤرخ المعاصر للاحداث ، وهو ابن حيان ، عن الوضع بما يدل على قدرته على تحليل القوى الفاعلة في الاندلس ، وشعوره باليأس ، وذلك من خلال تعليقه على سقوط بشتري « وطرق الناعي بها قرطبة في شهر رمضان فصك الاسماع واطار الافئدة ، وزلزل ارض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا في التحدث به والسؤال عنه والتصور لحلول مثله اياما ، ولم يفارقوا ذلك عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاعتزاز بالاجل والاستناد الى امراء الفرقة الهمل ، الذين هم بين فشل ووكل ، فيصدوهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملاح فيهم : الامراء والفقهاء . . . بصلاحتهم يصلحون وبفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه . فالامراء القاسطون قد تكبوا عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما اكده الله عليهم من التبیین لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم اخذ بالتقية في صدقهم . فما القول في ارض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع اغذيتها . هل هي الا مشفية على بوارها واستئصالها » (٤٤) .

ضعف الحماية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين

رغم كون الدين رابطة تربط الجميع ، وتتجاوز انقساماتهم العرقية والاجتماعية ، الا أن ضعف الحماية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين ، اضافة للوكنهم ،

أفقد هذا العامل الموحد الكثير من تأثيره وفعاليته ، وكان لهذا الوضع جذوره البعيدة ، اذ ان المجتمع الاندلسي متعدد الاديان ، وكانت اعداد من بقي على دينه من الاسبان كبيرة ، لفتت نظر الرحالة ابن حوقل في الجنوب ، كما جذب انتباهه قوة شوكتهم « وبالاندلس غير ضيعة فيها الالوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية روم وربما عصوا في بعض الاوقات ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم ، لانهم في غاية العتو والتمرد . واذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم » (٤٥) ومن المعروف ان لهم استقلالاً داخلياً ويرأسهم قوامستهم ، ومتى عصى احد قادتهم كان يعطي شروطاً متسامحة كي يعود الى ربقة الطاعة . وقد اعطي لاحدهم عهد بأن يحتفظ بكل ما لديه من مال ونساء ، وصادف أن احدى امائه كانت مسلمة وشكت الى القاضي الذي حاول ان يحكم بما يوجبه الشرع ، لكن حاجب الخليفة تدخل وطلب الحفاظ على عهد الخليفة (٤٦) .

من ناحية اخرى ، كان التسامح في التعايش واضحاً في كل المجالات ، خاصة بعد ما تم الامتزاج بين الطرفين ، وبدا وكأن جزءاً كبيراً من التناقض بينهما قد حل ، وأصبحت تجمع بينهما لغتان مشتركتان ، العربية لغة الثقافة للجميع ، والرومانس لغة الشارع . والسيادة للامراء أو الخلفاء العرب المسلمين . كذلك كان الاختلاط في البيت كبيراً ، بسبب الزواج من الاسبانيات منذ البداية واستمرار تفضيل الجوارى منهن على غيرهن من سائر اصناف الجوارى . وهذا ما جعل عادات الاسبان الاجتماعية تسيطر لحد ما ، فقد كان الجميع يحتفلون بالفصح وبرأس السنة الميلادية رغم مواعظ وتحذيرات الفقهاء ، كما ان التزاوج ادى ، بعد اجيال ، الى فقدان التمايز في الملامح الجسدية ، حتى ان ابن حزم يلاحظ ان الاسرة الاموية الحاكمة يغلب عليها لون الشقرة (٤٧) . ومن الطبيعي في ظل هذه الاوضاع كلها الا يتولد عند العرب الاندلسيين ، خاصة وانهم السادة ، نوع من الحمية ضد الاسبان تقوم بدور العصبية الجامعة .

وعندما اتقلب ميزان القوى لم تتكون هذه العصبية ايضاً ، لان الامراء الاسبان لم يدخلوا كفزة اول الامر بل كمساعدين لفريق ضد آخر . وكان من الممكن ان يؤدي الاختلاط بالجنود الاسبان ، وما قد يقومون به من اعمال تؤذي مشاعر المسلمين ، الى اثاره حميتهم . الا ان هذا حصل في وقت كانت فيه العصبية بين اندلسيين ومغاربة تهيم على المشاعر ، الى حد بدت معها الحمية الدينية في منتهى الضعف ، رغم استفزازها . فقد قام احد الجند الذين قدموا لمساعدة القرطبيين ضد المغاربة بالتعرض للمقدسات الاسلامية بالشتم والاهانة فلم يكلمه احد ، فقام رجل من المسلمين غير للنبي الا تنكرون ما تسمعون ، اما انتم مسلمون ؟ فقال له جماعة منهم : امض لشغلك (٤٨) .

وعندما ظهر الخطر الاسباني مهددا ، وبدأت المدن بالسقوط ، كان رد الفعل وظهور الحمية الدينية مقتصرًا على صيحات البعض . وبقي الملوك لا مباليين ، وكل ما في سلوكهم لا يشير لحمية دينية أو محاولة الظهور بمظهر الخاضع لأوامر الدين ونواهيته ، وبقوا منهمكين في الملذات التي يتطرفون في بعضها باستخدام رخص الدين ويخالفونه في بعضها .

فقد استكثروا من الجواري ، وتباروا فيما بينهم بالحصول على أرقاهن حتى اشتهرت أسماء بعضهن ، واصبحت أعلاما تتردد في كتابات المؤرخين . ففي ١١٢ هـ ورد رسول للمظفر بن الأفطس إلى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات لسيده ، وكان قد عد من بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فما اشتراهما . وكان خصمه المعتضد أكثر توفيقا منه ، إذ سعى لاجتلاب قينة الرميحي ، الوزير في قرطبة بعد وفاته . وقد استدعاها لما وصفت له بالخدمة (٤٩) .

واشتهر أحد ملوك الطوائف الصغار ، وهو أحد ملوك بني زين أصحاب شنتمرية الشرق ، « بأنه أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب الكناني بثلاثة آلاف دينار . وطبقت شهرة هذه الجارية الاندلس ، لأن ابن حيان يخصصها بما يشبه الترجمة عن محاسنها النفسية والجسدية ، ومهارتها في ألعاب الفروسية ، إضافة إلى معارفها الواسعة في اللغة والخط والنحو والطب والتشريع (٥٠) .

ولكن أهم مظاهر مخالفة أوامر الدين هي شرب الخمر علنا ، وحتى اعتبار البعض له شيئا عاديا ، من ذلك أن الأمير عبد الله الزيري ، الذي يبدو عليه التدين أكثر من غيره لا يتحرج من ذكر أقبال جده باديس على الشراب ضمن جملة أعمال ، ويتحدث عن دعوة والده إلى شراب بنفس الصيغة التي يتحدث بها عن دعوته إلى طعام . كما أن المأمون بن ذي النون ، المعروف بوقاره ، خصص مائدة خاصة للشاربين في حفل أعدار حفيده ، قدمت عليها أصناف طعام من نوع ملائم للشراب ، بترتيب في التقديم مناسب له أيضا ، ثم شاركهم في الجلوس لسماع غناء مغن يهودي لايبات حث فيها على طلب الشراب ، كمقدمة لمديحه ، وفيها بعض الفاظ لا تتناسب مع المعتقد الاسلامي السليم ومنها :

هداء العروس في السحر
تحرق أيدي السقاة بالشرر
ما قد محاه تصرف القدر
يطلع فينا بطلعة القمر (٥١)

باكر لبكر الدنان ان
واشرب عقارا تخال حمرتها
فان يحيى احيا بدولته
ملك هو الدهر في عزيمته

ويبدو من الناحية الاخرى ان الخلاعة قد انتشرت في صفوف نساء هذه الطبقة ايضا ، قياسا على ما كان يصدر عن السنة بعض بنات ملوكهم . فولادة المشهورة ابنة الخليفة المستكفي ، وهو من خلفاء الفتنة اشتهر بالتخنث في المقام الاول ، نسب اليها من الاشعار الغزلية ، واشعار الهجاء لابن زبلون وغيره ، ما يعتبر بذيئاً بجميع المقاييس . ويعتبر مما قالته في الغزل المكشوف :

امكن عاشقي من صحن خدي واعطي قبلي من يشتهيها

شيئا مهذباً لما ورد عنها في الهجاء .

وربما كانت أم الكرام ، ابنة صاحب المرية ، اكثر تهذيباً من ولادة قياسا لما حفظ عنها ، ويتعلق بغزل صريح للفتى المرسى مسمار ، كقولها (٥٢) :

يا معشر الناس الافاعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه ، لم ينزل ببدر الدجا من افقه العلوي للترب
حي بمن أهواه لو أنه فارقني تابعه قلبي



المجتمع الاسباني

يقدم المجتمع الاسباني صورة مناقضة لصورة مجتمع الطوائف في جميع النواحي وعلى مختلف الصعد .

السير باتجاه توحيد السلطة :

كان عصر الطوائف عصر تجزئة السلطة في الواقع الفعلي ، وانعدام وجود أي رابط بين السلطات حتى ولو كان نظرياً ، في حين قام في الشمال الاسباني اربع دول هي : ليون في الزاوية الشمالية الغربية ، وقشتالة الى الشرق والجنوب منها اي في المنطقة المحاذية لوسط الاندلس ، وما بين اعالي الضفة اليسرى لنهر ايبرو والبيرينييه وخليج غاسقونيا قامت دولة نافارا . أما في أقصى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة فقد قامت كونتية برشلونة . ويتجلى السير نحو التوحيد ضمن هذه الممالك في هذه الفترة على مستويين ، في المجال النظري كان ملوك ليون يعتبرون انفسهم امتداداً للأسرة المالكة القوطية قبل الفتح الاسلامي . وفي مضمون هذا

الاعتبار ما يشير الى حقهم في حكم شبه الجزيرة الايبيرية كلها ، كما كان ملوك القوط . وازاء تعدد الدويلات الاسبانية اتخذ ملوك ليون لقب امبراطور ، وحتى باسيليوس ، سواء في وثائقهم الرسمية ، او تجاه رعاياهم ، او لدى ملوك الدويلات الاسبانية الاخرى .

اما على المستوى الفعلي والعملي ، فقد كانت الوراثة ، في هذه الفترة ، تؤدي في غالب الاحيان الى ضم التاج الواحد لاكثر من دولة ، وهكذا حكم كل من فرديناندو اولاً وابنه الفونسو السادس ، كلا من دولتي ليون وقشتالة منذ ١٠٣٨ م / ٤٣٠ هـ - ١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ (٥٣) .

القوى البشرية والاقتصادية

معروف ومشهور ان مهد الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) ، او المنطقة التي بقي الاسبان يسيطرون عليها منذ أيام الفتح العربي الاسلامي ، كانت تلك الاوغار الجبلية ، الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية . وكانت السهول التي تليها ، والتي تحجز بينهم وبين العرب المسلمين ، أرضاً مهجورة . وعندما انحدروا من الجبال وانتشروا في هذه السهول تدريجياً ، مستفيدين من فترات الضعف التي تمر بها الامارة الاموية ، استطاعوا آخر الامر وخلال الحرب الاهلية التي عصفت بالاندلس أواخر عصر الامارة ان يصلوا الى حوض نهر دويرة وقامت لهم عاصمة أصبحت مقر ملوكهم هي مدينة ليون . وقد اعمرت هذه الاراضي الواسعة باسبان ليسوا من النبلاء ، وانما من احرار بسطاء ، مهاجرين من المنطقة الجبلية ، او مستعربين فروا من الجنوب ، اما انفة من الخضوع للمسلمين ، او هرباً من الحروب الاهلية التي حدثت أواخر عصر الامارة . وقد كان لهؤلاء نمط حياة ريفي ، وعاشوا ضمن تجمعات ريفية بسيطة ، تقوم حصون على اطراف بعضها وفي امكنة مناسبة لحماية التجمعات . وفي ظل بعضها كان العمران يمتد والتجمع يكبر ليصبح نواة لمدينة صغيرة مثل لوغو ، وبرغش وسمورة .

كان اقتصاد هذه التجمعات اقتصاداً ريفياً ، قائماً على الزراعة وتربية المواشي ومطبوعاً بطابع الفقر الشديد ، اذ اقتقرت الى مراكز اقطاعية كبيرة ، يمكن ان تكون بلاطات صغيرة بكل ما يتولد عنها من حاجات تدفع الى قيام اقتصاد متنوع الفعاليات ، من صناعة وتجارة . لهذا كانت صناعاتها محدودة جداً ، وقاصرة على توفير ضرورات الحياة ، عبر الصناعات المنزلية . كما ان دور التجارة فيها بلغ من الضآلة حداً لم يستدع فيه سك عملة ، فاستخدموا ، كوحدة للتعامل ، مد

القمح أو رأس الغنم أو قطعا من الفضة . وبما ان بلادهم تقع بين منطقتين نشيطتين ضمن دائرة التجارة العالمية ، لذلك قام افراد من المنطقتين ، اي من الاندلس ، أو من غاليا الكارولنجية ، بزيارات للمنطقة ، وأوجدوا لها بالتالي هذا الرباط الدقيق والواهي بالتجارة العالمية ، والذي كان عبارة عن افراد من التجار اليهود أو المستعربين . وقد بدأ ملمح وحيد تقريبا للتطور ضمن هذه المنطقة التي تمتد من نهر دوبره جنوبا حتى قمم الكانتوبريك شمالا ، ومن المحيط الاطلسي غربا الى أراضي نافارا شرقا ، وهذا الملمح هو مدينة ليون ، السدة الملكية ، واجتذب هذا الموقع السياسي ، بجمعه السكاني الكبير نسبيا ، والذي يتغذى من منتجات سهل فسيح حول المدينة ، بعض العناصر التي تمتن التجارة ، كالمستعربين ، الذين افتتح أحدهم حانوتا ، وبعض اليهود الذين يتعاطون الربا ، وقام في ليون سوق أسبوعي عند قوس الملك حيث كان يتم التبادل بين الاغذية والموارد الطبيعية الاخرى ، والادوات المصنوعة . ودشن هذا النظام ما يسمى باقتصاد المدينة ، حيث تكون المدينة مع اطرافها دورة اقتصادية ، او وحدة اقتصادية مغلقة ، يتم ضمن اطرافها انتاج الخيرات ، وتوزيعها ، او تبادلها واستهلاكها ، وربما بدأ بالظهور في الفترة نفسها ، نمو مدينة اخرى في اقصى الشمال الغربي حيث ضريح شنت ياقب بسبب توافد الحجاج على زيارته من بقاع شتى ، الامر الذي يخلق تطورا في الفعاليات ، ومع ذلك لم يصل الى مستوى نمو مدينة ليون وتطورها . لكن مقارنة اكبر مركز حضاري في الدولة الاسبانية مع مراكز الحضارة في الاندلس يعكس لنا مقدار تدنيه . ويكفي لاجلاء صورة هذا التدني مقارنته بمدينة المرية الاحداث منه نشأة ، والتي يصف الجغرافي العذري المعاصر الطابع العام لها باستقبالها السفن من البلاد الاسلامية والاوربية ، وبنادار صناعتها القديمة التي قسمت الى قسمين : القسم الاول وفيه المراكب الحربية والالة والعدة ، والقسم الثاني وفيه القيسارية ، قدرتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها . قد امن فيها التجار بأموالهم وقصد اليها الناس من اقطارهم (٥٤) .

تلا ذلك توسيع الحدود بعد دويرة نحو الجنوب باتجاه نهر التاجه ، بعد سقوط الخلافة الاموية وخلال فترة الفتنة . ونشأت في الارض الجديدة ، وبحذاء اراضي دول الطوائف ، تجمعات بشرية ، وبينها مجموعات عمرانية دفاعية على قمم المرتفعات أو مداخل الودية لحماية السهول والسيطرة على الطرق المؤدية لها . وازضافة لها انتشرت عدة كنائس متواضعة واديرة . أما نمط الحياة هنا ، فكان اكثر بدائية من وضع المجتمع وراء دويرة ، فالسكان هنا لا يستطيعون ان يكونوا زراعا ، بسبب سعة الارض التي وقعت بين أيديهم ، والتي تحتاج زراعتها الى ايد عاملة كثيرة ،

لذلك امتهنوا الرعي والحرب ، مما نمت الروح الحربية بين صفوفهم ، وهي ليست بالامر الجديد عليهم ، لانه لو كانت لهم صفات مناقضة لظلوا في جبالهم ومناطقهم البعيدة عن الحدود آمنين (٥٥) .

التنظيم الاجتماعي - السياسي :

كانت السيادة في هذا المجتمع مجزأة وفق النظام الاقطاعي ، ففي كل منطقة كانت السيادة لاحد الكونتات (conde) . ويمثل هؤلاء النبالة العليا ويتوارثون السيادة في اسرهم . وبذلك كانت سيادة الملك خارج قطاعه غير مباشرة ، وقاصرة على تبعية الكونتات له . وقد ادخل فرناندو الاول اصلاحا جديدا ، الفى بموجبه التوريث في ملكية الاقطاعات وادارتها ، فبدلا من ان تكون هذه موروثه ، أصبحت منحة ملكية يكون للممنوح له حق الانتفاع بها ، وممارسة السلطات الادارية والقضائية بها ، نيابة عن الملك . وقد اعتمد هذا الاصلاح على النبلاء من طبقة ادنى او الفرسان (Infanzones) بينما كان الكونتات ينتمون الى النبالة العليا (Hidalgos) . وقد تغيرت الالقاب للممنوح لهم فلم يعد كونت (Conde) وانما (Tenienté) او (Merino) بمعنى الوكيل او المسك او الخولي او الحاجب . ولم يقتصر هذا العمل على منح الاراضي الجديدة المكتسبة ، وانما اصاب القديمة ايضا ، وازيح بعض النبلاء من اقطاعاتهم ومنح النبلاء الصغار مناطق شاسعة (٥٦) .

وقد حصل في قشتالة اكبر تطوير لهذا النظام ، اذ زيد في عدد النبلاء الجدد او الفرسان هؤلاء ، ورفع عددهم فيها من ٣٠٠ الى ٦٠٠ (٥٧) .

ويتمخض هذا النظام عن نتيجتين ، اولاهما تقوية السلطة الملكية ، والثانية زيادة المحاربين باعداد كبيرة ، لان الفارس او النبيل الصغير ليس جنديا فردا ، وانما يهرع للحرب مع اتباعه ، فهو بمثابة قائد لمجموعة من الجند . ومما لا ريب فيه ان هذا يخلق في وجه مجتمع الطوائف مجتمعا محاربا ومتماسكا ، مؤلفا من محاربين يرتبطون بسيدهم الملك ارتباطا وثيقا بفعل الاصلاح الجديد ، وبفعل الاعراف في النظام الاقطاعي التي تنظم العلاقة بين السيد والتابع ، في اطار واجبات متبادلة ذلك ان من واجبات التابع ان يخدم سيده ضد كل الناس سواء في الحرب ، او عندما يدعو الى مجلس الملك (El Corte) او في المهمات التي يكلف بأدائها .

ويمكن تجميد او وقف القيام بهذه الواجبات باذن يمنحه السيد ، ضمن طقوس معينة ، منها قيام التابع بتقبيل يده والاستئذان بالمفادرة ، واذا انقطع

التابع دون اذن ووداع يعتبر خائناً . ومن واجبات السيد اكرام التابع وحمايته من الاذى والاعتداء والاهانة ، وان يحيطه بضمانات امتيازاته القضائية ، كما عليه ان يسعى له بزواج نافع مادياً ، وان يعطيه مرتباً عند مرافقته للحرب ، وعند نهايتها عليه ان يقسم بين اتباعه اربعة اخماس الفئيمة (٥٨) . وفي هذا الواجب الاخير تأثير عربي واضح .

بساطة الحياة المادية والثقافية في البلاط وما حوله :

يمكن اكمال صورة الحياة في المجتمع الاسباني المعاصر لملوك الطوائف اذا اضعنا لما ذكرناه عن نمط حياة هذا المجتمع ، صورة الحياة في طبقاته العليا . فمن المعروف ان المعاصرين من الملوك الاسبان هما فرناندو الاول ، وبعده ابنه الفونسو السادس (الفنش) . وكان هذا هو الابن الثاني لابييه ، الا انه الاثير ، لذا عهد اليه عندقسمة املاكه بمملكة ليون . وهذا ما اثار عليه اخاه الثاني سانشو (شانجة) فوقعت عدة وقائع بين الاخوين انتهت باسر الفونسو ، ونفيه بتوسط اخته اوراكا التي تحبه ، الى مدينة طليطلة ، حيث قضى تسعة شهور من كانون الثاني الى تشرين الاول من عام ١٠٧٢ م ، حتى اغتيل اخوه وهو على حصار مدينة ليون الثائرة (٥٩) . فصاد الفونسو ليبسط سلطانه على كامل مملكة ابيه ويتابع سياسته .

كانت حياة بلاط هؤلاء ، بمقارنتها مع بلاطات ملوك الطوائف ، حياة تقشف اذ لم يكن لهم على ما يبدو ملابس متميزة ، لذلك جرت العادة ، منذ زمن ابيهما ، ان يرتدي الامير منهم ملابس المسلمين . وقد عاين ذلك أحد الكتاب من اصدقاء ابن حيان ، الدين خرجوا للتفاوض معه اثناء مروره بأراضي سرقسطة (٦٠) . اما الفونسو السادس غازي طليطلة فيقدم له ابن بسام وصفا في معرض ذكره لمقابلة وفد من طليطلة له فيقول : « وجعلوا ينظرون اليه وهو يضفت ثقامة راسه ، فما نسوا ذفر اظماره ودرن اظفاره » (٦١) . ورغم ان الصيغة ادبية قد يكون فيها مبالغة على حساب المعنى ، الا انها تدل على انطباعهم بقدارته ، خاصة اذا تذكرونا مفهوم النظافة والتنظيف لديهم وكما يظهر لنا من مراحل غسل الناس لايديهم بعد الطعام ، في حفلة اعدار حفيد ابن ذي النون .

وفي مجال الحياة الثقافية ، يذكر مينيندث بيدال ان اكبر المكتبات لديهم كان فيها قرابة مائتي كتاب ، وهو أمر يستدعي للذاكرة مكتبة الحكم ذات الاربعمئة الف مجلد وكون اكبر مكتبة لهم تحوي كتباً تعادل نصف ما كتبه ابن حزم ، المعاصر لهم . ويصبح التناقض صارخاً اكثر ، اذا انتقلنا للمضمون ، فبينما حفلت مكتبات القصور

والافراد العرب المسلمين بالعلوم في شتى نواحي المعرفة ، نجد اكثر كتب هذه المكتبة دينيا ، ومن نوع كتب الطقوس والمواعظ ، لا من كتب فلسفة العقيدة ومناقشتها . اما محتوياتها من مؤلفات الثقافة القديمة ، فقاصرة على كتب بعض الشعراء دون كتب الفلسفة ، وحتى هذه حوربت من الطريقة الديرية الكلونية ، التي بدا تأثيرها يتعاظم في البلاط ، حتى ان أحد كبار المصلحين فيها انتهى من تأملاته حول الشاعر فيرجيل الى نتيجة مفادها ان شعره جميل لكنه مثل كأس جميل يحتوي حشرات . لهذا استبعدت مؤلفات الكتاب غير الكنسيين من المكتبات الجديدة التي انشئت . واذا انتقلنا الى انتاج الفترة من مؤلفات تتشابه نوعا بين البلاطين ، نرى ان كل ما انتج في بلاط مملكة ليون في هذه الفترة في ميدان التاريخ لا يتعدى خمس عشرة صفحة ، كتبها سامبيرو ، كاتب الفونسو الخامس ، لتسجيل تاريخ (١١٦) سنة سابقة ، تميزت ، عدا عن ضالة الحجم ، بفقر شديد في المضمون ، اذ لم تحو الا معلومات عامة بصيغة ضبابية تذكر فيها احداثا مجردة من اطاري الزمان والمكان . بينما ارخ المؤرخ المعاصر ابن حيان لعصره الاقصر زمنا بكثير ، في ستين مجلدة ، يبدو فيها ، اضافة للصياغة الراقية الدقيقة ، توافر اكثر العناصر التي يتطلبها البحث التاريخي الحديث ، من تأمين المصدر المناسب ، حتى التفسير والتعليل .

يظهر الفارق نفسه ، اذا انتقلنا للعمارة والمجال الفني ، فاهم ما بناه هؤلاء في ماصمتهم ليون كان كاتدرائية سان خوان ، بناها الفونسو الخامس بالطين والاجر ، ثم جدد فرناندو الاول البناء وجعله من حجر . ومع ذلك فقد بقيت عبارة عن مبنى فقير جدا ، اذا ما قورن بالمسجد الجامع في قرطبة ، او بما بناه ملوك الطوائف من قصبات وقصور (٦٢) . في هذا الجو الذي يسوده التقشف والبساطة ، يبدو الحديث عن بلاط عامر بالترف واللهو غير ممكن ، فساد لديهم الاهتمام بالحرب ، وكان فراغ فرناندو الاول يسد بمعاشرة الرهبان ، الذين كانت عشرتهم مبعثا لسروره ، وكذلك تلاوة الاناشيد الدينية معهم .

الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) وتطبيقها .

انقلب البحر الابيض المتوسط لميدان صراع ، بعدما اتم العرب المسلمون فتوحاتهم اواخر القرن الاول للهجرة / اوائل القرن الثامن للميلاد ، وذلك بين العرب من جهة ، واوروبا المسيحية من جهة اخرى ، وقادته قوتان : الدول الجرمانية كقوة عسكرية ودنيوية ، والبابوية كقوة روحية وثقافية . وقد راسبانيا ان تكون ميدانا لتواجد ممثلي الطرفين واحتكاكهما (٦٣) .

وكان على العرب المسلمين في عصر الطوائف ان يجابهوا هجوما من الطرفين ، المحلي والاوربي . فالبابوية كانت تنظر للصراع ضمن ميدانه الواسع ، الذي تدخل فيه اسبانيا . وهكذا قام البابا الكساندر الثاني عام ١٠٦٣ م / ٤٥٦ هـ ، اي قبل ثلاثين عاما من توجه أول حملة صليبية الى فلسطين ، بتقديم وعد بالخلاص من الخطايا والبراءة من الذنوب لكل من يشارك في حرب صليبية ضد العرب المسلمين في الاندلس . وتجمع جيش أغلبه من الفرنسيين والنورمانديين ، وانضم اليهم فرسان ايطاليون . وبعض المحاربين الاسبان من مناطق الشمال (٦٤) ، وهاجم برشتر فقاومت وحاربت المهاجمين في خارجها . لكن تعرف هؤلاء على السرب الذي يدخل منه ماء النهر الى المدينة ، وسده ، جعل المدينة تعرض للاستسلام مقابل الامان للانفس ، فرفض الطلب . ثم دخل المهاجمون البلد عنوة وقتلوا من أهلها الا فائ ثم امروا الباقين بالخروج من المدينة ، وبعد ذلك تغير الامر ليصبح عودة كل واحد الى بيته ، فقسمت البيوت ومن فيها على المحاربين وتركت لكل منهم الحرية بأن يفعل ما يشاء بمن وقعوا في حوزته . لم يكن هذا أول احتلال لبلد اندلسي . لكن كل ما حدث سابقا كان من قبل اسبان ينالون ما ينالون بانفاق مع صاحبه كثر من لمساعدة ، او انهم كانوا يتفقون مع طرف من أهله ، لكن هذا كان أول احتلال بهجوم من اغراب ، كما ان ما حصل فيه من أعمال شنيعة أحدث ردة فعل عارمة في الاندلس كلها . وهذا ما يفسر تقاطر النجدات على المقتدر بن هود ، فاجتمع لديه جيش لم يعرف عصر الطوائف له مثيلا من قبل في العدة والعدد ، حتى قيل ان فيه ستة آلاف من الرماة العقارة . وتمثلت خطة الهجوم عليه بقيام الرماة بالرمي على السور تغطية لعمل النقابين تحته ، والذين توصلوا لفتح الثغرة فيه ودخلوا منها وابادوا الحامية كلها تقريبا ، وكانت مكونة ، حسب قول ابن حيان ، من الف فارس واربعة آلاف راجل ، بعد ان بقي بايدي الروم قرابة سنة كاملة ، بدءا من جمادى الاولى ٤٥٧ هـ / اب ١٠٦٤ م (٦٥) .

اختلف التوسع الاسباني على حساب العرب المسلمين فيما يسمى بحرب الاسترداد ، عن التوسع الاوربي ، اذ لم يكونوا على وعي ظاهر بالبعد العالمي لصراعهم مع العرب المسلمين ، وانما كان البارز لديهم البعد الوطني او القومي ، المتمثل بايمانهم بأن اسبانيا واحدة ، وتشمل شبه الجزيرة الايبيرية ، وانها كانت مسيحية كاثوليكية يحكمها القوط ، ويجب ان تعود الان لحكم ملوك ليون الذين اصبحوا منذ زمن يعتبرون انفسهم خلفاء للملوك القوط ، وفي اتخاذهم لقب امبراطور ، أي رئيس ملوك شبه الجزيرة ، تعبير عن ذلك . وقد ظلوا يكررون الفكرة ذاتها سواء زمن فرناندو الاول او ابنه الفونسو السادس ، فقال الاول لوفد من اهل طليطلة « انما

نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول امركم ، فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا الان عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكتناكم معنا بعد اليوم » وقال مبعوث الفوتسو كلاما في نفس المعنى للامير عبد الله « انما كانت الاندلس للروم في أول الامر حتى غلبهم العرب » (٦٦) .

ولم يكن الاسترداد في نظرهم هدفا مثاليا بل هدفا يحقق لهم غنى ماديا ، لان ما بيدهم من الجزيرة حسب قول سفير الفونسو السادس هو ان (العرب الحقوهم بأبخس البقاع جليقية) . كما ان نفوسهم شرهت للذهب والمعدن الثمين والنفائس . وكان العرب يدركون ذلك ، بدليل نصيح بعضهم للمأمون بن ذي النون بالا يحول تقرر الفضة لديه الى آنية ثمينة خشية رؤية الجليقيين لها واثارة طمعهم .

أما من الطرف الآخر ، فقد كشف ذلك حتى لعامتهم ، اذ ان القرطبيين أول الفتنة استأجروا اسبانا لمساعدتهم ضد المغاربة مقابل ذهب ، فكان الفارس ينال ، عدا شرابه وطعامه ، دينارين في اليوم . وينال القومس أو القائد مائة دينار . وعندما شكوا أهل طليطلة لفرناندو عجزهم عن تقديم ما يطلبه من مال ، كان جوابه « لو كشفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهبا » .

من ناحية ثانية كانوا يرون ان الساعة لتحقيق مطمحهم قد أزفت ، اذ زالت هالة المجد والقوة والتقدم ، التي كانت تحيط بالعرب المسلمين في اذهانهم ، بعدما اختلطوا بهم . وقد قال أحد رؤساء الجند لدى أهل قرطبة « كنا نظن ان الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة واذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وان ما اتفق لهم من الظهور والنصر كان بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف امرهم » (٦٧) . كما ان الحالة الحربية لجند الطوائف كما رأينا كانت معروفة لهم وللعرب المسلمين أيضا ، حتى قال ابن حيان « وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له ، فلا يكاد احد منهم يلقي نصرانيا في قرار من الارض الا ويوليه الدبر ، غير مستحي من الله من الفرار أمامه ، حتى تعود أعداء الله ذلك منهم » (٦٨) .

رغم ذلك لم ير الملك الاسباني الاكتساح المباشر والاجهاز على حكم الملوك العرب المسلمين كما فعلت الغزوة الصليبية ، بل كان أعمق من أولئك بكثير لمعرفته باوضاع شبه الجزيرة ، ولمعرفته بأحوال العرب المسلمين من الداخل ، بفضل ما توافر له من معارف عبر مداخلات بني قومه معهم ، وعبر الاشخاص الذين انتقلوا لخدمته من بلاطات ملوك الطوائف ، مثل شيشلاندا . لذلك كانت له خطة عامة لتحقيق الهدف ، او خطة استراتيجية كما نقول في عصرنا الحديث ، وخطط مرحلية ،

تقوم الاولى على أساس أنه من غير المجدي الاكتساح ، بسبب الفقر السكاني في المناطق الاسبانية ، اذ ان الهجوم المباشر يفني الرجال والاموال ، واذا احتل البلاد وابقى سكانها فهو لا يأمن خضوعهم ، واذا طردهم لم يجد من يعمر الارض . لذلك كانت خطته العامة ان يخضعهم للجزية ويضرب بعضهم ببعض فيفتقرون ويضعفون ، ويفنى هو ويقوى . وما بين الحين والاخر ينهك جزء من بلادهم فيلقي بنفسه دون قتال أو تعب ، ويكون قادرا على هضمه وابتلاعه .

ليست لخطة المذكورة ، العامة او المرحلية ، من استنتاج مؤرخ حديث ، بعد استقرار الحوادث وسلوك الفونسو السادس ، وانما ذكرها الامير عبد الله المشارك في الاحداث ، الذي يؤكد بدوره ان هذا ليس استنتاجا منه ، وانما كانت سياسة مقررة في بلاط الملك الاسباني ، بعد مداولات مع رجاله ، لذلك يقول الامير « كنا نعلم هذا من مذهبه على ما كان يخبر به وزراءه . ولقد قال شيشلاند في حال هذه السفارة وشافها بذلك ، وقال : هم الان عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال اخذناها بلا تكلف » (٦٩) .

تجاه ذلك الذي انكشف للوك الطوائف من خطط اعدائهم ، لم يستطيعوا ابداع تصور ، او وضع خطة مقابلة يلتزمون بها ، بل كانوا يمارسون سياسة يومية دون آفاق بعيدة ، ويجدون ملجأ بالتوكل على فرج يأتي من الله عز وجل ، حسب قول الملك المذكور « فكان الجميع يساير الامور ويدافع الايام ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين » .

تطبيق خطة اخذ الجزية :

كانت طوائف الثغور قد خضعت لدفع الجزية منذ ايام فرناندو الاول . وعم ابنة هذا النظام على شبه الجزيرة كلها ، فخضع لها بنو ذي النون في طليطلة ، وبنو عباد في اشبيلية ، واخيرا الزيريون في غرناطة وعلى المضيق . وكانت عبارة عن دفعة اولى كبيرة ، نعرف منها الذي فرض على غرناطة وقدره ثلاثون الف دينار ، ثم جزية سنوية قدرها عشرة آلاف . وكان الملك الغرناطي خلال المساومة على المبلغ ، يقدم اعترافا بان كل ما يملك مرده لالفونسو « فخذ ما تقدر عليه واترك رمقا لا نستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا ما طلبت » .

اما على المستوى السياسي ، فكان دفع الجزية مرفقا بحماية الفونسو لمن

يدفع « ووعدنا انه يحامي عنا كما يحامي عن بلده » ، وكذلك الاعتراف به كحكم ، فعند عقد اتفاق بين غرناطة واشبيلية تم بوساطة منه وبضمانته « ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه » .

عندما أصبح الملك الاسباني في هذا الموضع تسابق الجميع لنيل الحظوة لديه عن طريق تقديم الهدايا له وتقديم ما يحتاجه في الازمات . فعندما حاصر طليطلة لاعادة يحيى بن ذى النون اليها ، هاجمه الشتاء ، وانعدمت الاقوات في معسكره ، فهب ملوك الطوائف الآخرون لتزويده بالمؤن (٧٠) . ويظهر ان هذا التقديم كان يتم سرا ، بينما يظهر الجميع علنا تعاطفهم مع اخوانهم في الدين أهل طليطلة ، مما جعل هؤلاء يطمعون في عونهم . لكن الفونسو اضطر لفضح هذا الامر كي لا يطول الحصار . وكان ذلك عندما طلب أهل طليطلة الذين عضهم الحصار من محاصريهم ، حسب عادة مرعية في تلك العصور ، ان يسمح لهم بهذبة يطلبون خلالها من الطوائف الآخري عونها ، فان لم تفعل سلموا له المدينة . فصار يسألهم عن سيطلبون عونه ، وكلما ذكروا له ملكا من الملوك استدعى رسله ، حاملي المؤن اليه . فاسفط في يد مبعوثي أهل طليطلة واخبروا أهل مدينتهم بذلك ، فاستسلمت المدينة . وزاد تهافت ملوك الطوائف على نيل رضاه ، وصار يفخرون بأي اشارة دالة على ذلك . والحادثة المشهورة لديهم في هذا المجال هي ان حسام الدولة ملك شنتمرية الشرق (السهلة) تلقى من الفونسو السادس ، مقابل هديته الثمينة له ، قردا ، فكان يفخر بذلك ويعتقد انه دليل آمن .

من ناحية أخرى كان الفونسو السادس حريصا ، عند تطبيق اي خطة مرحلية ، ان تتم بشكل لا يمس بسلامة الخطة العامة ، أو يعرقل تنفيذها . فعند طلبه من أمير غرناطة الجزية ، وامتناع هذا الأخير عن تقديمها اول الامر ، عرض عليه ابن عمار ، وزير المعتمد ابن عباد ، ان يساعده على اخذها ويكون له ما بها من اموال ويدفع عنها خمسين ألف دينار . لكن الفونسو استخدم العرض للتهديد والمساومة وتظاهر بقبوله ، ثم قبل من أمير غرناطة ثلاثين ألفا كدفعة أولى وعشرة الاف كل سنة ، وعلل الأمير عبد الله ذلك بأنه لا يريد ان يعطيها للمعتمد بن عباد ، اذ سيتقوى بها ويصبح اخضاعه أكثر عسرا عليه .

ضمن هذه السياسة ، وبعد دخول ابن ذى النون طليطلة بمساعدته لعجزه عن كبح جماح الثورات ضده ، وجد الفونسو الفرصة حانت لقضم مملكته ، وكان رأي الوزير شيشلاند ، ان في هذا تسرعا سيجد فيه ملوك الجزيرة تهديدا ، وذلك بقوله

على لسان ابن بسام « ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستفني عنهم ، ولا تجد عمالا اطوع منهم ، فانك ان ابيت الا الالحاح عليهم والتسرع بالمكروه اليهم نفرتهم عن ذراك واحوجتهم الى مداخله سواك » وهذا ما حصل ، اذ ان احتلال طليطلة وما حولها جعل ملوك الطوائف يرون في ذلك تحولا من الحماية الى نل العروش واحتلال البلاد ، في وقت كان الفليان سائدا بين الناس ، والانظار متوجهة الى ما وراء المضيق لطلب العون من المرابطين ، فتم ذلك ونزل المرابطون ليقفوا المد الاسباني ، ثم ليقتضوا على ملوك الطوائف ويجعلوا الاندلس جزءا من دولتهم المغربية .



الحواشي :

- (١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، (القاهرة ١٩٤٥) ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٩-١١٠ .
- (٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق بروفنصال ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .
- (٣) ابن حزم ، نطق المروس ، ص ٥٠ .
- (٤) ابو الحسن النباهي ، الرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٥) الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٢ - ١٣ .
- (٦) الامير عبد الله الزيري ، التبيان في الحادثة الكائنة على بني زيري ، تح. بروفنصال ، ص ٦٢-٦٣ .
- (٧) الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٦٩ .
- (٨) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .
- (٩) الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ و ١٢٨ .
- (١٠) المصدر السابق ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .
- (١١) التبيان ، ص ٢٢ .
- (١٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .
- (١٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
- (١٤) ذخيره ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٢٧ .
- J.V. Bermejo, Saqut al Barguati Al-Andalus, Vol. XXIII, (1963), p.201
- R. Menendez pidal, Espana del cid, Vol. 1, P. 284-285. (١٥)
- (١٦) الحميري ، الروض المطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٥٢٨ .
- (١٧) المصدر السابق ص ٥٩ و ٣٤٢ - ٣٤٤ .
- (١٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
- (١٩) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٨ .
- (٢٠) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١٠ .
- M. Al-Abbadi, Los esclavos en Espana, Madrid, 1953. (٢١)
- (٢٢) رواية الوراق عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢٣) رواية ابن حيان عند ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق منان ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢٤) التبيان ، ص ٢١ .

(٢٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢٦) التبيان ص ٢ .

R. Menéndez Pidal, op. cit, p. 92

(٢٧)

(٢٨) الروض المطار ، ص ٩٢ و ٩٤ .

(٢٩) الطري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣٠) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٣١) المقرئ ، النفع ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٦ .

(٣٢) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣٣) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٥٤٢ .

(٣٥) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣٦) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣٧) الطري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٦ .

(٣٨) التبيان ، ص ١١٦ .

(٣٩) ابن يشكوال ، الصلاة ، ت ٨٦٥ . اللخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ .

M. Asín Palacios, un código inexplorado Cordobés ibn Hazm, Al-

(٤١)

Andalus. Vol. II, 1934. pp. 1-56.

(٤٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، تحقيق منان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٤٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٢ - ٤ ، ص ٨٠٢ - ٨٠٨ .

(٤٤) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٤٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٦ .

- (٤٦) الخشنى ، فضة قرطبة ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
- (٤٧) ابن حزم ، طوق العمامة ، ص ٤٤ .
- (٤٨) ابن عشارى ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .
- (٤٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .
- (٥٠) ابن عشارى ، ص ٢٠٨ .
- (٥١) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٥ .
- (٥٢) القري ، النفع ، ج ٥ ، ص ٢٠٢ و ٢٢٦ - ٢٢٧
- Diccionaria Historica Espanol, Arts, Alfonso VI, Y Fernando I. (٥٣)
- الطري ، توضيح الاخبار ، ص ٨٦ (٥٤)
- Sanchez Albornoz-Espana, un Enigma Historico, Vol. I, pp. 114-117. (٥٥)
- Diccionario Historico Espanol, Vol. II Arts, Fernando I. (٥٨)
- R. Menendez pidal, op. cit. (٥٧)
- Mayer, Historia de las instituciones Espanoles, p. 106. (٥٦)
- Alfonso VI, Y su hermano la infanta urroca, Al-Andalus, Vol. XIII, (٥٩)
- (1948), pp. 150 - 681.
- (٦٠) اللخيرة ، ق ١ ، م ١ ، ص ١٥٥ .
- (٦١) المصدر السابق ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٢٩ .
- R. Menendez piad, op. cit, p. 83 (٦٢)
- (٦٣) المصدر السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .
- J. Read, the Moors in Spain and portugal, p. 103 - 104. (٦٤)
- (٦٥) ابن طاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .
- (٦٦) التبيان ، ص ٧٢ .
- (٦٧) ابن طاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .
- (٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .
- (٦٩) التبيان ، ص ٧٢ ،
- (٧٠) اللخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٢٨ .

لمحات من تاريخ أيلة «العقبة» في العصر الإسلامي

د. صالح دراركة

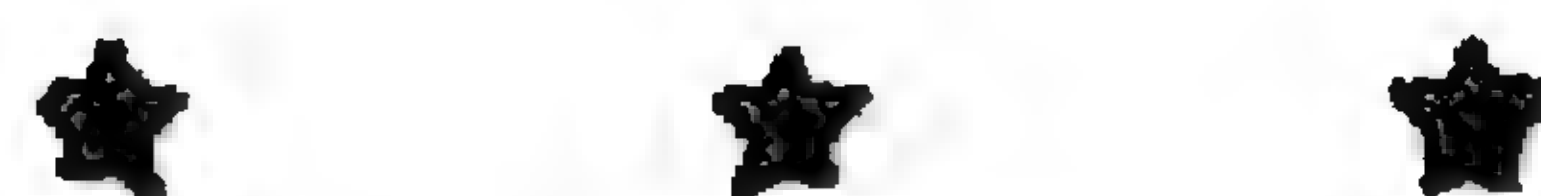
الجامعة الاردنية

تذكر المصادر العربية ايلة كثيرا عند الحديث عن الامور التجارية والسياسية لمنطقة جنوب الاردن ، والحجاز ، وشمال البحر الاحمر ، ففيها تلاقت قديما السلع المختلفة من الصين والهند وبلاد العرب وافريقيا واوروبا . وهذه الاهمية لايلة اكتسبتها من موقعها الهام كحلقة وصل في العالم القديم ، ولذلك استفادت الامم التي سيطرت على هذه المنطقة من ايلتها واستخدمتها في الأغراض الاقتصادية والعسكرية .

وعلى الرغم من هذه الاهمية لم تحظ ايلة بدراسة شاملة وجادة تتناسب وتاريخ هذا الثغر عبر العصور .

وقد قامت بعثة المدارس الامريكية للدراسات الشرقية في الاعوام ١٩٣٨ - ١٩٣٩ بحفريات في موقع ، تل الخليفة ، القريب من العقبة الحالية (١) ونشر جلدن (٢) وموسل (٣) بعض الدراسات حول « ايلة » . غير أن ما نشره جزئي ولا يعالج الا نواحي خاصة من ايلة في فترات تاريخية قصيرة ومحددة . ولذلك بقي تاريخ ايلة بحاجة الى دراسة شاملة .

تحتل العقبة اليوم مكانة هامة في الاقتصاد الاردني واقتصاد الاقطار المجاورة ، الامر الذي حفزني على محاولة القيام بالدراسة التاريخية المطلوبة لهذا الثغر ذي التاريخ الطويل ، آملا أن أستطيع قضاء بعض حق لهذه المدينة او ان الفت نظر الباحثين نحوها ، وفي كلتا الحالتين خدمة للمكتبة التاريخية العربية . والله من وراء القصد .



١ - ذكر الجغرافيون العرب « أيلة » وضبطوا اسمها فجعلوه على وزن فعلة ، وحددوا موقعها على ساحل بحر القلزم ، وقالوا هي آخر الشام وأول الحجاز ، وآخر الحجاز وأول الشام ، يجتمع فيها الحجاج ، وذكروا أن فيها زروعاً وتجارة وسمكها (٤) .

أما المقدسي فسمّاها ويلة وقال : هي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة (٥) واعتبرها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز ، وقال : العوام يسمونها أيلة ، وأيلة قد خربت على قرب منها ٦٠ وذهب إلى أنها هي التي قال الله فيها : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » (٧) .

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية الوارد ذكرها في الآية السابقة ، فقليل هي أيلة وقيل مدينة بين أيلة والطور وقيل طبرية ، وذهب بعضهم إلى أنها ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها « معناة » (٨) .

ووصف المقدسي مجتمع ويلة قائلاً : « وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادان ، وأضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأبطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم » (٩) .

وهذا يشير إلى أن سكان أيلة في القرن الرابع الهجري كانوا خليطاً من الشاميين والحجازيين والمصريين ، وقد يكون التنازع نتيجة التنافس التجاري . ويبدو من كلام المقدسي أن الإيليين تأثروا بأهل الشام أكثر من غيرهم ، ويعود ذلك إلى أن أيلة كانت تتبع فلسطين في أغلب العصور .

وقد اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم ، ففريق ذهب إلى أن « أيلة » اسم لجبل برصوى ، وهو غير المدينة المذكورة ، أي جبل ينبع بين مكة والمدينة واستشهد بشعر القائل :

من وحش أيلة موشي أكارعه

والوحش لا ينسب إلى المدن ، وفي هذا المعنى أيضاً قال كثير عزة :

رايت واصحابي بأيلة موهنا	وقد غار نجم الفرقد المتصوب
لعزة ناراً ما تبوخ كأنها	إذا ما رمقناها من البعد كوكب
تعجب اصحابي لها حين أوقدت	وللمصطفىها آخر الليل تعجب
إذا ما خبت من آخر الليل خبوة	أعيد لها بالمندلي فتقرب (١٠)

وفي مكان آخر من شعر كثير نجد أنه استعمل لفظ « أيلة » ، للدلالة على جبل ،
فقد قال :

ولو بذلت أم الوليد حديثها لعصم برضوى أصبحت تتقرب
تهبطن من أركان ضاس وأيليه إليها ولو أغرى بهن المكلب (١١)

وهناك من يرى أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى « أيلة » بنت مدين بنت
إبراهيم الخليل عليه السلام (١٢) .

وفي لسان العرب لابن منظور : « أيل » اسم جبل ، واستشهد بقول الشماخ :

تربع أكناف القنان فصارة فأيل فالماوان فهو زهوم (١٣)

وأما ما يدل على أنها اسم بلدة فقول ابن الأعرابي :

فاتكم والمك يا أهل أيلة لكاتبسي وهو ليس له أب (١٤)

والأيل هي ذكر الأوعال من الفزلان . ولا شك أن منطقة أيلة كانت من الأماكن
التي نكثرت بها الوعول والفزلان . وذهب البيهقي إلى أن الأيكة اسم جامع للأرض
التي فيها مدينة أيلة ومدين (١٥) .

وفي النص العبري للتوراة جاء اسمها « أيلوت » . وفي الترجمة العربية للتوراة
« أيلة » ولا نعلم مدى العلاقة اللغوية بين اللفظ « أيلة » و « أيلوت » و « أيلات » . غير
أننا نرى أن « أيلة » لفظة عربية . ويرى بعض الباحثين المحدثين أن لفظة أيلات
معروفة أيضاً عند الشعوب السامية ، فزوجة الإله بعل عند الفينيقيين تسمى « أيلات »
وهي المعروفة كذلك بـ « عشيرة البحر » والتي يطلق عليها لقب الأم الإلهة (١٦)
وتعني (أيلات) بالعبرية « بيت الإلهة » . وجاء في التوراة أن سليمان بن داود (١٠٠٤) -
٩٦٨ ق م) بنى عيصون جابر قرب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم (١٧) .
كما ذكرت التوراة أن عزيا ملك يهوذا بنى أيلة وردها ليهوذا (١٨) . ويستفاد
من التوراة أن العرب وبعض الأقوام الساكنة قرب أيلة كانت تهاجم مملكة يهوذا . كما
أن الصراع مع الأيلوميين كان مستمرا (١٩) .

٢ - وأطلق اليونان على أيله اسم « Elana » إيليانا وكانوا يسمون خليج
العقبة الحالي « Aleantic Gulf » (٢٠)

وعندما استولى البطالمة على مصر ، دخلت منطقة جنوب فلسطين والأردن في الصراع بين البطالمة والسلوقيين ، ووقعت أيلة بيد البطالمة الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين إلى موانئ البحر الأحمر وأفريقية كما كان يستقبل السفن القادمة من أفريقية والمحيط الهندي ، وقد أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يهددهم من جراء النشاط التجاري البحري للبطالمة ، فتحرشوا بهم وتعرضوا لسفنهم في البحر مما جعل البطالمة يفكرون جدداً بوسائل تمنع الأنباط من مهاجمة السفن ونهب حمولاتها ، فبنى فيلادلفوس مدينة برنيسي **Berenice** على خليج العقبة لحماية التجار من هجمات الأنباط ، كما أنشأ بطليموس (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) قوة بحرية لحراسة السفن البطلمية ، وبذلك تمكن من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة . وقد ازدهرت أيلة في الفترة الهيلينية حتى أنسا نجد إيراثوسثنس **Eratosthenes** (٢٧٥ - ١٩٤ ق.م) يقول : أيلة أهم مدن بلاد العرب التجارية (٢١) . واحتفظت أيلة باسمها في العهد الروماني لأنها كانت معروفة به قبل احتلال الرومان للمنطقة العربية (٢٢) .

وقد ازدهرت تيماء وأيلة وسلع في شمال الحجاز وجنوب فلسطين في فترات من العهد الروماني ، إذ كانت مراكز للقوافل التجارية الكبرى منها تسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج إليه (٢٣) .

وبعد احتلال الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨ - ١١٧ م) بتراء عاصمة الأنباط سنة ١٠٥ ، ١٠٦ م كون ما يسمى بالمقاطعة العربية **Provencia Arabia** ثم أحدث تغييرات مهمة في الإدارة وفي طرق المواصلات وأصول الجباية ، فأنشأ طريقاً مهماً من « أيلة » حتى رأس خليج العقبة مارة بالبتراء إلى بصرى قدمشق . وصارت بصرى محطة مهمة جداً للقوافل القادمة من اليمن والحجاز ، وأصلح تراجان القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأحكم احتكار الرومان للتجارة البحرية التي كانت مصدر كل غنى وثراء (٢٤) .

وفي القرن الثالث الميلادي قسمت المقاطعة العربية إلى كورتين : كورة شمالية عاصمتها بصرى وعرفت بـ « كورة بصرى » ، وكورة جنوبية عاصمتها بتراء وعرفت باسم كورة بتراء (٢٥) .

أما في القرن الرابع الميلادي وفي حوالي ٣٠٧ م تقريبا اقتطع من الكورة الجنوبية بعض المدن مثل « أيلة » و « Phainon » فينون أو فينان حالياً (٢٦) ، والحققت بفلسطين وبذلك توسعت رقعة فلسطين . ويظهر أن الضرورات العسكرية هي التي دفعت إلى أحداث هذه التغييرات ، فقد كانت الطرق الحربية تصل من أيلة إلى سورية وفلسطين ولهذا أصبحت هذه المدينة معسكراً للجيش الروماني (٢٧) .

وفي العهد البيزنطي دخلت المنطقة العربية في الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين ، لذلك اختط يوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) خطة لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها ، وهي الاتصال المباشر بالاسواق الرئيسية المصدرة ، ونقل المشتريات الى الامبراطورية بطريق البحر الذي كان يسيطر الروم على اعاليه . لقد كان ميناء « ايلة » في ايدي البيزنطيين ، وكان فرضة حافلة تقصدها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وتأتيها من البر قوافل الشام (٢٨) .

استقرت النصرانية في ايلة منذ عهد مبكر حيث تنصر معظم سكانها ، واشترك اساقفتها في النشاط الكنسي ، فقد كان « بطرس » اسقفها من بين الذين وقعوا قرار مجمع نيقية (٣٢٥ م) وكان اميرها قبل يوحنا بن روبة اوريون النصراني (٢٩) كما كانت في القرن الرابع الميلادي مقرا لابرشية حضر مطارنتها بعض الجامع الكنسية ، ومنهم المطران « غوث » وكان في رأي الاب شيخو عربيا ، حضر المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١ م (٣٠) .

ومات في ايلة سنة ٥١٣ م ، القديس « ايليا » وهو عربي الاصل سكن مدة في احد الاديرة الواقعة على ضفة نهر الاردن اليمنى ثم رقي الى رتبة البطريركية (٣١) . ولما تضعفت قوة بيزنطة على تخوم « ايلة » كسدت تجارتها لان « ايلة » والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الامراء من بني غسان (٣٢) .

وفي بعض الاحيان كانت ايلة تقع تحت سيطرة القبائل البدوية . وكان شيوخ هذه القبائل يحكمون وكانهم عمال روم « فيلارك Phylarchus » ، بعضهم يحكم اراضي صغيرة ، ويصمل اتباعهم بالرعي وبعضهم بالزراعة وآخرون بالتجارة والبعض اعراب يتنقلون في البادية ، والذين كانوا يقطنون ساحل العقبة كانوا اشباه اعراب ، ينتهزون الفرص المؤاتية ويشتغلون بالتجارة لحسابهم او لحساب غيرهم او يقدمون الخدمات للتجار مقابل جعل معين (٣٣) .

ومن اشهر القبائل التي استوطنت منطقة ايلة قضاة التي امتد نفوذها ما بين الشام والحجاز الى العراق ، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك (٣٤) . وامتدت مواطن جذام من ايلة شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل (٣٥) ، وبلغ من نفوذ جذام ان المصادر تذكر لهم رئاسة في معان ، وان بطن بني النافرة من نفاة من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا فروة بن عمرو بن النافرة عاملا لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وتزعم بعض المصادر ان فروة هذا هو الذي بعث الى الرسول « ص » باسلامه واهدى له بغلة بيضاء مما جعل

قيصر ينقم عليه فأغرى به الحارث بن أبي شمر الفسائي ملك غسان فأخذه وصلبه
بفلسطين (٣٦) . ونظرا لقلبة جذام على منطقة أيلة ذهب بعض المؤرخين إلى أن
يوحنا بن رؤبة ، صاحب أيلة ، الذي صالح الرسول « ص » هو من جذام (٣٧) .

والى جانب امتداد جذام كانت قبيلة جهينة التي كانت ما بين ينبع ويشرب
في متسع من بركة الحجاز إلى عقبة أيلة (٣٨) . والى جانب امتداد جهينة كانت
مواقع قبيلة بلي (٣٩) .

وفي غمرة الصراع بين آل حجر الكندي والفساسنة كانت أيلة خارج هذا
الصراع ، مع أنها تعتبر ضمن المنطقة التي شملها نفوذ غسان . وربما كان ذلك عائدا
إلى المكانة الخاصة لمدينة أيلة عند الروم الذين أقاموا بها حامية رومية واشرفوا
عليها اشرافا مباشرا .

اتسع نفوذ الفساسنة اتساعا كبيرا شمل ما بين أيلة ولبنان وهذا ما يفهم من
شعر حسان بن ثابت يمدح به آل النعمان (٤٠) :

ملكا من جبل الثلج السى جانبي أيلة من عبد وحر
من يفر الدهر أو يأمنه من قتل بعند عمرو وحجر

وقد تعرض الشعراء لأيلة في اشعارهم يذكرون موقعها تارة ويشيرون إلى بعض
الاماكن المتصلة بها تارة أخرى ، كما اشاروا إلى نباتاتها وزروعها ودنانيرها ، ففي
ارجوزة طويلة للحسين بن قبيصة المحرمي الجذامي جاء :

وعزلت أيلة والبحر المضم عنها يمينا وتعددت في الاتسم (٤١)
وعزلت حزم ردام ذا الثلم عنها يمينا وتياسرت للام
وصبحت نعمى واكواز النعم (٤٢)

وذكر في بعض الاشعار أن شجر الدوم كان بأيلة ، فقد ورد منسوبها لأيلة .
فمما أخذ على حميد بن ثور الهلالي ، وقيل على ابن الطمحان القيني ، قوله :

لما تخاللت الحمول حسبتهما دوما بأيلة ناعما مكموما (٤٣)

وضرب بعض الشعراء المثل بدنانير « أيلة » : فهذا أحيه بن الجلاح يرثي
ابنه قائلا :

إلا ان عيني بالبكاء تهلل
فان تعتريني بالهزاة كناية
فما هبرزي من دنائير ايلة
باحسن منه يوم اصبح غاديا
جزوع صبور كل ذلك يفعل
فليلي اذا امسى امر واطول
بأيدي الوشاة ناصع يتاكل
ونفسي فيه الحمام المعجل (٤٤)

وكانت ايلة مجتمعا تتلاقح فيه الافكار اليونانية والمسيحية والعربية ، فهي مركز من المراكز الرومانية ، وهي ايضا اسقفية مسيحية ، وهي قريبة من الحجاز حيث كانت الاسواق العربية تنعقد دوريا وتتحول الى مهرجانات ادبية وثقافية . تمثل كل النزعات السائدة قبيل الاسلام ، فهي لم تشتهر اقتصاديا فحسب بل اشتهرت كمركز من مراكز الثقافة المرموقة في بلاد العرب (٤٥) .

٣ - برز اسم « ايلة » في التاريخ الاسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بحكم موقعها كبوابة لبلاد الشام . والتي كان سيطرتها المسلمون في توجههم نحو الشمال . ففي اعقاب غزوة تبوك - اي في السنة التاسعة للهجرة - عقد الرسول صلحا مع يحنه بن رؤبة صاحب ايلة (٤٦) وقد اوردت المصادر كتاب الصلح بخلاف يسير . وتذكر هذه المصادر ان يحنه « يوحنا » بن رؤبة هو الذي قدم على الرسول في تبوك وطلب ان يصالحه مقابل دفع الجزية (٤٧) ، الامر الذي يدفع الى التساؤل عن اسباب ودوافع قدوم صاحب ايلة ليدفع الجزية للرسول ، وايلة مدينة عامرة وجيليلة ومعظم سكانها من النصارى !

ويبدو ان يحنه بن رؤبة لم يقدم طائعا مختارا ، فقد اثبتت المصادر رسالة بعث بها الرسول الى يحنه وسرواات اهل ايلة ، يستفاد منها ان قدوم الوفد الايلي انما كان بفعل التهديد الذي تضمنته رسالة الرسول هذه والتي ادت مع عوامل اخرى الى كتاب الصلح بين الرسول واهل ايلة ، وجاء في الرسالة :

« سلم انتم فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو فاني لم اكن لقاتلكم حتى اكتب اليكم ، فاسلم او اعط الجزية ، واطع الله ورسوله ورسول الله واكمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الفزاء (٤٨) . واكس زيدا كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت وقد علم الجزية فان اردتم ان يامن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم الا حق الله وحق رسوله وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى اقاتلكم فأسبي الصغير واقتل الكبير فاني رسول الله بالحق أو من بالله وكتبه ورسوله وبالمسيح بن مريم انه كلمة الله واني أو من به انه رسول الله وات قبل ان يمسكم الشر فاني قد اوصيت رسلي

بكم واعط حرملة ثلاثة اوسق شعيرا وان حرملة شفع لكم واني لولا الله وذلك لم ارسلكم شيئا حتى ترى الجيش وانكم ان اطعمتم رسلي فان الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وان رسلي شرحبيل وأبيّ وحرملة وحريث بن زيد الطائي (٤٩) فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله والسلام عليكم ان اطعمتم وجهزوا اهل مقنا الى ارضهم « (٥٠) » .

ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة ، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في مؤتة ، وتجمع الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام لحرب المسلمين (٥١) . فكان لا بد والحالة هذه ان يعمل الرسول على ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو بلاد الشام . ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان ان لم يكونوا قد ارتبطوا بالاسلام . وتلك ضرورة لحماية قوات المسلمين في صراعها مع الروم الذي بدأ بغزوة مؤتة . وكان الوضع الخاص ليلة بدفع صاحبها وسرواتها للاستجابة لطلب الرسول ، فأيلة مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى ، والرسول أصبح يسيطر على اهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، ونحن نعرف ايضا ان العام التاسع للهجرة هو عام الوفود الذي يشير الى خضوع الجزيرة للرسول ، وقد ذكر الواقدي ان « دومة (دومة الجندل) وأيلة وتيماء ، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت » (٥٢) . كما ان فكرة النصارى عن الاسلام لم تكن سيئة حتى الان ، اذ اننا لا نلمس معارضة نصرانية واضحة ضد الدعوة الإسلامية في هذا العهد ، بينما كانت العلاقة بين المسلمين واليهود على اسوأ ما تكون فكل هذه العوامل - في رأي الباحث - دفعت يحنه بن رؤبة واهل ايلة للموافقة على دفع الجزية ومصالحة الرسول ، ومن هنا لا نستبعد ان يكون ابن رؤبة واصحابه قد قدموا على الرسول في تبوك حيث تم الصلح الذي نقرؤه في كتاب الامان المرجح من الرسول الى يحنه بن رؤبة ، وهذا نصه (٥٣) : بسم الله الرحمن الرحيم : « هذا امانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة واهل ايلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدهونه من بر وبحر » (٥٤) .

وقد ذكرت بعض المصادر التي اثبتت نص كتاب الصلح اسم الكاتب والشهود ومقدار الجزية . الا ان ابن هشام لم يذكر ذلك ، فقد جاء في هذه المصادر ان الكاتب هو جهيم بن الصلت وبعضها اضاف شرحبيل بن حسنة (٥٥) ، واما السبكي فذهب

الى ان علي بن ابي طالب هو الذي كتب كتاب الصلح وفيه شهادة ابي بكر وعمر وعثمان واعلام الصحابة . جاء ذلك في معرض رده على الجرجاني الذي زعم ان ابا حنيفة لم يسبق في كتابة الشروط ، واورد السبكي جواب ابي منصور بان الرسول صلى الله عليه وسلم اول من املى كتب العهود والمواثيق ، منها عهده هذا الى نصارى ايلة ، وذكر ان هذا العهد باق عند اصحابه ايلة ولاجل ذلك يصانون (٥٦) وتذكر اغلب المصادر ان مقدار الجزية التي صولح اهل ايلة عليها كان ثلاثماية دينار في السنة ، وكانوا ثلاثماية رجل اي ان يؤخذ من كل حالم دينار في السنة (٥٧) .

وجاء في بعض الروايات ان الرسول اشترط على اهل ايلة بالاضافة للجزية قري من يمر بهم من المسلمين (٥٨) .

ويبدو ان الجزية لم تبق على حالها بل زاد فيها الخلفاء من بني امية . فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز خفف من ائقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وايلة ، وكان لا يزداد من اهل ايلة على ثلاثماية دينار شيئا . ويفهم من هذا ان الجزية في البداية كانت على الرؤوس ثم اصبحت جماعية ، اذ لا بد ان يكون نصارى ايلة قد نقصوا او ازدادوا في زمن عمر بن عبد العزيز .

واطلقت المصادر على يوحنا بن رؤبة تارة تارة صاحب ايلة وتارة اسقف ايلة ، واخرى ملك ايلة (٥٩) وقيل ان رسول الله كساه بردة (٦٠) وهي البردة التي اشتراها ابو العباس السفاح بثلاثماية دينار وهي غير البرد التي منحها الرسول - ص - الى كعب بن زهير عندما انشده قصيدته المشهورة التي مطلعها (٦١) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبسول

كما ذكر ايضا ان يوحنا بن رؤبة اهدى للرسول هدية فيها بغلة بيضاء ، فرد رسول الله على هذه الهدية باهداء البرد ليوحنا . وذكر المقرئزي ان اليهود كانوا يخرجون رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد ابرز منه قدر شبر فقط ، يزعمون انه برد النبي - ص - وانه بعثه اليهم امانا (٦٢) . وهذه الرواية وما شابهها انما يقصد بها حرص اهل الذمة في فترات معينة ابراز ما يثبت حصولهم على امان الرسول او الخلفاء ، وليس بالضرورة ان تكون هذه الادلة صحيحة ، ففي بعضها التزوير واضح (٦٣) .

ويستدل من كتاب الصلح ان اهل ايلة كانوا يعملون بالتجارة البرية والبحرية، كما

يعملون بصيد السمك . وجاء في وصف بعض الجغرافيين لها بأنها مدينة اليهود (٦٤) ولعل هذه الإشارة فيها مبالغة ظاهرة لاننا لم نعثر في المصادر أنها كانت يهودية في اليهود الإسلامية وان كان يقطنها جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة ، وارتبطوا بالتجار في بلاد العرب ، فقد اشتهر أبو رافع الخبيري اليهودي بالتجارة ، وكانت له شهرة بين المواضع التي يكثر فيها اليهود في العهد المدني ، حيث تشير الروايات الى ان اليهود احتكروا تجارة البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز (٦٥) ومن المعروف ان اليهود كانوا يعملون بالصيرفة والصياغة في أماكن إقامتهم .

وحظيت أيلة بأهمية خاصة اثناء حركة الفتوح الإسلامية، فقد كانت معبرا للجوش الفتح المتجهة الى بلاد الشام ، وقد سلكها عمرو بن العاص الذي أخذ طريق المعرفة على أيلة لما بعثه الخليفة أبو بكر قبل فلسطين (٦٦) . واصبحت أيلة بالضرورة محطة للفتاحين نزلها كثير من المسلمين منهم عدد كبير من موالى عثمان بن عفان (٦٧) . ومنهم من نزل في ضواحي أيلة مثل أبو محمد عبدالله بن عبد الحكم بن أعين الحقل مولى رافع مولى عثمان الذي نسب الى قرية حقل الى جانب أيلة وكان فقيها اماما توفي سنة تسع وعشرين ومائتين (٦٨) . كما توفي أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري امام أهل المدينة في « أدما » و « آدمي » قرب « بدا وشغب » وهما واديان على مرحلة من أيلة (٦٩) والزهري شيخ العديد من المحدثين الذين نسبوا الى أيلة ، فقد أقام بها وأخذ الكثيرون عنه (٧٠) وكان الذين نزلوا أيلة يعملون في البداية بسقاية الحجاج (٧١) . وتذكر بعض الروايات ان عمر بن الخطاب نزل أيلة سنة سبع عشرة (٧٢) ، وربما كان ذلك عندما كان في طريقه الى الجابية . ومن نزل أيلة في الفترة الإسلامية المبكرة أبان بن سعيد بن العاص (٧٣) وقد عاتبته خطيبته عائشة ابنة عثمان على تركه المدينة وإقامته بأيلة قائلة :

نزلت بيت الضب لا انت ضائر عدوا ولا مستنفا انت نافع (٧٤)

وبرز اسم أيلة في حوادث الفتنة الاولى ، فتنة عثمان ، فقد كانت مركز استطلاع للأحزاب المتصارعة ، ومنها عاد المصريون لحصار عثمان ، وفي هذه المدينة كانت العميون ترصد ما يجري في عاصمة الدولة الإسلامية ، فقد تبع عبدالله بن سعد بن أبي السرح المصريين حين خرجوا على عثمان وأقام في أيلة يترقب ما تسفر عنه الأحداث ، حتى اذا ما علم بمقتل الخليفة عثمان دخل فلسطين وأقام بها (٧٥) . وقد تجمع موالى عثمان وانصاره ايضا في أيلة يتسقطون بدورهم اخبار المدينة ، ولما بعث علي بن أبي طالب قيسا بن سعد واليا الى مصر لقيته خيل انصار عثمان في أيلة وسألوه عن حاله ، ولم يجرؤوا باخبارهم انه عامل علي على مصر ، بل قال لهم

انه من فالة عثمان يطلب من ياوي اليه وينتصر به ، ومضى حتى دخل مصر حيث اعلن امره (٧٦) . ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في مطلع الحكم الاموي عين مصعب بن عبد الرحمن بن عوف على شرطته فقال له هذا : اني لا اضبط المدينة بحرس المدينة ، فابغني رجالا من غيرها ، فأعانه بمائتي رجل من اهل ايلة ، فضبطها ضبطا شديدا (٧٧) . ويرى (ترتون) مؤلف كتاب « اهل الذمة في الاسلام » ان هؤلاء كانوا من النصاري (٧٨) . ولم يوثق ما ذهب اليه . والغالب ان هؤلاء من انصار الامويين الذين كانوا قد استوطنوا ايلة ومنهم موالي عثمان بن عفان الناقمون على اهل المدينة لموقفهم من عثمان .

وبعد بيعة مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة ، ٦٤ هـ ، خرج يريد مصر التي كانت تتبع ابن الزبير ، وخرج معه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وزفر بن الحارث وحنان بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني في اشراف كثير ، وبعث ابنه عبد العزيز في جيش الى ايلة ليدخل مصر من تلك الناحية (٧٩) . ولما علم ابن الزبير ارسل جيشا يقوده واليه بمصر عبد الرحمن بن جحدم ، واتبعه بجيش اخر يقوده زهير بن قيس البلوي الى ايلة ليمنع عبد العزيز من المسير اليها ، وقد التقى زهير بعبد العزيز بن مروان في مكان قرب ايلة يدعى (بصاق) فقاتله فانهزم زهير ومن معه ، وفي ذلك قال زهير بن قيس لعبد العزيز بن مروان (٨٠) :

منعت بصاقا والبطاح فلم ترم بطاحك لما ان حميت ذماركا

وفي بداية قتال عبد الملك بن مروان لابن الزبير وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان ، وامره ان ينزل بين ايلة ووادي القرى فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويحفظ ما بينه وبين الشام ويسد خلا ان ظهر له (٨١) ، وفي طارق هذا يقول الشاعر :

ولو تكلمنا ذمنا طارقا والدهر قد امر عبدآبقا (٨٢)

لقد سقت هذه الاخبار لابين كم كان ولاة الامر او الخارجون عليهم - منذ مطلع الدولة الاسلامية - يميرون من اهمية لموقع ايلة ويتسابقون للسيطرة عليها ، وارى ان لذلك سببين :

الاول : موقع ايلة كحلقة وصل بين مصر والشام والحجاز ، والاستيلاء عليها يعني

السيطرة على مركز اتصال هام في العالم الاسلامي ، لا سيما وقد وحد الاسلام المنطقة سياسيا فأصبحت أيلة على صلة مباشرة بالمراكز السياسية والتجارية في العالم الاسلامي .

الثاني : كون أيلة مركز تجمع الحجاج والتجار والمسافرين من انحاء العالم الاسلامي اكسبها ميزة استعلامية فريدة ، فمنها يمكن تتبع اخبار العالم الاسلامي بعامة وما يجري في العاصمة الاسلامية بخاصة ، وهذا من الاسباب التي جعلت الحميمة القريبة منها المركز السري للدعوة العباسية .

وفي التقسيمات الادارية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبعت أيلة جند فلسطين (٨٣) ، واصبحت منذ عهد مبكر مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية ، فكانت واحدة من المراكز المشهورة التي عنيت بالسنة الى جانب دمشق وبيت المقدس والرملة وعسقلان والمدينة المنورة (٨٤) .

ولما استتب الامر لعبدالله بن الزبير في الحجاز ارسل الى عبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية : « اما ان تبايعاني او تخرجنا من جوارى » (٨٥) . فخرجوا من مكة ونزلا بالطائف واقاما هناك ، ثم خرج ابن الحنفية الى أيلة ومنها كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه والنزول الى جواره فكتب عبد الملك اليه : « ورائك اوسع لك ، والا حاجة لي فيك » فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة الى ان توفي بها (٨٦) .

وفي غمرة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين احتلت أيلة مكانها الهام في الاحداث السياسية والعسكرية كما هو شأنها دائما ، فالكل يحاول ان يسبق الى السيطرة عليها ، فهي حلقة وصل بين الشام والحجاز ومصر كما اسلفنا .

وفي العهد العباسي كان لأيلة دورها في الاحداث ، فلما تولى هارون الرشيد الخلافة قلد الحسين بن جميل ولاية مصر وجمع اليه خراجها وصلاتها ، فتشدد في جباية الخراج ، فخرج عليه ابو الندى مولى بلي في نحو من الف رجل واخذ يقطع الطريق بأيلة ، وخرج مع ابي الندى اهل الخوف ، ثم انضوى اليه رجل من جذام يقال له المنذر بن غالب بن غطفان ومعه سلام النوبي فبلغوا مبلغا عظيما في النهب والسلب والقتل حتى بلغ الرشيد خبرهم فارسل اليهم يحيى بن معاذ في جيش من بغداد كما ارسل الحسين بن جميل ايضا اليهم جيشا يقوده عبد العزيز الجزري ، فالتقى العسكران بأيلة ، وقاتلا ابا الندى وجماعته وهزموهم وظفروا بابي الندى الذي ارسل الى بغداد حيث قتل (٨٧) . ونالت أيلة عناية الخلفاء العباسيين واعوانهم

من القادة فانفق في اصلاح طرقها وتحسين احوالها المال الكثير (٨٨) . ذلك ان ايلة كانت تصبح في فترات الاضطراب السياسي ملجأ للفارين من وجه السلطان او العصاة المتمردين نظرا لموقعها وصعوبة مسالك المنطقة المحيطة بها (٨٩) .

وفي خلال حكم الاسرة الطولونية لمصر حصل في ايلة بعض الاصلاحات ، ويبدو ان الطريق المحاذي لايلة في اسفل العقبة قد ضاق بفعل ماء البحر ، فأمر أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) بإنشاء طريق جديد على حافة جبل ام نصيلة بدلا من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقا محصورا بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية اخرى ، فكانت تطفئ عليه الامواج في اغلب الاحيان . وسمي هذا المر العميق ، عقبة ايلبة ، نسبة الى المدينة التي كانت تجاوره (٩٠) .

وفي سنة خمس عشرة واربعمئة (٤١٥ هـ) في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله الناطمي (٤١١ - ٤٢٧ هـ) ، هاجم عبد الله بن أدريس الجعفري ومعه أحد بني الجراح مدينة ايلة ونهبها واخذ منها نحو من ثلاثة الاف دينار وغلالا ، وسبي النساء والاطفال . ويعود السبب في ذلك الى ان عبد الله عزل من ولاية وادي القرى فراجع حسان (٩١) بن الجراح ليتوسط له لدى الظاهر ليعود لولايته السابقة ، غير ان الظاهر الفاطمي لم يستجب لهذه الوساطة ، ففعل الجعفري ما فعل يساعده الامير من بني الجراح ، الى ان سارت اليه قوات عسكرية من القاهرة (٩٢) .

وتعرضت ايلة للكوارث الطبيعية علاوة على الكوارث السياسية، فقد تقل صاحب النجوم الزاهرة عن ابن الصابئ ان زلزلة حدثت سنة ٤٦٠ هـ أهلكت ايلة ومن فيها وذكر اشياء كثيرة من هذه المقولة (٩٣) . وتعرضت كل من غزة واللسد والكرك سنة ٦٩٢ هـ الى الزلازل فتهدمت فيها دور وكذلك حدثت هزة اخرى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م اصاب المنطقة الجنوبية من الاردن الحالي وشملت معظم افريقيا وسورية وقبرص ، ولا نعلم مقدار ما أحدثته هذه الهزات من الخسائر في ايلة والمناطق المجاورة لها (٩٤) .

ولعل اهل ايلة لم يتأثروا كثيرا بكارثة الجراد التي اصاب منطقة شمال الجزيرة وبلاد الشام في مستهل ربيع الاول من سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م بشكل مباشر لان الابليين كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة وتقديم الخدمات والصيد البحري (٩٥) وفي عام ٧٤٩ هـ تعرضت غزة وبلاد الشام بعامة للطاعون الذي افنى كثيرا من السكان في مصر وبلاد الشام ، ولا بد ان ايلة اصابها ما اصاب غيرها مع ان المصادر ركزت على وفيات مصر ودمشق وغزة (٩٦) .

ولما أصبحت أيلة غير صالحة للملاحة نقلت إلى الجنوب من موقعها الأول وأقيمت المدينة في هذه الجهة ، وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع ، أما مدينة ويلة الجديدة - واسمها مشتق من « أيلة » - فكانت في عهد الخلفاء مركزا للثقافة العقلية والثقافية المادية (٩٧) .

ومع بداية الحروب الصليبية أصبحت أيلة محل صراع مرير بين الفرنجة والمسلمين ، ذلك أن الصليبيين وضعوا نصب أعينهم منذ البداية السيطرة على شمال البحر الأحمر وذلك لتحقيق عدة أهداف منها : فصل مصر عن بلاد الشام والاستئثار بتجارة البحر الأحمر ، وفي هذا ما فيه من أضعاف لقوة المسلمين المادية والسياسية والمعنوية مقابل زيادة قوة الصليبيين ، ثم الاستيلاء على المدينة ومكة لضرب الروح المعنوية لدى المسلمين لحرمانهم من أقدس مقدساتهم (٩٨) . كما أنهم باستيلائهم على هذه المنطقة يمنعون غارات القبائل المتتالية على مملكة القدس الصليبية ، لذلك جرد بلدوين الأول سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م حملة على أيلة وتمكن من احتلالها وضمها إلى الأقليم الذي كان يحكمه كرك مونتريال Crac don Montreal ، وأقاموا الحصون في جزيرة فرعون أمام أيلة ، كما أنشأوا في المدينة نفسها حصنا صغيرا وشحنوه بالمقاتلة ، فمنعوا بذلك الاتصال بين مصر وبلاد الشام (٩٩) .

أصبحت القوة الصليبية الجديدة في أيلة وشمال البحر الأحمر عقبة في وجه التجارة ، كما أصبح الحجاج يتعرضون للاذى والضرر في طريقهم على أيدي الصليبيين في هذه المنطقة (١٠٠) .

وامام خطورة سيطرة الأعداء على هذه المنطقة الحيوية ، صمم صلاح الدين الأيوبي على تطهير أيلة وما جاورها من الصليبيين ، فسار من مصر قاصدا أيلة وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على ظهور الجمال إلى ميناء عيذاب حيث أعاد تركيبها وأبحر بها نحو أيلة فحاصرها برا وبحرا حتى فتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ (١٠١) ويمكن أدراك مدى الأهمية التي كان صلاح الدين الأيوبي يوليها لاحتلال أيلة من الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل - كاتب صلاح الدين - إلى الخليفة في بغداد يبشره بالفتح ويصف له ما لاقاه المسلمون من عناء في فتحها ، تقتطف منها : « ... ومنها قلعة بشفر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت القلعة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل

صلوات الله عليه ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله ان يتطرق من لا يدين بمن جاء به من الاسلام . ففتح الله هذه القلعة وصارت منعقلا للجهاد . ومونلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ما تم بهما للمسلمين من الاثر الجليل ، وما استند من خلاصتهم ، واحرق من زروع المشركين ورعي من غلاتهم ، الى ان ضعفت ثغورهم ، واختلت امورهم ، لاحتيج فيه الى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده وايضاح مقصده (١٠٢) .

ويتبين من هذه الرسالة ان الفرنج غزوا سواحل الحجاز قبل عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م وهددوا الحرمين الشريفين خلافا لما هو متعارف عليه عند المؤرخين بأن النشاط البحري الصليبي لم يصل الى قبالة الحرمين الا بعد تولي ارناط امارة الكرك ، ودليل ذلك ايضا ما جاء في الرسالة السابقة : « ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية . . الى ان وصل منها في السنة الخالية الى الاسكندرية امر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حملة ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله . . » .

ومن المعروف ان غزوة صاحب صقلية للاسكندرية حدثت في سنة ٥٦٩ / ١١٧٤ م كما يتبين من تاريخ الرسالة أي ٥٧٠هـ / ١١٧٤ م (١٠٤) .

وعليه يمكن القول بان الصليبيين بدأوا نشاطهم البحري في البحر الاحمر قبل امارة ارناط على الكرك ، غير ان هذا النشاط لا يقارن بضخامة نشاط ارنباط وغزواته المنظمة التي كان يوجهها من الكرك للسيطرة على البحر الاحمر لاعتراض السفن التجارية وتهديد طريق البر ايضا (١٠٥) . ومن هنا ندرك ان صلاح الدين كان مضطرا للحملة السابقة حتى لا يحقق الصليبيون اهدافهم ويعيثون في منطقة الحجاز والبحر نهبا وسلبا وقرصنة وفصلا بين مصر والشام .

وحتى يضمن صلاح الدين امن ايلة وطرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز أخذ يشن الحملات المتواصلة والشديدة على كل من قلعتي الشوبك والكرك ، وكان امير الكرك ، ارنباط ، ينتهز الفرص ليشن بدوره الغارات على ايلة وعلى طرق القوافل البرية والبحرية ، ذلك انه وضع نصب عينيه تحقيق الاهداف الصليبية السابقة في المنطقة ، اي احتلال منطقة الحجاز والبحر الاحمر وهدم المقدسات الاسلامية او نقل جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم الى الكرك واستخدامه وسيلة ضغط على المسلمين لاذلالهم وتحصيل الضرائب منهم (١٠٦) .

وفي غمرة هذا الصراع عزم ارنباط على اعادة احتلال ايلة مهما كلفه ذلك من

ثمن . فأعد مراكب مفككة في الكرك ونقلها الى بحر القلزم — كما سبق وعمل صلاح الدين — وذلك عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، وهاجم أيلة وتمكن من هزيمة حاميتها واحتلالها ثانية ، ثم حاصر جزيرة فرعون ولم يتمكن من فتحها ، فترك قسما من سفنه يحاصر القلعة في الجزيرة ويراقب مداخل البحر الأحمر ، وانطلق بالقسم الثاني نحو الجنوب يريد تملك الحجاز كما قال الذهبي : « وفيها سار الفرنج بحرا وبراً لتمكن الحجاز » (١٠٧) ، فهاجم ميناء عيذاب المصري وأحرق السفن ونهب ما فيها ، كما استولى على مراكب الحجاج القادمة من مدينة جدة ، كما توغلت قوة صليبية في بر عيذاب وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج كانت في طريقها الى الديار الحجازية . . وواصلت القوة البحرية الصليبية تقدمها نحو الجنوب حتى سواحل تهامة واليمن (١٠٨) .

أثارت هذه الحملة مشاعر وحماس المسلمين فدعوا الى الجهاد المقدس لتخليص منطقة أيلة من خطر الفرنج ، وتبدو هذه المشاعر واضحة في الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة في هذه الفترة (١٠٩) .

أرسل صلاح الدين الى أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب بمصر أمراً بمواجهة الحملة الصليبية الجديدة ، فعهد هذا بدوره الى القائد البحري حسام الدين لؤلؤ (١١٠) ، بالمهمة ، فأعد لؤلؤ أسطولا في الاسكندرية ومصر ونقله الى أيلة برا ، وهناك أعاد تركيبه وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحرين . وكان مقاتلو جزيرة فرعون المحاصرون قد تضايقوا من طول الحصار الصليبي فانقطع الماء عنهم حتى شعروا بقرب الهلاك ، فأرسل الله عليهم أمطارا غزيرة في شهر شعبان سدت حاجتهم وانقذتهم بعد يأس ، فقويت معنوياتهم وخبزوا من الماء ما يكفيهم لشهرين وصمموا على الصمود للحصار . بدأ حسام الدين أول أعماله العسكرية ضد المحاصرين فانزل بهم ضربة قاصمة وذلك في شعبان من سنة ٥٧٨ هـ / كانون الأول ١١٨٢ م ، فأحرق السفن الصليبية بالنار الاغريقية وأسر وقتل عددا كبيرا منهم (١١١) وأما من تمكن من الهرب الى البر فقد أدركهم العربان في تلك الشعاب وقبضوا عليهم ولم ينج منهم أحد . وبعد جزيرة فرعون توجه حسام الدين جنوبا للملاحقة الاسطول الصليبي فمر على ميناء عيذاب ولم يجد به أثرا لهذا الاسطول (١١٢) اللهم الا الدمار الذي لحقه الصليبيون بالميناء والسفن التي كانت به ، وتابع حسام الدين مطاردة الاعداء فوجدهم قد بلغوا ميناء رابغ (١١٣) الحجازي حيث اعترضوا تجارا فنهبوا بعضهم وأسروا آخرين وأشاعوا الذعر في سواحل الحجاز ، وتوجهوا نحو ساحل مكة وفي نيتهم الاستيلاء على المدينة المنورة ، فتركوا مراكبهم في الميناء

المواجه للمدينة بحراسة عدد من جنودهم ، وسار ارنباط ومعه فرسان الداوية وهم نحو ثلاثماية مقاتل يساعدهم بعض الاعراب المرتزقة من اهالي تلك الجهات ، وساروا جميعا حتى قربوا من المدينة ، وقد انهكتهم حرارة الشمس المحرقة وصعوبة الطريق الوعرة ، ومع ذلك كله صمم ارنباط على الوصول الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ،

ادرك لؤلؤ مراكب اعدائه في الحوراء(١١٤) فاحرقها واطلق الاسرى من التجار ورد اليهم ما اخذ منهم ، ونزل الى البر بقسم من قواته حيث قدم لهم كثير من الاعراب المساعدة ، كما قدموا لهم الخيل للركوب ، وتبعوا اثار ارنباط مسرعين حتى لا يتمكن الاخير من تحقيق اهدافه . وبعد خمسة ايام تمكنوا من اللحاق به على بعد يوم من المدينة ، ادرك ارنباط ان لا سبيل للعودة الى اسطوله في البحر الاحمر ، وفر جنده الى الجبال ، وفر هو نحو الشمال متخفيا يبقي العودة الى منطلقه ، وتمكنت قوات حسام الدين من قتل واسر معظم جند ارنباط الذي استطاع الوصول الى قواته في تبوك والعودة بهم وبمن نجا معه الى الكرك (١١٥) .

وعاد لؤلؤ باسراه وكانوا مائة وسبعين أسيرا ، فارسل اثنين منهم الى مكة المكرمة حيث نَحروا في منى في موسم الحج ليكونا عبرة لمن يعتبر (١١٦) واما البقية فقد حملها معه الى مصر ، وكان دخولهم مصر عظيما ، ثم وزعوا على سائر المدن المصرية ليقتلوا بها ، وقد شاهد ابن جبير عددا منهم في الاسكندرية اثناء وجوده بها (١١٧) عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م وقد اركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الاسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الابواق ، ثم قتلوا ولقد استغرقت حملة ارنباط وعيشه في منطقة البحر الاحمر فسادا زهاء اربعة اشهر من شعبان حتى ذي القعدة من العام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ - ١١٨٣ م . وفي حملة ارنباط هذه قال ابن الوردي (١١٨)

لقد طمع البرنس بمستحيل فجر لقومه سفك الدماء
ولو ترك النبي بلا دفاع لدافع عنه املاك السماء

ومما يجدر ذكره انه في الحصار الثاني لايلة وقلاعها دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة ، ولكن سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني ايوب ومن الماليك من بعدهم . وكانت الفتن التي تثبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سببا في القضاء على تجارة ايلة وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على ارض القارة لتحمي العقبة طريق

الحجاج الوافدين من مصر ، وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط واسقط من التسمية اسم « أيلة » (١١٩) . وبعد هزيمة الصليبيين لم نجد نجد في المصادر أخبارا ذات قيمة عن أيلة ، فقد ذكر أن فئة من اليهود كانت تسكنها ، كما بقيت أيلة محطة لقوافل الحجاج ، ثم أصبحت ملجأ للمتمردين على الدولة أو الراغبين في العصيان ، أو سجنا للخصوم في العهد المملوكي والعثماني (١٢٠) .

لقد رافق ، جلدن Gildden بعثة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية التي تقبت في موقع تل الخليفة ، وذلك تحت إدارة تلسون جلك في ربيع ١٩٤٠ . درس جلدن النقوش الموجودة على جدران مدخل حصن العقبة ونشرها (١٢١) ، وأورد النص على النحو التالي :

أ - الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليمنى من مدخل الحصن تقول :
القلعة المباركة السعيدة مولانا المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري
سلطان الاسلام والمسلمين قاتل (الكفرة والمشركين) .

ب - الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليسرى من المدخل تقول :
محيي العدل في العالمين .. السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري
أعز الله أنصاره بمحمد وآله وكان (Sic) هذه القلعة المباركة ذات
الأمير خير بك العلالي (العلالي For) المعماري ... بتاريخ
(سنة) عشر (.....)

وقد استخلص جلدن أن باني القلعة هو السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، وأكمل الفراغات المظلمة في الجزء الثاني من الكتابات مصححا النص كما يلي :

بتاريخ سنة عشرين وتسعمائة أو تسعمائة وعشرين ، أي مايساوي ١٥١٤ - ١٥١٥ م .

وقد ذكر ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) اسم الأمير خير بك العلالي المعروف بالمعمار في آخر أسماء الأمراء المقدمين الستة والمشرين في زمن السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ وقال : « والأمير خير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثمر رشيد بسبب عمارة الأبراج التي هناك والصور » (١٢٢) وكما هو واضح من النص الذي نشره جلدن فإن خير بك هو باني قلعة أيلة . كما هو الباني للعديد من المنشآت العمرانية في أواخر العهد المملوكي وبخاصة عهد السلطان قانصوه الغوري . وذكر ابن إياس أن خير بك هذا لم يرافق قانصوه

الغوري في حملته الى شمال سورية (١٢٣) لمواجهة السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ م . وانما تخلف مع مجموعة الامراء التي بقيت في القاهرة . وبعد معركة الريدانية ودخول الجيش العثماني القاهرة ، تعرض بيت خاير بك المعمار للنهب على ايدي الجند العثمانيين الذين نهبوا بيوت الاعيان المصريين ، ولم يذكر ابن اياس عن نهاية خاير بك شيئاً . بالاضافة الى ترميم القلعة فقد اصلى قانسوه الغوري الطريق الى القبة وبنى فيها الخان السالف الذكر تحيط الابراج ببواباته ، وخصص له الحواصل لمنفعة الحجاج (١٤) .

٤ - بدأت أسماء الايليين تظهر منذ عهد مبكر (القرن الاول الهجري) . ولا عجب ان وصف السمعاني ايلة بقوله : خرج منها جماعة من العلماء والفضلاء من كل نوع (١٢٥) فقد شغل عبدالله بن سعد الاياي القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز (١٢٦) وذكر الاصفهاني ان عبدالله بن يونس صاحب ايلة كان ملحناً ، واورد له لحناً في اخباره عن الوليد بن يزيد (١٢٧) . وحل بأيلة العديد من الخلفاء ورجال الدولة وهم في طريقهم الى الحج او في انتقالهم من قطر الى اخر ، ولهذا ما له من تأثير في الحياة العامة لمدينة ايلة (١٢٨) التي اصبحت مركزاً من مراكز الثقافة في بلاد الشام نسب اليها عدد من العلماء والمحدثين نذكر منهم (١٢٩) .

١ - ابو زيد ، يونس بن زيد بن ابي النجاد الايلي ، المتوفى في بضع وخمسن ومائة وهو من موالى معاوية بن ابي سفيان ، وهو من ابرز تلاميذ ابن شهاب الزهري ، روى عن اخيه ابي علي بن يزيد ، ونافع مولى ابن عمر ، وهشام بن عروة وعمارة بن عزية وعكرمة وغيرهم .

وروى عنه كثيرون منهم جرير وعمرو بن الحارث وابن اخيه عنبسه بن خالد الايلي ، والليث والاوزاعي وسليمان بن بلال ، وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضالة وشبيب بن سعد الحبطي ، وبقية بن الوليد ، وحسان بن ابراهيم الكرمانى ، وعبدالله ابن رجاء المكي ، وابو صفوان عبد الله بن سعيد الاموي وعبد الله بن عمر النميري وعثمان بن عمر بن فارس وآخرون . وقيل فيه انه ثقة حلو الحديث كثيره ، كما قيل فيه غير ذلك (١٣٠) .

٢ - عقيل بن خالد الايلي القرشي الاموي مولى آل عثمان بن عفان ، قيل توفي بمصر سنة احدى او اثنتين واربعين ومائة . ويكنى ابو خالد ، روى عن الزهري ، وعن ابيه وعمه زياد ونافع مولى ابن عمر وعكرمة والحسن وسعيد ابن ابي

سعيد الخدري وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت وسلمة بن كهيل وغيرهم .
وكان عقيل في الشرطة فلزم الزهري الذي كان بدوره أميرا للجند وروى عنه ،
وكان الزهري اذا ما رأى عقيلاً أصيب بالنعاس من السهر خاطبه قائلاً : ما انت
من سمار قريش الذين قال الله فيهم : « سامرا تهجرون » (١٣١) .

٣ - هارون بن سعيد الايلي . روى عن ابن عينة وابن وهب وابي ضمرة وخالد
بن ابي نزار ومؤمل بن اسماعيل وبشر بن بكر ، وعنه مسلم وابو داود والنسائي
وابن ماجه وابو حاتم ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد والمعمري وزكريا الساجي
وعاصم بن رازح وعمير بن محمد البحيري وعلي بن أحمد بن علان وابن أخيه
مسعدة بن حازم المصري واسامة بن يحيى التجيبي وابو جعفر الطحاوي وابو
بكر بن ابي داود ، وآخرون منهم ابو العباس الشيباني النسوي محدث
خراسان في عصره . وهو ممن تعرض للمحنة في خلق القرآن في زمن الوائق سنة
٢٢٧ هـ ووصف بالجرأة في القول ، وقيل انه كان مقدماً في الحديث ثقة فاضلاً
وتوفي سنة ٢٦٣ هـ وقبل بل سنة ٢٥٢ هـ (١٣٢) .

واشتهر في الحديث أيضاً ابنه ابو محمد عبد الرحمن بن هارون المتوفى في
شوال سنة ثمان وسبعين ومئتين .

٤ - محمد بن عزيز بن عبدالله بن زياد بن خالد بن عقيل بن خالد الايلي ، ابو عبدالله
العقيلي مولى بني أمية توفي سنة ٢٦٧ هـ بأيلة . روى عن ابن عمه سلامة بن روح
وسليمان بن سلم الجنازي ويعقوب بن زهدم بن الحارث . وعنه النسائي وابن
ماجه وابو داود في غير السنن ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم وهو من اقاربه
ويعقوب بن سفيان ومحمد بن مسلم بن واره وابو حاتم وابن ابي عاصم وجعفر
الفريرياني وحرمة بن ابي العلاء وبكر بن سهل الدمياطي وزكريا الساجي وابن
خزيمة وابو عوانة وعمرو بن ابي الطاهر المصري وعلي بن اسحاق بن زياد وعبد
الله بن محمد بن مسلم الاسفرائني وابو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يحيى
عن يعقوب بن سفيان قال : دخلت أيلة فسألت عن كتب سلامة بن روح ووجدت
له فيها حديثاً (١٣٣) .

٥ - ابو عثمان عنبسه بن خالد بن يزيد بن أبي النجاد الايلي من موالى بني أمية . روى
عن عمه يونس بن يزيد الايلي ، وابن جريج وابن المبارك ورجاء بن جميل . وروى
عنه ، عبد الله بن وهب وهو من اقاربه ، ومحمد بن مهدي الاخميني وهاشم بن
محمد الربيعي وابو محمد الاموي واحمد بن صالح المصري ، وقل انه كان على

خراج مصر ، توفي بأيلة في جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين ومائة (سنة ١٩٨
وقيل سنة ١٩٧) وقيل عنه ثقة كما قيل ضعيف الحديث . واتهم بأنه
كان يعلق النساء بالثدي عندما كان على خراج مصر (١٣٤) .

٦ - زريق بن حكيم الايلي ، وقيل بن الحكم ، وهو الذي كتب اليه الخليفة عمر بن
عبد العزيز : « انك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب
الحق . . انا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا اهل الشام على غير ذلك ، فسلا
تقض الا بشهادة رجلين عدلين او رجل وامرأتين » . وروى عن عمرة بنت
عبد الرحمن وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ،
وروى عنه ابنه ومالك وابن عيينه ويونس بن يزيد الايلي وعقيل الايلي ، وسعيد
بن ابي ايوب وغيرهم وقيل عنه ثقة (١٣٥) .

٧ - طلحة بن عبد الملك الايلي روى عن القاسم بن محمد وزريق بن حكيم ، وروى
عنه اخوه القاسم بن سرور والاوزاعي ، ومالك بن انس ، وعبيد الله وعبد الله
ابنا عمر وبحيى القطان وقيل عنه ثقة (١٣٦) ، قد روى خبر معاملة عمر بن عبد
العزيز لاهل ايلة (١٣٧) .

٨ - عبد الجبار بن عمر الايلي ويكنى ابا الصباح وهو من موالي بني أمية . روى عن
الزهري وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وربيعه ويحيى بن سعيد الاتصاري
واسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وغيرهم ، وعنه رشدين بن سعد وابن المبارك
وابن وهب وابو عبد الرحمن المقرئ وسعيد بن أبي مريم وغيرهم ، قيل عنه
ضعيف، وذكره البخاري في فصل من مات من الستين الى السبعين ومائتين (١٣٨)

٩ - ابو صخر يزيد بن أبي سمية الايلي كان من العباد يصلي ليله اجمع ويبكي
وكان يوافي المواسم كل عام على محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن
خصيفة وسليمان بن سحيم وابي حازم فيلقون عمر بن ذر فيقص عليهم ويذكرهم
امر الآخرة فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم ، ثم لا يلتقون بعد الا في
كل موسم . روى عن ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وابي بكر بن عبد الرحمن وهشام
بن اسماعيل ، وروى عنه هشام بن سعد المدني وابو الصباح سعدان بن سالم
الايلي وعبد الجبار بن عمر الايلي ، وقيل عنه صالح الحديث ثقة (١٣٩) .

١٠ - سعد بن عبد الله بن سعد الايلي توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة ، روى عن
محمد بن كعب القرظي والقاسم بن محمد وعنه صخرة بن ربيعة وقيل عنه
ثقة ولا بأس به (١٤٠) .

١١ - سعدان بن سالم الأيلي ويكنى أبو الصباح . كان أحد النفر الذين وفدوا على عمر بن عبد العزيز ، روى عن يزيد بن أبي سمية أبي صخر الأيلي وسهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز وذكر في الثقات (١٤١) .

١٢ - يحيى بن صالح الأيلي روى عن اسماعيل بن عليّة وعنه يحيى بن بكير المصري وذكر أن ابن بكير لقيه بأيلة سنة سبع وتسعين وذكر له أحاديث وقال كلها غير محفوظة وذكر من الضعفاء (١٤٢) .

١٣ - شيبان بن فروح ، وهو شيبان بن أبي شيبه الحبلي مولاهم أبو محمد الأيلي . ولد في حدود سنة ١٤٠ ومات سنة ست وقل سنة خمس وثلاثين ومائتين . روى عن جرير بن حازم وأبي الأشهب العطاردي وأبان بن يزيد العطار وحماد بن سلمة وسلام بن مسكين ومهدي بن ميمون وعبد الوارث بن سعيد وسليمان بن المغيرة والصعق بن حزن وعبد العزيز بن مسلم وأبو داود . وعنه أبو داود والنسائي بواسطة أبي بكر الأحمد بن إبراهيم العطار وابن علي بن سعيد المروزي وزكريا بن يحيى السجزي وأبو يعلى والحسن بن سفيان وبقي بن مخلد وجعفر بن محمد الفرياني وعبد الله بن أحمد وعبدان الأهوازي وعثمان الدارمي وموسى بن هارون وأبو القاسم البغوي وغيرهم . قيل كان ثقة صدوقا (١٤٣) .

١٤ - خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الفسائي مولاهم الأيلي . وقال ابن سعد مات سنة ٢٢٢ . روى عن إبراهيم بن طهمان وسفيان بن عيينه وعنه مالك والقاسم بن مبرور والأوزاعي ونافع بن عمر الجمحي وابن أبي الزناد ومحمد بن إدريس الشافعي وهو من أقرانه وغيرهم . وعنه أحمد بن صالح المصري وأبو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهارون بن سعيد الأيلي وجماعة . وذكر في الثقات (١٤٤) .

١٥ - الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الأيلي ، مولى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، قيل أنه سمع الحديث من أنس بن مالك وحدث بدمشق وغيرها عن الزهري ونافع وغيرهما وروى عنه يحيى بن حمزة والليث بن سعد وغيرهما ، وثقه جماعة وضعفه وكذبه آخرن (١٤٥) .

١٦ - الحسين بن محمد بن الحسن بن عامر بن أحمد أبو طاهر الانصاري الخزرجي المقرئ المعروف بابن خراشة الأيلي من أهل أيلة كان إمام المسجد الجامع بدمشق قرأ القرآن على المظفر الإصبهاني وأقرانه وحدث عن الحنائي وطبقته توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وكان ثقة نبيلاً مأموناً اشعري المذهب (١٤٦) .

- ١٧ - داود بن ايوب بن سليمان بن عبد الاحد ويقال بن عبد الواحد الايلي حدث عن ابيه وهشام بن عمار وابراهيم بن المنذر وروى عن ابن الاعرابي وغيره (١٤٧) .
- ١٨ - اسحاق بن اسماعيل بن العلاء وقيل ابن عبد الاعلى الايلي كنيته ابو يعقوب . روى عن سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد وسلامة بن روح وغيرهم . وعنه النسائي وابن ماجه وابن واره ومكحول البيروتي وعبد الله بن مسلم المقدسي وغيرهم . توفي بأيلة سنة ٢٠٨ هـ (١٤٨) .
- ١٩ - احمد بن عبد الله بن زكريا الايلي (١٤٩) .
- ٢٠ - اسماعيل بن حفص بن عمر بن دينار ويقال ميمون الايلي (١٥٠) .
- ٢١ - عمر بن سعيد الايلي (١٥١) .
- ٢٢ - حسين بن رستم الايلي (١٥٢) .
- ٢٣ - شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن عمر الايلي (١٥٣) .
- ٢٤ - ابو عبد الله الايلي (١٥٤) .
- ٢٥ - عبد الله بن سعد الايلي ت ٢٢٩ هـ (١٥٥) .
- ٢٦ - عبد الله بن يونس الايلي (١٥٦) .
- ٢٧ - سعيد بن الهيثم الايلي (١٥٧) .
- ٢٨ - حسان بن ابان بن عثمان ابو علي الايلي ت ٣٢٢ هـ (١٥٨) .
- ٢٩ - مره بن عمرو الايلي (١٥٩) .
- ٣٠ - احمد بن الحسين المصري الايلي ت ٢٩٢ هـ (١٦٠) .

هذا وزار العديد من العلماء أيلة واقاموا فيها لفترات متقطعة اذكر من بينهم عبد الرحمن بن اسحق ابو القاسم الزجاجي النحوي من أهل بغداد وسكن طبرية وأيلة وحدث بدمشق وصنف في النحو مختصرا (١٦١) ، وكذلك حل بها عبد الله بن المبارك المحدث المشهور حيث جعله ابن سعد فيمن حل فيها (١٦٢) وقد ترك المدينة بعض العلماء ونزلوا أيلة طلبا للعزلة ، فقد قيل للزهري ، يا ابا بكر : « طلبت العلم حتى اذا كنت وعاء من اوعيته تركت المدينة وخرجت عنها » قال : « انما كنت انزل المدينة والناس اذ ذاك اناس » (١٦٣) وكان الزهري قد حل في أيلة .

الحواشي :

(١) N. Glueck, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 71 (1938) pp. 3f., 75 (1939) 8f.

وانظر أيضا محمود أبو طالب ، تاريخ الأردن وفلسطين في العصور القديمة ، عمان ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

(٢) H. W. Glidden, The mum'luk Origin of the Fortified Khan, At Al-Akabah, Jordan, P. 116-118.

The Ency. of Islam. 2, Vol, 1 PP. 783 - 84.

وانظر مقالته عن أيلة في :

(٣) موسيل «Musil» دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة « أيلة » .

(٤) انظر اليقوي ، البلدان ٨٥ ، ٩٤ ، والهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٢ ، ٥٨ . والمقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٧٨ - ١٧٩ والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٦/١ . وابن الفقيه الهمداني ، البلدان ص ٢٥ وما بعدها وابن حوقل صورة الارض ص ١٥٣ ، والاصطخري ، المسالك والممالك ص ١٤ ، ٥٩ ، والحربي ، المسالك ، صفحات متفرقة (انظر تحت الاماكن) ، والقزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، ص ١٥٣ . وأبو الفداء ، تقويم البلدان ص ٢٥ ، والحميري ، الروض المطار ص ٧٠ - ٧١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

(٧) سورة الاعراف ، آية ١٦٢ مكية . وانظر المقدسي ، المرجع السابق . والمقرئزي ، خطط ص ٣٤٥/١ .

(٨) المقرئزي ، خطط ٣٤٥/١ . عينة : قيل هي من قرى بيت المقدس ، وقيل قرية من وراء البثنية من نون القلزم في طرف الشام . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة « عينون » .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(١٠) ياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٢٩٣/١ . البكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ ، الهمداني ، صفة ٢٣٤ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ .

(١١) ياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٢٩١/١ . الكلب : الذي يعلم الكلاب اخذ الصيد ، لسان العرب « كلب » . فحاس موضع بين المدينة وينبع ، ياقوت ، معجم البلدان « فحاس » .

(١٢) ياقوت ، معجم « أيلة » وانظر الحميري : الروض المطار ص ٧٠ - ٧١ والبكري ، المرجع السابق ٢١٧/١ .

(١٢) جاء في اللسان أن « ايلة » : قرية عربية وورد ذكرها في الحديث ، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء ، البلد المعروف فيما بين مصر والشام . وائل : اسم جبل . انظر لسان العرب « ايل » . صارة الجبل : رأسه وقيل اسم جبل قرب وادي القرى . ياقوت ، معجم البلدان « صاره » .
(١٤) اراد كالتابي أما اللسان « ايل » .

(١٥) وقيل الايلة بلدة مميئة كانت في قديم الزمان فخرت . انظر رواية البيهقي في نشوة الطرب ٨١٢/٢ .

(١٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، سورية ص ٦٧ .

(١٧) سفر الملوك الاول الاصحاح : ٩ آية ٢٦ . ومما يجدر ذكره ان سليمان استعان بالملك حيرام ملك صور الذي يقي الذي بنى له السفن وزوده بالنواتي ، انظر نفس الاصحاح .

(١٨) سفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ آية : ٢ .

(١٩) انظر حول هذا الموضوع سفر الملوك الثاني ، الاصحاح ١٤ آية ٧ وسفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ الايات ٦ - ٩ والاصحاح ٢٨ الايات ١٦ - ١٩ وما ستنتج قاموس الكتاب المقدس ١٨٤/١ وما بعدها . Musil, Hegaz, P. 274, وجواد علي ، الفصل ٦٤٣/١ .

(٢٠) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ .

وانظر ايضا

G.A. Smith, Historical Geography of the Holy land, (London 1894, 1968)
P. 367.

(٢١) انظر مفيد رائف العابد ، حول مصادر تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية دمشق ، العدد ٦ لسنة ١٩٨١ ص ١٣٦ . وحول ايلة في زمن البطالة انظر : جواد علي ، الفصل ٢٧/٢ ، سيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ١٩٠ . ومصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ٤٩٣/١ . يرى بعض الباحثين ان Berenice هي عصيون جابر انظر جواد علي ٦٣٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق . سيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، وانظر جلدن : «Ayla» Vol. 1. E 2 .
اراترستنس احد اشهر ثلاثة كتاب في العصر الهيليني (٣٢٣ - ٢١ ق.م) مفيد العابد ، مجلة دراسات ص ١٣٦ .

(٢٢) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ ، ٣٩٤ .

(٢٣) سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ١٦ .

(٢٤) جواد علي ، الفصل ٦٥/٢ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٤٢ .

(٢٥) جواد علي ، نفس المرجع ٧١/٣ . ومن الطريف ان يذكر شيخ الربوة أن : « بلاد الشام في العهد الروماني كانت مقسمة الى اربعة السام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية ويسمى بالاردن ، وقسم قصبته حمص وقسم قصبته ايليا « بيت المقدس » ويسمى فلسطين وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه » مع العلم ان هذه التقسيمات اسلامية ، انظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٩٢ .

(٢٦) ورد ذكر فينان في سفر العدد اصحاح ٣٣ الآيات ٤٢ - ٤٣ أثناء عبور الاسرائيليين فلسطين ، وتلفظ « فينون » ايضا واشتهرت بمناجم النحاس - على حد زعم التوراة - وكانت في العهد البيزنطي مركزا لاسقفية . انظر لويس مخلوف ، الاردن تاريخ وحضارة واثار ، عمان ١٩٨٣ ص ٢٢٩ .

Glidden, I.E.2, vol.1.pp. 783-84

(٢٧)

وموسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية « ايلة » ٢٠٧/٣ جواد علي ، المرجع السابق ٧١/٣ .

(٢٨) الاب لويس شيخو ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٤٨/٢ . جواد علي ، المرجع السابق ١٧٠/٤ .

(٢٩) شيخو ، المرجع السابق ٤٧/١ ، ١٠٨ . موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « ايلة » .

(٣٠) شيخو ، المرجع السابق . الدباغ ، المرجع السابق ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٣١) شيخو ، المرجع السابق ، ٤٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق ص ٤٩٣ .

(٣٢) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « ايلة » .

(٣٣) جواد علي ، المرجع السابق ٦٠٦/٢ .

(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ ٢٤/٢ وما بعدها .

(٣٥) الهمداني ، صفة . ص ١٢٩ . جواد علي ، المرجع السابق ٢٤٥/٤ .

(٣٦) انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٤٢١ . تاريخ ابن خلدون ٣٧/٢ . جواد علي ، المرجع

السابق ٤٦٢/٤ . وفي رواية ان فروة كان على عمان او معان ، الطبقات الكبرى ٢٨١/١ .

(٣٧) الطبقات الكبرى ٢٨١/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ .

(٣٨) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ١٦/٣ . تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ - ٢٠٤ .

(٣٩) تاريخ ابن خلدون ، المرجع السابق والصفحة .

(٤٠) انظر ابن قتيبة ، المعارف ص ٦٤٣ ، ابن منظور ، اللسان « ايلة » البكري ، معجم ما استمعتم ، ٢١٦/١ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٦٢ .

(٤١) الاتم : واد يسيل من حسمى على ليلة .

(٤٢) نعمى : ماء يفيء عليها ظل الشوق بالعشي . والشوق : اعظم جبل بحسمى . انظر حمد الجاسر ، ابو علي الهجري وابحائه في تحديد المواضع ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٤٣) اليوم : شجر القل وهو لا يكى ، نما يكى النخل : انظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٢٣٢ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٨٢/٦ .

(٤٤) الوشاة : المضربون . ناصع : مشرق . يتاكل : أي ياكل بمضه بعضا من حسنه . الهبرزي : الدهنار الجيد ، وقيل الذهب الخالص . انظر : ياقوت ، معجم البلدان (ايله) ٢٩٢/١ . ابن منظور ، اللسان « هبرز » .

(٤٥) انظر : سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ٢١٢ . سيأتي الحديث عن الناحية الثقافية ليلية في الجزء الاخير من هذا البحث .

(٤٦) ستاتي مصادر كتاب الصلح عند ايراد هذا الكتاب في الصفحات القادمة .

(٤٧) انظر المصادر التي اوردت كتاب الصلح .

(٤٨) قوله : غير كسوة « الفراء » بالمعجمتين وفي اخره همزة والظاهرة ان الصحيح « الفزاة » بالتاء جمع فاذية بمعنى المقاتلة ، اي غير ثوب المقاتل كالعرع ، وثوب حرير يختص بحال الحرب ، وفي نسخة ابن عساكر « الفراء » ولا يناسب سياق الكلام ، انظر الاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦٢/١ .

(٤٩) حريث بن زيد الطائي ، يعتقد انه ابن زيد الخيل الذي لقب ايضا بزيد الخير ، انظر تحليل الرسالة ، الاحمدي ، المرجع السابق ١٦١/١ - ١٦٤ .

(٥٠) طبقات ابن سعد « والنص له » ٢٧٧/١ - ٢٧٨ . وانظر تهذيب ابن عساكر ١١٤/٤ . وفي مجموعة الوثائق السياسية لعميد الله ص ٨٧ رقم (٣٠) عن الطبقات وابن حديدة في الصباح المضيء في كلمة يحنه ، والزرقي ٣٦٠/٣ ثم نقل كاتاني ٩ : ٢٨ « التعليقة الاولى » واشبرنكر ٣٢١/٣ - ٤٢٢ واشبرنكر ص ٢١ - ٤٢ . والاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦١/١ - ١٦٤ . وقد ضبطت المصدر اسم صاحب ايله تارة « يحنه » وتارة اخرى « يوحنا » واكثرها على اللفظ الاول ، انظر الاحمدي ، المرجع السابق .

(٥١) البلاذري ، فتوح ص ٧١ ، وانظر ابن سعد ، الطبقات ١٦٥/٢ . وتاريخ ابن عساكر « رواية ابن اسحاق » ٤٢٤/١ .

(٥٢) المغازي ١.٣١/٢ .

(٥٣) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ - ٥٢٦ . وانظر مغازي الواقدي ١.٣١/٢ وطبقات ابن سعد ٢٨٩/١
وابو عبيدة الاموال ٢٨٧ - ٢٨٨ وتاريخ ابن عساكر م ١ ص ٤٢٤ . والسيرة الحلبية ١٦٠/٢ .
ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم ٢١ - ٢١ ا ص ٨٨ ، عن القسطلاني ، الواهب
اللذنية ٢٩٧/١ ، وسيرة ابن سيد الناس ٢٢٠/٢ والزرقاني في شرح الواهب ٢٥٩/٢ ، والمقرزي ،
امتاع الاسماع ٤٦٨/١ ، وابن زنجويه ، الاموال « نسخة خطية » رقم ٦٩ ب و ٧٠ ا واليهقي ،
دلائل النبوة ، خطية كوبرولو بتركيا ، ج ١ ورقة ٢٣ ب . واحمد بن حنبل ، المسند ٤٢٥/٥ .
والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ .

(٥٤) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ - ٥٢٦ .

(٥٥) الواقدي ، المغازي ١.٣١/٢ طبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٨٨ .
ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم ٢١ - ٢١ ا ص ٨٨ - ٨٩ .

(٥٦) السبكي ، تاج الدين ابي نصر ، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٦/٥ .

(٥٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٧١ ، والمسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وقدامة بن جعفر ،
الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٧٠ . وياقوت الحموي ، معجم البلدان « ايله » ٢٩٢/١ . وابن
الاثير ، الكامل في التاريخ ١٩١/٢ . وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/١ .

(٥٨) قدامة بن جعفر ، الخراج ... ص ٢٧٠ .

(٥٩) مغازي الواقدي ١.٣٠/٢ . والمسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/١
وانظر ايضا مصادر كتاب الصلح السابقة .

(٦٠) حول البرده انظر : العماد الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، ص ١٢ حا : ه من القسم
المراقي . والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ٢٦٩/٢ ،
وحاشية ابن هشام على بانت سعاد ، ومقالة الاثار النبوية لاحمد تيمور في « مجلة الهداية الاسلامية
المصرية » م ١ ج ٨ لسنة ١٣٤٨ هـ .

(٦١) انظر القصيدة في سيرة ابن سيد الناس ٢٠٩/٢ وما بعدها .

(٦٢) خطط المقرزي ٢٤٥/١ وما بعدها .

(٦٣) انظر محمد حميد ، الوثائق السياسية ص ١١١ وما بعدها ، وابو عبيد ، الاموال ص ٢٠٧ .

(٦٤) ياقوت ، معجم البلدان « ايله » ٢٩٢/١ . اليعقوبي ، البلدان ص ٩٤ ، الحميري ، الروض
المعطار ص ٧٠ ، ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ ، القزويني ، اتلر البلاد ص ١٥٣ . ان ظاهر
كتاب الرسول ليحنه يعني كونهم نصارى ، انظر الاحمدي مكاتيب الرسول ص ١٦٤ .

- (٦٥) ولفسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨ وانظر ايضا الافقاني ، اسواق العرب ص ٢٤ .
- (٦٦) البلاذري ، فتوح ص ١١٦ . وتاريخ الطبري ٢٨٧/٣ .
- (٦٧) اليعقوبي ، بلدان ص ٩٤ ، وياقوت ، معجم البلدان « ايلة » ٣٩٢/١ .
- (٦٨) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ ، وياقوت الحموي ، المشترك وضعاً والمفترق صقماً ص ١٤١ .
- (٦٩) انساب المسماني ٤٠٩/١ .
- (٧٠) النووي ، تهذيب الاسماء واللفات ٩٠/١ .
- (٧١) الحميري ، الروض المطار ص ٧٠ .
- (٧٢) الطبري « رواية سيف » ٦٤/٤ .
- (٧٣) ابن الكلبي ، جمهرة النسب « رواية ابن حبيب » خطيه ص ٢٥ .
- (٧٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٢/٤ .
- (٧٥) تاريخ الطبري ، ٣٧٨/٤ .
- (٧٦) المرجع السابق ٤٤٢/٤ . وتاريخ ابن خلدون ٤٠٥/١ .
- (٧٧) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ٧٤/٥ .
- (٧٨) اهل اللغة في الاسلام ص ٢١٥ .
- (٧٩) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٢ .
- (٨٠) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٣ . بصاق : مكان بين التيه وايله : انظر : ياقوت ، المشترك وضعاً والمفترق صقماً ص ٥٥ .
- (٨١) البلاذري ، انساب الاشراف ٢٥٦/٥ .
- (٨٢) المرجع السابق والصفحة .
- (٨٣) في رواية غير موثقة ذكر مولوي ، س . ١ . ف . حسيني ، ان عمر قسم جند فلسطين الى قسمين جعل ايلة عاصمة احدهما والرملة عاصمة القسم الاخر . وتبعه في ذلك علي حسني الخربوطلي . انظر حسيني في كتابه « الادارة العربية » ص ٨١ ، والخربوطلي ، في كتابه « الاسلام والخلافة » ص ٩٠ .
- (٨٤) انظر ملكة ، ابيض ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الاولى ص ٤١٠ .

- (٨٥) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٠٩ .
- (٨٦) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٠٩ .
- (٨٧) الكندي ، الولة والقصة ص ١٤٢ . والنجوم الزاهرة ١٣٤/٢ - ١٣٥ .
- (٨٨) النجوم الزاهرة ١٠١/٣ .
- (٨٩) المرجع السابق ٩٠/٢ .
- (٩٠) القريري ، خطط ٢٤٥/١ وما بعدها . وموسل ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية «أيلة» .
- (٩١) حسان بن جراح الطائي : احد اسرة بني جراح من قبيلة طيء اليمنية الذين استقروا في فلسطين كان لهم دور في الحياة السياسية في الشام في نهاية القرن الرابع الهجري واول القرن الخامس ولكنهم لم يستطيعوا اطلاقا ان يؤسسوا دولة ولا ان تكون لهم عاصمة الا لفترة قصيرة جدا في الرملة . وتولى حسان بن جراح في سنة ٤٠٤ هـ وكون بالاشتراك مع صالح بن مرداس وسان بن البنا حلفا ليستقلوا بالشام عن الدولة الفاطمية فتكون حلب لابن مرداس ودمشق لسان بن البنا وفلسطين لابن جراح . وطلبوا معاونة الامبراطور البيزنطي فلم سمفهم ، واستعان الفاطميون على محاربتهم بالقائد المشهور انوشكين الذبري . انظر المسبحي ، اخبار مصر ج ٤٠ ص ٣٥ ، ها : ١ .
- (٩٢) المسبحي ، اخبار مصر ، ج ٤٠ ص ٢٤ - ٢٥ . القريري ، خطط ٢٤٧/١ ، اتماظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ١٤٢/٢ .
- (٩٣) النجوم الزاهرة ٨٠/٥ .
- (٩٤) محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ، ص ١١٠ .
- (٩٥) القريري ، السلوك ١٢ ج ٣ ص ٧٨٣ . والنجوم الزاهرة ٣٦/٨ وما بعدها .
- (٩٦) ابن كثير ، البداية والنهاية . حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، ٢٢٥/١٤ وما بعدها .
- (٩٧) موسل ، دائرة المعارف الإسلامية « أيلة » وقارن ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٧٨ - ١٧٩ .
- (٩٨) حول اهداف الصليبيين من احتلال أيلة والمنطقة المجاورة ، انظر :
Prawer, (J). The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, p.71
King. Knight Hospitallers, P. 115.
Lane pool, Saladin, p. 175.
- سميد عاشور ، الحركة الصليبية ٣٢٧/١ .
- يوسف فوانمه ، امارة الكرك الايوبية ص ١٢٧ وما بعدها .

(٩٩) William of tyer, A History of deeds done beyond the sea, vol. 1. P. 513.

وعاشور ، ائرجع السابق والصفحة .

موسل ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية « أيلة » ، ومحمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ص ٥ . وغوانمه ، المرجع السابق ص ٩٩ .

(١٠٠) ابن قاضي شهاب ، سيرة الملك نور الدين ، لوحة (٩٥) مخطوط ، نقلا عن غوانمه ص ٩٩ . وانظر عاشور ، المرجع السابق ٧١٥/٢ .

(١٠١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١١٠/٩ ، والمقرئزي ، خطط ٢٤٧/١ . وابو شامة ، شهاب الدين ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج ١ ق ٢ ص ٤٨١ . وابن شداد ، النواتر السلطانية والمعاسن اليوسفية ، ٢١٤/١ . والبنداري ، سناء البرق الشامي ، ١٠٩/١ . وسبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ١٧٧/٨ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١٩٨/١ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٥٢/٣ . وابن الوردي ، تنمة المختصر ٧٨/٢ ، وابن كثير البداية والنهاية ٢٦٣/١٢ . ورائسمان ٦٣١/٢ وعاشور ، المرجع السابق ٧١٨/٣ ومحمد عدنان البخيت ص ٧ . وغوانمه ص ١٢٨ .

(١٠٢) راجع نص هذه الرسالة في : ابو شامة ، الروضتين ٦١٩/١ - ٦٢١ . وابن واصل ، مفرج الكروب ٤٨٦/٢ - ٤٩٢ . والقلقشندي ، صبح الاعشى ٨١/١٣ - ٩٠ .

(١٠٣) يوسف غوانمة ، امارة الكرك ص ١٠١ .

(١٠٤) ابو شامة ، الروضتين ٣٥/٢ . وابن واصل ، مفرج الكروب ١٢٧/٢ ، وغوانمه المرجع السابق والصفحة .

(١٠٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٦) ابو شامة المرجع السابق والصفحة . وابن واصل ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٧) نول الاسلام ٩٠/٢ .

(١٠٨) حول حملة ارناط هذه انظر : المقرئزي ، السلوك ، ٧٨/١ - ٧٩ وخطط المقرئزي ٢٤٧/١ ، ورحلة ابن جبير ص ٢٩ - ٣٠ ، والكامل لابن الاثير حوادث سنة ٥٧٧ هـ ١٥٩/٩ - ١٦٠ ، ومفرج الكروب ١٢٠/٢ ، ٣١٧/٣ - ٣١٨ ، وابو شامة ، الروضتين ٢٥/٢ ، وابن خلدون ، تاريخ ٢٩٩/٥ ، والحبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢٨٠/١ ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٣٦/٨ ، وفيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ٢٣٧/٢ ، ورائسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٧٠٦/٢ وانظر ايضا :

Coder, The Latin Kingdom, p. 140, 381.

Stevenson, W.D, The Crusaders in the east, p.229.

King, Knight, P. 115.

Lane poole, Saladin p. 176.

وسعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٧٨٤/٢ .

(١٠٩) جمع الدكتور الشيال رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة في آخر كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ من رقم ٧ - ١١ ص ٢١٢ - ٢١٨ . انظر يوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١٠) حسام الدين لؤلؤ : كان من كبار قواد صلاح الدين الايوبي ، وعرف بأنه اشجع الشجعان والفرس الفرسان ، فهو الذي حطم الفرنج في بحر ابله وبر الحجاز وكان كثير المبرات واسع الخيرات اشترك في معارك عديدة ضد الصليبيين ، وفيه يقول الرضي بن ابي حصينه المصري مخاطبا الفرنج :

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدر في البحر لا يخشى من القبر
فامر حسامك ان يحظى بنحسهم فالدر من كان منسوباً الى البحر

توفي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ

انظر ابو شامه ، الروضتين ٢/٢٤٠ عاشور ، المرجع السابق ، ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٢٢ .

(١١١) حول هذه الحملة انظر : مصادر حملة ارنط السابقة وسميد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٧٨٧ وما بعدها . ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٩/١٥٩ - ١٦٠ وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٣) رابغ : مدينة على ساحل البحر الاحمر منها يمر الحجاج ، وهي تقع الى الشمال من جدة .

(١١٤) الحوراء : مدينة على ساحل وادي القرى ، بها مسجد جامع وبها ثمانية آبار عذبة وبها ثمار ونخل واهلها عرب من جهينه وبلي . انظر المقرئزي ، خطط ١/٣٤٧ ، وصبح الاعشى ٢/٣٨٩ .

(١١٥) انظر حول هذه الحملة ايضا : الضبلي ، الانس الجليل ١/٢٨١ . ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٢١ ، ٢/٢١٦ ، ٢/٣١٨ Conder, OP. cit., p. 147. وابو شامه ، الروضتين ٢/٢٥ والذهبي ، دول الاسلام ٢/٩٠ . وسبط ابن الجوزي ، وراة الزمان ٨/٢٣٥ . وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٦) سبط ابن الجوزي ، وراة الزمان ٨/٢٣٥ ، وابو شامه ، الروضتين ٢/٢٥ . وابن واصل مفرج الكروب ٢/١٢٨ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٣/٦٩ . ورائسمان ، الكروب الصليبية ٢/٧٠٧ و Lane poole, Saladin p. 176. ويوسف غوانمة ، امارة الكوفة ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(١١٧) ابن جبير ، الرحلة ص ٢١ . انظر رسالة القاضي الفاضل الى الخليفة يصف فيها فتح ايلة في صبح الاعشى في صناعة الانشا ٧/٢٧ - ٢٨ .

- (١١٨) تنمة المختصر في اخبار البشر ١٤٠/٢ .
- (١١٩) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « ايله » ص ٢٠٨ .
- (١٢٠) ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ . والمقريري ٦ خطف ١٨٤/١ ومحمد عدنان البقيت ، مملكة الكرك ص ٢٩ .
- (١٢١) Gildden, M.W. The Mamluk Origin of the Fortified Khan At Al Aqaba, Jordan , Archaeologica Orientalia in memoriam , E. Hery Feld , New York, 1952, pp. 116-118.
- (١٢٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٩ .
- (١٢٣) وذلك على غير ما ذهب اليه جلدن اعتمادا على ابن الماس ، ان خيربك رافق قانصوه الفوري سنة ٩٢٢ هـ ويمكن ان يكون قد قتل في تلك المعركة . انظر مقالة جلدن السابقة .
- (١٢٤) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، المرجع السابق ج ٥ ص ٣٩ وما يصد . وانظر ايضا ، الحميري الروض المطار ص ٧١ .
- (١٢٥) انساب السمعاني ، ٤٠٩/١ رقم (٢٩٠) .
- (١٢٦) المسمودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .
- (١٢٧) الافغاني ، ٦٩/٧ . نسب لايلة اكثر من واحد بهذا الاسم ولم نتبين ايهم الذي عنه ابو الفرج الاصفهاني . انظر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦١٢/٢ .
- (١٢٨) انظر على سبيل المثال ، المحبر ص ٣٧ ، والنجوم الزاهرة ٢٠٦/٦ - ٢٠٨ .
- (١٢٩) اكتفينا بالتحريف بالمشهورين من العلماء الذين نسبوا الى ايله ، وذكرنا اسماء الآخرين ذكرنا فقط . ولا ندعي ان هذه الاسماء هي كل مانسب الى ايله من علماء ومحدثين .
- (١٣٠) انظر طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، وطبقات ابن خياط ، ص ١٩٦ ، ويحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، (انظر يونس بن يزيد الايلي في فهرس الاعلام) والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٢٩/١ . وانساب السمعاني ٤١٠/١ رقم (٢٩٠) والذهبي ، المحبر ٢١٨/١ . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٤٥٠/١١ وما بعدها ، رقم (٧٦٩) .
- (١٣١) المؤمنون آية ٦٧ . عن عقيل انظر : طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . وطبقات ابن خياط ص ٢٩٥ . والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ و ٦٢٦/١ وصفحات متفرقة - انظر الفهرس . والذهبي ، سير اعلام النبلاء ٢٤١/٥ « يذكر ان الزهري كان امير جند » . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ وما بعدها رقم (٤٦٧) .

- (١٣٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ص : ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٥١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٧٢/٦ . الذهبي ، تذكرة الحفاظ رقم « ٥٤٨ » ، ابن حجر ، تهذيب « ١٢ » ٧-٦/١/١ . انساب السمعاني ٤١١/١ .
- (١٣٣) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ١٥٣/٢ . ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٤٤/٩ رقم ٥٦٧ .
- (١٣٤) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٢/٢٠٦٥/٢ ، ٣/٢٠٤٤/٣ ، ٣٦٧/٣ ، انساب السمعاني « ٢٩٠ » ١٠/١ ، تهذيب ابن حجر « ٢٧٦ » ١٥٤/٨ .
- (١٣٥) ابن سعد ، الطبقات ، ٥٢٠/٧ ابن خياط ص ٢٩٥ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٢/١ ، تهذيب ابن حجر (٥١٥) ٢٧٣/٣ .
- (١٣٦) ابن سعد ، الرجوع السابق ٥١٩/٧ . ابن خياط ص ٢٩٦ ، تهذيب ابن حجر (٤٧) ١٩/٥ - ٢٠ .
- (١٣٧) البلاذري ، فتوح ص ٧١ .
- (١٣٨) طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، البسوي ، الرجوع السابق ٤٤/٣ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال رقم (٤٧٤٣) ٥٢٤/٢ . تهذيب ابن حجر (٢٠٩) ١٠٣/٦ .
- (١٣٩) طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . تهذيب ابن حجر « ٦٢٨ » ٢٢٤/١١ .
- (١٤٠) البسوي ، المعرفة والتاريخ ١٦٣/١ . ابن حجر ، تهذيب رقم (٨٨٥) ٤٧٦/٢ .
- (١٤١) البسوي ، المعرفة ٥٨٤/١ ، ٦٩٠/٢ . ابن حجر ، تهذيب (٩٠٨) ٤٨٧/٢ .
- (١٤٢) ابن حجر ، تهذيب (٢٧٢) ٢٣١/١١ .
- (١٤٣) ابن حجر ، تهذيب (٦٢٩) ٣٧٤/٤ - ٣٧٥ .
- (١٤٤) ابن حجر ، تهذيب (٢٢٦) ١٢٣/٣ .
- (١٤٥) ابن عساکر التهذيب تاريخ دمشق ٣٩٧/٤ .
- (١٤٦) م.ن. ٣٥٩/٤ .
- (١٤٧) م.ن. ١٩٠/٥ .
- (١٤٨) ابن حجر ، تهذيب (٤١٧) ٢٢٥/١ - ٢٢٦ .
- (١٤٩) الاسنوي ، طبقات الشافعية ١٢٣/١ رقم (١٠١) .
- (١٥٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٢٨/١ رقم (٥٣٨) .

- (١٥١) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٩/١ .
- (١٥٢) طبقات ابن سعد ٥٢٠/٧ .
- (١٥٣) شذرات الذهب ٣٥/٧ .
- (١٥٤) الهمداني ، الاكليل ٢٣٢/٨ .
- (١٥٥) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .
- (١٥٦) الاغانى ٦٩/٧ .
- (١٥٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٠٧ .
- (١٥٨) افقوت ، معجم البلدان « ايله » .
- (١٥٩) الاكليل ٢٠٥/٨ .
- (١٦٠) النجوم الزاهرة ١٥٧/٢ .
- (١٦١) المرجع السابق ٢٠٢/٢ - ٢٠٣ .
- (١٦٢) الطبقات الكبرى ٥٥٤/٧ .
- (١٦٣) البسوي ، المعرفة والتاريخ « عن العباس بن عبد المظالم » ٦٢١/١ .

ثبت المصادر والمراجع « حسب الحروف الهجائية » .

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس ، العهد القديم ، جميعات الكتاب المقدس ١٩٥٢ .
- ابيض ، ملكة ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الاولى . دار العلم للطالبيين ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ .
- ابن الاثير ، ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين المنوفى ٦٣٠ هـ .
- الكامل في التاريخ ، غنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، ط ، بيروت ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- الاحمدي ، علي بن حسين ، مكاتب الرسول ، دار صعب للطباعة بيروت ، بت .

- الاسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ ، طبقات الشافعية ، نج . عبد الله الجبوري ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- الاصطخري ، ابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، المسالك والممالك ، نج . دي جويه ، طبعه بريل ١٩٢٧ م .
- الاصفهاني ، ابي الفرج علي بن الحسين ت ٢٥٦ هـ - ٩٧٦ م « كتاب الافاني » مصور عن طبعة دار الكتب مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، نج . حمد الجاسر وصالح العلي ، دار البمامه - الرياض ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- الاصفهاني ، عماد الدين الكاتب ، « خريدة القصر وخريدة العصر » ، القسم العراقي ، ج ١ ، نج . محمد بهجة الانري وجميل سعيد ، مطبعة الجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .
- الاففاني ، سعيد ، « أسواق العرب في الجاهلية والاسلام » ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- الالوسي ، محمود شكري « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » ، نج . محمد بهجة الانري ، ط ٢ ، مصر ١٣٤٢ هـ .
- امين احمد « فجر الاسلام » ط ١ ، مصر ، ١٩٦٥ .
- الاندلسي ، ابي القاسم صاعد بن احمد بن صاعد ت ٤٦٢ هـ - (١٠٦٩ / ١٠٧٠ م) ، « طبقات الامم » نج . لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٢ م .
- الانصاري ، شيخ الربوه شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي ، « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ، نشر A. Mehren لينزغ ١٩٢٣ م .
- ابن اناس ، محمد بن احمد بن اياس الحنفي ، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، دار الفكر ، بيروت ، بت .
- ابن اياس ، محمد بن احمد ، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ج ٥ ، نج محمد مصطفى ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .
- باركر ، ارنست ، « الحروب الصليبية » ترجمة الباز المريني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- البخيت ، محمد عدنان ، « مملكة الكرك في العهد المملوكي » ط ١ ، عمان ١٩٧٦ م .
- بروكلمان ، كارل « تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العربية نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي ، ط ٥ ، بيروت ١٩٦٨ .

- البسوي ، ابي يوسف يعقوب بن سفيان ، ت ٢٧٧ ، « المعرفة والتاريخ » رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، تع . اكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ، ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م - ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م « رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » دار الكتاب اللبناني دار الكتاب المصري .
- البلاذري ، ابي الحسن احمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ « انساب الاشراف » ج ٥ طبعة القدس ١٩٢٦ م .
- البنداري ، « فتوح البلدان » عنى بمراجعتها والتعليق عليه ، رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م .
- البنداري ، قوام الدين الفتح علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، « سنا البرق الشامي » ، مختصر البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الاصفهاني ت ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م تع . فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- ترتون ، دكتور آ. س ، ترتون « اهل الذمة في الاسلام » ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار المعارف ط ٢ مصر ١٩٦٧ م .
- الجاحظ ، ابي عثمان عمرو بن بحر « البيان والتبيين » ، دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م .
- الجاسر ، حمد ، « ابو علي الهجري وابحائه في تحديد المواضع » ، ط ١ ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ابن جبير ، ابي الحسن محمد بن احمد الاندلسي ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م « رحلة ابن جبير المسماة : تذكرة الاخبار في اتفاقات الاسفار » تع . حسين نصار ، القاهرة ١٩٢٥ م .
- ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ، حيدر آباد - الهند ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٥ .
- ابن الجوزي ، سبط ، شمس الدين ابو المظفر يوسف ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م « مرآة الزمان في تاريخ الاعيان » ج ٨ ، مخطوط ، مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٨٧٨ ب .
- ابن حبيب ، ابي جعفر محمد ت ٢٤٥ هـ ، « الخبر » رواية ابي سعيد الحسن السكري ، اعتنت بتصحيحه ، ايلزه ليختن شتير ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
- حتى ، فيليب ، « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبرائيل جبور ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ م .

- ابن حجر ، شهاب الدين أبي الفضل ابن حجر المصقلاني ، ت ٨٥٢ هـ ، « تهذيب التهذيب » ط ١ ، الدكن ، الهند ١٢٢٥ هـ .
- العربي ، أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشر بن عبد الله « كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالج الجزيرة » تج . حمد الجاسر ، دار السمامة ، الرياض ١٢٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ابن حزم ، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، « جمهرة أنساب العرب » تج . عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٢٩١ - ١٩٧١ م .
- حسيني ، مولوي س . ا . ق . « الإدارة العربية » ترجمة إبراهيم أحمد العدوي مراجعة : عبد العزيز عبد الحق ، إشراف وزارة الثقافة العامة - مصر ١٣٧٨ - ١٩٥٨ م .
- الخطيب الشافعي ، علي بن برهان الدين . « أنساب العيون في سيرة الأمين والمأمون » المعروفة بالسيرة الخطبية وبهامشها السيرة النبوية لزني دحلان ، المطبعة الأزهرية بمصر ط ٣ ١٢٥١ هـ / ١٩٣٢ م .
- الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي ، « معجم البلدان » ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- الحموي ، « المشترك وضعما والمفترق صقما » مكتبة المثنى ، بغداد .
- حميد الله ، محمد « الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » ط ٣ بيروت ١٢٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم « الروض المطار في خبر الإفطار » تج . احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٥ م .
- الحنبلي ، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » عن نسخة المصنف المحفوظة في دار الكتب المصرية دار المسيرة ، ط ٣ بيروت ١٢٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- الحنبلي ، أبي اليمن القاضي مجير الدين ت ٩٢٧ هـ - ١٥٢١ م « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- ابن حوقل ، أبي القاسم بن حوقل النصيب « صورة الأرض » منشورات مكتبة الحياة ، بيروت .
- الخربوطلي ، علي حسني ، الإسلام والخلافة ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٩ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد المغربي ت ٨٠٩ هـ « تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . بتصحيح وعناية : طلال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس المغربي ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، مصر ١٢٥٥ هـ ١٩٣٦ م .
- ابن خياط ، أبي عمرو خليفة بن خياط شهاب العصفري ت ٢٤٠ هـ ، « كتاب الطبقات » رواية أبي عمران موسى بن زكريا التستري ، تج . أكرم العمري ، مطبعة الثاني ، بغداد ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

- الدباغ ، مصطفى مراد ، « بلادنا فلسطين » ج ١ ق ٢ ، ط ١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- الدينوري ، ابي حنيفة احمد بن داود ت ٢٨٢ هـ « الاخبار الطوال » ، تج . عبد المنعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ ، « دول الاسلام » ، حيدر اباد الدكن مطبعة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م .
- الذهبي ، نفسه ، « تذكرة الحفاظ » ط ٢ ، الطبعة الهندية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .
- الذهبي ، نفسه ، « المعبر في خبر من غير » ج ١ تج . صلاح الدين المنجد الكويت ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » القسم الرابع ، تج . علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بت .
- رانسمان ، ستيفن ، « تاريخ الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .
- زكي ، عبد الرحمن ، « الجيش المصري في العصر الاسلامي » مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- سالم ، سيد عبد العزيز ، « تاريخ العرب في العصر الجاهلي » بيروت ، ١٩٧١ .
- السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، ٧٢٧ - ٧٧١ هـ ، « طبقات الشافعية الكبرى » تج ، محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الطلو ، ط ١ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- ابن سعد ٦ محمد ٦ « الطبقات الكبرى » دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
- ابن سعيد الاندلسي ، ابي الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك « نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » تج . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى عمان ، الاردن ١٩٨٢ م .
- السمعاني ، ابي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ ١١٦٦ م « الانساب » تصحيح ونعطق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، « امين مكتبة الحرم المكي » دائرة المعارف المثمانية ط ١ ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
- ابن سيد الناس ، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس الشافعي ت ٧٣٤ هـ ، « عيون الاثر في فنون المغازي والشمال والسير » دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر ت ٩١١ هـ « تاريخ الخلفاء » تج . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، مطبعة المدني القاهرة ١٣٨٢ - ١٩٦٤ م .

- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي « الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ج ١ ق ٢ تج . محمد حلمي محمد أحمد ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ابن شداد ، القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عنبه ت ٦٢٢ هـ - ١٢٣٤ م . « كتاب سيرة صلاح الدين » المسماة « النوار السلطانية والمحاسن اليوسفية » مطبعة التمدن ، القاهرة ١٩٠٣ .
- شيخو ، لويس ، « النصرانية وأدائها بين عرب الجاهلية » المطبعة اليسوعية ، بيروت ١٩٢٣ م .
- الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير « تاريخ الرسل والملوك » تج . محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م .
- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » اعتنى بتصحيحه ، بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٣ م .
- ابن عبد ربه الأندلسي ، أحمد بن محمد ت ٢٢٨ هـ « العقد الفريد » تج . محمد سعيد العربي ، دار الفكر ، بيروت .
- أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، ت ٢٢٤ هـ « الأموال » تج . محمد خليل هراس ، ط ١ ، القاهرة ١٢٨٨ - ١٩٦٨ م .
- ابن عساكر ، ثقة الدين أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي ت ٥٧١ هـ « تاريخ دمشق » ١٢ تج . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، بت . « وتهذيب تاريخ دمشق » هذب ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، ت ١٣٤٦ هـ ، دار المسيرة ، ط ٢ بيروت ١٢٩٩ هـ - ١٩٧٩ .
- العماد الإصفهاني ، أبي عبد الله محمد بن صفى الدين ، أبو الفرج محمد بن نفيس ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ « الفتح القسي في الفتح المقدسي » تج . محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ .
- علي جواد ، « الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » بيروت ، ١٩٦٨ م .
- الحلي ، صالح « محاضرات في تاريخ العرب » ، بغداد ١٩٦٨ م .
- كرد علي ، محمد « الإسلام والحضارة الإسلامية » ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٨ م .
- كرد علي ، محمد ، « كتاب خطط الشام » دمشق ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- العمري ، شهاب الدين أحمد بن فضل الله ت ٧١٩ هـ - ١٢٤٨ م ، « مسالك الإبحار في ممالك الأمصار » ج ١ حققه أحمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٠٤ م .
- فوانمة ، يوسف حسن درويش ، « أمانة الكرك الأيوبية » ط ٢ عمان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

- أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ « القويم البلدان » . تج . رينود ومالك كوكين دي سلان ، باريس ١٨٤٠ .
- أبو الفداء « المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ أبي الفداء » دار المعرفة بيروت - لبنان .
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م « تاريخ الدول والملوك » نشر باسم تاريخ ابن الفرات تج . قسطنطين زريق ومشاركة نجلاء عز الدين ، المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .
- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين محمد بن أبي بكر بن قاضي شهبة الاسدي دمشقي ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م « سيرة الملك الصالح نور الدين الشهيد » مخطوط ، بلدية الاسكندرية رقم ١٣٣٦ ب .
- ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ / ٨٨٩ م « الشعر والشعراء » نسخة ليدن - بريل ١٩٠٢ م .
- ابن قتيبة ، « المعارف » تج . ثروة عكاشة ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ١٩٦٩ .
- قدامة بن جعفر « الخراج وصناعة الكتابة » شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١ م .
- القرشي ، يحيى بن آدم ت ٢٠٢ هـ « كتاب الخراج » صححه وشرحه الشيخ احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، ط ٢ ١٣٨٤ هـ .
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، « آثار البلاد واخبار العباد » دار صابر بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي بن احمد بن عبد الله بن أبي اليمى ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م « صبح الاعشى في صناعة الانسا » القاهرة ١٩٦٢ « نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية » .
- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي أبو الفداء ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م . « البداية والنهاية » مكتبة المعارف ، بيروت ومكتبة النصر ، الرياض ط ١ ، ١٩٦٦ م .
- ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد ت ٢٠٦ هـ « جمهرة النسب » رواية محمد بن حبيب ، مخطوط مصور .
- الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري « كتاب الولاة وكتاب القضاة » تهذيب وتصحيح رفن كست مطبعة الالباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م .
- أبو المعاسن ، جمال الدين يوسف بن تقري بردي الاتاكي ، « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .
- السعودي ، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦ هـ « التنبيه والاشراف دار التراث ، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

- المقبسي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري ت ٢٨١ هـ - ٩٩٢ م « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » دار خياط بالافست عن طبعة بريل ١٩٠٦ .
- المقرئ ، تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ « اتمالك الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » تج . محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٢٩ هـ ١٩٧١ م .
- المقرئ ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المروء بالخطط المقرئية » دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧ هـ .
- المقرئ ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المروء بالخطط المقرئية » دار التحرير مطبعة دار الكتب القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ م .
- المسبحي ، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد (٢٦٦ - ٤٢٠ هـ / ٩٧٧ - ١٠٢٨ م) اخبار مصر ج ٤ ، تج . ايمن فؤاد سيد وتبازي بيانكي (١) القسم التاريخي ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة ، بت .
- ابن منظور ، أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم الأفرقي المصري ، « لسان العرب »
- موسل ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية مادة « أيلة » .
- نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، القسم الثالث « سورية » دار المعارف ، ط ٢ مصر ١٩٦٦ م .
- النووي ، أبي زكريا يحيى الدين بن شرف ت ٦٧٦ هـ « تهذيب الاسماء واللفات » ادارة الطباعة المنيرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- ابن هشام ، أبي محمد عبد الملك ، ت ٢١٢ هـ « السيرة النبوية » تج . مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط ٢ ، مصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
- الهمداني ، أبي بكر أحمد بن محمد المروء بابن الفقيه « مختصر كتاب البلدان » طبع في مدينة لندن ، بمطبعة بريل ١٣٠٢ هـ .
- الهمداني ، أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب التوفي ما بين ٢٥٠ - ٢٦٠ هـ « الاكليل » ج ٨ تج . محمد بن علي الاكوع ، دمشق ١٢٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- الهمداني « صفة جزيرة العرب » تج . محمد بن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٤ م .
- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ « كتاب المغازي » تج . مارسلن جونس منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م . « مفرج الكروب في اخبار بني ابوب » ج ١ - ٣ تج . جمال الدين الشيال ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٦٠ م ، ج ٤ - ٥ تج . حسنين ربيع وسعيد عاشور ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧ م .
- ابن الوردي ، زين الدين عمر « تنمة المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي » تج . احمد رفعت البراوي ، دار المعرفة ، ط ١ بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م .
- ولفنسون ، اسرائيل « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام » مصر ١٩٢٧ م .
- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب ت ٢٨٤ هـ « كتاب البلدان » ط ٢ المطبعة العيصرية ، النجف ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

المراجع الاجنبية :

- 1) Conder, G.R. « The Latin Kingdom of Jerusalem » London, 1943.
- 2) Fulcher of chartres, «A History of the expedition to Jerusalem»1095-1127, trans. by France, Ritaryan Hew york, 1973.
- 3) A. Smith, Historical Geography at the Holy Land, (London 1824; 1968)
- 4) H.W. Glidden, 1. E 2, vol. 1, PP. 783-84.
- 5) King, E, The Knights Hospitallers in The Holy-land, London, 1943.
- 6) Lane poole, «Stanly» «Saladin and The Fall of The Kingdom of Jerusalem Beirut, 1964.
- 7) Prawer, J « The latin Kingdom of Jerusalem, London, 1872.
- 8) Schlumberger «G» «Renaul de chatillon, Paris, 1898.
- 9) Stevenson, W. D, «The Crusaders in The East» Beirut, 1968.

2 Vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
2vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
University Press. 1943.

التواريخ

(١) مفيد رائف المأبد ، حول مصادر تاريخ العرب ، مجله دراسات تاريخية ، دمشق العدد ١٩٨١/٦ م .
ص ١٢٩ وما بعدها .

H. V. Glidden, The Mamluk Origin of the fortified Khan At Al-Aqabah,
Jordan.

Archaeologica Orientaliain memoriam, E. Heryfeld, Newyork 1952, pp. (٢)
116-118.

N. Glueck , Bulletin of the American School of oriental Research , 71 (٣)
(1938) PP. 3f, 75 (1939) 8f.

* * *

حُدُود الجزيرة الفُراتية

عند الاصطخري وابن حوقل

(بين شحاط وسمياط)

د. عبدالمحسن العزاوي

جامعة دمشق

لاحظنا في كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل . وفي تفويم البلدان لابي الفداء ، وجود اختلاف فيما اوردوه عن الحدود الشمالية لاقليم الجزيرة الفراتية . فهناك اختلاف بين ما ورد عند الاصطخري وبين ما ورد عند ابن حوقل الاخذ عنه بالنسبة للمكان الذي تبدأ منه الحدود ، واتفاق على المكان الذي تنتهي اليه ، واختلاف كبير بين ما ورد عند الاصطخري وبين ما هو وارد عند ابي الفداء، كما نلاحظ تناقضا واضحا بين الحدود الواردة عند الاصطخري وبين المبدأ الذي سار عليه في تقسيم العالم الاسلامي الى اقاليم جغرافية ذات حدود طبيعية بارزة .

هذا ولقد تبين لنا بعد البحث ، بان هذا الاختلاف مختلف ، أحدثه النساخ بخلطهم بين مدينتين من مدن الفرات في اكثر من موضع هما : شمشاط الواقعة على مجرى نهر مراد ، وسمياط الواقعة على مجرى نهر الفرات بعد خروجه من جبال طوروس ولم يتنبه المحققون لهذا الخلط ، فجاءت النصوص عند الاصطخري وعند ابن حوقل على غير حقيقتها . كما واطهر التصويب الذي اجريناه في نصوص الاصطخري وابن حوقل ، بان نظرة الجغرافيين الثلاثة الى الحدود الشمالية للجزيرة واحدة في الاصل ، وهي متفقة في ان القوس المائي الذي يرسمه المجرى الأدنى لنهر مراد ومجرى نهر الفرات من مصب نهر مراد الى وصوله الى ملطية هو الحد الطبيعي والاداري للجزيرة في الشمال ، الامر الذي سوف تكون له اهميته في دراسة الكثير من الاحداث التاريخية التي جرت في المنطقة والتي تباينت وجهات النظر في نسبتها الى الجزيرة او لخارجها .

لذا ، فاننا نتوجه بالرجاء الى لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، ان تقوم باعادة طباعة كتابي الاصطخري وابن حوقل ، بعد ان تعيد تحقيقهما تحقيقا دقيقا ، وذلك لما لهما من اهمية جغرافية وتاريخية كبيرة والله الموفق .

* * *

جاء في كتاب الاصطخري « مسالك الممالك » ما يلي : « وأما الجزيرة فإنها بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يمين ويجري بينها وبين سميساط * ويمر على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة وقرقيسيا * * والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ، ثم يعدل حد الجزيرة في سمت الشمال الى تكريت وهي على دجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يتجاوز آمد فينقطع حد دجلة على بعد من حد ارمينية ، ثم يمتد مغرباً الى سميساط . ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأنا ، ومخرج دجلة فوق آمد من حد بلد الارمن وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها » (١ ، ٢ ، ٣) .

أرض الجزيرة*

وأما الجزيرة فإنها ما بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر ، ومخرج الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يمين * ويجري بينها وبين سميساط ، ويمر على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة ، وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ثم يعدل حد الجزيرة في سمت الشمال الى تكريت وهي على دجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يتجاوز آمد فينقطع حد دجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمتد مغرباً الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأنا ، ومخرج دجلة فوق آمد من حد بلد الارمن وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها *

الشكل (١)

النص كما ورد عند الاصطخري ، تع . دي جوييه ، ص ٧١ - ٧٢

صورة مشابهة لما ورد عند الاصطخري في حدود الجزيرة نراها عند ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » ، مع تعديل طفيف حيث يقول :

* اشار دي جوييه في هامش كتاب مسالك الممالك الى ورودها في المخطوطة (D) باسم شمشاط .

* الاسم الحالي لقرقيسيا هو البصرة ، ولامد ، ديار بكر .

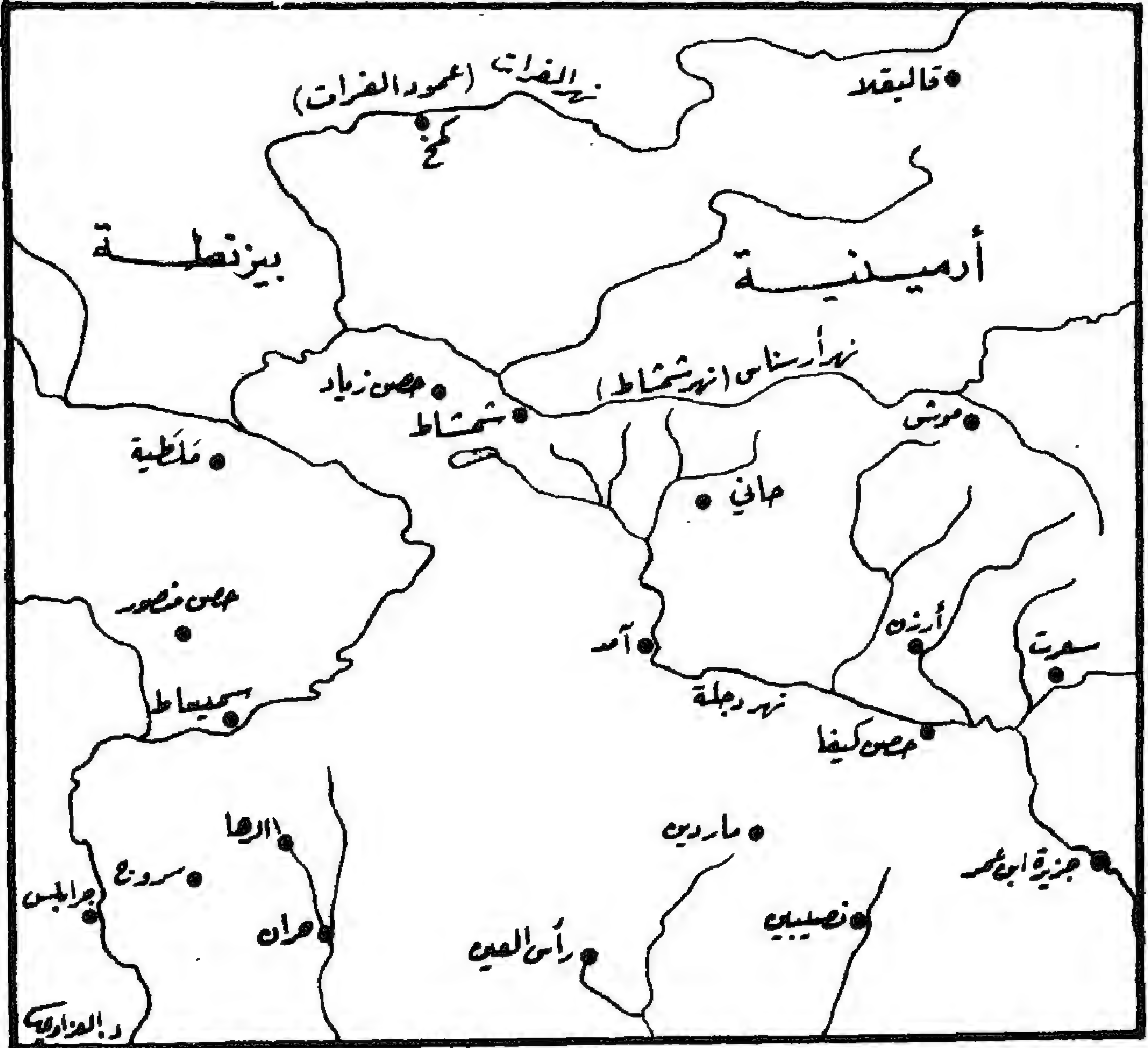
« فأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج
الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على يمينين ، ويجري بينها
وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين ، ويمر على سميساط ونواحي جسر
منبج على بالس إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار ، وينقطع الحد عن
الفرات مما يلي الجزيرة بالانبار ثم يعود حد الجزيرة إلى سمت الشمال فيكون الحد
العراق وتكريت على دجلة وينتهي الحد منها مصاعدا على دجلة إلى السن مما يلي
الجزيرة وإلى الحديثة والموصل ، ويصعد بصعود دجلة إلى الجزيرة المعروفة بابن
عمر ثم يتجاوزها إلى آمد . فيكون ما في غربها من حد أرمينية ، ثم يعود الحد مغربا على
البر إلى سميساط ، ثم ينتهي إلى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتداءه ،
وعلى شرقي دجلة . وغربي الفرات مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة وهي خارجة عنها
ونائية منها » . (٤) .

أما أبو الفداء وهو الثالث بين الجغرافيين العرب الذين ذكروا حدود الجزيرة
بالتفصيل فقد قال : « الجزيرة هي البلاد التي بين دجلة والفرات ، وقد ضموا
كثيرا من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام إلى
الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها ، والذي يحيط بالجزيرة الفرات
من حدود بلاد الروم وهو طرف الحد الغربي للجزيرة ، فيمتد الحد الجنوبي
الغربي مع الفرات إلى ملطية إلى سميساط إلى قلعة الروم إلى البيرة إلى قبالة
منبج إلى بالس إلى الرقة إلى قرقيسيا إلى الرحبة إلى هيت إلى الانبار ، ومن الانبار
يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ، ثم يعطف الحد من الانبار إلى تكريت وهي على
دجلة إلى السن إلى الحديثة على دجلة إلى الموصل إلى جزيرة ابن عمر إلى آمد . ثم
يصير الحد غربيا ممتدا بعد أن يتجاوز آمد على حدود أرمينية إلى حدود بلاد الروم
إلى الفرات عند ملطية من حيث ابتدأنا ، فعلى هذا يكون بعض أرمينية وبعض الروم
غربي الجزيرة وبعض البادية جنوبها والعراق شرقيها وبعض أرمينية شمالها ،
والجزيرة تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر » . (٥) .

في هذه النصوص الثلاثة المبينة لحدود الجزيرة اختلاف في الحد الشمالي ملفت
للنظر ، فما ورد في النص عند الاصطخري يدفع بالحدود الشمالية للجزيرة إلى
الجنوب من حدها المائي الطبيعي المتمثل بالمجرى الأدنى لنهر شمشاط (نهر أرسناس
كما أسمته الروم ومرادصو كما يسميه الاتراك) وذلك في قوله : « ثم يعود الحد بعد

آمد مقربا الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتداؤه ، اما ابن حوقل فهو بالرغم من اشارته الى بداية الحدود على نهر شمشاط الا انه عاد فانهاها عند سميساط . بينما نجد ابا الفداء يبدأ بالحدود مع الفرات قبل وصوله الى ملطية ويعود بها الى حيث ابتدا ، مشيرا اشارة غير صريحة الى مجرى نهر شمشاط كحد شمالي للجزيرة ، وذلك في مده للحدود بعد آمد باتجاه الغرب على حدود ارمينية ، وحدود ارمينية في هذا الجزء من الجزيرة هي مجرى نهر شمشاط (انظر في الخريطة المرفقة) . هذا الاختلاف جعلنا نتوقف عن رسم الحدود الشمالية للجزيرة عند وضعنا لخريطة النقاط الاهلة وطرق المواصلات في الجزيرة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي / ، الى ان نتعرف على اسبابه .

شمالي الجزيرة الفراتية



شكل (٢) ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥ كم

يقول ابن رسته في حديثه عن الاقليم الرابع : « ومن مدنه سرمن راي والموصل وبلد ونصيبين وآمد ورأس العين وقالي قلا وشمشاط وحران ... » ، ويقول أيضا : « وكور الجزيرة أرزن وميافارقين وآمد وسميساط وقردي وبازبدي وبلد ونصيبين ودارا ورأس العين وقرقيسيا والركة وسروج وحرانورها *** ورأس كيف * وشمشاط** » ، كما يقول : « ومن كور الجزيرة مما يسمى الثفور شمشاط وملطية وزبطرة ومرعش والحدث وسميساط وحصن منصور ، وتقسم كور الجزيرة كلها الى قسمين : قسم يسمى ديار ربيعة وقسم يسمى ديار مضر » ، (٦) . وأورد ابن خرداذبة مدینه شمشاط في عداد الثفور الجزرية وهي : سلفوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقوروس ودلوك ورعبان ، وقال ابو الفداء : « قال في اللباب : وشمشاط بلدة بالثفور الجزرية بين آمد وخرت برت *** * *** (٧) . وادخل ياقوت الحموي مدينة شمشاط في الجزيرة في ديار مضر ، حيث عرف ديار مضر بقوله : « وهي ماكان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حران والرفة وشمشاط وسروج وتل موزن » ، (٨) ، كما قال فيها : « شمشاط مدينة على شاطئ الفرات شرقيها بالوية وغربيها خربت . وهي الان محسوبة من اعمال خربت » (٩) وقال الاسطخري نفسه عند حديثه عن الشام : « وشمشاط هي ثغر الجزيرة لانها في غربي دجلة وشرقي الفرات ، واما ملطية وما ذكرناه من ثفور الشام فانما نسبناها الى الجزيرة لان اهلها يرابطون بها لقربهم منها ، والا فثغر الجزيرة على الحقيقة شمشاط » (١٠ - ١١) . كما ورد في مخطوطة كتاب الاقليم للاصطخري وهو الاسم الاخر لكتاب مسالك الممالك ، قوله : « . . . واما ملطية وماذكرناه من الثفور في ثغر الشام فانها تنسب الى ثفور الجزيرة لان اهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم ، والثغر الذي هو من صلب الجزيرة شمشاط » (١٢) . وقال قدامه في ذكر الطرق والمسافات : « وبين آمد وشمشاط بقرب ثفور الروم سبعة فراسخ » ، (١٣) . فشمشاط كما هو بين ثغر من صلب الجزيرة وجزء من اراضيها ويقع داخل حدودها ، واذا كان الجغرافيون العرب قد اختلفوا في تبعية بعض الثفور الى الجزيرة ، الا انهم لم يختلفوا في تبعية شمشاط لها . فهم اختلفوا حول تبعية ملطية ، حيث جعلها ابن خرداذبة من الجزيرة وعدّها في جملة ثغورها (١٤) ، بينما اخرجها الاصطخري من اقليم الجزيرة وادخلها في اقليم الشام ، وذلك بقوله : « وقد جمعت الى الشام الثفور وبعضه يعرف بثفور الشام وبعضه يعرف بثفور الجزيرة وكلاهما من الشام »

*** الرها حاليا هي مدينة اورفة .**

*** * * نرد احيانا باسم حصن كيفا .**

*** * * تعرف بحصن زياد واسمها الحالي خربوط .**

وذلك أن ما وراء الفرات من الشام وإنما سمي من ملطية إلى مرعش بشفور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون وبغزون لا لأنها من الجزيرة « (١٥) . كذلك فعل ابن حوقل الذي أورد النص نفسه تقريباً وذلك في قوله : « قد جمعت الثغور إلى الشام وبعض الثغور كانت تعرف بشفور الشام ، وبعضها تعرف بشفور الجزيرة ، وذلك أن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون وبغزون ، لا لأنها من الجزيرة وأعمالها » (١٦) . بينما رأى أبو الفداء في تبعية ملطية رأياً آخر حيث اتبعها ببلاد الروم وذلك بقوله : « وقد عد ابن حوقل ملطية في جملة بلاد الشام . . . ، وأما نحن فعدناها في بلاد الروم وهو اليق بها (١٧) . كذلك خالف الاصطخري ومن بعده ابن حوقل من سبقه من الجغرافيين والإداريين العرب في إدخال ميا فارقين في الجزيرة مييناً أسباب ذلك بقوله : « وميا فارقين * بعدها قوم من الجزيرة إلا أنها دون دجلة وخلفها حد دجلة فيما صورنا ما بين دجلة والفرات لذلك جعلناها بارمينية (١٨) .

إن مثل هذا الخلاف عند الجغرافيين والإداريين بالنسبة لتبعية بعض الثغور للجزيرة لأنراه إلا نادراً بالنسبة لتبعية شمشاط لها ، بل هو في حقيقته تناقض يقع فيه المؤلف نفسه . مثال ذلك ما نراه عند ياقوت الحموي ، فهو في تعريفه لدير مضر أدخل شمشاط في الجزيرة كما رأينا قبل قليل ، وفي تعريفه لشمشاط قال : « شمشاط مدينة بالروم على شاطئ الفرات شرقيها بالوية وغربيها خربت » (٢٩) ، ثم قال في حديثه عن أرمينية : « وهي أرمينيتان الكبرى والصغرى . . . ، وقيل هي ثلاث أرمينيات وقيل أربع . . . ، والرابعة بها قبر صفوان بن المفضل صاحب رسول الله (ص) وهي قرب حصن زياد ، ومن الرابعة شمشاط وقاليقلا وأرجيش وباجنيس » (٢٠) .

تقع شمشاط على الضفة الجنوبية لنهر حمل اسمها كان يعرف قبل الفتح بنهر أرسناس وكذلك أرسونياس ، ويطلق عليه اليوم اسم نهر مراد أو مرادصو ، وقد عرفها الروم باسم أرموساتا Amosata (٢١) وأرساموساتا Arsamosata (٢٢) . وقد ذكر موقعها هذا وذكر نهرها كل من : ابن خرداذبة ، وذلك بقوله : « ومخرج الفرات من قاليقلا ، ويمر بأرض الروم ويستمد من عيون كثيرة ، ويصب فيه نهر أرسناس نهر شمشاط ، ويجيء إلى كمخ ويجري على ميلين من ملطية ويجيء إلى

* تعرف اليوم باسم سيلواني . (الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، تأليف أسكنر داود ، ص ٨٤)
كما تعرف باسم سيلوان . Silvan

جبلنا حتى يبلغ الى سميساط ، فيحمل من هناك السفن والاطواف ويجيء حتى يبلغ السواد . (٢٣) . كما ذكر ذلك سهراب بن سرابيون في معرض حديثه عن الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ويصب في الفرات أيضا نهر يقال له نهر ارسناس هو نهر شمشاط ، وأوله من جبل على حد بلد طرون ، ثم يمر بباب مدينة شمشاط ، ثم يمر بالقرب من باب حصن يقال له حصن زباد ، وعلى جانبي هذا النهر حصون ستة ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية بمرحلتين في الجانب الشرقي » (٢٤) . كما كرر الإشارة الى موقع شمشاط على نهر ارسناس في حديثه عن الانهار الرافدة الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ارسناس نهر يصب اليه نهر يقال له نهر الدائب ، مخرجه من جبل في ناحية قاليقلا يدور فيمر بحصون كثيرة ويصب في اوسناس فوق مدينة شمشاط بشيء يسير (٢٥) . وقال ابو الفداء : « ويصب في الفرات ويخرج منها انهر كثيرة ، فمن الانهار التي تصب فيها نهر شمشاط وهو نهر يمر على شمشاط ، ثم يمر على حصن زياد وهو خربت ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية » (٢٦) .

فتح المسلمون الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب بقيادة عياض بن غنم ثم فتحوا ارمينية واخلوا بالتوغل عبر الدروب في جبال طوروس ، وتمكنوا في العصر الاموي من دفع خط الحدود مع البيزنطيين بعيدا عن الشاطئ الغربي لنهر الفرات ، وكانت معظم حروب الامويين مع البيزنطيين حروب استقرار ، حيث كانوا يعمرن ما يحتلونه من اراضي ويقيمون فيها الجند ويبنون الحصون لمنع العدو من استرجاعها . ثم استلم العباسيون الثغور التي اسسها الامويون وكانت تتألف من اعداد كبيرة من الحصون والقلاع والمدن المحصنة (٢٧) ، منها شمشاط وحصن زياد على نهر ارسناس وكمخ وملطية على الفرات ، وقام ابو جعفر المنصور باعادة بناء ما تخرّب منها ، وتنظيم الصوائف والشواتي وشحن الثغور بالرجال والعتاد ، وجعل من منطقة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا . وقد تابع المهدي سيرة والده وكذلك فعل الرشيد ، مضيفا الى ذلك تأسيس اقليم مشابه لاقليم الاطراف البيزنطي على حدود البلاد الاسلامية الشمالية اطلق عليه اسم العواصم ، كانت عاصمته منبج ثم انطاكية ، ورتب له جيشا دائما يربط على طول حدوده (٢٨) . *

ظلت المواقع الحدودية المتقدمة في اسيا الصغرى قوية طوال العهد العباسي الاول ، الا ان اشغال الخلافة العباسية بتفاقم الثورات الكبيرة التي نشأت فيها ، مثل ثورة الزنج ، التي ظهر صاحبها للناس في سنة ٢٥٥ هـ ، وشغل الخلافة العباسية

* ان الترتيب الاداري الذي اوجده الرشيد للثغور لم يدم طويلا .

في قتاله أربع عشرة سنة وأربعة أشهر (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) ، فكانت مصيبة عظيمة على أهل الاسلام (٢٩١) ، وذلك في فترة حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ، ثم ثوره القرامطة التي بدأت في سنة ٢٧٨ هـ واستمرت الى سنة ٣٧٨ هـ (٣٠) ، وقصر الفترة التي حكم فيها الطولونيون بلاد الشام ، مكن بإسبيل الاول مؤسس الاسرة المقدونية من أن يدفع المسلمين شرقا على طول خط الحدود ، وأن يستولي تدريجيا ما بين سنتي ٢٥٨ - ٢٦٩ هـ / ٨٧١ - ٨٨١ م على جميع المعابر التي كانت تنفذ منها جيوش المسلمين الى آسيا الصغرى (٣١) . إلا أن المسلمين استطاعوا في فترة حكم المعتضد وفي فترة حكم المكتفي وفي معظم الفترة التي حكم فيها المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) من الظهور على الروم ، حيث تمكنوا من فتح عدد كبير من الحصون البيزنطية ، وتوغلت الصوائف الى أماكن متقدمة في أراضي بيزنطة ، فأخربوا قوتية في سنة ٢٩٤ هـ ، وأحرق رستم أمير الثغور حصن مليح الأرمني في آسيا الصغرى في سنة ٢٩٩ هـ ، وفي سنة ٣٠٢ هـ سار وزير المقتدر علي بن عيسى لغزو الصائفة فلم تبسر له فغزاها ثانية في برد شديد وثلج ، وغزا أيضا بشر والي طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم وأسر مائة وخمسين بطريقا ، (٣٢) . واستمرت الحال على ذلك حتى عام ٣٠٥ هـ حيث جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأجيبوا الى ذلك ، وامتدت الهدنة من عام ٣٠٥ هـ - ٣١٠ هـ . هذا وتشير قائمة الجباية التي أعدها علي بن عيسى وزير المقتدر لسنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، الى أنه لم يخرج من يد المسلمين من الثغور الجزرية الا ثغر كمخ ، بينما ظلت البقية في أيديهم ، حيث وردت فيها مقادير الجباية في شمشاط وحصن منصور وكيسوم وأرزن وميفارقين وغيرها من ثغور الجزيرة (٣٣) . وفي سنة ٣١٢ هـ عاد رسل ملك الروم مرة ثانية بطلب الهدنة وتقرير الفداء فأجيبوا الى ذلك ، ثم غدر الروم بالصائفة فدخل المسلمون بلادهم فأثخنوا فيها ، إلا أن الثغور ضعفت بعد ذلك عن دفع الروم ، لانشغال المقتدر بالفتن الداخلية ، فاستولى الروم على ملطية في سنة ٣١٤ هـ ، ثم ملكوا خلاط وبديليس صلحا في سنة ٣١٦ هـ ، وفارق أهل أرزن بلادهم خوفا من الروم (٣٤) . (أورد ابن حوقل استيلاء الروم على ملطية في سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م وقال في ذلك : « فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور » (٣٥)) .

قدر الباحثون فترة وضع الاصطخري لكتابه مسالك الممالك فيما بين سنة ٣١٨ و ٣٢١ هـ / ٩٣٠ - ٩٣٣ م (٣٦) ، أي في أواخر عهد المقتدر . فإذا أخذنا بما كتبه الاصطخري عن الثغور في فصل « ذكر أرض الشام » والذي يقول فيه : « ... ومما يلي الروم الثغور وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس » (٣٧) ، وكذلك قوله : « وأما العواصم فاسم الناحية وليس موضع

بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها انطاكية وهي بعد دمشق انزه بلد بالشام . . .
 وملطية مدينة كبيرة من اكبر مدن الثغور التي دون جبل اللكام وتحترف بها جبال كثيرة
 الجوز وسائر الثمار مباح لا مالك له وهي من قرى بلد الروم على مرحلة ، وحصن
 منصور حصن صغير فيه منبر وزروعه غذي ، والحدث ومرعش وهما مدينتان
 صغيرتان عامرتان . . . ، واما زبطرة فانه حصن كان من اقرب هذه الثغور الى بلد
 الروم خربه الروم ، والهارونية من غربي جبل اللكام . . . ، واسكندرونة حصن على
 ساحل بحر الروم صغير به نخل وبياس مدينة صغيرة على شط بحر الروم ذات
 نخل وزروع خصبة ، والبثنيات * حصن على شط البحر ايضا فيه يجمع خشب
 الصنوبر الذي ينقل الى الشامات والى مصر والثغور ، والكنيسة ، والمثقب حصن
 صغير بناه عمر بن عبد العزيز به منبر ومصحف له ، وعين زربة بلد يشبه مدن الثغور
 بها نخيل وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والرعي ، والمصيصة مدينتان احدهما
 تسمى المصيصة والاخرى تسمى كفر يبا على جانبي جيحان وبينهما قنطرة حجارة
 حصينة جدا . . . ، واذنة مدينة تكون مثل احد جانبي المصيصة على نهر يسمى
 سيحان وهي مدينة خصبة عامرة . . . ، وطرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة
 تشتمل على خيل ورجال وعدة وهي في غاية العمارة والخصب وبينها وبين حد الروم
 جبال هي الحاجز بين المسلمين والروم . . . ، وأولاس حصن على ساحل البحر وهي
 آخر ما على بحر الروم من العمارة للمسلمين « (٣٨) . وبأن المسلمين استطاعوا في سنة
 ٣١٩ هـ غزو بلاد الروم في الشتاء بقيادة ثمال والي طرسوس وأسروا نحو من ثلاثة
 آلاف من الروم ، ثم غزاها ثمال في الصيف فبلغ عمورية وقد فارقها الروم ، واوغل
 المسلمون في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا انقرة (٣٩) . ومما أورده
 الدكتور امينة بيطار عن حروب الحمدانيين المظفرة ضد البيزنطيين في الجبهة
 الارمنية وفي اقليم الجزيرة والتي امتدت من سنة ٣١٩ هـ الى سنة
 ٣٣٣ هـ / ٩٣١ م الى ٩٤٤ - ٩٤٥ م ، تمكن الحمدانيون فيها من تحقيق
 النصر على البيزنطيين فسي معظمها ، فاستعادوا ملطية في سنة ٣١٩ هـ ،
 وحطموا بقيادة سيف الدولة مقاومة البيزنطيين بين حصن سلام
 وحصن زياد ، ونزل سيف الدولة على قلونية في العمق البيزنطي واحرق رساتيقها
 وسلب ضياعها (٤٠) ، ادركنا بأن الثغور الشامية والجزرية بما فيها شمشاط كانت
 في حوزة المسلمين في الفترة التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، ولم تسقط شمشاط
 في ايدي الروم الا بعد وفاة الاصطخري التي كانت في سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، او في
 منتصف القرن الرابع الهجري على ابعد تقدير (٤١) ، أي في فترة ضعف الامارة

* وردت في بعض المصادر باسم التينات وفي مصادر اخرى باسم الثنيات .

الحمدانية ورجحان كفة البيزنطيين ، ومن هنا جاء قول ابن حوقل : « ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين » • وإذا أضفنا الى كل ما قدمناه من شواهد جغرافية وتاريخية عن تبعية شمشاط للجزيرة طبعيا وإداريا وسياسيا في الفترة التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، التجديد الذي جاء به الاصطخري والذي تمثل في تقسيمه العالم الاسلامي الى اقاليم تقسيما يقوم على اساس جغرافي لا اداري ، وهو الامر الذي لم يسبقه اليه احد على ما يبدو (٤٢) ، سهل علينا توقع وجود تصحيف في النص أدى الى الخلط بين شمشاط وسميساط واستبدال الواحدة بالآخرى في حالات كثيرة ، وقع النساخ فيه ، ولم ينتبه اليه المحققون المحدثون في بعض الحالات ، وقد كانت دلائل هذا التصحيف عديدة نورد منها ما يلي :

في النسخة المصورة عن مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري وهو الاسم الآخر لكتاب مسالك الممالك كما اشرنا من قبل ، التي نشرها الدكتور ج. ن. مولر Dr. J. H. Moeller ، والموجودة في مكتبة كلية الاداب بجامعة دمشق برقم (١٤٧) نجد ما يلي : « وسميساط هي ثغر الجزيرة لانها شرقي دجلة والفرات ، واما ملطية وما ذكرناه من الثغور فهي ثغر الشام وانها تنسب الى ثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم والثغر الذي هو من صلب الجزيرة سمشاط » (ص ٤١) .

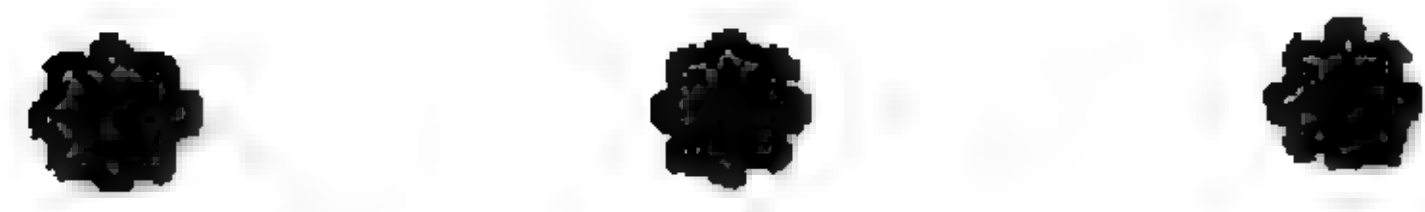
وامن احريه بن عمر فني مدنه صعبير على الدجله عرس الزمان شجار وميدان
وهي حصنه حصبه دبره الخراف جلا وسميساط هي ثغر الحرير لانها شرقي
دجله والفرات واما ملطيه وما ذكرناه من الثغور في بحر الشام وانها تنسب
الى ثغور الحرير لان اهل الحرير ينتابونها الثغور التي هي من صلب الجزيرة

سمشاط والحدثة على شط دجله سرفتها وهي مدنه تزعمه جلا ذات
سائر وامبار ولها ما حسن والس على شر الدجله مدنه بفرط اجل بارما

الشكل (٣) من مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري

• انظر تفسيرات الحدود في منطقة الثغور في هذه الفترة في خريطة مصر وسورية من اطلال توبنجر
Tubinger Atlas الطولونيون والافشيديون والحمدانيون .

من الواضح ان سمساط الواردة في اول الفقرة هي شمشاط وقد حذفت نقاطها، ذلك ان سميساط تقع الى الغرب من الفرات لا في شرقيها ، كما تبعد كثيرا عن دجلة . كما حذفت نقاط الشين الاولى من كلمة شمشاط الواردة في آخر الفقرة . وفي صورتني الشام والجزيرة من المخطوطة نفسها نجد في صورة الجزيرة وبالقرب من الرمز الدال على جسر منبج على الشاطئ الغربي للفرات رمزا لمدينة كتبت بجانبه عبارة سمساط ، وفي صورة الشام وفي الموقع نفسه وللمدينة ذاتها كتبت الى جانب الرمز عبارة شميشاط . وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل وفي الحديث عن جبل اللكام واتصاله بجبال طوروس وزاغروس حيث نجد : « ... ولا يزال هذا الجبل يستمر من اعمال آمد ونواحي دجلة الى الفرات فيكون سميساط فيه ويتصل بحدود مرعش » (ص ١٥٧) ، فالمقصود هنا شمشاط لا سميساط ، ذلك ان سميساط تقع على الفرات بعد خروجه من جبال طوروس وبعيدا عنها . اصف الى ذلك ما نراه في اشارات محققي المخطوطات المختلفة عن وجود مثل هذا الخلط والتي تبين في الهوامش عند طباعتها ، كما في كتاب مسالك الممالك للاصطخري وفي كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وفي تقويم البلدان لابي الفداء وفي احسن التقاسيم للمقلسي .



اخيرا لننظر في النصوص التالية :

في كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق دي جويه M. J. De Goeje وطباعة عام ١٩٢٧ ورد النص التالي : « واما العواصم فقصبته انطاكية ... ، واما الثغور فانه لا قسبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة الى الثغور ومن منبج الى ملطية { ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان ومن شمشاط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان » ص ٦٧ (٤٣) .





ومنبج قريبة إلى^١ الثغور ومن منبج إلى الفرات مرحلة حقيفة ومن منبج إلى قورس مرحلتان ومن منبج إلى ملطية ٤ أيام ومن منبج^٢ إلى سميساط يومان ومن منبج إلى الحدث يومان ومن سميساط إلى شمشاط يومان ومن شمشاط إلى حصن منصور يوم ومن حصن منصور إلى ملطية يومان^٣ ومن حصن منصور إلى زبطرة يوم ومن حصن منصور إلى الحدث يوم^٤ ومن الحدث إلى مرعش يوم^٥ ومن ملطية إلى مرعش ٣ مراحل كباراً فهذه مسافات ثغور الجزيرة ، وأما الثغور النشائية فمن اسكندرونة^٦ إلى بياس مرحلة خفيفة^٧ ومن بياس إلى المتيحة لمرحلتان ومن المتيحة إلى عين زربة يوم

الشكل (٦) : النص كما ورد في المسالك والممالك للاصطخري ، ص ٦٧

وفي كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ومراجعة محمد شفيق غربال ورد النص نفسه حيث جاء فيه : « وأما العواصم فقصبته انطاكية . . ، وأما الثغور فانه لاقصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة من الثغور ومن منبج إلى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج إلى قورس مرحلتان ومن منبج إلى ملطية ٤ أيام ومن منبج إلى سميساط يومان ومن منبج إلى الحدث يومان ومن سميساط إلى شمشاط يومان ومن شمشاط إلى حصن منصور يوم ومن حصن منصور إلى ملطية يومان . . » (ص ٤٩) (٤٤) .

وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل تحقيق كريمرز J. H. Kramers طبعة دار الحياة البيروتية) يتكرر النص نفسه تقريباً اذ ورد فيه : « وقد مر في ذكر العواصم ما صارت اليه من ملك الروم لها ما يفني عن اعادة فيها . والعواصم قصبته انطاكية . . ، والثغور فلا قصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج مدينة قريبة من الثغور ومنها إلى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج إلى قورس مرحلتان ومنها إلى ملطية اربعة ايام ومن منبج إلى سميساط يومان ومن منبج إلى الحدث يومان ومن سميساط إلى شمشاط مرحلتان ومن شمشاط إلى حصن منصور يوم ومن حصن منصور إلى ملطية يومان . . » (ص ١٧٢) .

اما في مصورة مخطوطة كتاب الاقاليم الوارد ذكرها اعلاه فقد جاء النص على الشكل التالي : وأما العواصم فان قصبته انطاكية . . ، وأما الثغور فانه لاقصبة

لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبع قريبة الى الثفور ومن منبع الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبع الى قورس مرحلتان ومن منبع الى ملطية أربعة أيام ومن منبع الى سمساط يومان ومن سمساط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان « (ص ٣٧) .

لسرايام واما النعمور فانه لا فضبه لها وكل مدنه قائمة بنفسها ومنبع قريبة الى الثفور ومن منبع الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبع الى قورس مرحلتان ومن منبع الى ملطية اربعة ايام ومن منبع الى سمساط يومان ومن سمساط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان ومن حصن منصور الى زبطيره يوم ومن حصن منصور الى الحدث يوم ومن الحدث الى مرتضى يوم فهذه مسافة ثعور الحريرة واما النعمور الشامية فان من الاسكندرية الى باس مرحلة ومن باس الى المصصة مرحلتان ومن المصصة الى عزريه يوم ومن المصصة الى اذنه يوم ومن اذنه الى طرسوس يوم ومن طرسوس الى اولاس على بحر الروم يومان ومن باس الى الكسسه والمسارونه اقل من يوم ومن الهارونيه الى مرعش من ثعور الحريرة اقل من يوم

الشكل (٧) من مخطوطة كتاب الاقاليم

يظهر لنا في النصوص الثلاثة الاولى خط واضح بين شمشاط وسمساط وقع فيه المحققون الثلاثة : دي جويه والحيثي وكريمرز ، ذلك ان مسافة اليوم الواردة بين شمشاط وحصن منصور هي في حقيقة الامر بين سمساط وحصن منصور ، اي كما جاءت في النص الوارد في مخطوطة كتاب الاقاليم ، ذلك ان المسافة بين سمساط وحصن منصور لا تزيد عن الخمسين كيلو مترا ، بينما يصل البعد بين حصن منصور وبين شمشاط وفي خط مستقيم الى المائة والخمسين كيلو مترا وذلك

حسب القياس الذي اجريناه في خريطة مصر وسورية - الطولونيون والاششيديون والحمدانيون - من اطلس توبنغر مقياس ... ١/٤٠٠٠ ، وفي خريطة تركيا من اطلس العالم مقياس ... ١/٢٥٠٠ ، بعد ان حددنا عليها مواقع كل من شمشاط وحصن منصور ، وفي خريطة سورية في عصر نور الدين مقياس ... ١/١٠٠٠ لنيكيتا اليسيف . فاذا اخذنا بما اورده الدكتور احمد سوسة من ان طول الميل العربي كما حسبه نالينو **C.A. Nallino** يساوي ١٩٧٣ر٣ مترا (٤٥) ، وبما اورده ياقوت الحموي من ان الميل جزء من ثلاثة اجزاء من الفرسخ (٤٦) ، وان الفرسخ بالتالي معادل ٥٩١٩ر٩ مترا ، فان المسافة بين سمشاط وحصن منصور هي اكثر من ثمانية فراسخ بقليل ، وان المسافة بين حصن منصور وشمشاط في خط مستقيم هي حوالي ٢٥ فرسخا ، ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من قول البيروني : « ان تعريجات الطرق والتواءها بحسب الجبال والوعر وغير ذلك يكون الخمس بالتقريب ، فاذا كان بين البلدين خمسون فرسخا بحسب سير السائر فيكون على خط مستقيم اربعين فرسخا » (٤٧) ، فان المسافة بين شمشاط الواقعة الى الشمال من جبال طوروس وبين حصن منصور الواقع على السفوح الجنوبية من هذه الجبال الوعرة هي : $25 + \frac{25}{5} = 30$ فرسخا . ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من ان الفقهاء قدروا الستة عشر فرسخا مسيرة يومين فكل ثمانية فراسخ مسيرة يوم بالسير الوسط (٤٨) ، تبين لنا ان المسافة بين حصن منصور وشمشاط اربعة ايام بالسير الوسط او ثلاث مراحل كبيرة ، وليست يوما واحدا كما وردت في النصوص المحققة ، يؤكد هذا ما اورده ابن خرداذبة من ان المسافة بين سمشاط وحصن منصور هي ستة فراسخ وما اورده قدامة بن جعفر من ذكر للمسافات بين الرقة والثغور الجزرية والتي جاءت على الشكل التالي : ... من سمشاط وهي مدينة على الفرات من الجانب الشامي الى حصن منصور ستة فراسخ وهي ثغر ، ومنها الى ملطية في عقاب شديدة عشرة فراسخ وهي ثغر ايضا الى مدينة تسمى كمخ وكانت ثغرا استولى عليه العدو اربعة فراسخ .

من كل ما تقدم نستطيع ان نصل الى النتائج التالية :

١ - لامجال للشك في ان الحدود الشمالية للجزيرة كما اوردها الاصطخري في الاصل ، تبدأ من المكان الذي تقترب فيه منابع دجلة من مجرى نهر ارسناس بالقرب من مدينة شمشاط ، ثم تسير النهر حتى مصبه في عمود الفرات .

٢ - من غير المعقول ان يخالف الاصطخري المبدأ الذي اختطه لعمله والمتمثل في

تقسيم العالم الاسلامي على اسس جغرافية واعتماد الحدود الطبيعية اساسا في التقسيم ، فلا يأخذ بمجرى نهر شمشاط (نهر مراد) حدا شماليا للجزيرة ، علما بأنه لا يوجد كما بينا ما يحول دون ذلك لا اداريا ولا سياسيا .

٣ - بالرغم من مشاعر المرارة وخيبة الامل التي نراها عند ابن حوقل في النسخة الثانية من كتابه صورة الارض التي انهى كتابتها حوالي عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ورفعها الى أبي السري الحسن بن الفضل بن أبي السري الاصبهاني بسبب ما وصلت اليه حالة سكان العواصم والثغور من سوء نتيجة لضعف المسلمين وتخاذل حكامهم ، (النسخة الاولى رفعها الى سيف الدولة قبل وفاة الاخير في سنة ٣٥٦ هـ) ، وبالرغم من وجود العامل السياسي والاداري الذي تمثل باستيلاء الروم على العواصم والثغور من جيلة الى شمشاط ، فانه لم يخالف التجديد الذي جاء به الاصطخري في تقسيم العالم الاسلامي تقسيما جغرافيا ، وحافظ على الحدود الطبيعية لبلاد الشام المتمثلة باعالي جبال طوروس ، كما وحافظ في بداية النص على الحدود الطبيعية للجزيرة في الشمال المتمثلة بمجرى نهر شمشاط .

٤ - وجود تصحيف واضح في النصوص الخاصة بالحدود الشمالية للجزيرة في مؤلفي الاصطخري وابن حوقل ، وخلط واضح بين شمشاط وبين سميساط في حالات كثيرة سهل حدوثه تشابه الاحرف في اسمي المدينتين عند كتابتها بدون نقط وبخاصة عندما يجري حذف الياء من كلمة سميساط وهو امر كثير الحدوث (٤٩) ، كما سهل حدوثه عدم اهتمام بعض الجغرافيين العرب بالتمييز بين المجري الرئيسي لنهر الفرات (عمود الفرات) حيث تقع مدينة سميساط وبين رافده الاكبر نهر شمشاط (مراد صو) حيث تقع مدينة شمشاط وتسميتهم للنهرين باسم واحد هو الفرات ، وهو ما رايناه عند ابن حوقل في قوله : « ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على يومين ، ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين » ، وما نراه عند ياقوت الحموي في قوله : « شمشاط مدينة على الفرات شرقيها بالوية وغربيها خربت » .

بعد الذي بيناه ، فاننا نرى بأن التحقيق السليم للنص الخاص بحدود الجزيرة عند الاصطخري ، والذي نورد صورة عنه مأخوذة من مخطوطة كتاب الاقاليم ، يجب أن يأخذ الشكل التالي :

ذكر ارض الجزيرة

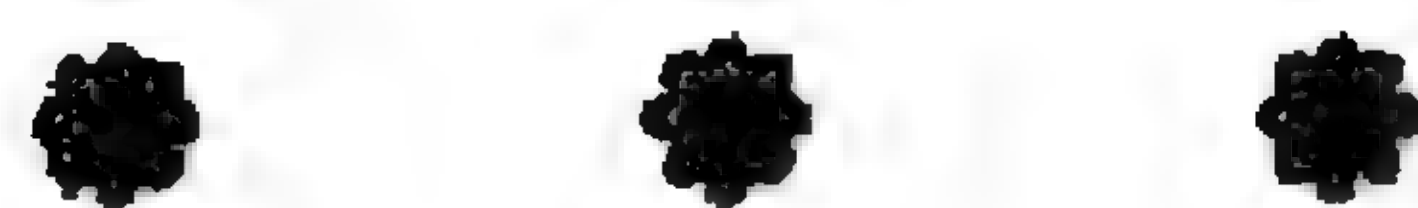
الحريرة ما سر حبله والفرات وتشتل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفرات من داخل الروم من ملطية على يمين وبيها ومن سمي سباط فمخرج على سمي ساط وحسن منبج وبالس الى الرقنين وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجلة حتى تنهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وحريرة بن عمر ثم تجاوز امد فنقطع حد الدجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمد الى سمي ساط ثم ينهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدائه ومخرج الدجلة فوق امد من حد بلاد الارمن على سبب الدجلة وعمرى الفرات مدن وقرى تنسب الى الحريرة وان كانت خارجة عنها لم يها منها

الشكل ٨٨

من مخطوطة كتاب الاقاليم

« الجزيرة ما بين دجلة والفرات ، وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يمين ويجري بينها وبين شمشاط ، فيخرج على سمي ساط وجسر منبج وبالس الى الرقنين وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ، ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ، ثم يجاوز امد فينقطع حد الدجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمتد مقربا الى شمشاط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدائه ، ومخرج الدجلة فوق امد من حد بلاد الارمن ، وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وان كانت خارجة عنها لقربها منها . »

وبهذا يستقيم الامر فينطبق الحد في الشمال على الحد الطبيعي للجزيرة المتمثل بمجرى نهر مراد (نهر شمشاط) ويصح الخطأ الذي وقع فيه كل من دي جويه وكريمرز والحيني .



الحواشي :

- (١) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه، (ص ٧٢) .
- (٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد المال العيني ، (ص ٥٢) .
- (٣) الاصطخري، كتاب الاقاليم (مخطوطة) وفي النص بعض الاختلاف عن المطبوع (ص ٤) .
- (٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، (ص ١٨٩) .
- (٥) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٢٧٣) .
- (٦) ابن رسته ، الاطلاق النفيسة ، المجلد السابع (ص ١٠٦) .
- (٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٢٧٧) .
- (٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ص ٤٩٤) المجلد الثاني .
- (٩) المصدر السابق ، (ص ٣٦٢) ، المجلد الثالث .
- (١٠) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه ص ٧٥ .
- (١١) المصدر نفسه ، تحقيق العيني ، (ص ٥٤) .
- (١٢) الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مخطوطة) (ص ٤١) .
- (١٣) قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة (ص ٢١٥)
- (١٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، (ص ٢٣٥) .
- (١٥) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥) .
- (١٦) ابن حوقل ، صورة الارض (ص ١٥٤) .
- (١٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان (ص ٢٣٥) .
- (١٨) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ١٥٤) .
- (١٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الثالث (ص ٣٦٢) .
- (٢٠) المصدر السابق ، المجلد الاول (ص ١٦) .
- (٢١) ديلاپورت ، اطلس التاريخ الجزء الاول ، خريطة (رقم ١٨) .
- (٢٢) هينز هالم ، اطلس توبنغن ، خريطة مصر وسورية ، الطولونيون ، الإخشيديون ، الحمدانيون (مقياس ١/٤٠٠٠٠٠)

- (٢٢) ابن خردادبة ، المسالك والممالك (ص ١٧٤).
- (٢٣) سهراب ، عجائب الاقاليم (ص ١٢).
- (٢٤) المصدر السابق ، (ص ١٢٢).
- (٢٥) أبو الفداء ، ذكرهم البلدان (ص ٥١).
- (٢٦) أمينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص ٢٥٦).
- (٢٧) المصدر السابق (ص ٢٥٧).
- (٢٨) أحمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، المجلد الاول (ص ٢٦٨).
- (٢٩) المصدر السابق ، (ص ١٧٩).
- (٣٠) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، المجلد الثاني (ص ٢٢٠).
- (٣١) أحمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، المجلد الاول ، (ص ٢٧٦ - ٢٧٨).
- (٣٢) أمينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص ٢٢٤ - ٢٢٥).
- (٣٣) أحمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، المجلد الاول (ص ٢٦٨).
- (٣٤) ابن حوقل ، صورة الأرض (ص ١٦٦).
- (٣٥) أحمد سوسة ، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول (ص ١٧٩).
- (٣٦) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥).
- (٣٧) المصدر السابق ، (ص ٦٢ - ٦٣).
- (٣٨) أحمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية (ص ٢٨١).
- (٣٩) أمينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص ٢٨٤).
- (٤٠) أحمد سوسة ، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول ، ص ١٧٢.
- (٤١) المصدر السابق ، (ص ١٦١).
- (٤٢) نشر دي جويه. كتاب لاصطخري من خمس مخطوطات رمز لها بالاحرف A. B. C. D. E. وذلك في سنة ١٨٧٠ م .

(٤٤) يقول الدكتور محمد جابر عبد الغنى الخيني في مقدمة كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، الذي قام بتحقيقه بتكليف من وزارة الثقافة المصرية، « وهذه النسخة التي اقومها هي ثمرة الأبحاث على مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٩ جغرافيا ، وعلى مصورتين لمخطوطتين محفوظتين بدار الكتب المصرية ... » ، وقد حاولت جدياً ان اصل الى نص الاصطخري مستعيناً بالمخطوطات على ضوء كتاب ابن حوقل ، لانه كما ذكرنا نكاد يكون صورة أخرى لكتاب الاصطخري (١١٢) . كما اشار الى ان ناسخ المخطوطة التي كتب في حوزة المرحوم علي باشا نجاشي امسز بخصاله فريدة ، هي انه كثيراً ما يجعل للباء اء للتاء في اول الكلمة رأساً مستثنياً بها عن النقط .

(٤٥) أحمد سوسة ، المرجع السابق ، المجلد الاول ص ١١٢ .

(٤٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول (ص ٢٦) .

(٤٧) أبو الفداء ، بقوم البلدان ، (ص ٧٤) .

(٤٨) المصدر السابق ، (ص ٧٤) .

(٤٩) الواقي ، فتوح الشام (ص ٤٥) .

المصادر :

- ١ - ابن حوقل ، صورة الارض ، دار الحياة ، بيروت .
- ٢ - ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- ٣ - ابن جعفر قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- ٤ - ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، لندن ١٨٩١ .
- ٥ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ١٩٧٨ الجزء الثالث .
- ٦ - ابن سراييون سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة ، فيينا ١٩٢٩ .
- ٧ - أبو الفداء ، تقويم البلدان ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- ٨ - الاصطخري ، مسالك الممالك ، دار القلم ١٩٦١ .
- ٩ - الاصطخري ، مسالك الممالك ، منشورات مؤسسة النصر .
- ١٠ - الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مصورة لمخطوطة) مكتبة المثنى ، بغداد .
- ١١ - الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .
- ١٢ - المسعودي ، التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ .
- ١٣ - المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ، ١٩٠٦ الطبعة الثانية .
- ١٤ - الواقي ، فتوح الشام ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

المراجع :

- ١٥ - اسكندر داود ، الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، دمشق ١٩٥٩ .
- ١٦ - بيطار امينة ، الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، دمشق ١٩٨٠ .
- ١٧ - دخلان أحمد ، الفتوحات الإسلامية بمد ماضي الفتوحات النبوية القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ١٨ - سوسة احمد ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، نقابة المهندسين المراقبين ١٩٧٤ .
- ١٩ - عثمان فتحي ، الحدود الإسلامية البيزنطية دار الكتاب القاهرة .
- ٢٠ - مادون محمد علي ، خريطة انر روما في بادية الشام ، مقياس ١/١٠٠٠٠٠٠ ، ١٩٨٠ .
- ٢١ - Atlas Historique Larouss; Paris 1978.
- ٢٢ - Atlas Tubinger (Tavo), Universitat Tubingen.
- ٢٣ - Atlas Historique. I. L'Antique; Par L Delaporte, Paris. 1948.
- ٢٤ - The World Atlas. Moscow 1967.
- ٢٥ - Carte de la Syrie a L'epoque de Nur A d - Din , par Ellisséeff M . N .
Echelle : 1000000.

* * *

تقريب النقود وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الاقتصادي

د. نجدة خمّاش

جامعة دمشق

كان بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضي بأن يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط ، وبالأ بتخزنوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية التي بقيت مستخدمة في العراق والمشرق ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الإسلامية التي كانت سابقا تابعة للدولة البيزنطية (١) .

وعرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام ، فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحشة والسواحل الأفريقية ، وربما بعض ما يرد من الهند الى الشام ، ويعودون بمنتجات الشام والنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة ، قبل الإسلام وبعده ، نقود فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ - ٦٤١) ولا بد أن تكون نقود الإباطرة السابقين موجودة أيضا ، بدليل أن النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم (٢) .

وبالرغم من أن الجيوش العربية الإسلامية نجحت في تحرير الشام ومصر في العهد الراشدي ، إلا أنها لم تستطع القضاء على الإمبراطورية البيزنطية ، بينما تجحت في القضاء على الإمبراطورية الساسانية ودخلت المناطق التي كانت تابعة لها ضمن نطاق الدولة الإسلامية . ولذلك فقد استمرت الحروب بين العرب والبيزنطيين ، لأن الروم في نظر العرب هم العدو الذي طرده القادة الفاتحون من الشام ومصر ، ثم اخسلوا يتعقبونه ، بحرا في قبرص ورودس ، بل قدر لهم أن يقهروه ويهزموه في أول معركة بحرية خاضها الأسطول العربي . ولما قامت الدولة الأموية اندفعت الجيوش والإساطيل الإسلامية حتى بلغت أبواب القسطنطينية مرة أولى وثانية وثالثة ، واستمرت الدولة فيما بين هذه الحملات ماضية في إرسال الصوائف والشواتي سنويا ، ولم تكف عن ذلك حتى بعد اخفاق الفزوة الثالثة ، إذ أن الخلفاء بعملهم هذا كانوا يتابعون عملية

الجهاد ضد اعداء المسلمين ، كما ان هذه الحملات كانت تكسب الامراء هالة من المجد ، بالإضافة الى ان عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من ان يحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجاي ، لان بني امية ، كما يقول البلاذري ، كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشتية مما يلي تغور الشام (٣) . ولكن حالة الحرب هذه لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات ، لاننا لا نستطيع ان نسبع على حياة القرون الوسطى ظواهر هي من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة ، فابن جبير في رحلته مثلاً يتحدث عن اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناء الصليبيين في عكا خلال الحروب الصليبية (٤) ، وهو اتصال لم يكن يتأثر اطلاقاً بالاعمال العسكرية الناشئة حينئذ بين الامراء المتنازعين وجيوشهم ، الا ان قلة المعلومات المتعلقة بالشام في مصادرها قد تؤدي الى الظن بان فتح العرب الشام ومصر كان عاملاً في توقف العلاقات التجارية بين العرب والبيزنطيين ، في حين ان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة ولعل رواية ابي عبيد في كتابه - الاموال - تشير الى هذا الاستمرار في التبادل التجاري ، فهو حين يتطرق الى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب يذكر انه كان من مذهب عمر فيما وضع من ذلك ، انه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ويأخذ العشر على تجارة أهل الحرب ، وانه انما فرض عليهم العشر لانهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم التجار أهل الحرب على نحو لا يقبل اللبس فيقول : « الروم كانوا يقدمون الى الشام » (٥) .

كما يذكر البلاذري وابن قتيبة ان القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من ارض العرب وتأتي من قبلهم الدنانير (٦) . فاذا أضفنا الى هاتين الروايتين الواردتين في مصادرها العربية ، ان العرب تركوا ممارسة التجارة البحرية في الشام ومصر لمن كانوا يمارسونها سابقاً من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، واعتماد معاوية ويزيد على النصارى (٧) ، وبقاء اللغة اليونانية في الشام لغة دواوين الخراج ، وتسامح الامويين مع النصارى من أهل البلاد ، واحتفاظ أوراق البردي التي كان يصنعها الاقباط في مصر بالشارات والتعابير المسيحية التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي ، وانتقال دور الطراز في تنيس وتونة ودمياط والتي كانت تحتكرها الدولة البيزنطية الى ايدي العرب (٨) ، واستمرار دور الضرب البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢ م - ٧٣ هـ النقد الاساسي المتداول في مصر والشام (٩) ، وبقاء النقد الذهبي البيزنطي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط (١٠) ، امكننا القول بوجود نوع من الاستمرار للماضي البيزنطي ، بالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي (١١) ، والحروب المتكررة مع الدولة

البيزنطية ، وان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط .

ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان الفتح ادى الى بعض التغييرات ، من أهمها ايقاف ما كان يرسل الى القسطنطينية من مصر من حبوب والتي أصبحت ترسل الى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل الى ايقاف توزيع القمح مجانا في العاصمة والاعتماد على مناطق اخرى تمد العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره ادى الى استفادة سكان بعض المناطق الاخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان واسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا ، لانها وجدت اسواقا جديدة لمنتجاتها (١٢) .

اما التغيير الثاني ، فهو التنحي عن كثير من القوانين التي سنها جستنيان ، فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق . ذلك ان العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني ، وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدوليين من أهمية ، كما ان حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك الادلة المختلفة ، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن ، لان المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا . ويبدو ان الحكام البيزنطيين ، حتى سنة ٦٩٢ م - ٧٣ هـ ، كانوا يرفضون الاعتراف بان الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان ، وان كانت الضرائب الجمركية تفرض بالطبع على هذه المنتجات المستوردة ، كما ان قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا ، يبدو وكأنها اختفت في هذه الفترة ، واصبح التجار احرارا لا رقابة من الدولة عليهم بعد ان توقف اصدار القمح من الاسكندرية الى العاصمة (١٣) . وظهر قانون الملاحة الروماني الذي اصبح بموجبه ربانة السفن احرارا في ان يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من اجل اخذ حمولتهم (١٤) . ولذلك فان القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط (١٥) ، كما ان كلا من الشام ومصر كانتا مزدهرتين اقتصاديا في حوالي ٧٠٠ م - ٨١ هـ ، فعلاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق ازدادت ، لان الساسانيين الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الاحمر والمحيط الهندي تحطمت قوتهم على ايدي العرب ، فعادت لهذا الطريق أهميته ، واستفادت دمشق من فائض الاموال التي كانت ترسل الى بيوت اموالها (١٦) ، ومن اخماس الفنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب (١٧) . كما ان ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة العراق والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولعل الساحل الشامي فقط هو

الذي كان يعاني أحيانا من تمرد السكان الجراجمة مثلا ، ومن هجمات الاسطول البيزنطي أحيانا أخرى ، فلم يصل الى المستوى المرتفع في الثروة التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الاقسام الداخلية . ومع ذلك لا بد من الحذر قبل اعطاء احكام قطعية ، فان هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على ان تمد الاسطول العربي باعداد كبيرة من الافراد ، كما ان قبرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على ان ترسل جزية سنوية مقدارها سبعة الاف دينار الى دمشق ، ومبلغا مماثلا الى القسطنطينية ، وهذا بدوره يشير الى ازدهار تجاري (١٨) .

واذا كانت السنوات الخمسون من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد الى نتائج سلبية بالنسبة الى الحياة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، فان الدلائل كذلك تشير الى عدم تدهور الاقتصاد في الغرب . ويقدم لوبيز (Lopez) ادلة قيمة على استمرار تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الابيض المتوسط خلال القرن السابع (١٩) . ونجد في شمال افريقيا مثالا واضحا ، فالبرغم من ان ولاية افريقية البيزنطية قد عانت من غزوات العرب ابتداء من ٦٤٧ م - ٢٧ هـ ، فان الدلائل لا تشير الى تحطيم في قدراتها الانتاجية او ازدهارها التجاري ، وقد دهش العرب عندما قاموا بغزوتهم بغنى افريقية ، اذ كان اكثر اموالهم من الذهب والفضة « وكانت توضع بين يدي عبد الله بن سعد بن سرح اكوام الذهب والفضة ، فقال للافارقة : من اين لكم هذا ، فجعل رجل منهم يلتمس شيئا في الارض حتى جاء بنواة زيتون ، فقال : من هذا اصبنا الاموال لان اهل البحر والجزر ليس لهم زيت فكانوا يشترون الزيت من هنا » (٢٠) . واذا صدقت رواية ابن عذاري فقد كان سهم الفارس بعد معركة سببيلة ثلاثة الاف دينار وسهم الراجل الف دينار (٢١) ، وفي الفترة ما بين ٦٩٥ - ٧٠٥ م / ٧٦ - ٨٧ هـ كانت ولاية افريقية لا تزال قادرة على ان تبهر العرب بثروتها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ، وانواع الدواب والرقيق والامتعة (٢٢) وفي هذا دليل على ازدهار الشواطىء الافريقية في القرن السابع الميلادي .

وتقدم ايطاليا دليلا اخر على استمرار التجارة مع الشرق ، ولاسيما رافينسا (Ravenne) (٢٣) ، التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والاسكندرية (٢٤) . كما ان السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فأربعة من البابوات في اواخر القرن السابع واولئل القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما . وهذا كله يشير الى ان العلاقات مع الشام هي اقوى مما كان يعتقد (٢٥) . اما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الاساسي للتجار السوريين ، وحتى ٧١٦ م - ٩٨ هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية واوراق البردي ، ومنتجات اخرى ، ونجد دليلا على ذلك ، كما يقول بيرين (Pirene) ، في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك

السنة لدير كوربي (Corbie) باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس (Fos) ان هذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابق (٢٦) ومع ذلك فهناك شواهد تشير الى ازمة اقتصادية في فرنسا واسبانيا في اواخر القرن السابع واولائل القرن الثامن الميلاديين . ومهما كانت عوامل هذه الازمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط والميروفنجيين ، اذ ازداد الاعتماد على النقد الفضي ، بينما اخذ النقد الذهبي بالتضاؤل (٢٧) .

ان الادلة السابقة تشير الى ان حوض البحر المتوسط كان لا يزال وحدة مزدهرة سنة ٧٠٠ م - ٨١ هـ . فاذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢ م - ١٣٥ هـ ، نجد مصر والشام في حالة من الفوضى والاضطراب ، وكذلك شمال افريقيا واسبانيا ، وفرنسا راكدة ، ولا نجد اثرا للسوريين والمصريين في الاسواق الغربية ، ونجد ان الاسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلا من الميروفنجيين في اكس لاشابل (Aix la Chapelle) والعباسيين بدلا من الامويين وعاصمتهم بغداد ، وكلتا العاصمتين تبعدان عن شواطئ البحر المتوسط ، ولا شك ان امراهما قد حدث وادى الى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة (٢٨) .

قد نجد تفسيراً لهذه التغيرات الاقتصادية والسياسية في التبدل الذي اصاب طبيعة النزاع بين الامويين والبيزنطيين ما بين ٦٩٢ - ٧٥٢ م / ٧٣ - ١٣٥ هـ . ذلك ان الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم الاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحثا في البدء . اما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها فنرى تداخل العامل الاقتصادي ، فبالاضافة الى العداء العسكري والبحري اضيفت الحرب الاقتصادية .

وقد بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير الذهبية العربية . ويجمع المؤرخون العرب على ان عبد الملك هو اول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الاسلام ، وان كان المؤرخون يختلفون في سنة ضربها فان عددا كبيرا يؤكد ان ذلك تم سنة ٧٦ هـ (٢٩) . ولكن البلاذري يذكر عن محمد بن سعيد عن ابي الزناد عن ابيه ان عبد الملك اول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة اربع وسبعين ، ويعود هذا الاختلاف في الواقع ان تعريب النقد مر بمراحل قبل ان يصبح عربيا خالصا ، فقد وجد دينار في سورية حوالي عام ١٩٥٤ وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ الان . وهذا الدينار العربي الجديد يعود الى سنة ٧٤ هـ ، وهو يمثل على الوجه شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفاً مرتديا ملابس مزركشة ، وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة « بسم الله ، لا اله الا الله وحده ، محمد رسول الله » وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور ، وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة ايضا

« بسم الله » « ضرب هذا الدينار سنة ٧٤ هـ » . هذا الدينار لا يزال فريدا في العالم وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ ، ٧٦ ، هـ (٣٠) . ويرى علماء الآثار أن هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، إذ كان التعريب واضحا ، وأن كان التأثير البيزنطي لا يزال موجودا . أما الدنانير العربية الخالصة فلا تحمل صورة للخليفة ، بل مآثورات عربية صرفة ، فإذا كان هذا الدينار الذي ضرب سنة ٧٤ هـ يمثل الخطوة الخامسة ، فمعنى ذلك وجود دنانير عربية قبل عام ٧٤ هـ وبالأستناد إلى ذلك يمكننا تقبل رواية تيوفانس التي تذكر أن جستنيان الثاني تقض الهدنة سنة ٦٩٢ م - ٧٣ هـ مع عبد الملك ، متخذا من مسألة الدنانير تعلقة لنقض الصلح (٣١) ، لأنه اعتبر سك عبد الملك للدنانير افتثانا على امتيازات الامبراطور . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عبد الملك أمر أن تزال الشارات والتعابير المسيحية من أوراق البردي وأن تضاف التعابير الإسلامية (٣٢) ، لا تضح لنا أن عبد الملك أراد بعمله هذا أن يحرر الدولة الإسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا وأن يقيم وحدة اقتصادية مستقلة ، وربما أراد بعمله هذا أن يحقق نوعا من الضغط الاقتصادي لاسيما وأن رواية المدائني عن مسلمة بن محارب أن خالد بن يزيد أشار على عبد الملك بتحريم دنانير الروم ومنع التعامل بها ، ومنع دخول شيء من القراطيس بلاد الروم « فمكث حيناً لا يحمل اليهم » (٣٣) .

إذا كانت العوامل السابقة تعلق إصدار عبد الملك للعملة الذهبية العربية ، فإنها لا تكفي لتعليل إصدار العملة الفضية - الدراهم - في العراق ، وهذا يعني وجود أسباب أخرى ، وأن للمسألة جذورا أعمق تتصل بالحياة الاقتصادية ، وتتعلق بها اعتبارات دينية . فقد كانت النقود مختلفة الأوزان والقيم (٣٤) دون أن يكون هناك مقياس ثابت موحد في جميع أنحاء الدولة يمكن من تحديد النسب بينها ، فكانت حالة النقد هذه عائقا للنشاط التجاري ، كما أن الأفراد المسلمين كانوا يلقون حرجا عند أداء واجب الزكاة (٣٥) .

وكذلك كانت الدولة تجد صعوبة إذا أرادت أن تستوفي حقوقها من الجزية والخراج ، مثال ذلك أن الخليفة عمر قسط الخراج في العراق ورقا وعينا ، والدراهم تؤدي فيه عددا ، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دنانق (كل دانق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنه مثقال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطا) (٣٦) . فلما ولي زياد بن أبيه طلب أداء الوافي فشق ذلك على الناس (٣٧) . فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكايل وضرب الدنانير والدراهم ، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة بالشامي ، وجعل وزن الدرهم خمسة

عشر قيراطا سوى (أي لا زيادة فيه ولا نقصان) وجعل عبد الملك الذهب الذي ضرب به دنانير على المثال الشامي (٣٨١) . (المثال الشامي ٢٤ قيراطا) .

كان اصلاح عبد الملك اصلاحا حاسما ، قضى على المفاسد التي كانت موجودة وأوجد النقد القومي العربي للدولة الاسلامية ، وبقي عمله لانه قام على أساس علمي . ولكن اذا كان تعريب الدرهم لم يثر ردود فعل فهذا امر طبيعي ، لان الدولة العربية كانت قد قضت على الدولة الساسانية وامتد الحكم العربي الى كل المناطق التي كانت سابقا تحت نفوذها ، أما الدولة البيزنطية فكانت لا تزال قائمة . واذا كان الابطاطرة في البلاط البيزنطي قد رفضوا ، طيلة الفترة السابقة ، الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عنهم ، فان التعريب الذي تم في عبد الملك ، سواء في مجال النقد أم القراطيس ، ثم في دواوين الخراج فيما بعد ، يدل بوضوح على أن الامور التي حاكى فيها الخلفاء الادارة البيزنطية ، أو نقلوها بعد التعديل ، إنما هي محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحثيات واعداد أنفسهم للسيطرة على مقدرات دولتهم ، ومن ثم فان بيزنطة لن تقف مكتوفة الايدي أمام هذه التدابير ، وكان جواب جستنيان على الدنانير العربية التي أرسلها له عبد الملك نقض الهدنة وعلان الحرب ، فالتقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيصرية (Caesarea) في معركة سيباستبولس (Sebastapolis) ، وهزم جستنيان هزيمة شنيعة كاذب معبأ أن يخسر آسيا الصغرى بكاملها (٣٩١) . ولا شك أن جستنيان قام من ناحية أخرى ببعض التدابير لقطع التجارة مع أعدائه ، وربما كان هذا هو التفسير الوحيد لذلك التهجير الوحشي الاجباري لسكان قبرص الذين كانوا يتاجرون مع الشام ، فاذا كان هذا التعليل صحيحا فانه يفسر كذلك ثورة الاسطول في بند كبير هايت (Kibyrhaeot) (٤٠) الذي يعتمد الى حد كبير في تجارته على مصر ، وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني (٤١) . وقد يفسر لنا كذلك لماذا أسهم تجار (رافينا) وهم الذين كانوا يمدون مصر بالخشاب ، في سقوط ذلك الامبراطور . (٤٢) كما انه مما يثير الانتباه أن من أول أعمال تبيريوس الثالث (Tiberius Apsimarus) ٦٩٨ - ٧٠٥ م / ٧٩ - ٨٧ هـ والذي كان حاكم بند (الكبيرهايت) انه عمد الى ارسال ثلاثة من اشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطوري كبير لاعادة القبارصة الموجودين في رومانيا (Romania) وسيزيكس (Cyzicus) وفي البندين الكبيرهايت وتراقيا (Thracia) كما حاول ارجاع أولئك الذين كانوا قد هربوا الى الشام ، وذلك رغبة منه في اعادة سكان قبرص ٦٩٨ م / ٧٩ هـ (٤٣) . وربما حقق تبيريوس بذلك نوعا من السلم الاقتصادي مع الامويين ، لاننا لا نشاهد ضفوطا اقتصادية تمارس من قبل الخليفة في دمشق في عهد ذلك الامبراطور .

ولكن ما أن عاد جستنيان الى السلطة سنة ٧٠٥م/٨٧هـ حتى نلاحظ عودة الى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنرى من جهة استمرار الوليد بن عبد الملك في عملية التعريب التي كانت قد تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملك ، والتي لم يتم تطبيقها في مصر الا في عهد الوليد (٤٤) . وتشير اوراق البردي ، ان الاوراق المعربة تماما تعود الى ٧٠٩م/٩١هـ ، وان آخر ورقة بردي تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى ٧١٩م/١٠١هـ (٤٥) . كما أن الوليد هو الذي طبق ، في السنة نفسها (٩١ هـ) ولأول مرة ، الرقابة على سكان مصر . فقد أوجد نظاما صارما أجبر فيه الافراد على حمل سجلاتهم ، وألزم كل فرد يريد الانتقال من جهة الى أخرى في انحاء القطر المصري ، او يريد ركوب سفينة او النزول منها ، أن يحمل سجله ، وأمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يحمل سجله معه ، أما من فقد سجله ، أو اتلفه ، فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير (٤٦) . كما أن مخطوطة سيربانية لمؤلف مجهول تشير الى أن الوليد أصدر عام ١٠٢٠ سلوقي /٧٠٨م/٩٠هـ أمرا باحصاء المقيمين ، وكذلك كل مسافر يعود الى منطقته أو أرض أجداده أو مكان تولده (٤٧) . فنلاحظ تشديدا على تحركات الرعايا ، نجد ما يقابله عند حكام بيزنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك مع رعاياهم الذين يريدون التوجه الى الاراضي العربية (٤٨) . الا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها جستنيان الثاني وخلفاؤه هي التي كان لها اكبر الاثر ، ومن الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق ، في حين يمكن رسم الخطوط العريضة له ، في العودة الى النظام التجاري المقيد الذي كان متبعاً في عهد جستنيان الاول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها كما أن بيزنطة استخدمت اسطولها لدعم ذلك النظام . وهناك من الاسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥ ، ٧١٦ م / ٩٧ ، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الاموية وبعض المناطق المجاورة ، والافتراض ، كما يقول هايد (Heyd) بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية يقوى عندما نعلم أن اخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس (Fos) كانت سنة ٧١٦ م/٩٨ هـ ، كما ان مملكة لومبارديا اوقفت استخدامها لاوراق البردي (٤٩) ، اي ان البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الاراضي العربية ، الا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة ، وقد يفسر هذا توجه اسطول اسلامي ضخم في اواخر ٩٩ هـ نحو القسطنطينية (٥٠) اذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر (٥١) .

الا ان بيزنطة لم يكن باستطاعتها ان تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن

التوابل وبضائع الشرق ، التي كان يتاجر بها التجار المسلمون ، كانت موادا أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية . ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرقا أو مرقاين مراقبين باستقبال التجار المسلمين ، منهما مرقا طرابزون (Irebizond) الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة (٥٢) ويعلق لوبيز (Lopez) أنه بالرغم من أننا لانملك دليلا واقعا ، إلا أنه ليس ثمة ما يمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود الى ٧١٦ م - ٩٨ هـ ، أو قبل ذلك ، لان اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرابزون مرقا أمين على البحر الاسود غير مهدد . وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام ، المركزين البحريين لمنافسيهم الامويين ، الى بلاد العراق ، التي لم تكن تشكل خطرا عليهم . وربما كانت القسطنطينية المرقا التجاري الثاني الذي كان يسمح للتجار بدخوله والخروج منه ، لاننا ، اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، نجد ان هذه التعليمات تشير بصراحة الى أن التجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي، حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة (٥٣) . وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨ م - ١٠٠ هـ ، فالجامع الذي يقال ان ليون الايسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض .

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء ، وفرضه على الاعداء العرب امر آخر . إلا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه أكثر مما كان متوقعا ، العامل الاول ، هو قوة الاسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا ١٠٠ هـ ، واخذ يمحى عباب البحر المتوسط ، وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في هذا البحر ، كجزر البليار ، وساردينيا، وكورسيكا ، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني ، بالاضافة الى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي . ولذلك كان من السهل جدا منع اي سفينة تتوجه غربا أو شرقا من الاستمرار . أما العامل الثاني الذي ساعدهم ، فهو أن الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى . وبالرغم من أن الخط البحري المباشر من الاسكندرية الى كريت كان مستخدما كذلك ، إلا أن قوة الاسطول البيزنطي مكنته من أن يقطع بشكل فعال التجارة ، ليس مع الغرب فقط ، وإنما بين الشام ومصر وشمال افريقيا (٥٤) وإذا استطاعت سفينة أن تفلت من رقابة الاسطول البيزنطي في نقطة معينة ، فهناك احتمال كبير أن يعترضها هذا الاسطول في مكان آخر، ونظرة الى شواطئ البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادي قد طبق بشكل فعال ، لاننا اذا اتجهنا بأنظارنا الى الشرق ، حيث كانت

الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الاولى ، نلاحظ ان الشام ٧٥٢ م / ١٣٥ هـ قد خسرت مركزها التجاري الهام ، وبقيت مدن الساحل الشامي عاجزة مدة عشرين عاما عن تشكيل اسطول (٥٥) وانتقل الحكم الى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، وخسرت الشام مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية .

هذا في الشرق ، اما في الغرب ، فاننا نجد فرنسا ، التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، تمر بفترة ركود اقتصادي بعد سنة ٧١٦ م ، اذ لم تعد ترى تجارا سوريين في موانئها الجنوبية او تجارا من مناطق اخرى . كما أن المدن التي هدمها الكارولنجيون بقيت مهدامة ، وتوقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ، ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادي (٥٦) وهكذا ترى أن البيزنطيين ، في حربهم حتى الموت ضد الامويين ، استخدموا الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول الى النصر في الفترة ما بين ٧١٥ - ٧٥٢ م ٩٧ - ١٣٥ هـ وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الامر في الشام ، وقيام الثورة العباسية، ساعدت بيزنطة على تحقيق مآربها ، وبعملها هذا حطمت بيزنطة النمط الاقتصادي القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط وهيأت المجال لظهور نمط جديد .

* * *

الحواشي

(١) آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ص ٢١٦ . ويذكر آدم ميتز انه كان بين بينز نطقويين كلودفيج ملك الفرنجة معاهدة كذلك .

(٢) محمد أبو الفرج المشر ، النقود العربية الإسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٧ . مؤرخ مجهول ، الميرون والحدائق ، ص ٨٩ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩ م ص ٢٦٠ ، ٢٧٦ .

(٥) أبو عبيد ، كتاب الاموال ، الفقرة ١٦٥١ ، ١٦٥٥ .

(٦) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ١ ص ١٦٨ . البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

(٧) خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ . الطبري ، ج ٥ ص ٢٣٠ . الجهشيار ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٢٣ . تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ٧٣ ، ٢٧٨ . ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

Grohman , Allgemeine Einführung der Arabischen Papyri , Vien, 1924, pp. 77, 92.

The Kurra Papyrie from Aphrodite , The Oriental Institute , Chicago , 1936, pp. 70 - 72.

Archibald Lewis , Naval Power in the Mediterranean, 500 - 1100, p. 79. (٩)

Ibid, p. 81.

(١٠)

(١١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، ٣٦٩ .

Vernadsky, G., Sur L'Origine de la loi Agraire, Byzantium, 1925, IV pp. 169 - 180. (١٢)

Charanis, p., The Social Structure Of The Later Roman Empire, Byzantium, 1944 - 1945 XVII pp. 50 - 51. (١٣)

Archibald Lewis, op. Cit, p. 83.

(١٤)

يشير انريادس الى ان البعض ينسب هذا القانون الى الاباطرة الايسوريين ، ولكن اوستروفورسكي Ostrogorsky يبين انه لا يمكن ان نقول اكثر من ان هذا القانون صدر ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠ م . وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية الى هذا القانون ولكن دون ايفصاح دقيق .

The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a Few scattered references in the Digest. E.B.ed., 1970, Art. Maritime Law. Andre M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, Byzantium II p.65. Archibald Lewis, Op. Cit. p. 83.

(١٦) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٣٤ . ابن عبدالحكم ، فتوح ص ١٠٢ . المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٥١٤ . ساويرس ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

البلاندي ، انساب ، القسم الرابع ج ١ ص ٢١٨ . ابن الاثم ، فتوح ، ج ٤ ص ١٨١ .

(١٧) ابن الاثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٣ ، ج ٧ ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ص ١٥٦ .

(١٨) صالح معاوية قبرص بعد غزوته الثانية على سبعة الاف دينار ولم يزل اهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، فجري ذلك الى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحفظها عنهم ، فلما ولي هشام بن عبد الملك ردها ، فاستمر الامر على ذلك حتى خلافة ابي جعفر المنصور الذي ردهم الى صلح معاوية .

Lopez , Mohammed & Charelemagne, A Rivision is Speculum , 1943 , (١٩) XVIII, p. 22.

(٢٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٢٠ .

Diehl, ch., Etude Sur L'Administration dans L'Exarchat de Ravenne, (٢٣) Paris, 1888, pp. 279 - 280.

Ibid., pp. 279 - 280. (٢٤)

Ibid., pp. 255 - 256. (٢٥)

Pirenne, H. Mohammed & Charlemagne, New York, 1939, p. 88. (٢٦)

Ibid., pp. 84 - 85.

(٢٧)

Archibald Lewis, p. 88.

(٢٨)

(٢٩) الدينوري ، ص ٢١٦ . ابن قتيبة ، المصارف ، ص ٢٤١ . الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ . ابن الاثير ج ١ ص ٥٤ . القلقشندي ، ج ١ ص ٤٢٤ . السيوطي تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٧ .

Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967, p. 212.

(٣٠)

Theophanes, sixth year of Justinian, A. M. 6183, A.C. 692, Bonn, pp. 558 - 559.

(٣١)

George Hill, The History of Cyprus, vol. I, p. 287.

(٣٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٣٥) أوضح هذا السبب القرظي في رسالته عن النقود ، مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، نشرة الاب انستاس الكرمل ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٣٦-٣٧ .

(٣٦) ولترهينتس Water Hintz الكايل والاوزان الاسلامية وما يعادلها بالنظام المترى ترجمة الدكتور كامل الصلي ، منشورات الجامعة الاردنية ، ص ٩ .

(٣٧) ابو هلال العسكري ، الاوائل ، ج ٢ ص ٢٢ .

(٣٨) انستاس الكرمل ، النقود العربية . البلاذري ، ص ١٠ . القرظي ص ٢٤ .

وكان الدينار البيزنطي (Solidus) وزن ٤.٤٨ غ تقريبا ، (Ostrogorsky p. 217)

اما الدينار الاسلامي فكان وزنه ٤.٢٠ غ او ٤.٣٠ غ، وهو اقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي ، وكان ذلك ضروريا من اجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وقيمة .

George Hill. Op. Cit, p. 287.

(٣٩)

(٤٠) يضم بند الكيرهايت الساحل الجنوبي من اسيا الصغرى والجزر القريبة منه .

Ostrogorsky, p. 139.

Archibald Lewis, Op. Cit., p. 89.

(٤١)

Diehl, Exarchat, p. 279 - 80.

(٤٢)

George Hill, Op. Cit. pp. 288 - 89.

(٤٣)

(٤٤) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٥٨ .

Archibald Lewis, p. 90.

(٤٥)

(٤٦) سايروس ، سير الإباء البطركية ، ج ٥ ص ٧٠ .

(٤٧) ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة الى اللاتينية ، ص ٢٢٢ من المخطوطة الاصلية . (مكتبة جامعة لانكستر) .

Archibald Lewis p. 91.

(٤٨)

Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsig, 1885, pp. 89 - 92.

(٤٩)

(٥٠) يذكر تيوفانس Theophanes ان الاسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتالف من ١٨٠٠ سفينة منها سفن حربية واخرى لنقل المؤن ، وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في تراقيا ، مما عرقل عملية الحصار ، واضطر المسلمون الى تحمل الكثير من المشاق والجهد . وفي الربيع وصلت نجدة برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك ، فقد وصل اسطول من مصر يتالف من ١٠٠ سفينة ، واسطول اخر من افريقيا مؤلف من ٢٦ سفينة ، الا ان معظم هذه السفن ، كما يقول تيوفانس ، دمرت نتيجة لاستخدام البيزنطيين النار الاخرقية .

Theophanes, Tr. Leopold Breyer, p. 27 - 28.

Lopez, Op. Cit. pp. 26 - 28.

(٥١)

Lopez, Silk Industry in the Byzantine Empire, Speculum, 1945, XX pp. 26 - 27

(٥٢)

Ibid, p. 27.

(٥٣)

Archibald Lewis 95.

(٥٤)

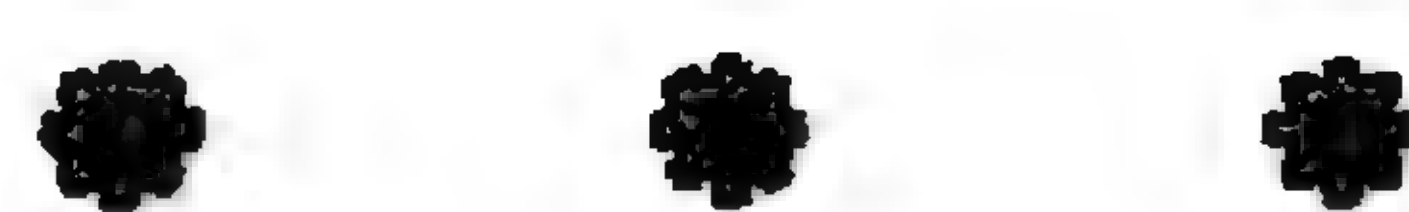
George Hill, Op. Cit. p. 290.

(٥٥)

Archibald Lewis, p. 97, Prou. M.

(٥٦)

Catalogue de Monnaies Carolingienne de la Bibliothèque Nationale



أضواء على الصناعة والتجارة في مدين بلاد الشام
ودورها في التجارة العالمية
في العهد البيزنطي
من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة

د. نعيم فرح

جامعة دمشق

تركت حملة الاسكندر المكدوني أثرا كبيرا في التاريخ والادب التاريخي . لقد ظلت شعوب الشرق الوثنية قرونا عديدة تتحدث عن المدن التي بناها الاسكندر وتتناقل القصص التي نسجت حولها . أما الاسباب الرئيسية لحملة الاسكندر وتوغلها في الشرق فهي الرغبة في تحقيق المصالح الاقتصادية للامبراطورية المكدونية - اليونانية . وحاربت روما ايضا في بداية العهد الامبراطوري من اجل السيطرة على طرق التجارة مع الشرق . لقد فرضت سيطرتها العسكرية على آسيا الصغرى وارمينيا ، ثم احتلت سورية وفلسطين ومصر وقضت على دولة الانباط ودولة تدمر . وامتدت الطرق التجارية البرية من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى مدن الصين الشمالية ، فانتقل الحرير الخام والمصنوعات الحريرية من بلد الى بلد ومن تاجر الى آخر حتى وصلت الى عاصمة العالم العظمى - روما . والاهتمام بالصين رافقه اهتمام بالهند لكثرة بضائعها وتنوعها ، بالإضافة الى كونها بلدا وسيطا في بيع حرير الصين .

ومع نهاية روما القديمة وسقوطها ولدت روما الجديدة « القسطنطينية » واصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية « البيزنطية » . كانت بيزنطة دولة بحرية كبرى تسيطر على موانئ كثيرة تنتشر في سواحل أوروبا وآسيا وأفريقيا وفي الجزر ، كما تسيطر على أنهار كبرى ، مثل النيل والفرات والدانوب . وصارت القسطنطينية

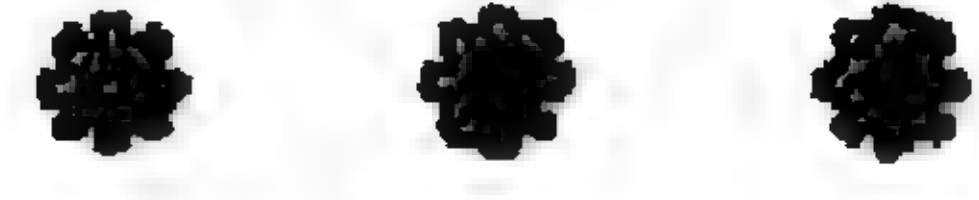
★ قدم هذا البحث للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الاردنية عمان ،

٩ - ١٤ محرم ١٤٠٤ هـ - ٢٠ - ٢٥ تشرين اول ١٩٨٣ .

بعد قرن من نشوئها أكبر سوق عالمية تلاقت فيها خيوط الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية . وقد اهتمت بيزنطة ببضائع الهند والصين ، فسعت الى السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية والمؤدية الى الشرق الأقصى . وادى تطور الصناعة في المدن البيزنطية الشرقية ، وبخاصة مدن مصر وبلاد الشام ، الى ازدياد النشاط التجاري ، كما افضى النشاط التجاري الى تطور الصناعة في تلك المدن . لقد اتحدت مصر البطلمية مع سورية السلوقية وغيرها من بلدان الشرق الاوسط تحت السيادة الرومانية - البيزنطية ، مما أدى الى نمو التبادل التجاري ، حيث صارت بضائع سورية ومصر تصل الى الهند والصين ، كما صارت خيوط الحرير الصينية وافاويه الهند تصل الى المدن البيزنطية . وكان التجار البيزنطيون والتجار الفرس تجارا وسطاء تاجروا ببضائع الشعوب الخاضعة لسلطتهم والشعوب المجاورة لهم .

امتدت الخطوط التجارية من سواحل البحر الابيض المتوسط الى الهند والصين عبر آسيا ، ولكن هذه الخطوط لم تكن تخضع لسلطة دولة واحدة أو يسيطر عليها شعب واحد ، وانما ساهمت في التجارة العالمية شعوب عديدة منها : اليونان والسوريون والفرس والسفد والأتراك والهنود والصينيون والعرب . كانت روما قد سيطرت على الخطوط التجارية في آسيا الصغرى وبلاد الشام وشمال بلاد النهرين . وقد دأبت القسطنطينية على ان تحافظ على النفوذ الروماني - اليوناني في هذه المناطق . غير ان السياسة التوسعية لكل من بيزنطية وفارس أدت الى تصادم حربي دائم بين الطرفين ، مما عرقل الحركة التجارية على الخطوط البرية عبر آسيا الوسطى . وعلى هذا اخذت بيزنطية توجه اهتمامها الى الطريق البحرية المؤدية الى الهند والمعروفة منذ العهد الروماني القديم . لقد أدركت بيزنطية أهمية الطريق البحرية عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي ، لذلك سعت الى تدعيم نفوذها السياسي في اليمن والحبشة . وعلى هذا نشطت الدبلوماسية البيزنطية في سبيل اقامة علاقات حسنة مع الحبشة والممالك الحميرية في اليمن والامارات العربية الصغيرة المنتشرة على طول الطريق التجارية الممتدة من سورية الى جنوب الجزيرة العربية . ولتدعيم هذه العلاقات شجع الاباطرة البيزنطيون المبشرين على نشر الدين المسيحي في اليمن والحبشة ، كما قدموا المساعدات المالية في هذا السبيل . وكان الهدف الرئيسي للاباطرة البيزنطيين الاستغناء عن وساطة التجار الفرس في جلب بضائع الهند والصين والاعتماد على التجار الاحباش واليمنيين في هذا المجال . وعلى هذا سعى ساسة بيزنطة الى توحيد الحبشة واليمن في دولة واحدة تكون موالية لهم ، فدفعوا الاحباش الى احتلال اليمن . غير أن الفرس لم يقفوا مكتوفي الايدي تجاه الاطماع البيزنطية في السيطرة على الطريق البحرية المؤدية الى الهند ، وانما بذلوا ما في وسعهم لطرد الاحباش من اليمن وتقليص النفوذ البيزنطي فيها ، فاستطاعوا تحقيق ذلك ،

اذ أنهم فرضوا سيطرتهم العسكرية على اليمن في اواخر القرن السادس الميلادي .
ودامت تلك السيطرة حتى ظهور الاسلام ، حيث تمكن العرب المسلمون من تحرير
اليمن من الاحتلال الفارسي وضمه تحت لواء الدولة العربية الاسلامية الناشئة .



ان أهم عوامل الجذب التي أدت الى نقل عاصمة الرومان من ضفاف التiber
الى شواطئ البوسفور تتمثل بتمركز الثقل الاقتصادي (الصناعي والتجاري
والزراعي) في الولايات الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة في مصر وسورية
(بلاد الشام) . ومن جهة ثانية فقد دفع نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية
عجلة التطور الاقتصادي في الشرق الى الامام . ومدينة القسطنطينية « بيزنطيوم »
لم تكتسب لقب « الجسر الذهبي » بين الشرق والغرب الا بعد ان صارت عاصمة
سياسية للامبراطورية الرومانية الشرقية . على أن مدن سورية (بلاد الشام)
ومصر وآسيا الصغرى ظلت تحافظ على نشاطها الاقتصادي بعد نشوء القسطنطينية
حتى الفتح العربي الاسلامي . والمصادر التاريخية والجغرافية المتنوعة المعاصرة
لتلك المرحلة تؤكد على استمرار الازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي في مدن مصر
وسورية (بلاد الشام) بشكل خاص .

ان قوة المصالح الاقتصادية للطبقات المهتمة بالتجارة الخارجية هي التي دفعت
بعض المتنورين الى كتابة نصوص تاريخية وجغرافية ورسم خرائط جغرافية ليتعرف
من له منفعة في ذلك على الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الهند والصين ، وعلى
البضائع المتنوعة من نباتية وحيوانية ومعدينية وغيرها مما تنتجه تلك البلاد والبلدان
المجاورة لها او التي تقع في الطريق اليها . ومن تلك النصوص التاريخية - الجغرافية
سنتعرف على : الطبغرافية المسيحية لمؤلفها قزما الملاح الهندي ، الطرق من جنة
آدم حتى الرومان ، الوصف الكامل للعالم والشعوب ، تاريخ أميانوس ماركيلينوس ،
تاريخ الكنيسة لمؤلفه فيلوستورغيوس ، تاريخ بروكوبيوس الكيساري ، وغيرها .
وعدا هذه النصوص التاريخية - الجغرافية المذكورة فان الاكتشافات الاثرية وكثرة
العملة البيزنطية المكتشفة على طرق الحرير المؤدية الى الهند والصين تؤكد ايضا
على نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام .

من اي وسط اجتماعي خرجت تلك الكتابات التاريخية - الجغرافية التي
تشهد على ازدهار التجارة البيزنطية منذ بداية القرن الرابع حتى اواخر القرن
السادس ، وماهي الاسباب التي أدت الى ظهور مثل هذه الكتابات ؟ . ان تطوّر

التبادل البضائمي والمالي في الشرق الاوسط في العصر الامبراطوري الروماني وبداية العصر البيزنطي أدى الى تشكل طبقة واسعة من الصناع والتجار . وان تجمع الاموال الكثيرة لدى بعض التجار الكبار واصحاب المصانع أتاح لهم امكانية الاستيراد وعقد صفقات تجارية كبيرة ، ولذا اهتموا بأمر التجارة الخارجية الى جانب اهتمامهم بالتجارة الداخلية . وتذكر المصادر البيزنطية أيضا وجود التجار الوسطاء الذين يحصلون على المواد الخام ويبيعونها للصناع واصحاب الورش الصناعية ، ثم يشترونها من هؤلاء ثانية بعد تصنيعها وتحويلها الى مصنوعات جاهزة للاستعمال ، فيبيعونها في الاسواق الداخلية والخارجية . وهكذا نلاحظ أن فئات متعددة من المجتمع في الامبراطورية البيزنطية قد اهتمت بأمور التجارة : التجار الكبار والصغار ، الصناع ، اصحاب الورش والمصانع ، البحارة ، اصحاب السفن ، رجال القوافل التجارية ، اصحاب الاراضي الزراعية الذين اهتموا بتجارة الحبوب والمحاصيل الزراعية ، المرابون الذين يقرضون القروض للتجار ، المستهلكون الاغنياء والفقراء ، واخيرا الدولة التي تهتم بجمع الضرائب من الصناع والتجار لتمويل الخزانة . وتطلب ازدهار التجارة المعرفة المتنوعة : معرفة الكتابة والحساب لتسجيل البضائع واثمانها وأرباحها ، ومعرفة البضائع الموجودة في كل بلد من البلدان التي يمكن المتاجرة معها ، بالإضافة الى البضائع التي يمكن بيعها في أسواقها ، ومعرفة الطرق البرية والبحرية المؤدية الى البلدان التي تتاجر معها الامبراطورية البيزنطية ، والظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بالطرق والبلدان التي تمر بها القوافل او السفن ، بالإضافة الى معرفة امور اخرى عديدة . وهكذا جاءت الكتابات التاريخية - الجغرافية التي اشرنا اليها ، والتي سنتحدث عنها فيما يلي ، تلبية لحاجات المهتمين بأمور التجارة الخارجية ، ولتؤمن لهم المعارف والمعلومات المتنوعة المطلوبة .

وكان تطور المدارس والجامعات في تلك المرحلة التاريخية (منذ القرن الرابع حتى القرن السابع) له علاقة الى حد كبير بتطور التجارة والعلاقات التجارية . ففي المدن البيزنطية الكبرى مثل : (القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية ، بيروت ، الرها ، نصيبين) نشأت مدارس وجامعات متعددة تقدم المعارف المتنوعة لطلاب العلم ، رغم أن التعليم اكتسب طابعا دينيا بصورة عامة ، حيث أشرف عليه رجال الكنيسة بالدرجة الاولى . هذا وقد استفلت الحكومات البيزنطية تأثير الكنيسة المسيحية ونفوذها في البلدان الخارجية التي تتاجر معها ، بنية تأمين مصالحها التجارية وتسهيل عملية المبادلات .

من خلال المصادر التاريخية - الجغرافية البيزنطية المعاصرة ، التي سنسلط عليها بعض الاضواء في هذا البحث ، نلاحظ ان التجارة البيزنطية العالمية كانت

مزدهرة ونشطة في المرحلة التاريخية مابين القرنين الرابع والسابع الميلاديين . كما نلاحظ ايضا أن مدن بلاد الشام كان لها دور بارز في الصناعة والتجارة العالمية . ولكن هذه التجارة ستعرض للتقلص والانتكاش في أواخر القرن السادس والقرن السابع بسبب توتر الصراع البيزنطي - الفارسي أولا ، ثم الصراع البيزنطي - العربي ثانيا . على أن التجارة العالمية ستنشط من جديد بدءا من القرن الثامن الميلادي وتبلغ اقصى ازدهارها في العهد العباسي .



المصادر التاريخية - الجغرافية

٢ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » « Expositio totius mundi et gentium »

وصلت إلينا مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » « Expositio ... » في نسختين . وقد صنفَت النسخة الاولى القديمة بحرف « A » وطُبعت سنة ١٦٢٨ على يد العالم يعقوب غوتفريد . أما النسخة الثانية الاحدث منها فقد صنفَت بحرف « B » ووجدت منها مخطوطتان طبعتا في سلسلة « الجغرافيات اليونانية الصغيرة » في باريس سنة ١٨٦١ .

« Geographi graeci minores, ed. C. Mullerus, Paris, V.2, 1861 »

ونحن في بحثنا هذا نقتبس عن النسخة الثانية « B » التي نشرها مولر ونعتمد عليها من حيث الترقيم وترتيب الصفحات . ولدى مقارنة النسختين القديمة والاحدث منها : « A » و « B » ، من قبل بعض المؤرخين وعلماء اللغات تبين لهم أن النسخة القديمة « A » كتبت بلغة لاتينية ركيكة جدا . بينما كتبت النسخة الثانية « B » بلغة لاتينية افضل من لغة النسخة الاولى ، ولكنها ليست لغة نحوية صرفة . وعلى هذا افترض بعض العلماء أن المخطوطة مترجمة بالأصل عن اليونانية ، ثم افترض البعض الآخر أن مؤلف المخطوطة سوري أو مصري . وأخيرا اكدت المؤرخة السوفيتية نينا بيفوليفسكايا أن مؤلف المخطوطة سوري الأصل (١) .

تقول نينا بيفوليفسكايا : نستطيع أن نتعرف على مؤلف المخطوطة وتاريخها من خلال المعلومات الواردة في المخطوطة نفسها . فالنسخة الثانية « B » من المخطوطة تحتوي على (٦٨) فقرة : منها احدى عشرة فقرة مخصصة لآخبار سورية ، من فقرة ٢٣ - ٣٣ ، بينما خصصت اربع فقرات فقط لآخبار مصر . ويذكر مؤلف

المخطوطة التقسيم السياسي في سورية (بلاد الشام) ، كما يذكر أسماء عشرين مدينة سورية ، بينما لم يتحدث المؤلف في أخبار مصر سوى عن مدينة الاسكندرية فقط . ومما يؤكد أيضا أن مؤلف المخطوطة تاجر سوري اهتمامه الخاص بأخبار سورية (بلاد الشام) ومعرفته الدقيقة بمدنها الساحلية والداخلية ، إضافة الى تقديره للتجار السوريين تقديرا رفيعا ، حيث يصفهم بأنهم مهرة أغنياء ويتحلون بمكارم الاخلاق . ومن خلال هذه المعطيات وغيرها يتبين لنا أن المؤلف سوري الاصل وليس مصرياً . والمؤلف باللغة اللاتينية واللغة اليونانية الماما بسيطا ، فكان يكتب المعلومات بلغته السريانية أولا ثم يترجمها الى اللغة اللاتينية . ومن خلال دراسة الاحداث التي ورد ذكرها في المخطوطة يتبين لنا أن المخطوطة قد كتبت في منتصف القرن الرابع . حوالي سنة ٣٥٠ ميلادية) .

أطلق بعض الباحثين على مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » اسم : « الجغرافية الاقتصادية او التجارية للامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع » . حيث وردت فيها معلومات وفيرة وصحيحة عن أهم القضايا الاقتصادية في مختلف المدن البيزنطية . كما أنها وضعت بيد كاتب وصف ما شاهده بعينه أو عرفه معرفة تامة أو سمعه من شهود عيان . لقد تحدث مؤلف المخطوطة عن النواحي الاقتصادية في مدن ايطاليا واسبانيا وموريتانيا ونوميديا وشبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ومصر وسورية وغيرها . فالفقرات الاولى من المخطوطة (من فقرة ١ - ٢٠) تحدث فيها المؤلف عن شعوب الشرق وبلدانه الواقعة خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وبصوره خاصة عن الهند . أما الفقرات التالية (من فقرة ٢١ - ٦٧) فقد خصصها المؤلف للتحدث عن النواحي الاقتصادية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية . واهتم مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » بالتحدث عن الحياة الاقتصادية في مدن بلاد الشام بشكل خاص . لقد تحدث المؤلف عن عاصمة سورية الساحلية - مدينة انطاكية - التي امتازت بنشاط تجارتها ووفرة ثروتها وتنوع بضائعها . ونستدل من حديثه أيضا أن صور وصيدا وبيروت وسلوقية وانطاكية واللاذقية كانت مراكز صناعية تجارية هامة وشهدت ازدهارا اقتصاديا في العهد البيزنطي . ويذكر مؤلف المخطوطة أسماء مدن كثيرة في بلاد الشام مثل : سكيفوبوليس ، اللاذقية ، بيلوس (جبيل) ، تير (صور) ، بيريتس (بيروت) . قيسارية ، نيبوليس ، اللد ، ايرخون ، دمشق ، هيلوبوليس ، عسقلان ، غزة ، طرابلس ، اليفتيروبوليس ، كما يقول عن هذه المدن أنها تمتاز بمناخ معتدل ونشاط تجاري وفيها رجال أغنياء في كل شيء : في الكلام الجميل الفصيح ، في العمل ، في الاحسان واعمال الخير . ويذكر المؤلف أن جميع هذه المدن توجد فيها الحبوب

والخمور والزيت بوفرة ، كما تزرع حولها اشجار النخيل ، الا ان النخيل الذي يزرع حول دمشق وايرخون هو من اجود الانواع . كما تزرع حول هاتين المدينتين أيضا اشجار الجوز والتفاح المتنوعة (٢) . واما مدينتا عسقلان وغزة فتمونان بالخمور كلا من سورية ومصر . هذا ويشبه المؤلف النشاط التجاري في مدن بلاد الشام بغليان الماء (in negotio bullientes) (٣) . وبالإضافة الى الصناعات الزراعية المذكورة أعلاه اشتهرت مدن بلاد الشام أيضا بصناعة مختلف انواع الالبسة . مؤلف المخطوطة يذكر أن الالبسة الكتائية كانت تصدر من المدن التالية : (بيلوس ، صور ، بيروت ، سكيفوبوليس ، اللاذقية) الى جميع انحاء العالم ، كما أن الاقمشة المصبوغة بالارجوان الحقيقي كانت تصنع في المدن التالية : (ساربتا ، قيسارية ، نيابوليس ، اللد) (٤) .

استمر النشاط الاقتصادي الذي تحدث عنه مؤرخ القرن الرابع ، في مدن بلاد الشام في القرون اللاحقة . غير أن الاجراءات التي اتخذها الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الاول في القرن السادس . المتمثلة باحتكار الدولة لتجارة خيوط الحرير ورفع أسعارها ، قد ألحقت الضرر بمصانع النسيج الصغيرة الخاصة الموجودة في مختلف مدن بلاد الشام ، فاضطر معظم أصحاب هذه المصانع الى اغلاق مصانعهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم الحصول على خيوط الحرير اللازمة لتشغيل هذه المصانع (٥) .

إضافة الى اهتمام مؤلف المخطوطة بالقضايا الاقتصادية اهتم أيضا ببعض النواحي الفنية والثقافية في مدن بلاد الشام . لقد تحدث المؤلف عن الامور المتعلقة بالعروض المسرحية واعمال السرك التي كانت تجري في انطاكية واللاذقية وصور وبيروت وقيسارية وغيرها ، فذكر أن افضل سائقي خيول السباق وجدوا في اللاذقية . ومنها توزعوا الى مختلف المدن . أما في بيروت وصور فقد وجد افضل الممثلين التنكريين . كما وجد في قيسارية اجود الممثلين الصامتين ، وفي غزة اقدر الفنانين والمصارعين . وفي عسقلان وكاستابيتيا اقوى اللاعبين الرياضيين ، وفي هليوبوليس امهر العازفين على الناي والمزمار واجمل النساء اللواتي ورثن جمالهن عن فينوس (الهة الحب والجمال) التي لاتزال تعيش ، حسب تصور المؤلف ، في جبال لبنان قرب هليوبوليس (٦) . وفي هذه المدن كان يتم تدريب مختلف الفنانين كالموسيقيين والممثلين وسائقي خيول السباق الذين يشتركون في تقديم المشاهد الفنية في السرك او الملعب . وفي الغالب شارك بعض التجار في استخدام وتشغيل هؤلاء الفنانين . حيث كانت ألعاب السرك تشكل المكان والزمان المناسبين لبيع البضائع المتنوعة .

واثارت مدن بلاد الشام اعجاب المؤلف ، فكتب عنها وصفا يعبر عن غبطته وابتهاجه بجمالها ومآثرها الحضارية . ذكر المؤلف أن مدينة انطاكية تكثر فيها التماثيل الفنية والابنية الجميلة ، كما كانت كثيرة السكان وافرة الثروة . أما مدينة قيسارية فكانت رائعة بموقعها ومخطط عمراتها وامتازت بوجود نخاسنها المربع الفريد من نوعه * . واشتهرت مدينة سلوقية بمينائها المريح المدهش الذي أعيد بناؤه في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير ، هذا الميناء الملائم لاعمال التجارة وللأمور العسكرية الاستراتيجية معا (٧) . وتفتخر مدينة بيروت بمدارس الحقوق التي يتخرج منها رجال القانون ويتوزعون في جميع ولايات الامبراطورية ، كي يسهرؤا على حسن سير المحاكم ويحرسوا القانون (٨) . هذا وتحدث مصادر تاريخية أخرى عن مساهمة اساتذة بيروت الحقوقيين في صياغة المجموعات القانونية المتعددة للامبراطورية البيزنطية مثل مجموعة جيرموجينوس Codex Germogenianus ومجموعة تيودوسيوس Codex theodosianus ومجموعة جستنيانوس Codex Justinianus وقال مؤلف المخطوطة عن مدينة بصرى الشام انها ذات تجارة واسعة ، Quae negotia maxima habere dicitur لانها قريبة من العرب والفرس .

وذكر المؤلف كلمة أرابيا Arabia لتدل على الولاية العربية الرومانية . اما كلمة ساراكينوي Sarakenoi فقصد بها البدو الرحل من العرب ، الذين كانت لهم علاقات تجارية مع مناطق الحدود البيزنطية ، كما قال عنهم أيضا « انهم يرغبون ان يقضوا حياتهم في الغزو وجمع الفنائم » Rapina Sperantium Suam Vitam transigere ويروى عنهم تحكمهم بالنساء (٩) .

وتحدث مؤلف المخطوطة عن بغض المدن التجارية الواقعة على الحدود البيزنطية الفارسية في بلاد النهرين مثل مدينة نصيبين ومدينة اديسا (الرها) ، اللتين بفضل « حكمة الالهة والاباطرة » وقفتا صامدتين في وجه الفرس . وقال المؤلف عن سكان هاتين المدينتين انهم كانوا حاذقين في الاعمال التجارية in negotio Valde acutos فاحتكروا التجارة مع الفرس ، حيث اشتروا منهم بضائعهم وباعوها في جميع الولايات البيزنطية ، في حين باعوا للفرس بضائع ومنتجات الامبراطورية الرومانية ، عدا النحاس والحديد (١٠) ، ذلك أن الحكومة البيزنطية حظرت بيع هذه المعادن للفرس

* النحاس : ج نفخس وهو نصب لذكاري على شكل عمود .

وغيرهم من الاعداء ، كيلا يستخدموها في صناعة الاسلحة ، وقد استمر هذا الحظر حتى القرن السادس الميلادي .

وهكذا حصلنا من يد مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » على وصف عام للتجارة الداخلية والخارجية في مدن بلاد الشام في القرن الرابع الميلادي . وباعتبار أن مؤلف المخطوطة تاجر سوري فقد كتب عن الامور التي تهمة كالبضائع وانواعها الجيدة في هذه المدينة او تلك . ان تطور قوى الانتاج في الامبراطورية البيزنطية قد تم تحت تأثير هذا التبادل التجاري النشط . ونحن نعلم ان تطور التجارة وازدياد رأس المال التجاري يؤديان الى تطور الانتاج . وهكذا فان اللوحة الاقتصادية التي رسمها لنا مؤلف المخطوطة على عجل تبين لنا صورة العلاقات الاقتصادية في المجتمع البيزنطي الذي لاتزال فيه جذور علاقات العبودية قوية . ولكن بعد مرور ثلاثة قرون على هذه الصورة سيتغير شكلها ، حيث ستفسخ علاقات العبودية وتولد علاقات جديدة تؤثر على حياة المدن وتجارتها .

ب - « تاريخ اميانوس ماركيلينوس » « Ammianus Marcellinus . . Historia »

عاش المؤرخ اليوناني اميانوس ماركيلينوس في مدينة انطاكية السورية في القرن الرابع الميلادي (٣٣٠ - ٤٠٠ م) . امتهن اميانوس في شبابه الحياة العسكرية . فاشترك في حملات الامبراطور البيزنطي جوليانوس (المرتد عن المسيحية الى الوثنية) ضد الفرس . وفي الستين من عمره بدأ اميانوس بتدوين مؤلفه « التاريخ » المعروف تحت عنوان - Res Gestae - أي « الاعمال » . وقد دون اميانوس تاريخا مؤلفا من واحد وثلاثين جزءا . بقي منها ثمانية عشر جزءا فقط (من الجزء ١٤ - ٢١) تغطي احداث الفترة ما بين سنتي ٣٥٣ - ٣٧٨ م . ورغم ان لغته الاصلية كانت اليونانية فقد دون كتاباته باللاتينية . مما جعل أسلوبه غامضا أحيانا . كان اميانوس معاصرا للاحداث التي كتب عنها او شاهدها عيانا ، كما كان امينا في تسجيل الاخبار والمعلومات ، وتمتع بفكر نقدي وقدرة على تصوير الوقائع والاحداث المختلفة . ويجدر بنا ان نذكر له قوله : « ان المؤرخ الذي يطمس الوقائع عن قصد ليس اقل مغالطة من الذي يخلق ما لم يكن » - (Historia, XXIX, 1,5) . ولم تقتصر مهمة اميانوس على ذكر الوقائع والاحداث . بل عمل على جمعها وربطها بالاحداث الكبرى محاولا ان يهتدي الى تفسير منطقي للتاريخ .

يتوافق حديث المؤرخ أميانوس ماركيلينوس مع حديث مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » عن مدن سورية وفينيقية وفلسطين (بلاد الشام) ، حيث يذكر عددا كبيرا من هذه المدن ويقول عنها : « هذه المدن تتشابه بعضها مع البعض الآخر بازدهارها وحسن تنظيم مرافقها العامة وتوفر أسباب الراحة فيها » . ويذكر أميانوس أن الولاية العربية التي نظمها الإمبراطور الروماني تراجان وجد فيها عدد من المدن الكبيرة المحاطة بأسوار منيعة ، كما وجدت فيها البضائع والسلع التجارية بوفرة (١١) .

ولم يقتصر نشاط مدن بلاد الشام الاقتصادي على التجارة الداخلية وتبادل المنتجات والبضائع المحلية فقط ، بل كانت بضائع الهند والصين تصل إلى هذه المدن ومنها توزع إلى مختلف ولايات الإمبراطورية البيزنطية . فالمؤرخ أميانوس ماركيلينوس يتحدث عن التجارة الخارجية في مدينة باتنان السورية الواقعة في منطقة أريموز على طريق القوافل القديمة التي تصل بين أنطاكية في الغرب ومدينة أديسا (رها) في الشرق ، كما أنها تتوسط بموقعها بين حلب (بيرو) ومنبج (هبروبوليس) . وبما أن مدينة باتنان لا تبعد كثيرا عن مجرى نهر الفرات فقد وصلت إليها البضائع بطريق مائية من الخليج العربي . ويقول أميانوس أن مدينة باتنان كانت تعج بالتجار الأغنياء *Refertum mercatoribus opulentis* ، كما كان يقصدها الناس الأغنياء لشراء البضائع في أيلول من كل عام ، حيث يقام فيها في هذا الشهر معرض تجاري . وإلى مدينة باتنان كانت تصل بضائع تجارية من الهند عن طريق البر والبحر (١٢) . هذه المعلومات التي يسردها المؤرخ أميانوس ماركيلينوس توضح لنا صورة التبادل التجاري الخارجي النشط بين مدن بلاد الشام والبلدان البعيدة في القرن الرابع الميلادي .

ج - فيلوستورغيوس - تاريخ الكنيسة : *Philostorgius --- Historia Ecclesiastica*

تعتبر كتابات فيلوستورغيوس ، وبخاصة كتابه « تاريخ الكنيسة » من المصادر التاريخية الهامة التي تلقي ضوءا ساطعا على تجارة بيزنطة الخارجية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . غير أن هذا الكتاب لم يصلنا بشكل كامل ، بل وصل إلينا على شكل مقتطفات في كتابات (مكتبة) فوتيوس بطريرك القسطنطينية في أواخر القرن

التاسع . وقد نشر كتاب فيلوستورغيوس « تاريخ الكنيسة » في ليبزغ سنة ١٩١٣ على يد الناشر بيدز تحت عنوان :

Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

..

ولد فيلوستورغيوس سنة ٣٦٨ م ، فلما بلغ العشرين من عمره ذهب الى النسطورية وقضى فيها فترة من حياته . وقد احب فيلوستورغيوس الترحال فزار فلسطين وانطاكية ، كما كان عالي الهمة شديد الملاحظة فحصل على ثقافة متنوعة في مجال الفلك والجغرافية . انهى فيلوستورغيوس كتابه المسمى : Historia Ecclesiastica حوالي سنة ٤٣٠ م . ولما كانت آراؤه العقائدية تتناقض مع العقيدة الاورثوذكسية فقد استخف الاورثوذكسيون بكتاباتاه واهملوها .

من خلال « تاريخ الكنيسة » هذا نلمس مساعي الاباطرة البيزنطيين (في القرن الرابع) لتوطيد علاقاتهم السياسية مع اليمن والحبشة وغيرهما من البلدان الواقعة على الطريق التجارية المؤدية الى الهند . وذلك بنشر الديانة المسيحية في تلك البلدان . بغية كسب شعوبها وملوكها حلفاء للبيزنطيين وحماة لمصالحهم التجارية . يتحدث فيلوستورغيوس عن اليمن فيسميها بلاد الحميريين الواقعة الى جوار المحيط (الهندي) . ويذكر انها تنتج محصولين في السنة الواحدة ، ولذا اطلق عليها القدماء اسم « العربية السعيدة » (١٣) . كذلك يذكر فيلوستورغيوس ان الحميريين يعبدون كواكب السماء كالشمس والقمر وغيرهما من الالهة المحلية ، كما يوجد بينهم عدد من اليهود (١٤) . هذه المعلومات التي ينقلها فيلوستورغيوس تتوافق تماما مع النقوش الحميرية وبعض المصادر السورية (السريانية) واليونانية الاخرى (١٥) .

في عهد الامبراطور كونستانتينوس بن قسطنطين الكبير (٣٢٧ - ٣٦١) قدمت الى بلاد حمير سفارة بيزنطية على رأسها شخص يدعى تيوفيلوس الهندي . ويذكر فيلوستورغيوس ان تيوفيلوس الهندي كان في شبابه رهينة عند الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧) واصله من جزيرة ديف ، كما يقول : « ان بلاد الديفيين عبارة عن جزيرة ، لكن الديفيين يطلق عليهم اسم الهندود » . هذا وتطلق جميع المصادر البيزنطية المتقدمة اسم ديف اوسيليديف على جزيرة سيلان . اما قزما الملاح الهندي فيطلق (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) على جزيرة سيلان اسم « تابروبان » . كما ان فيلوستورغيوس يطلق في مكان آخر اسم تابروبان على جزيرة سيلان ، ومن هنا يظن انه يقصد من اسم ديف جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) التي هو منها اصلا . وكان المسيحيون الموجودون في

جزيرة سقطرة في زمن قزما الملاح (القرن السادس) على المذهب النسطوري ، حيث رسم كهنتهم على أيدي الفرس - أي على أيدي الاساقفة المسيحيين النساطرة الموجودين في فارس (١٦) .

كان تيوفيلوس مسيحياً فنال رتبة دياكون ثم صار أسقفاً فألقت على عاتقه مهمات دبلوماسية كلفة بها الإباطرة البيزنطيون . لقد أوفد الإمبراطور كونستانتينوس الأسقف تيوفيلوس على رأس سفارة إلى اليمن تحمل معها هدايا ثمينة من بينها مثلاً حصان كبادوكي من أجود السلالات . وبالإضافة إلى الهدايا حمل السفير البيزنطي تيوفيلوس مبلغاً من المال قدمه إلى ملك الحميريين ، الذي أطلق عليه لقب « حاكم الشعب اليمني - اتارخوس » ، وطلب منه أن يصرف هذا المال على بناء كنيسة للمسيحيين في مدينة ظفار عاصمة الحميريين . لقد نجحت البعثة الدبلوماسية البيزنطية في تحقيق مهمتها ، حيث طلبت من ملك الحميريين ، عدا بناء الكنيسة ، تنفيذ أشياء كثيرة أخرى . ويفهم من هذا أن البعثة الدبلوماسية عملت على تطوير العلاقات التجارية وترسيخ النفوذ السياسي البيزنطي في اليمن . فعدا كنيسة ظفار بنيت كنيسة ثانية في عدن ، الميناء التجاري الهام على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، كذلك بنيت كنيسة ثالثة عند مصب الخليج العربي في المحيط . في مدينة تدعى « السوق الفارسية » (١٧) . وذكر فيلوستورغيوس أن هذه الكنائس بنيت على حساب ملك الحميريين لأنه اعتنق المسيحية ، كما قدم الإمبراطور كونستانتينوس إعانة مالية من أجل هذا الغرض .

بعد أن أنهى السفير البيزنطي الأسقف تيوفيلوس مهمته في اليمن توجه إلى الحبشة ، حيث نفذ بعض المهمات السياسية التي كلفه بها الإمبراطور البيزنطي . لكن تيوفيلوس قبل أن يذهب إلى الحبشة زار ، في الغالب ، مسقط رأسه جزيرة ديف (سقطرة أو سيلان) . وأخير عاد تيوفيلوس من أكسوم عاصمة الإحباش إلى القسطنطينية .

اهتم فيلوستورغيوس كمعاصريه بالتحدث عن مكان الجنة في الأرض ، التي تجري فيها الأنهار التالية : فيسون (الفانج) ، النيل ، دجلة ، الفرات ، وهذا الأمر لا يهمننا في هذا المكان . واهتم فيلوستورغيوس ، بصورة خاصة ، بالتحدث عن البلدان الواقعة إلى الجنوب والجنوب الشرقي خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية مثل : الحبشة ، اليمن ، الهند ، سيلان ، فهو يذكر ثرواتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها . وقد عرف فيلوستورغيوس اليمن والحبشة معرفة جيدة ، فأطلق على اليمن اسم « بلاد حمير » وعلى الحبشة اسم « دولة أكسوم » . أما اسم الهند عنده

فيقصد به الهند نفسها أو الهند العظمى . هذا وكانت معلوماته الجغرافية عن حوض البحر الاحمر واضحة وصحيحة ، فهو يذكر ميناءين كبيرين على خليجي البحر الاحمر الشماليين وهما ميناء كليزما (القلزم) وميناء ايلة (ايلات) ، كما يذكر ميناء اكسوم على الشاطئ الحبشي .

من اهم المعلومات الطريفة التي أوردها فيلوستورغيوس انتشار السوريين (تجار من بلاد الشام) على السواحل الى الشرق من الاحباش وحتى المحيط الخارجي (المحيط الهادي) . وقال فيلوستورغيوس : ان هؤلاء التجار السوريين مازالوا يتكلمون اللغة السورية ، لكن بشرتهم اسودت لانهم يعيشون تحت اشعة شمس حارة . وترجمة النص حرفيا هني على الشكل التالي : « قبل هؤلاء الاحباش وباتجاه الشرق حتى المحيط الخارجي يعيش السوريون ، كما يعرفون بهذا الاسم لدى السكان المحليين . وكان الاسكندر المكيدوني قد نفلهم من سورية واسكنهم هناك ، وهم حتى الآن يتكلمون لغتهم السورية » (١٨) . هذه المعلومات تدل على وجود مستعمرات تجارية سورية في سواحل الهندوستان الغربية « حيث توجد القرقة والفيلة بكثرة » ، وحيث يتواجد السوريون الذين حافظوا على لغتهم » ، كما توضح لنا مدى التأثير السوري في تلك المناطق . واكد صحة هذه المعلومات قزما الملاح الهندي (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) ، حيث تحدث عن انتشار المستعمرات السورية في الموانئ التجارية والمدن الواقعة على سواحل الهند ، كما تحدث عن انتشار الديانة المسيحية في سواحل الهند الشرقية وسيلان وآسيا الوسطى بواسطة المبشرين والتجار السوريين (١٩) .

ذكر فيلوستورغيوس الحيوانات المتنوعة التي تعيش في الهند وجنوب افريقيا ووسطها ومنها : الفيلة والثيران الكبيرة ، والافاعي ، وحيد القرن ، السعاديون المتنوعة ، الزرافة ، والحمار الوحشي . وذكر ايضا استخراج الذهب من مناجم اواسط افريقيا (بلاد ساسو) وحوض نهر الفانج في الهند .

هذا المصدر التاريخي « تاريخ الكنيسة » لمؤلفه فيلوستورغيوس له اهمية خاصة ، حيث وردت فيه معلومات مفيدة واضحة عن التبادل التجاري وملاقات بيزنطة الخارجية في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . ان ارسال السفارات والوفود الدبلوماسية الى اليمن والحبشة يدل على اهتمام الدولة البيزنطية بالتقرب والتحالف مع هذين البلدين ، كما ان مساعيها لنشر الديانة المسيحية تعتبر احدي الوسائل لتمتين علاقاتها مع البلدان الواقعة على طريق الهند التجارية . والهدف الاساسي من هذه السياسة هو تحقيق مصالح بيزنطة الاقتصادية . ولكن عندما

سيطر الفرس على جنوب الجزيرة العربية (في النصف الثاني من القرن السادس) لم تعد بيزنطة تهتم ببذل المساعي الدبلوماسية في تلك المنطقة . ولهذا المصدر التاريخي أهمية خاصة أيضا كونه يوضح لنا انتشار الجاليات السورية التجارية في مواني الهند ، مما يدل على الدور الهام الذي لعبه التجار العرب السوريون (تجار بلاد الشام) في التجارة البيزنطية الداخلية والخارجية .

* * *

د - قزما الملاح الهندي - « الطبغرافية المسيحية » :

Cosmas Indiocopleustes --- The Christian topography

يعتبر كتاب « الطبغرافية المسيحية » مؤلفه قزما - الملاح الهندي - من المصادر التاريخية الهامة التي تفيدنا بمعلومات وفيرة عن تجارة بيزنطة في القرن السادس الميلادي . وقد انتشرت نسخ كثيرة من هذا الكتاب في العصور الوسطى ، كما ترجمت النسخ الاصلية اليونانية الى عدة لغات منها اللاتينية والسلافية . وقزما الملاح الهندي اصله من مصر ، وفي الغالب ، من مدينة الاسكندرية ، حيث شاع كثيرا مثل هذا الاسم في مصر . تحدث قزما الملاح الهندي في كتابه عن نفسه وحياته باختصار . فذكر أنه عرف اللغة اليونانية ، ولكنه لم يتقن فصاحتها جيدا بسبب انشغاله بمشاكل الحياة اليومية الصاخبة (٢٠) .

اشتغل قزما الملاح الهندي بالتجارة فطاف في بحار ثلاثة هي : البحر الرومي (المتوسط) ، البحر الاريتيري (المحيط الهندي) ، البحر الفارسي (الخليج العربي) . وذكر قزما أن المعلومات التي نقلها اليها في كتابه أخذها مباشرة عن سكان المناطق والبلدان التي زارها (٢١) . لقد أبحر قزما من جزيرة سنفيدون الواقعة في مدخل المحيط الهندي باتجاه الهند ، فتعرض لعاصفة بحرية شديدة ، لكنه لم يذكر إذا كان قد وصل الى الهند أم لا . غير أن الوصف الدقيق الذي عرضه في الفصل الحادي عشر من كتابه عن جزيرة سيلان يدل على أنه من تأليف شاهد عيان . وقد حل قزما في الحبشة سنة ٥٢٢ أو ٥٢٥ في عهد ملكها الاصبح ، الذي عاصر عهد الامبراطور البيزنطي جوستين الاول (٢٢) . وفي الحبشة زار قزما مدينة أدوليس (عدول) التي كانت مرفأ تجاريا يقصده التجار من مختلف الجنسيات . وفي هذه المدينة نسخ قزما نقشين : النقش الاول كان على لوح من المرمر ويخلد ذكرى حملة بطليموس الثالث ملك مصر (٢٤٧ - ٢٢٢ ق.م) على الحبشة . أما النقش الثاني فكان تخليدا لتنصيب احد الملوك الاحباش على العرش (في القرن الثاني أو الثالث الميلادي) ،

الذي يحمل لقب « نيجوس » - النجاشي - ولكن اسمه لم يذكر . وزار قزما أيضا مدينة اكسوم عاصمة الحبشة التي كانت مركزا تجاريا هاما . وتحدث قزما عن الزرافة Camelopardalis فقال لا تمشي الا في الحبشة ، ويوجد بعض منها في حديقة القصر الملكي في اكسوم ، كونها من الحيوانات النادرة (٢٣) .

تجول قزما في ساحل افريقيا الجنوبي الشرقي فوصل الى شبه جزيرة الصومال . وربما وصل قزما أيضا الى بلاد ساسو عند منابع النيل الجنوبية ، حيث ذكر ان ملك اكسوم اقام علاقات تجارية مع بلاد ساسو فاستورد منها الذهب (٢٤) . وحل قزما أخيرا في صحراء سيناء وترهب في دير هناك يسميه رايتوي ، فقضى فيه بنية حياته منصرفا للكتابة الكتب . ونستدل على رهبته من احدى نسخ كتابه « الطبغرافية المسيحية » المحفوظة في فلورنسيا ، حيث ورد اسمه فيها « قزما الراهب »

وعدا عن « الطبغرافية المسيحية » كتب قزما بعض الكتب الاخرى ولكنها فقدت ولم تصل الينا ، ومنها كتاب يذكر المؤلف انه كتبه لشخص يدعى قسطنطين وصف فيه المعمورة في جهة المحيط - من الاسكندرية الى المحيط الجنوبي (نهر النيل) - مصر كلها ، الحبشة ، البحر العربي والمناطق المحيطة به ، المدن ، الاقاليم ، الشعوب التي يحيط بها المحيط وتقع في داخل القارة - وهذا يعني انه وصف في ذلك الكتاب جميع مناطق افريقيا الشرقية ودون فيه ملاحظاته الشخصية وما شاهده بعينه . (٢٥) . كذلك كتب قزما الملاح كتابا في الفلك لكاهن يدعى هومولوجوس Homologos ، لكنه لم يصلنا ، كما لم يصلنا ايضا ما كتبه في شرح « قصيدة القصائد » (٢٦) .

يتألف كتاب « الطبغرافية المسيحية » من اثني عشر فصلا ، لكن هذه الفصول تختلف بمحتوياتها . الفصول الخمسة الاولى تحتوي آراء قزما - الملاح الهندي - حول نشوء المعمورة . اما الفصول الخمسة الثانية - (اي من ٥ - ١٠) فتحتوي معلومات في الفلك وعلم الفضاء ، ولكنها غير واضحة وغير دقيقة . وأهم فصول الكتاب هو الفصل الحادي عشر الذي يتحدث فيه عن جزيرة سيلان كشاهد عيان . وعرض قزما في الفصل الثاني عشر آراء الكتاب الوثنيين القدماء حول قيمة التوراة وقدمها . هذا وقد كتب قزما كتابه « الطبغرافية المسيحية » بين سنتي ٥٤٧ - ٥٥٠ ميلادية (٢٧) .

وتتطابق آراء قزما حول نشوء المعمورة مع آراء النساطرة السوريين . كما ان

تجارة بيزنطة مع بلدان الشرق : الحبشة ، جنوب افريقيا ، الهند ، كان لا بد لها ان تشد قزما الى مجال التأثير السوري ، حيث قبض السوريون النساطرة الذين يعيشون تحت النفوذ الفارسي على زمام التجارة ، كما كانت اللغة السورية هي لغة التجارة الاولى في الشرق (٢٨) . ومما يدل على التأثير السوري النسطوري على آراء قزما انه عندما عدد مذاهب الهرطقة المسيحيين لم يذكر النساطرة بين الهرطقة . هذا وقد وردته اخبار من الاوساط السورية تفيد بأن كهنة جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) كان يتم تعيينهم من فارس - أي من قبل رجال الدين النساطرة الخاضعين للنفوذ الفارسي (٢٩) .

يشاهد في كتاب « الطبغرافية المسيحية » بعض الصور ، خاصة في اقدم مخطوطة محفوظة في الفاتيكان تحت رقم (٦٩٩) (٣٠) . ويؤكد الباحثون أن قزما - الملاح الهندي - كان قد رسم تلك الصور بيده . لقد ذكر قزما انه رسم الزرافة كما شاهدها في حديقة قصر اكسوم الملكي . وقد رسم قزما أيضا بعض المدن على شكل حصن له سور حوله . ومن المدن التي رسمها قزما بيده مدينة دمشق .

ويستحسن أن نذكر هنا الكلمات الجميلة التي اختتم بها العالم الروسي سريزنسكي ترجمة كتاب قزما « سعى بعض الناس الى جمع الذهب ، في حين اغتصب بعضهم الاراضي او اللؤلؤ او غيره من الثروات . اما صاحب هذا الكتاب الحكيم (قزما) فلم يبحث عن الذهب او اللؤلؤ او غيره من الكنوز ، بل سعى الى وصف العالم بشكل لائق ، فجمع بذلك ثروة لاتزول . ان الكلمة وحدها هي ذخر كل مافي الارض » (٣١) .



هـ - « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » « Odoiporiai apo Edem... »

عثر الباحثون على مخطوطة صغيرة مكتوبة باللغة اليونانية تحتوي معلومات جغرافية وتاريخية ترجع الى ما قبل القرن السابع الميلادي . كما عثر الباحثون أيضا على مخطوطة أخرى مكتوبة باللغة الكروزيئية (لغة بلاد الكرج) قريبة الشبه بمحتواها من المخطوطة اليونانية المذكورة . وتحمل المخطوطة اليونانية هذا العنوان : « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » وأول من نشر هذه المخطوطة هو العالم كلوتز سنة ١٩١٠ .

A. Klotz. Odoiporiai apo Edem. Rheinisches Museum für Philologie, t. 65, 1910, PP. 608 — 610.

ثم نشر المخطوطة بعده العالم أفاليفيلي سنة ١٩٢٨ .

Z. Avalichvili. Géographie et legende. Revue de l'Orient chrétien, 26, 1928, PP. 280 - 283.

كذلك وجدت العالة السوفيتية نينا بيفوليفسكايا نسخة من المخطوطة باللغة اليونانية في المكتبة العامة الوطنية في مدينة لينينغراد تحمل الرقم (٢٢٥) ومؤرخة بتاريخ سنة ١٦٦١ ، فنشرتها مع ترجمة لها باللغة الروسية في ملحق كتابها : بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٤٠٨ - ٤١٠ .

مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » اصفر بكثير من مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » (Expositio...) ، لكن المخطوطتين تتشابهان في ذكر أسماء البلدان والاقاليم وتحديد المسافات بين الاقاليم بعدد مراحل السير لقطع المسافات برا او بحرا . وعدا عن صفرها تتميز مخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » عن مخطوطة « الوصف الكامل ... » بطابعها المسيحي ، حيث يكثر فيها ذكر المسيحيين في مختلف اقاليم الشرق ، بينما لا تلاحظ الطابع المسيحي في مخطوطة « الوصف الكامل ... » .

ان الفقرات الاولى من مخطوطة « الوصف الكامل ... » ومخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تدل على ان الطريق البحرية الى الهند والمسافات بين الموانئ والمراكز التجارية الرئيسية على هذه الطريق كانت معروفة في بيزنطة في القرن الرابع الميلادي . في النص اليوناني والنص الكروزييني لمخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تبدأ الطريق من الهند ، اول مركز في الشرق يصدر البضائع ، عبر ايران ، فتصل الى روما عبر البحر الابيض المتوسط ، ومن روما تنقل الى غاليا (فرنسا) . ليس من شك ان خلف كتابة هذه المخطوطة اليونانية (الجغرافية - التاريخية) تكمن مصالح تجارية عالمية . هذا وقد لعب التجار السوريون (تجار بلاد الشام) الدور الاول في تلك التجارة العالمية ، ومما يشهد على ذلك شواهد القبور الكثيرة المكتشفة في فرنسا والتي كتبت عليها كتابات باللغة السورية (السريانية) ترجع الى القرنين السادس والسابع الميلاديين .

تطلق مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » على الفرس صفة عباد النار ، كما تذكر العرب باسم ساراكينوي دون ان تذكر الاسلام ، وهذا يدل على ان المخطوطة كتبت قبل ظهور الاسلام في القرن السابع . اما ذكر المسيحيين لدى الهون (في آسيا الوسطى) وفي جزيرة سيلان والهند الكبرى فهذا يدل على ان المخطوطة قد كتبت

في الفترة التي نشط فيها تبشير البعثات الدينية السورية النسطورية في بلدان الشرق في المرحلة مابين القرنين الخامس والسابع الميلاديين .

وعدا ذكر الطرق البحرية والمناطق الساحلية فقد ورد في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » ذكر الطرق البرية والمناطق القارية مثل : جنة آدم ، بلاد البراهمة ، بلاد الهون . على ان التصورات عن جنة آدم والهند الشمالية والصين وبلاد الهون جاءت في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » غامضة ومبهمة . اما في كتاب قزما - الملاح الهندي - « الطبغرافية المسيحية » فقد وردت المعلومات عن البلدان المذكورة بشكل أوضح وأكثر واقعية . ولا يعترف قزما بوجود جنة آدم على الارض . اما الصين عنده فهي بلاد في الشرق يقع خلفها المحيط الكبير ، وللوصول الى هذه البلاد توجد طريقان : الاولى بحرية في الجنوب ، والثانية برية في الشمال . وينفي قزما - الملاح الهندي - وجود جنة آدم في الارض قائلا : « ما من احد عرف جنة آدم على الارض او وصل اليها ، فلو كان من الممكن الوصول الى جنة آدم لذهب اليها الكثيرون ، ذلك ان الناس يذهبون الى اقاصي الارض للحصول على الحرير الخام ، فكيف لا يذهبون الى جنة آدم لو كانت موجودة في الارض فعلا ! » .

تعريب المخطوطة اليونانية « الطرق من جنة آدم حتى الرومان »

(ورقة ٦٧ ب) حول طرق جنة آدم .

من آدم الى دراجنان تتأرجح المراحل (موناي) على طول النهر المسمى فيسون . من دراجنان الى ابيلات سبعون مرحلة ، هناك يزرعون ويحصدون ، وكل شيء يملكونه مشترك لاقسمة فيه ، والناس هناك مسيحيون . من ابيلات الى ارمين (ايمير) اربعون مرحلة .

من ارمين الى نيكوس اثنتان وثلاثون مرحلة .

من نيكوس الى ديسيمانيس مرحلتان ، ومنها الى هنا المسافة غير محسوبة ويروي أرضهم نهر فيسون ، ولا توجد عندهم أصنام ، وهم لا يتبعون المسيح وليسوا معه ، لكنهم يخشون الله وصادقون .

بعد ديسيمانيس يعيش شعب يدعى خوناي (الصينيون) . ذلك الشعب كبير جدا ، (وأرضه واسعة) يلزم لاجتيازها ثمانية أشهر . ولديه أرض بدون ماء

Рукопись Государственной Публичной библиотеки в Ленинграде, греческая, № 252

(Текст печатается по незаданной рукописи № 252 с разночтениями издания „Подорожных“. Klotz. 'Οδοιπορία ἀπὸ 'Εδνῆμ. Rheinisches Museum für Philologie (1910) N. F., 65 B. H. 4, p. 608—610) (Λ. 676). Περί ὁδοιπορίας τῆς 'Εδνῆμ τοῦ παραδείσου.¹

'Απὸ 'Αδάμ² ἕως Δραγμάν³ μοναὶ εὐ δομήντα⁴ παρὰ τὸν ποταμὸν τὸν λεγόμενον Φυσῶν καὶ ἀπὸ Δραγμάν⁵ ἕως 'Εβηλάτ⁶ μοναὶ θ̄ ἐκεῖ σπέρουον⁷ (λ. 68-a) καὶ δερίζουον· ἔχουσιν δὲ τὰ πάντα κοινὰ καὶ ἀμέριστα· οἱ δὲ ἀν[θρῶπ]οι⁸ χριστιανοί· ἀπὸ 'Εβηλάτ ἕως 'Ερμῆν⁹, μοναὶ μ̄ ἀπὸ 'Ερμῆν¹⁰ ἕως Νέκους, μοναὶ λβ̄ ἀπὸ Νέκους ἕως Δισιμάνεις¹¹ μοναὶ β¹² ἕως ὧδε ἀμέριστα· ποτῆζεται δὲ ἡ γῆ αὐτῶν τοῦ Φυσῶν ποταμοῦ¹³ εἶδολα ἐν αὐτοῖς οὐ κέκτηνται· οὔτε¹⁴ πρὸ τοῦ Χ[ριστοῦ] οὔτε¹⁵ μετὰ τοῦ Χριστοῦ· ἀλλὰ πάντα¹⁶ θεοσεβεῖς καὶ ἀγαθεῖς· ἀπὸ Δισιμάνεις ἔθνος λεγόμενον Χῶναι· τὸ δὲ ἔθνος τοῦτο μέγα· ἔχων¹⁷ ὁδοιπορίαν μην[ῶν] ἡ¹⁸ ἔχει δὲ καὶ τόποις ἀνθρώποις μηνῶν κθ̄· ἀπὸ 'Αβλ̄ παραπλέη τὸν αἰγυαλῶν· καὶ¹⁹ ἔρχεται εἰς τὴν 'Ινδίαν τὴν μεγάλην· πλεόν μηνας ζ̄ εἰδὲ²⁰ χριστιανοὶ καὶ 'Ελληναὶς· ἀπὸ 'Ινδίας εἰς 'Αξομίαν παραπλέη· μηνας ζ̄²¹ καὶ ἀπὸ 'Αξομῆς²² (λ. 68-b) παραπλέη τὴν 'Ερυθρὰν θάλασσαν²³ ἔρχεται εἰς τὴν 'Ινδίαν τὴν μακρὰν²⁴ διὰ μηνῶν ε̄ εἰσὶν δὲ καὶ 'Ελληναὶς καὶ Χριστιανοί.²⁵ ἀπὸ 'Ινδίας παραπλέη ἕως Περσίδος μηνας γ̄· νυ...ηης²⁶ οἱ ἄνομοι μάγοι καὶ φάρμακοί· ἀπὸ Περσίδος εἰς Σαρακηνίαν²⁷ μοναὶ β̄· ἀπὸ Σαρακηνὴν πλέη εἰς τὴν 'Εβηλάτ²⁸ τὴν 'Ερυθρὰν θάλασσαν εἰς τὴν²⁹ λιμένα τῆς Περσίδος 'Ινδίας³⁰ καὶ ἀπὸ Αἰγύπτου μοναὶ ζ̄ 'Ελληναὶς καὶ Χριστιανοὶ εἰσὶν·³¹ ἀπὸ 'Εβηλάτ εἰς 'Ελαμῆ³², μοναὶ θ̄· ἀπὸ 'Ελαμῆ ἕως 'Αντιοχείας μοναὶ κ̄ ἀπὸ 'Αντιοχείας εἰς Κωνσταντινούπολιν³³ μοναὶ λβ̄ ἀπὸ Κωνσταντινούπολιν³⁴ ἕως 'Ρώμης μοναὶ πς̄ ἀπὸ 'Ρώμης εἰς Χαλίαν³⁵ μοναὶ κζ̄³⁶

Ἡ μονὴ ἔχει μήλια ζ̄ καμουν ὧλα μύλια χιλιάδες ρθ̄ καὶ φ̄ ἡγουν χίλι [λ. 69-a] ἄδες· ἑκατὸν ἐννέα καὶ πεντακόσια.

Τέλος τῆς ὁδοιπορίας τῆς 'Εδνῆμ τοῦ παραδείσου.

النص اليوناني الموجود في المكتبة الوطنية بمدينة لينينغراد للخطوط « الطرق من جنة آدم حتى

الرومان » نشرته مع ترجمته الروسية العالية السوفيتية نينا بيغولفسكايا في كتابها « بيزنطة على طرق

الهند » ، موسكو 1951 ص ٤٠٨ - ٤١٠ .

(صحراء) يلزم لاجتيازها تسعة وعشرون شهرا . من آب (دياب) يبحرون على طول الشاطئ حتى يصلوا الى الهند العظمى . مدة الإبحار سبعة أشهر ، وهم هناك) مسيحيون ويونانيون . من الهند الى اكسوم يبحرون سبعة أشهر ، بينما من اكسوم يبحرون عبر البحر الاريتيري فيصلون الى الهند العظمى بعد خمسة أشهر ، وهم هناك هليونيون ومسيحيون .

من الهند الى الفرس يبحرون ثلاثة أشهر ، وهم (الفرس) مجوس طفاة مفسدون . من الفرس الى الساراكينوي (العرب) مرحلتان . من الساراكينوي (العرب) يبحرون الى ايلات البحر الاريتيري والى ميناء الفرس الهندي .

ومن مصر الى ايلات سبع مراحل ، وهم (هناك) هليونيون ومسيحيون . من ايلات الى عيلام تسع مراحل .

من عيلام الى انطاكية عشرون مرحلة .

من انطاكية الى القسطنطينية اثنتان وثلاثون مرحلة .

من القسطنطينية الى روما ست وثمانون مرحلة .

من روما الى غاليا سبع وعشرون مرحلة .

المرحلة تساري سبعة أميال .

طول الطريق كله (الطريق من جنة آدم حتى الرومان) مئة وتسعة آلاف وخمسمائة (١٠٩٥٠٠) ميل . نهاية طريق جنة آدم .

* * *

و - صناعة الحرير وتجارته في بلاد الشام في العهد البيزنطي من خلال المصادر المعاصرة .

« بروكوبيوس الكيساري » - « Procopius Caesarensis : Anecdota »

وجدت مصانع الغزل والنسيج (الورش الصناعية) في مدن بلاد الشام منذ القرون الاولى الميلادية . في هذه المصانع تحول الحرير الخام الى خيوط دقيقة وصبغ

بألوان مختلفة ، ثم نسج قماشاً بأيدي صنّاع مهرة واعطى للخياطين الذين خاطوا منه معاطف وعباءات مطرزة وموشاة بخيوط ذهبية ، فباعها التجار السوريون في اسواق الشرق والغرب . وكان الحرير الخام يصل الى مدن بلاد الشام الساحلية عن طريق البحر . لقد استورده التجار من الهند ونقلوه على السفن الحبشية الى ميناء ادوليس (عدول) - الواقعة على ساحل البحر الاحمر الحبشي - ، ثم الى خليج ايلات ، ومن ايلات نقل الحرير في الطرق البرية الى ساحل بلاد الشام . كذلك كانت طرق القوافل البرية الممتدة من الصين الى اواسط آسيا وايران تنتهي في الساحل الشمالي لبلاد الشام ، وفي هذه الطرق نقل الحرير الخام ايضا .

وردت في مجموعة الامبراطور تيودوسيوس القانونية Codex Theodosianus أسماء بعض المصنوعات الحريرية ومنها : Metaxa وتعني الحرير الخام ، Nema Sericum وتعني الخيوط المفزولة ، Vestis Serica وتعني الالبسة الحريرية ، Subserica وتعني الاقمشة الحريرية الموشاة بخيوط ذهبية - أي نوعاً من الديباج . وقد غزلت الخيوط الحريرية وصبغت في بيروت وصور وصيدا ، حيث اشتهرت هذه المدن بمثل هذه الصناعات . ومما ساعد على تطور الصناعات الحريرية في مدن بلاد الشام الساحلية وجود الصباغ الأرجواني (الذي صبغت به الالبسة الحريرية الملكية) في هذه المدن منذ القدم (٣٢) وقد كتب المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري في القرن السادس مايلى : « تصنع المعاطف من الحرير الخام في بيروت وصور ومدن فينيقية منذ قديم الزمان ، وقد عاش في تلك المدن تجار يملكون الورش والمصانع . ومن هناك وزعت البضائع الى مختلف انحاء المعمورة » (٣٣) .

في القرن السادس الميلادي نظمت حكومة الامبراطور جستنيانوس الكبير صناعة الحرير وتجارته بشكل يخدم مصلحة خزانة الدولة البيزنطية بالدرجة الاولى . لقد احتكرت الدولة صناعة الحرير وتجارته ، مما الحق ضرراً فادحاً بمدن بلاد الشام الساحلية التي تعيش من دخل هذه الصناعة والتجارة . لقد تعطلت صناعة الحرير وضعفت المبادلات التجارية ، فأفلس كثير من الصناع والتجار وافتقروا .

ويتحدث المؤرخ البيزنطي المعاصر للاحداث بروكوبيوس الكيساري بالتفصيل عن الازمة التي اصابته صناعة الحرير وتجارته في القرن السادس الميلادي . فالتجار الفرس استغلوا وضعهم كوسطاء محتكرين ، كما استغلوا توتر العلاقات بين بيزنطة وايران ، فرفعوا اسعار الحرير الخام ، مما ادى الى ارتفاع اسعار الاقمشة الحريرية المصنعة في المدن البيزنطية ، وبصورة خاصة في مدن بلاد الشام الساحلية . وهناك

سبب آخر لارتفاع أسعار الحرير وهو ازدياد عدد المراكز الجمركية في الاراضي الفارسية والبيزنطية ، حيث حصل كل مركز على ضريبة مرور مقدارها عشر ثمن البضائع الحريرية او غيرها . اضيف الى ذلك احتكرت حكومة جستنيانوس صناعة الحرير وتجارته لتزيد دخل خزانة الدولة من ارباح هذه الصناعة والتجارة : مما ادى الى اغلاق الكثير من المصانع الخاصة ، وبخاصة المصانع الصغيرة التي لم يعد بإمكان اصحابها الحصول على الحرير الخام . هذا وقد خصصت الحكومة البيزنطية بعض الموظفين (Komme Pkuapuu) واقت على عاتقهم شراء الحرير الخام من الفرس . ورفع التجار الفرس سعر الحرير الخام وحدوده كما يلي : كل لتر (٣٢٧ر٥ غرام) من الحرير الخام يساوي ١٥ نومسمة من الذهب البيزنطي . على أن الحكومة البيزنطية لم تحدد أسعار مصنوعات الحريرية ، لان ذلك ليس في مصلحتها ، خاصة بعد أن احتكرت صناعة الحرير وتجارته . وقد سمحت الحكومة البيزنطية لتجار الحرير وصناعه ان يبيعوا للدولة ما يحصلون عليه من الحرير الخام من الفرس ، على ان يكون البيع بالسعر الذي حدده التجار الفرس المذكور سابقا . وبالمقابل تستطيع الدولة ان تبيع الحرير الخام للمصانع الخاصة بالسعر الذي تريده . ان احتكار الدولة لصناعة الحرير وتجارته أبعد من الوجود كل منافس لها في هذا المجال ، ولذا صار بإمكانها ان ترفع أسعار المبيع كما تشاء . كذلك انخفضت قيمة الذهب الثرائية ، حيث صار الستراتيروس الذهبي يصرف ب (١٨٠) فوليس Follis في زمن جستنيانوس ، بينما كان الستراتيروس يصرف قبل ذلك ب (٢١٠) فوليس ، وهذا الانخفاض في سعر الذهب ادى الى ارتفاع أسعار مختلف البضائع ، بما في ذلك المصنوعات الحريرية .

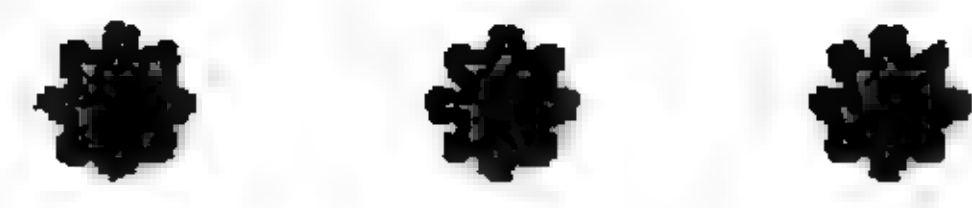
بنتيجة تلك الاجراءات والعوامل لحقت اضرار فادحة بصناع الحرير وتجاره في مدينة بيروت وصور وغيرها من مدن بلاد الشام الساحلية التي تركزت فيها صناعة الحرير وتجارته . لقد اضطر هؤلاء الصناع والتجار الى رفع ثمن مصنوعاتهم الحريرية ، لانهم اشتروا الحرير الخام بأسعار مرتفعة من الدولة او خلسة عن طريق التهريب . عندئذ تدخلت الدولة فأصدرت قوانين تحدد لهؤلاء أسعار مصنوعاتهم الحريرية . وعلى هذا اضطر الصناع والتجار ان يبيعوا مصنوعاتهم الحريرية بخسارة ملموسة ، لانهم كانوا قد دفعوا ثمن الحرير الخام غاليا . على ان بعض الصناع والتجار باعوا المصنوعات الحريرية خلسة (دون مراعاة تسعيرة الدولة) ، ولذا اصدرت الامبراطورة تيودورا زوجة جستنيانوس اوامرها بمصادرة بضائع هؤلاء « المهربين » وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم ، ويتابع المؤرخ بروكوبيوس Procopius حديثه عن اوضاع صناعة الحرير وتجارته المتردية في مدن بلاد الشام الساحلية قائلا : « ان

الشعب البسيط الذي قام بالعمل اليدوي (في صناعة الحرير) قد افتقر وعانى الجوع المميت ، ولذا اضطر أن يترك هذا العمل . على أن بعض هؤلاء الصناع هاجر الى ايران ليجد عملا له في صناعة الحرير هناك (٣٤) . ويذكر بروكوبيوس أيضا أن التجار الذين نقلوا الحرير الخام من الهند عن طريق البحر الاحمر قد ساء أمرهم نتيجة اجراءات الدولة (المشار اليها) . وتؤكد المصادر المعاصرة الاخرى على تدهور صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام في القرن السادس الميلادي، اذ تذكر تلك المصادر : ان تجار تلك المدن واصحاب المصانع فيها والصناع قد افلسوا (٣٥) .

وتجدر الاشارة الى أن احتياجات القصر الامبراطوري الكثيرة من المصنوعات الحريرية دفع الدولة الى اقامة مصانع لها في العاصمة البيزنطية لتؤمن احتياجاتها من هذه المصنوعات . وقد اعتمدت الدولة على عمل العبيد في هذه الصناعة ، كما شكلت منهم مجموعات متخصصة اطلق عليها اسم : *Gynacciarrii* .

وفي ٤٢٦ م صدر قانون ينص على معاقبة كل من ياوي عبدا هاربا عنده من هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في مصانع الدولة . وقد اكدت قوانين جستنيانوس على استمرار مفعول القانون السابق في القرن السادس الميلادي ايضا (٣٦) .

ان الاضرار الفادحة التي لحقت بصناع الحرير وتجاره في مدن بلاد الشام ، بالاضافة الى زيادة الضرائب على العاملين في حقل الزراعة واضطهاد جميع السكان بسبب عقيدتهم المونوفيزيتية (الايمان بوجود طبيعة الهية واحدة في المسيح) المخالفة للعقيدة البيزنطية الرسمية (الايمان بوجود طبيعتين في المسيح ، الهية وبشرية) ، كل ذلك كان من العوامل التي اثارت استياء سكان بلاد الشام (العرب القدماء) من جور السلطات البيزنطية المحتلة ودفعتهم على الترحيب باخوانهم العرب المسلمين ، الذين فتحوا بلاد الشام وحرروها من الاستعمار البيزنطي .



المصادر والمراجع :

- أ -

« الوصف الكامل للعالم والشعوب »

« Expositio totius mundi et gentium »

- ١ - نينا بيفوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند، موسكو ١٩٥١ ، ص ٢٣-٥٤ .
- ٢ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢١ ، ص ٥١٩ .
Expositio..., 31, P. 519.
- ٣ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٩ ، ص ٥١٨ .
- ٤ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٣١ ، ص ٥١٨ .
- ٥ - Procopius : Anecdota
بروكوبيوس : الترجمة الروسية في السلسل التوري « اخبار التاريخ القديم » ف . د . ي
العدد الرابع ، سنة ١٩٣٨ ، ص ٣٤١-٣٤٣ .
- ٦ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠-٢٢ ، ص ٥١٨-٥١٩ .
- ٧ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠-٢٢ ، ص ٥١٨-٥١٩ .
- ٨ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٥ ، ص ٥١٧ .
- ٩ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٠ ، ص ٥١٦ .
- ١٠ - « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٢ ، ص ٥١٦ .

- ب -

« تاريخ أميانوس ماركيلينوس »

« Ammianus Marcellinus . . Historia »

- ١١ - Ammiani Marcellini Rerum gestarum libri, qui supersunt, rec.
C. U. Clark, V. I — II, Berolini, 1910 — 1915, 14, 8 — 13.
- ترجمه الى اللغة الروسية يو. كولاكوفسكي وآ. سوفي، بعنوان : اميانوس ماركيلينوس - تاريخ.
ترجمة من اللاتينية في ثلاثة اجزاء ، كييف ١٩٠٦ - ١٩٠٨ .
- ١٢ - اميانوس ماركيلينوس - تاريخ، الترجمة الروسية ، الجزء الاول ، ص ١٦ .

— ج —

« فيلوستورغيوس — تاريخ الكنيسة »

Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

١٣ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، طبعة ليزغ ١٩١٣ ، ص ٤٢ .

١٤ — فيلوستورغيوس ، ص ٣٢ .

١٥ — نينا بيفوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٧٢ .

١٦ — قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، النص اليوناني ، طبعة وينستد ، كامبردج ١٩٠٩ ، ص ١١٩ .

Cosmas Indicopleustes : The Christian topography (grec text),
ed. by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 119.

١٧ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٣٤ .

١٨ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٣٥ .

١٩ — قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، ص ١١٩ .

— د —

— قزما الملاح الهندي — « الطبغرافية المسيحية »

20 — Cosmas Indicopleustes : The Christian topography (grec text), edit by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 52.

21 — Cosmas Indicopleustes, P. 62.

22 — Cosmas, P. 72.

23 — Cosmas, P. 319.

24 — Cosmas, P. 70 — 71.

٢٥ — ب . ٢ تورايضا ، تاريخ الشرق القديم ، بطرس بورغ ، ١٩١٤ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

٢٦ — نينا بيفوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٢ .

٢٧ — نينا بيفوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٣ .

٢٨ — نينا بيفوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٢ .

29 — Cosmas, 119.

30 — C. Stornajolo, la Miniatura de la topografia Christiana, codex Vaticanus 699, Millano, 1908.

٢١ - ي.ي. سرينفسكي ، معلومات وملاحظات حول المصادر المجهولة او المعروفة قليلا ، بطرس بورغ ١٨٦٧ ، ص ٥ .

٣٢ - نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٨٦ .

— ه —

« صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام »

33 — Procopius Caesarensis : Anecdota (Hitoria Arcana), Cap. 25, ed. Haury, Berlin, 1905, V. III. P. 115.

34 — Procopius, Anecdota, Cap. 25, P. 157.

٣٥ - نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٤ - ٩٥ .

٣٦ - نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٥ .



صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ - ١٩١٨ حزب اللامركزية الإدارية العثمانية

١. مهلة التريماوي

الجامعة الاردنية

اولا : البعد التنظيمي الداخلي للحزب :

حزب اللامركزية الادارية العثماني ، تنظيم سياسي علني ، اقامه السوريون خارج سورية ، وبالتحديد في مصر اواخر سنة ١٩١٢ او اوائل سنة ١٩١٣ ، ويرجع التاريخ الاول ، استنادا الى وثيقة حصلت عليها من مكتبة محب الدين الخطيب في القاهرة تحدد تاريخ ١٢ يناير « كانون الثاني » سنة ١٩١٣ يوم اجتماع اللجنة العليا للحزب وانتخاب محب الدين الخطيب في هذه الجلسة مساعدا للسكرتارية ، اي سكرتيرا ثانيا (١) .

وعلى العموم فان مسألة « التنظيم السياسي » ، على صعيدي النظرية والتطبيق هي واحدة من اهم المسائل التي تواجه الفكر والحركات السياسية المعاصرة في امم العالم كله ، وهي من اهم المسائل التي واجهت العرب العثمانيين بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ .

واذا كانت ضرورة « التنظيم السياسي » امرا مسلما به ، ولم تثر كثيرا من النقاش او الجدل حولها عند العرب العثمانيين في مطلع القرن العشرين ، فمما لاشك فيه ان « صيغة » التنظيم السياسي ومقوماته ، امور اثارت نقاشا واسعا وجدلا حادا بين الشبيبة العرب في الاستانة حول مسائل كثيرة منها : هل الاحزاب والحزبية هما الصيغة المثلى للتنظيم والنشاط السياسيين ؟ ام تراهما غير ذلك ؟

هل الاحزاب السرية ، ام الاحزاب العلنية ، ام الجمعيات القومية ، ام جمعيات الاخاء والائتلاف ، افضل من غيرها في ذلك الوقت ؟

ما كيفية بناء الحزب ، وما مقومات هذا البناء ومهامه ، وصلاته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية الاخرى في الدولة والمجتمع ؟

من هنا فان مواجهة مسألة التنظيم السياسي بصورة عامة وما تنطوي عليه بطبيعتها ، من مواجهة لمسألة الاحزاب والحزبية بصورة خاصة ، هي مسألة حية واجتها امتنا بفكرها وحركتها مواجهة فعلية مباشرة ، منذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر .

واذا كان حزب الاخاء العربي العثماني اول حزب علني تأسس بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ (٢) ، وجمعية العربية الفتاة والجمعية القحطانية من أوائل الجمعيات السرية التي اسسها العرب العثمانيون بعد الانقلاب ، فان حزب اللامركزية الادارية العثمانية هو في مقدمة الاحزاب العلنية التي اسسها السوريون خارج سورية ، وقد انتشر انتشارا واسعا في بلاد الشام حيث تأسست له الفروع النشطة ، وبقي قائما من اواخر سنة ١٩١٢ وحتى سنة ١٩١٦ ، حيث قدم جمال باشا السفاح اكثر اعضائه شهداء على اعواد المشانق في هذه السنة .

نشأة حزب اللامركزية وظروف تاسيسه :

نشأ هذا الحزب اثر ضياع طرابلس الغرب ، وبعد ان ايقن العرب الشاميون المقيمون في القاهرة ، ان الامبراطورية العثمانية غير قادرة على حماية حدودها ، او على تطبيق نظامها المركزي الاداري .

ويقول رشيد رضا احد مؤسسي الحزب :

« ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا . وكان سبب تأسيسه ما ذكر آنفا من سبب تأسيس الجمعية العربية وهو ما اندرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ، وقد كنا نعتقد ان الدولة لا يمكنها ان تعيش طويلا اذا اصررت على شكل حكومتها المركزي ، وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة » (٣) .

وقد تشكلت اول هيئة ادارية للحزب على الشكل التالي :

١ - الرئيس : رفيق العظم من دمشق

٢ - نائب الرئيس : اسكندر عمون من لبنان

- ٣ - امين السر : حقي العظم من دمشق
- ٤ - امين السر الثاني : محب الدين الخطيب من دمشق
- ٥ - امين السر الثاني : رشيد رضا من طرابلس لبنان
- ٦ - عضو : د. شبلي شميل من لبنان
- ٧ - عضو : سامي جريديني من لبنان
- ٨ - عضو : داوود بركات رئيس تحرير صحيفة الاهرام بمصر(٤)

مبادئ حزب اللامركزية واهدافه :

يتميز هذا الحزب بأنه صاغ مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها : « بيان الحزب وبرنامجه السياسي » (٥) . وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا ، ترقى الى مستوى دساتير الاحزاب الحديثة . والسبب في هذا التفصيل الواضح ، ان هذا الحزب كان يتمتع بعدة صفات اهمها : انه كان حزبا علنيا ، ويتكون من سياسيين مجربين ، ثم انه حزب نشأ في مصر حيث كان مستوى الفكر والوعي السياسي على درجة متقدمة ، كما انه كان بعيدا عن مركز الدولة العثمانية .

اما الجزء الاول من هذه الوثيقة وهو : « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته « فلسفة الحزب » او « نظريته السياسية » وتحليل لاوضاع الامبراطورية العثمانية الواقعية ، لينتهي من ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما كانت عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

اما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته « دستور مقترح » لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب (٦) . ويتألف هذا البرنامج من (١٦) مادة ، تحتوي على المبادئ الدستورية الاساسية ، ويمكن ان نوجزها على الشكل التالي :

أولا : التأكيد على وحدة الدولة العثمانية ، وعلى وحدة السيادة فيها .

ثانيا : اقامة مركزية ادارية محددة القسمات .

اما اهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة العثمانية ، واهم مظاهر وحدة السيادة

فيها ، في برنامج الحزب ، فهي ان البرنامج يؤكد على ان السلطان هو رأس الدولة العثمانية الواحدة (أي الامبراطورية العثمانية) وانه هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة في ارجاء الامبراطورية .

ويشير البرنامج الى ان (مجلس المبعوثان والاعيان) هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية العثمانية .

كما يشير البرنامج الى ان « النظارة المركزية » أي « الحكومة » هي التي تتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

اما بالنسبة للغة ، فيشير البرنامج الى ان اللغة التركية هي لغة رسمية في جميع الولايات التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية ولكن « الى جانب لغاتها المحلية » .

اما مظاهر اللامركزية الادارية في برنامج الحزب فانها تبدو اساسا على الشكل التالي :

ان البرنامج يطالب بتكوين أربع مؤسسات محلية هي : ا - المجلس العمومي ، ب - مجلس الادارة ، ج - مجلس المعارف ، د - مجلس الاوقاف .

وصلاحيات هذه المجالس وسلطاتها تحددها مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي .

صلاحيات مجلس ادارة الولاية .

صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى .

اما صلاحيات المجلس العمومي فهي المراقبة على حكومتها (والظاهر ان كلمة حكومة هنا تعني مجلس الادارة) ، والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية ، من تقرير ميزانية الدولة ، وامور الامن العام ، والمعارف ، والنافعة ، والاوقاف ، والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها .

واما ما كان من امور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية او السياسية الخارجية ، كسكك الحديد ، فيرفعها الى العاصمة .

وواضح مما تقدم ان هذا المجلس العمومي هو بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها (أي مجلس ادارتها) كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظمات التي تقابل القوانين في احوال المجالس النيابية .

اما صلاحيات مجلس ادارة الولاية ، فهي القيام بأعمال الحكومة الادارية واهمها : وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى ، فهي ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون ووضع الموازنة في مجال اختصاصه .

ومن مظاهر تشابك المركزية باللامركزية في هذه الصلاحيات ما يلي :

أ - ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ومضى ذلك انها نافذة بدون حاجة الى تصديق من الوالي او من السلطان كما يفهم من النص .

ب - وجوب رفع رأي المجلس العمومي الذي يتصل بالنافعة ، والمتعلق ببعض الوجوه بالامور السياسية والعسكرية للسكك الحديدية ، الى العاصمة ، بعد ابداء رايه . فقرار المجلس العمومي غير نافذ في هذه الامور ، مع ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق من يمثل السلطة المركزية .

ج - ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون اهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ، ويكون عسكرها على أهبة الاستعداد للزود عنها زمن السلم ، واما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية ، وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وبالرغم من ان مجمل الصياغة اللفظية تؤكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا ان في النصوص مرونة ، بل غموضا أحيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

اما النظرية السياسية للحزب ، أو فلسفته ، كما تبدو في البيان ، فانها تقوم على تأكيد المبادئ التالية :

١ - ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو الحياة . بم معناها الواسع ، الحياة الاجتماعية والحياة السياسية ، اي « ان يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت » .

٢ - انه « من الضروري ان تسمى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بهما جميعا ، ولا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر » .

ورببت هذه النظرية على المبدأين السالفين مبدأ ثالثا هو :

٣ - ان « القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية قل ان تضمن الحياة لامة اذا لم تكن قائمة على أساس متين هو القوانين السياسية » .

وأوضحت مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا تركز على أساس متين من القوانين السياسية ، فبينت :

١ - « ومهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة واكثر من مشروعات الاصلاح في المملكة ، في التعليم والاقتصاد والادارة والقضاء ونحو ذلك ، فانها لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حياته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجهد » .

ب - « ولذا اصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل امة من الامم وصار من المسلم بالبداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين (مجاميع الانسان) الحية متوقف على شكل الحكومة فكما كانت مشاركة الشعب للحكومة اكثر ، كان ذلك لدوام وجوده اضمن » .

وخلصت نظرية الحزب من ذلك كله الى صياغة مبدأ رابع هو :

٤ - « لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم دستورية شعبية لا شأن فيها لسلطة الافراد بل الشأن لعامة الامة ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا انها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقبالية والاستعداد » .

وبعد تأكيد المبادئ الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية ، التي انتهت الى تأكيد أن افضل شكل من اشكال الحكومات هو الشكل الدستوري ، يمضي بيان حزب اللامركزية الادارية فيؤكد ان « افضل اشكال الحكم الدستوري هو اللامركزية ، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها العروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر ان تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد بيان الحزب في تأكيد هذا المبدأ على التجربة ، وضرب مثلا حيا عليها بسويسرا والدولة العثمانية ، بعد ان اشار في وصف مقارن للفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا التي تحكم باللامركزية ، وبين السلطنة العثمانية التي تحكم بالمركزية .

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ أيضا على تحليل تخطى فيه مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على افراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من انحاء المملكة فيكونوا « كالمحرك في آلة كبيرة جدا اذا اصابه عطب او ضعف تمطلت اجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لأي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه ودون أن يكون مسؤولا عن نتيجة وقوفه عن العمل » .

ومن البديهي أن الشعب غير المسؤول عن أي خطأ يصدر عن حكومته لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج لخطأ الحكومة الا بعد الوقوع فيه . ذلك لانه يسير بارادة غيره لا سلطة له حتى على نفسه ، لانها محكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وأن « خالف رغبته ومصلحته وهواه » .

ثم يبدأ البيان بتمجيد اللامركزية وضرورة تطبيقها بقوله :

« فاللامركزية توزع التبعة على افراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية ، حياة الاعتماد على غير النفس ، وتفسح امام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي وال عمران من اقرب سبيل وفي وقت قصير والعكس بالعكس » .

وبعد أن توصل الحزب الى تأكيد المبادئ الخمسة المذكورة التي تكون عناصر

نظريته السياسية ، ووصف أوضاع الامبراطورية وحللها من نواحي التعليم والنافعة والادارة والدفاع ، انتهى الى تقرير موقف اجمله بقوله :

« وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء لديه وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزا في وطنه آمينا من تسلط المغيرين عليه . »

ثم انتهى الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف انما هو في الاخذ « باللامركزية الادارية »

النظام الداخلي للحزب :

يبين لنا النظام الداخلي لحزب اللامركزية الادارية العثماني ، السمات الرئيسية التالية لهذا الحزب وهي :

١ - انه حزب علني ، فهو على حد نص المادة الثالثة : « ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الاسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من اخذ لاعتقاده يقينا ان الدولة لا تبقى في (العالم السياسي) الا اذا بنيت حكومتها على اساس اللامركزية الادارية . »

٢ - انه حزب يؤمن بالوسائل المشروعة ، فهو على حد نص المادة الثانية ينادي بعدة نقاط و ... « والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية . »

٣ - انه حزب عثماني التكوين ، فهو على حد نص المادة الرابعة يقول : « ان الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر ، على شرط ان يكون اولا من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية ، ثانيا : غير محكوم عليه بحكم مخجل بالشرف ، ثالثا : غير معروف بسوء السيرة ، رابعا : ان يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب . »

هذا على الرغم من انه لم ينتسب الى هذا الحزب في الواقع الا اعضاء من العرب . ويقدم لنا القانون الداخلي لهذا الحزب (أي النظام الداخلي أو اللائحة بالمصطلحات الحديثة) نموذجا طيبا من ناحية الشكل . فالتطبيق موضوع اخر لنظام داخلي يقوم على ما يسمى اليوم نظرية « الديموقراطية المركزية » في تكوين الاحزاب :

ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية :

النقطة الاولى : تحديد واجبات الاعضاء وحقوقهم على الشكل التالي :

١ - انه لا يجوز الجمع بين عضوية الحزب وعضوية حزب آخر يخالفه في المادة والفاية (م ٥) .

٢ - ان من اهم واجبات العضو ان يدفع الى الفرع المسجل فيه راتبا شهريا (اي اشتراكا شهريا) اقله قرشان . ويعفى الفقراء من هذا الراتب .

٣ - ان من اهم واجبات اعضاء الحزب من المبعوثين ان يسموا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس .

٤ - انه وان كان لا يقيد الحزب اعضاءه بشيء غير قواعد برنامجه السياسي الذي وضع لاجله (م ٨) فانه لا يسوغ لاحد المنتمين اليه مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء نفسه . واذا ثبت على احد الاعضاء مثل هذا السلوك يحى اسمه من سجل الحزب (م ١٠) .

وواضح من هذا القيد انه يحرم على غير الجهة المختصة في الحزب ، او من تكلفه بذلك ، ان يراجع الحكومة باسم الحزب ، وهذه مسألة انضباطية على غاية من الاهمية ، تحمي الحزب من استغلال اسمه او توريطه ، والتأكيد عليها يشير الى الاحتمالات الكبيرة لوقوع مثل هذا التجاوز بسبب طبيعة الاوضاع السياسية من جهة ، ولكون الحزب يضم بطبيعته كثيرا من السياسيين الموجودين في الاستانة .

واعطى الحزب اهمية لهذه المسألة ليس بالنص على خطرها فحسب وانما بفرض أقصى عقوبة حزبية ممكنة على العضو ، وهي محو اسمه من سجل الحزب .

النقطة الثانية : تحديد صلاحيات اللجان والهيئات التنفيذية وبناء علاقاتها مع بعضها ، ومع القاعدة الحزبية على الشكل التالي :

١ - القاعدة تنتخب القيادة على المستويات المختلفة .

٢ - والقاعدة ترسم السياسة لفترة مقبلة .

٣ - والقاعدة تحاسب القيادة على تنفيذ السياسة .

- ٤ - اما المراكز القيادية في الهيئات القيادية بمختلف مستوياتها ، فتملا بالانتخابات وبطريقة الاقتراع السري .
- ٥ - والهيئات الدنيا حرة في نطاق اختصاصها المحلي ، وكذلك الهيئات العليا في نطاق اختصاصها الاعلى .
- ٦ - القيادات مسؤولة امام الهيئات التي تنتخبها . وهي مطالبة بأن تقدم لها تقارير دورية عن كل شؤون الحزب ونشاطاته في كافة المجالات .
- ٧ - الانضباط في نطاق المبادئ المذكورة اعلاه .
ويبدو تطبيق هذه المبادئ ، التي هي جوهر مضمون نظرية (الديمقراطية المركزية) في تكوين الاحزاب ونظمها الداخلية ، على الشكل التالي :
- ١ - كل عضو في فرع هو عضو في مؤتمر هذا الفرع (مادة ١٥) .
- ٢ - في كل فرع لجنة ادارية تتألف من ٢٠ عضوا ينتخبها مؤتمر الفرع .
- ٣ - كل لجنة ادارية تنتخب رئيسها وسكرتيرها وامين صندوقها .
- ٤ - يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا سنويا يحضره جميع اعضاء الفرع ، كما تعقد اللجنة مؤتمرا حزبيا عاما سنويا في القاهرة يحضره اعضاء اللجنة العليا واطباء الحزب في المركز العام ، ومندوبون عن اللجان الفرعية جميعها .
- ٥ - لا تعد مذكرات اللجان ، ولا قراراتها ، قانونية ، الا اذا حضر اجتماعها نصف اعضاءها على الاقل . اما اذا تكررت الدعوة فيكون الحاضرون حينئذ نصابا قانونيا
- ٦ - المؤتمر العام للحزب هو السلطة العليا فيه . ويبدو تأكيد هذا المبدأ في الاسس التالية ، التي افرد لها فصل خاص في نظام الحزب هو الفصل السابع ، ويشير الى النقاط التالية :
- اختصاص المؤتمر العام بالاطلاع على بيان اللجنة العليا عن اعمال الحزب في السنة الماضية ، ورؤية حساباتها ، والتصديق عليها ، والمذاكرة في كل ما يرفع اليه من اعمال السنة المقبلة وتقريرها . واللجنة العليا مكلفة ان تهئ لائحة عامة (المقصود تقريرها عاما) عن الحزب واحواله بناء على ما يردها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع ، وترفعها الى المؤتمر العام .

أفرادَه بحق اقرار أي تغيير أو تبديل في برنامج الحزب السياسي الاساسي ،
وتقييد هذا الحق بأن لا يتم التغيير الا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة
من لجان الفروع » وان يكون ذلك بأغلبية اراء المؤتمر » .

سيادة قراراته بالنسبة لجميع لجان الحزب ، بحيث يكون على اللجنة العليا
ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه .

مالية الحزب :

أما مالية الحزب فقد نظمت في الفصل السابع من نظامه الداخلي تنظيماً متكاملاً
وسليماً يقوم على الاسس التالية :

- ١ - تتألف اموال الحزب من التبرعات والاشتراكات . وتطالب اللجان الادارية
بالاجتهاد في اتخاذ الوسائل الشريفة ليكثر ماله .
- ٢ - كل ما يقبض من المال باسم الحزب يجب ان يعطى به وصل مطبوع من دفتر
قسمة موقع عليه من الرئيس وامين الصندوق والمستلم .
- ٣ - تودع اموال الحزب في احد المصارف (البنوك) الموثوق بها باسم الرئيس
والسكرتير وامين الصندوق ، ويسحب ما يسحب منها بامضاءاتهم جميعاً
(اي بعد ان يوقع عليها الجميع) .
- ٤ - لا يجوز ان يصرف شيء من مال الحزب في لجنة من لجانها الا بقرار من ادارة
هذه اللجنة .
- ٥ - يجوز ان يكون في يد أمين الصندوق مبلغ لا يزيد عن الف قرش لاجل النفقات
العارضة .

واذا ما ضربنا صفحاً عن متابعة التطبيق الفعلي لهذا النظام في مبادئه ونصوصه،
بسبب استحالة هذه المتابعة من الناحية الواقعية ، فما لا شك فيه ان هذا النظام
بمبادئه ونصوصه يشير الى تصور متقدم ومتطور لمعالم البعد التنظيمي الداخلي
بالنسبة لحزب علني شرعي ، تفوق المبادئ والنصوص التي قام عليها أي تنظيم حزبي
سابق من التنظيمات العلنية التي تشكلت منذ سنة ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية
الاولى ، بل يكاد يفوق المبادئ والنصوص التي قامت عليها الاحزاب في الوطن العربي
في مراحل لاحقة .

وقد وجدت في مكتبة السيد محب الدين الخطيب ، السكرتير الثاني للحزب ، بعض الوثائق ، وتدل على مدى انتشار حزب اللامركزية وفروعه في اركان الامبراطورية العثمانية ، وتشتمل هذه الوثائق على دعوات لحضور جلسات المجلس وعلى بطاقة اعتماد اي طلب انتساب ، وعلى طلبات استقالة (٧) ، مما يؤكد لنا ان حزب اللامركزية يضارع في تنظيمه الاحزاب الحديثة ، وربما فاقها . وقد قام بدور فعال في تسيير الحياة الحزبية والسياسية في سورية قبل الحرب وحتى ١٩١٦ ، وانتهى اثر المشانق التي نصبها جمال باشا السفاح للاحرار العرب في تلك السنة ، كان بعض هؤلاء الشهداء من حزب اللامركزية .

ثانيا - البعد الحركي او الحياة الحزبية العامة لحزب اللامركزية :

يمكننا القول ان الاعداد لعقد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، كان من ابرز المجالات التي ظهرت فيها الحياة الحزبية العربية بشكل عام ، وفعاليات حزب اللامركزية بشكل خاص .

فقد كانت الاحزاب العربية في الامبراطورية العثمانية ، قبل انعقاد المؤتمر هي : جمعية العربية الفتاة (السرية) ، وقد لعبت دورها في المؤتمر من وراء ستار ، وحزب اللامركزية (العلني) الذي كان في بدء تشكيله ، ولكنه لعب الدور الاول في المؤتمر ، ثم الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق والبصرة وغيرها .

وقد جاءت المبادرة في هذه الاتصالات بين الاحزاب من قبل جمعية العربية الفتاة ، عندما وجه عبد الغني العريسي ، وهو من مؤسسي الجمعية ، رسالة الى صديقه محب الدين الخطيب عضو حزب اللامركزية في مصر ، يدعو فيه للانتساب الى جمعية الفتاة العربية (٨) ، وعندما تم له ذلك طلب من محب الدين الخطيب ان يقنع حزبه بالاتصال باعضاء الحركة الاصلاحية القائمة في بيروت والتي تأسست في السنة التي بدىء بها تأسيس حزب اللامركزية . وقد تمكن محب الدين الخطيب من القيام بهذه المهمة ، فأرسل حزب اللامركزية برنامج الحزب الى بيروت مع عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي في الاستانة ، واقترح اعضاء حزب اللامركزية ان يكون الاصلاح لجميع الولايات السورية ، بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت فقط . ثم شرح اعضاء اللامركزية غايتهم من هذا الاتصال بقولهم : « حتى تكون يدا واحدة في العمل والمطالبة بتحقيق مبادئ الحزب » ثم طلبوا ان تكون المكاتبات مع حزب اللامركزية عن طريق حقي العظم احد كتاب السر في الحزب (٩) .

وعندما قام والي بيروت الاتحادي بمصادرة محتويات مكاتب اللجنة الإصلاحية واغلاق صحفها ومكاتبها ، لم يسع حزب اللامركزية السكوت على اعمال الوالي ، فارسل الى الصدر الاعظم برقية احتجاج جاء فيها : « مصادرة والي بيروت لجمعيةها الإصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر ، مضيع لآمال الامة ، موجب للتقاطع بين الهيئتين ، تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين » (١٠) .

المؤتمر العربي الاول في باريس :

وعندما تباطأت حكومة الاتحاديين بتنفيذ بنود اللائحة الإصلاحية لمدينة بيروت وغيرها من المدن ، بادر أعضاء جمعية العربية الفتاة بالاتصال بأعضاء حزب اللامركزية في مصر عن طريق العضو محب الدين الخطيب . ولا نود الخوض في تتبع المراحل التي مر بها المؤتمر فهناك دراسات كثيرة حول هذا الموضوع اهمها الدراسة الصادرة عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر (١١) ، ولكننا سنبرز الدور الذي لعبه حزب اللامركزية في المؤتمر .

لقد تمكن محب الدين الخطيب من ان يصبح صلة الوصل بين جمعية العربية الفتاة ، التي دعت الى عقد المؤتمر ، وبين أعضاء حزب اللامركزية ، وذلك بعد ان انتسب الى الجمعية واصبح عضوا في التنظيمين الحزبيين ، وتمكن من موقعه هذا من ان يعمل بنجاح لتبني حزب اللامركزية لمؤتمر باريس تبنيًا كاملاً (١٢) .

وفي جلسة لجنة المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء الموافق ١١/٣/١٩١٣ تقرر ان ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية ، وفي جلسة ٤/٤/١٩١٣ قررت لجنة المؤتمر ان ترسل كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة تعرض عليها فيه ان تكون لجنة الحزب هي المسؤولة عن المؤتمر ، وان تعهد برئاسته الى أحد ممثلي حزب اللامركزية (١٣) .

وقد تلقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر جوابا من اللجنة العليا لحزب اللامركزية مؤرخا في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ ، توافق فيه على تبني المؤتمر ، وذلك بعد ان اقرت اللجنة العليا للحزب في جلستها المنعقدة يوم الجمعة ١١ نيسان ، «قبول اقتراح لجنة المؤتمر وتعيين وفد يمثل اللجنة العليا لحزب اللامركزية هناك» (١٤) .

كما اقرت لجنة الحزب ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر ، على ان يكون

لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر « حتى تكون موافقة لمبادئ الحزب وبرنامجها » (١٥) .

على ضوء هذا الرد ، حددت لجنة المؤتمر « المسائل التي ستكون اساس المذكرات » على الشكل التالي :

- ١ - الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال
- ٢ - حقوق العرب في المملكة العثمانية
- ٣ - ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية
- ٤ - المهجرة من سورية والى سورية .

وقد توالى برقيات التأييد ، السري والعلني ، على لجنة المؤتمر وحزب اللامركزية من الجمعيات الاصلاحية في بيروت وغيرها ، كما ايده الجمعيات العربية في المهجر ، وقامت الصحف العربية بحملة تأييد وتوعية جماهيرية ، تعرضت فيها الى ضرورة وجود حزب اللامركزية في البلاد وضرورة تطبيق اللامركزية : « لان المركزية هي قوام حياة العرب وانهم شركاء في هذه المملكة بل هم الاكثرية المطلقة فيها » (١٦) .

وبدأت الوفود تتوالى على باريس وكان في مقدمتها حزب اللامركزية الاداري الذي يمثله السيد عبد الحميد الزهراوي عن اللجنة العليا للحزب (وهو مبعوث حماه سابقا ، وصاحب جريدة الحضارة في القسطنطينية) واسكندر بك عمون ، وهو وكيل رئيس اللجنة العليا للحزب ، ويعمل بالمحاماة في مصر (١٧) .

وقد استلم رئاسة المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، في حين القى كلمة الحزب اسكندر عمون ، فركز على اهمية مبدأ اللامركزية وضرورة تطبيقه كعلاج لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب . واسس هذا المبدأ على الحقوق القومية بصورة عامة (١٨) .

وقد اتخذت قرارات المؤتمر في الجلسة الختامية التي عقدت يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ (١٩) ، وعددها ١١ مادة ، ونص الملحق على انه : ستكون هذه المقررات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد مسبقا بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه . وقد وضع المؤتمر قيما على الزعماء العرب ، وعلى الاخص على رجال الاحزاب منهم ، بشأن عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية .

وبالرغم من ان المؤتمر خرج بنتائج عامة ، مثل توحيد نشاط الاحزاب والمنظمات

العربية الكبرى في الوطن والمهجر ، وبيّن ضرورة تمسك العرب بالدولة العثمانية مع مطالبتها بتطبيق اللامركزية ومشاركة العرب للترك في الحكم ، وضرورة التعليم باللغة العربية ، إلا أن حزب اللامركزية حقق نتائج خاصة به ، أهمها أنه بدأ يلعب الدور الاساسي العلني في ذلك العمل الجبهوي ، إذا صح التعبير ، وهو الحزب الحديث التأسيس ، وينتشر انتشارا سريعا ويؤسس له الفروع في أرجاء الامبراطورية (٢٠) . وهكذا كسب الى صفه الجماهير الشعبية وسيطر على الساحة الشعبية أيضا .

اتفاقية (باريس الحزبية) وتصعد جبهة المؤتمر بقيادة حزب اللامركزية :

كان حزب الاتحاد والترقي قد اوفد امين سره مدحت شكري الى باريس ليكون على مقربة من المؤتمر العربي ، وفوضه بان يسمى لعقد اتفاق بين حزبه وبين الاحزاب العربية الممثلة في المؤتمر وفقا لمسودة اتفاق كانت قد وضعت اثر مفاوضات جرت في الاستانة بين ممثلي الشبيبة العرب برئاسة عبد الكريم الخليل في العاصمة العثمانية ، وبين حزب الاتحاد والترقي الحاكم .

وقد تم التوصل فعلا في باريس الى اتفاق وقع عليه السيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بالنيابة عن المؤتمر العربي ، ومدحت شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي . وهو اتفاق يعرف باسم (اتفاقية باريس) (٢١) . وقد جاءت هذه الاتفاقية بشكل يعدل مشروع اتفاق الاستانة المذكور ، ولكنه يقصر تقصيرا واضحا عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر اذا ما قورنت بنودها بمقررات المؤتمر العربي (٢٢) . وعلى اثر ذلك عاد عبد الكريم الخليل الى الاستانة برفقة مدحت شكري لعرض الاتفاق على اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي وحكومته ، وبقي رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الاستانة ، وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق اذا ما اقره الاتحاديون .

ومن منطلق ضرب الاحزاب والقيادات العربية المؤتلفة في المؤتمر العربي الاول وفتيتها « وافق المركز العام لحزب الاتحاد والترقي على الاتفاقية » ووقعها وزير الداخلية عن الحزب طلعت باشا ، كما وقعها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب عن المؤتمر ، واتفق الفريقان ، بطلب من الاتحاد والترقي ، أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها (٢٣) .

ومما لا شك فيه أن الاتفاق على هذه السرية كان عملية خبيثة أراد بها

الاتحاديون عدة أغراض ، أبرزها تفتيت جبهة باريس الحزبية التي تحققت بعقد المؤتمر العربي الاول .

وحدث حادث ليس في الحسبان قام به حزب اللامركزية دون قصد . فقد أعلن رفيق العظم رئيس الحزب شروط الاتفاقية بعد أكثر من شهر على توقيعها ، بنتيجة التباس صنعه وكالة رويتر الانكليزية ، عندما أعلنت ان الباب العالي قد وافق على الاتفاقية ، فثار الاتحاديون ، وذهبت جريدة (طنين) التركية الى درجة انكار وجود الاتفاق وانكار ان سفر مدحت شكري الى باريس كان من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي . وتطور الامر الى درجة التهجم القاسي على المؤتمر وأحزابه ورجاله ومقرراته .

وعندما قررت حكومة الاتحاد والترقي تنفيذ (الاصلاح) واستصدرت ارادة سنية بذلك ، فضحت حقيقة سياستها وتوايها . فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في اكثرية بنوده ، وتراجعا تاما عن أهم هذه البنود ، وهو البند الثاني عشر ، الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

بدء تفتت الجبهة الحزبية العربية :

لقد تمكن الاتحاديون من اشاعة التفرقة في صفوف الجبهة العربية ، كما انهم تمكنوا أيضا من أن يخرجوا ، بصفة خاصة ، حزب اللامركزية ، الحزب العلني القائد في المؤتمر ، خاصة بعد أن رضي عبد الكريم الخليل بخطوات الاتحاديين وبالارادة السنية التي اصدروها ، وفتح بانشقاقه ثغرة من موقف الجبهة العربية . وزاد الامر سوءا عندما التف حول عبد الكريم الخليل الكثير من الانتهازيين وطلاب الوظائف في الاستانة . وبالرغم من أن أعضاء الوفد الذي ذهب الى الاستانة لمتابعة اقرار بنود مؤتمر باريس اقتنعوا بأن الحكومة تماطل العرب وانها لن تحقق شيئا من هذه البنود (٢٤) ، لم يقنط رئيس الشبيبة العربية في الاستانة عبد الكريم الخليل من الاتحاديين وبقي يتفاوض معهم ويثق بهم ، وزاد فأخذ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي في التوجه الى الاستانة .

بقي الزهراوي مدة خمسة اشهر في باريس بعد أن عاد وفد المتابعة الى بيروت من طريق استامبول ، وبقي معه خليل زينية وأيوب ثابت ، وعندما ارسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوها فيها الى الاستانة استأذن حزب اللامركزية في مصر ، وكان الزهراوي مدة اقامته في باريس ، ايام المؤتمر وبعدها ، يكاتب الحزب ويعمل

برأيه ، فخيرته الحزب بين مصر والاسنانة . وكان هو يفضل السفر الى الاسنانة في حين كان الحزب يفضل حضوره الى مصر (٢٥) . ووصل الزهرراوي عاصمة الامبراطورية في ١٩١٣/١٠/٢٨ فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف فليحي الاصلاح فليحي زعماء العرب ولتحي الامة العربية « (٢٦) ، وفي ١٠/٣٠ من العام نفسه بدأت مفاوضات الزهرراوي بصورة رسمية مع مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي ، ولكن لم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات حتى ادرك الزهرراوي تسويق الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، فحاول العودة الى مصر ولكن عبد الكريم الخليل واصدقاءه الحوا عليه بالبقاء ، فما كان منه الا ان أعرب عن استيائه وتشككه بسياسة الاتحاديين لمحوري احدي الصحف بحديث وقع عليه بخط يده وطلب نشره .

واهم ما جاء في هذا الحديث تأكيد الزهرراوي على ان الحكومة تعده وعودا لا تختلف عن الوعود التي تعطيها لغيره من المصلحين ويقول : « ولكن ما فائدة الوعود ونحن نريد أعمالا لا أقوالا » . وعندما سأل مندوب الصحيفة ولكن « ما هو السبب في مماطلة الحكومة ؟ » قال : « اظن السبب الخلاف القائم بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فان فريقا من أعضائها يؤيد مطالبنا وفريقا يرفضها » (٢٧) .

الا ان حكومة الاتحاديين تمكنت في نهاية المطاف من اقناع عبد الحميد الزهرراوي بانها في الطريق الى اقامة مدرستين سلطانيتين (ثانويتين) في دمشق وبيروت اساتذتهما من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية ، اما بقية البنود فستتحقق بعد توافر المال اللازم . زيادة على ذلك صدرت الارادة السنية ١٩١٤/١/٤ بتعيين سبعة من العرب اعضاء في مجلس الاعيان ، كان الزهرراوي هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية في حين كان ثلاثة من الاتحاديين ، والثلاثة الآخرون من الحياديين (٢٨) .

بيان حزب اللامركزية بتاريخ ١٩١٣/١٠/٩ :

أصدر حزب اللامركزية بيانا بعد وصول الزهرراوي الى الاسنانة بيوم واحد . وكانت الاسباب التي دعت الحزب لاصدار البيان هي النتائج غير المشجعة التي استخلصها وفد المتابعة الذي زار الاسنانة . وكان حزب اللامركزية يشعر بأن (اتفاقية باريس) مقصرة عن مطالب المؤتمر وعن مبادئه كحزب كذلك ، ولكنه وافق على توقيعها .

ولذلك فان البيان الذي أصدره كان يعبر عن موقف الحزب ، وتبرز فيه معاني الدفاع عن النفس ، والتمسك بمقررات مؤتمر باريس ، والاعتدال في معالجة موقف المنشقين ، وعلى الاخص عبد الحميد الزهراوي الذي كان الحزب قد رشحه لرئاسة المؤتمر وتصبه رئيسا له (٢٩) .

واهم ما نستخلصه من هذا البيان ، ان الحزب لن يرسل وفدا الى الاستانة الا اذا تحقق له امران :

الاول : ان توافق الحكومة على الاتفاقية وتطبقها بالحرف .

والثاني : ان تطرح قضية اللامركزية على الامة لابداء رأيها ، بأن تصادق على منهاج الحزب عامة .

ولقد بقي حزب اللامركزية منسجما مع بيانه المذكور في موقفه تجاه تنفيذ مقررات المؤتمر العربي الاول والاتفاقية ، فلم يستجب لطلب عبد الكريم الخليل بارسال وفد من اعضائه للاشتراك في مباحثات تنفيذ الاصلاح ، كما لم يستجب بعد ذلك لطلب الخليل ، والزهراوي ، الذي أصبح عضوا في مجلس الاعيان ، بان يرسل رئيسه رفيق العظم ، وعضو اللجنة المركزية للحزب السيد رشيد رضا الى الاستانة لمتابعة خطة الاصلاح ، التي رأى الخليل والزهراوي بواجبها في تعيين العرب السبعة في مجلس الاعيان ، بل ان الشيخ رشيد رضا يقول ، تجاه تعيين الزهراوي وتجاه هذه الدعوة « اما انا فكان يقلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة » (٣٠) . وهو رأي لم تلبث الاحداث ان اكدت صحته خلال الحرب العالمية الاولى .

وبرر الحزب موقفه من عبد الحميد الزهراوي بأن « الحزب يرغب في الاصلاح ويرفض المشاغبة وعداوة الدولة » . كما ان الحزب رأى أن « تظل الصلة وثيقة بين الطرفين (اي الزهراوي والحزب) لثقة الحزب به وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، ولانه خير من يوقف الحزب على أعمال الحكومة » (٣١) .

وفي مكان آخر يشير رشيد رضا الى ان الزهراوي : « قبل منصب الاعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ولا لاحد من اصدقائه وانه اخبرنا بما كان وبنيته فيه ، فلمناه على تعجله ، ولكن الحزب اجاز عمله ، واتفق الرأي على ان يمضي في هذه التجربة وان لا ينضم اليه احد من المقيمين خارج المملكة » (٣٢) .

ومهما كانت نوايا الزهراوي الصالحة ، التي يتحدث عنها الشيخ رشيد رضا في الفقرة السابقة ، فان اجازة الحزب لتصرفه ، وموافقته على المضي في التجربة التي بدأها الزهراوي ، كان موقفا من الحزب يبلغ في مرونته حد الاستهتار بالمؤتمر وبمقرراته ، التي كان اهمها القيد الذي وضعه المؤتمر على قبول المناصب .

والحقيقة ان حزب اللامركزية فشل في فرض (الانضباط) على صديقه الحميد عبد الحميد الزهراوي ، الذي رشحه لرئاسة مؤتمر باريس ، بل اجاز عدم الانضباط هذا فأسهم بذلك اسهاما فعليا في الاساءة الى قيمة المؤتمر المعنوية ، وفي زعزعة الثقة التي قامت بين الاحزاب والجمعيات المشتركة فيه ، حتى ان بعضها اتهم الحزب نفسه بالتواطؤ مع الاتراك وتمييع القضية ، ودفع الحزب والقضية ثمنا باهظا لهذا الفشل ، وكان اول من حمل حزب اللامركزية مسؤولية تمييع قرارات المؤتمر ، جمعيات المهجر ، خصوصا جمعية الاتحاد السوري في امريكا ، التي ارسلت كتابا مؤرخا في ١٩١٤/٢/١٩ الى حزب اللامركزية تشرح فيه وجهة نظرها (٣٣) وتحمل الحزب مسؤولية تهاون رئيس المؤتمر امام اغراء الوظائف . وتشير الى ان حزب اللامركزية قد تراجع امام اغراء المناصب .

تصدعات حزب اللامركزية :

قرر اعضاء حزب اللامركزية عقد جلسة للرد على جمعية الاتحاد السوري ، ليبينوا تطورات الامور وموقف الزهراوي الاخير . ولكن السكرتير حقي العظم رفض ان يبريء ساحة الزهراوي ، واخذ يشنع عليه ويصفه بالاوصاف التي لا تليق بمركزه وتبني الحزب له .

ولكن الحزب ، رغم معارضة سكرتيه ، ارسل جوابا لجمعية الاتحاد السوري يشرح فيه موقف الزهراوي ، وموقف الحزب ، وان تعيين الزهراوي في مجلس الاعيان ارتضته اللجنة العليا لحزب اللامركزية لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة . . واكد الحزب في جوابه بأن الحزب مازال المطالب بالاصلاح ، والحزب الامين على تحقيق مبادئه حتى النهاية .

في هذه الاثناء ، كانت حكومة الاتحاديين قد ألقت القبض على الزعيم العربي عزيز علي المصري ، رئيس حزب العهد السري ، وتركزت جهود العرب عموما حول هذه الازمة ، ولكن الاتحاديين اصدروا حكمهم على بطل برقة بالاعدام ، ثم افرج عنه امام الضغط العربي العام (٣٤) .

والمهم في حادثة عزيز المصري ان الزهراوي كان يهاجم العسكريين عموما ، وخصوصا عزيز المصري وموقفه من الزهراوي والخليل (٣٥) وبالتالي كانت الازمة وسوء التفاهم قد انتقلت الى حزب اللامركزية نفسه ، ففي حين ايد أعضاء الحزب موقف الزهراوي ، ايد حقي العظم ، امين سر الحزب ، موقف عزيز علي المصري .

وهكذا بدأت التصدعات تتسرب الى التنظيم الداخلي لحزب اللامركزية نفسه . وعلى الرغم من وقوف جميع أعضاء الحزب الى جانب عزيز المصري ومساهمة الحزب ، كما تدل الوثائق ، في قيادة المظاهرات والدعوة للاجتماعات التي نادى بتخفيف الحكم ، وطالبت بالافراج عن المصري ... الا ان التصدع كان قد بدأ في حزب اللامركزية وانتهى الى ازمة حزبية كادت تؤدي الى حل الحزب وتشتت اعضائه .

ازمة حزب اللامركزية :

يشير محب الدين الخطيب في مذكراته « سيرة جيل » (٣٦) ان رشيد رضا ورفيق العظم واكثرية الاعضاء قد تساهلوا في موقفهم من تصرف الزهراوي ، « بل واقروه عليه » في حين حمل حقي العظم لواء المعارضة واخذ يندد بالزهراوي في المجالس الخاصة والعامة . وكان يتفوه على الزهراوي بكلام لا يقبله « أي انسان وكنا نلومه على هذا الاسلوب الشنيع لشيخ جليل » (٣٧) . فقرر الحزب ان يستدعي الزهراوي من الاستانة وان يعقد جلسة لدراسة الموقف ، وخصوصا ان الحكومة بدأت بمطاردة أعضاء الحزب وانصاره .

عقد الحزب جلسة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة الواقع في ١٩١٤/٤/٢٤ برئاسة رفيق العظم وحضور رشيد رضا ، ونجيب بسترس ، وحقي العظم وسليم عز الدين ، ونعمان أبو شعر ، و خليل ايوب ، والدكتور خليل مشاقفة ، والدكتور عزت الجندي والسيد محب الدين الخطيب . وكادت الازمة ان تنفجر في هذه الجلسة لولا ان تداركها الشيخ رشيد رضا ، فقد ظهرت عدة آراء متضاربة حول الحزب وسياسته ، كان اولها اقتراح رئيس الحزب بحل اللجنة المركزية ، وهذا يؤدي بالتالي الى حل الحزب . ولكن محب الدين الخطيب احتج على هذا الاقتراح بقوله : « ان الحزب ليس هو اللجنة ، واذا شئت اللجنة ان تتنحى ، فلتدع الجمعية العمومية وتعرض عليها استقالتها ليصير انتخاب غيرها اما اذا كان الراي حل الحزب كله ، فيلزم عرض الفكرة على الجمعية العمومية ايضا » (٣٨) .

وأما حقي العظم ، فكان رايه ان الحزب لا يعمل ولذلك عليهم ان يضاعفوا من

نشاطهم وان يكتبوا المناشير ويوزعوها على الفروع حتى تشمر الجماهير بنشاط الحزب ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهراوي وتهاونه في ملاحقة قرارات المؤتمر . وكان رايه اما ان نعمل وننشط او نحل الحزب .

وعندها تقدم الشيخ رشيد رضا باقتراح لحل الازمة ، وملخصه : « عقد مؤتمر للحزب وفروعه » وان يكتب المركز بذلك الى الفروع قائلا « نسالهم عن المؤتمر وهل نمجل به ام نؤخره وهل يشتركون معنا ام لا » .

ثم قال معللا اقتراحه بعقد المؤتمر ، ان الحكومة ستخفف من شدتها ، وخصوصا بعد حركة عزيز المصري وكيف اثرت هذه الحركة عند الحكومة ، وانها ستحسن الحال بين الحكومة والحزب ، كما ان المؤتمر بهذا الوقت « يجعل للحزب رونقا واهمية » وخصوصا ان الحزب استدعى الزهراوي للمفاوضات في الحالة الحاضرة .. « فالمؤتمر يؤكد عمل الحزب ، وعندها ننفي ما يخشاه حقي من اعتقاد الناس باننا ساكتون » .

ولكن العضو نعمان ابو شعر ، اقترح ثانية ان يحل الحزب وان يعلن ذلك قائلا « انه من المستحيل ان يرجع الترك عن صلفهم وغرورهم ... ودوام هذه الاعمال مضر لخواننا في الداخلية » .

ولكن الاعضاء استبعدوا حل الحزب ، ووافقوا جميعا على اقتراح رشيد رضا بعقد مؤتمر للحزب وفروعه ..

واقترح رفيق العظم عمل نشرة يعلن الحزب فيها عن نفسه بانه حزب سياسي ، لا جمعية ثورية . وبما ان الحكومة بدأت تطارد افراده في داخلية البلاد ، انعقد عزم الحزب على ان يعقد مؤتمرا يعلن فيه ، للامة وللحكومة معا ، اعماله .. وتوزع النشرة على الصحف وعلى الفروع .

وفي الساعة السادسة والنصف انتهت الجلسة (٣٩) .

وكان قد اقترح في هذه الجلسة وضع مسودة للبيان الحزبي الذي يدعو لمقعد المؤتمر ، كما اقترح ان يرسل البيان الى فرع حمص ، لانه من اقوى فروع الحزب داخل الامبراطورية وقد وجدت نص مسودة هذا البيان بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب . يحتج البيان على مطاردة الحكومة لاعضاء الحزب ، بتهمة انه موجود عندهم ما يسمونه « الاوراق المضرة » لذلك رأت اللجنة العليا للحزب « ان تعقد

مؤتمرا للحزب في مصر تدعو اليه ابناء الامة العربية ، وتتلو عليهم اعمالها منذ تأسيس الحزب علنا « (٤٠) .

ان هذه الجملة « تدعو اليه ابناء الامة العربية » يستدل منها ان حزب اللامركزية ، وان كان قد قرر عقد مؤتمر للحزب وفروعه ، الا انه سيدعو لحضوره ابناء الامة العربية من حزبيين وغير حزبيين . وهذا ما كان يسعى اليه حزب العربية الفتاة ، من عقد مؤتمر ثان على غرار مؤتمر باريس ، يعقد في مصر ، ويقوم بالدعوة اليه حزب اللامركزية . وقد وفق محب الدين الخطيب في تحقيق مطلب حزبه السري ، وهو حزب الفتاة ، لدى حزبه العلني ، حزب اللامركزية ، فتبنى الدعوة للمؤتمر دون علمه برغبة حزب الفتاة (٤١) .

وبالرغم من ان الردود قد وصلت الى حزب اللامركزية بالموافقة ، كما فعل فرع حمص مثلا (٤٢) ، الا ان المؤتمر لم يعقد لعدة اسباب :

اولا : لان الازمة في حزب اللامركزية بلغت اوجها بعد كتابة مسودة البيان .

ثانيا : لان الحرب العالمية الاولى اعلنت بعد حل الازمة الحزبية بمدة وجيزة .

اما تفاصيل عودة الازمة الحزبية وتفجيرها ، فقد حصلت على تفاصيلها من مذكرة مؤرخة بتاريخ الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩١٤ وجدتها بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب وملخصها :

انه بعد كتابة مسودة البيان ، حصل خلاف بين رفيق العظم الذي امتنع عن توقيع البيان كرئيس للحزب ، وبين حقي العظم سكرتير الحزب ، الذي عسده نفسه مستقيلا من السكرتارية ، مع بقائه عضو لجنة ...

ويقول محب الدين الخطيب : عندما علمت بهذا الوضع الذي شرحه لي حقي بك وطلب مني توقيع البيان بصفتي السكرتير الثاني للحزب ، تأكدت ان الخرق قد اتسع بين حقي بك ورفيق بك الذي يرى ان للعمل اوقاتا لا يصلح ان يعمل في غيرها (٤٣) .

والحقيقة ان الوضع في حزب اللامركزية كان يهتز تحت الضربات التي وجهت اليه لتهاونه في موقف الزهراوي ، وتخليه عن تأييد المؤتمر ومقرراته .

فقد كانت جمعيات امريكا تطعن طعنا غير محقق ولا هو معقول « والاعضاء

المسيحيون قد انسحبوا من الحزب وقدموا استقالاتهم ، ومنهم نعمان أبو شعر و خليل ايوب » والحكومة تلاحق أعضاء الحزب ، وكأما صادرت أحد المنشورات التي تصدرها الاحزاب العربية ، الصقت التهمة بأعضاء حزب اللامركزية (٤٤) .

ولهذا كله كان ياس رفيق بك شديدا ، وكان يقول انه بحاجة الى الراحة من عناء السياسة وعدم الاشتغال بها بتاتا (٤٥) .

أما رشيد رضا فكان يرى سبب الازمة في التعصب المذهبي لبعض الأعضاء المسيحيين في الحزب ومنهم سليم النجار مراسل جريدة الاهرام ، الذي كان يرسل جريدة الهدى النيويوركية ، ويصرح لها برايه مطالبا بتعيين حصة المسيحيين من الامتيازات « كاننا سنعيش في المستقبل اما متفرقة بتفرق المذاهب كما يقول رشيد رضا » (٤٦) .

وفي رأي سليم النجار ان الحزب لم يعد شيئا بعد استقالة نعمان و خليل منه ، ومعارضة حقي العظم وعزت الجندي لقراراته ، واقتصار اسكندر عمون على حضور الجلسات التي تعقد في منزله فقط .

ولعل تحليل رفيق العظم للازمة ، يلقي اكثر من ضوء على الازمة الحزبية التي يعاني منها حزب اللامركزية ، وهي تتلخص فيما يلي :

١ - ان حقي العظم يقوم باعماله الاندفاعية رغبة بالانتقام من الاتحاديين والترك .

٢ - ان الاعضاء المسيحيين يستدرجوننا الى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له ، ويضرب مثلا تأكيدا لقوله . « عندما اتى رجل مسلم غير معروف من خليل يقول له ، لماذا انتم تشتغلون مع رفيق واصحابه فقال له : نحن نريد ان نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي » (٤٧) .

ويعتب رفيق العظم على حقي العظم قائلا : بالرغم من ان حقي بك علم بهذا القول وجاء هو بنفسه الي واخبرني بما حصل ، ومع ذلك فقد نسي كل شيء ولا يزال منقادا لكل حملة طيش يسممها من هؤلاء .

وبين رفيق العظم - رئيس حزب اللامركزية - موقفه من اراء حقي العظم ، واءاء الاعضاء المسيحيين قائلا :

أنا لست منتقما ، ولا أريد الانتقام من الاتحاديين كما يفعل حقي بك ، ولم يفعلوا لي ما يدعوني الى الانتقام « ولا اطمع بوظيفة ، ولو اعطيت لي السلطة لابتعدت عنها ، وإنما أنا طالب اصلاح لهذا الملك ...

أما بالنسبة لموقف المسيحيين فيقول : « خيانة كبرى ان تأتي الى بلادنا بحكام أقوى من الاهالي بالمال والعلم والعقل والسلاح وغير ذلك ، فمنكنهم فيهم ، تحسن نطلب اصلاح هذه البلاد ليس الا ، اما اولئك فوطنيتهم مقلوبة ...

... أنا عشت ثلاثين سنة في السياسة وأنا شريف ، وأريد ان أموت شريفا ، هم يريدون ان يسوؤا سمعتي الان بما يبلغوا لهذا وهذا من الاقوال ، ثم يريدون ان يتخذوننا آلة لامر نحن نعمل لغيره ، فأنا أريد ان ابتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي يريدون ان يسلكونها ، كفاني ما مضى من تعبي لاجل هذه المملكة . فلا ربح الان ولا عزل هذه الاعمال المنهكة » .

أما كيف انتهت ازمة حزب اللامركزية ، فيمكننا القول ، استنادا الى محضر جلسة عقدت في ٢٥ يوليو سنة ١٩١٤ ، بان الازمة حلت بتفاهم الاعضاء ، حيث حضر هذه الجلسة من الاعضاء ، اسكندر عمون ، وسليم عز الدين ، ورشيد رضا وصالح رضا ، وحقي العظم ، ومحجب الدين الخطيب ، وكانت الجلسة برئاسة رفيق العظم (٤٨) . وهذا دليل قاطع على أن المسألة قد سويت بين الاعضاء ، وبعد استقالة الاعضاء الذين ذكرت اسماءهم سابقا .

ودارت الجلسة حول عقد المؤتمر ، والاستعداد له ، فقال رفيق العظم انه كتب للاستانة حول هذا الموضوع ، وكتب لبعض المبعوثين يطلب منهم حضور المؤتمر ، وأكد اسكندر عمون أن المؤتمر يجب ان يحضره اناس معروفون ذوو مكانة .

وعندما اقترح رفيق العظم وحقي العظم ، وضع جدول لاعمال المؤتمر ، اجاب اسكندر عمون ان البحث في ذلك سابق لاوانه واقترح الانتظار حتى يتمكن الحزب من تعيين وقت المؤتمر ..

أما النقطة الثانية التي اثيرت في الجلسة ، فهي محاولة تفاهم اسعد داغر مع الصهيونيين ، وطلب اسكندر عمون استيضاحا حول هذه النقطة فافهمه رفيق بك تفاصيل المسألة (٤٩) .

ان الحرب العالمية الاولى التي اعلنت بعد خمسة ايام من تاريخ هذه الجلسة

قلبت الاوضاع رأسا على عقب ، ودخلت البلاد في حياة جديدة ، تابعة من ظروف الحرب وتطوراتها السريعة وهكذا قضي على أمل حزب اللامركزية والفتاة في عقد مؤتمر عربي ثاني .

حزب اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى :

كان اندلاع الحرب العالمية الاولى حادثا ضخما شملت آثاره مجالات متعددة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، في كل دولة او شعب ، وكذلك كانت آثار الحرب ذات آثار جذرية وشاملة على الاحزاب والفعاليات الحزبية في الدولة العثمانية بصورة عامة ، والاحزاب في الوطن العربي بصورة خاصة .

وقد اشرنا الى ان حزب اللامركزية كان يعاني ازمة حادة قبل نشوب الحرب بقليل ، وكاد ان يكون في نقطة التصادم مع الضباط العرب والعسكريين ، ممثلين في تنظيمهم العسكري حزب العهد . ومع ذلك فقد بادرت الاحزاب العربية وفي مقدمتها جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى التشاور حول ما يجب ان يكون عليه الموقف العربي وكانت الدولة العثمانية لم تدخل الحرب بعد ، فأرسلت العربية الفتاة الاخوين محمد ومحمود المحمصاني الى القاهرة للاتصال بحزبهما ، حزب اللامركزية ، فوصلا الى القاهرة قبل دخول تركيا الحرب ، واديا المهمة الحزبية التي كلفا بها من جمعيتهم السرية ، العربية الفتاة . ولما حاولا العودة الى سورية بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية ، نصح احد الاصحاب محمد المحمصاني البقاء في مصر فأجابته : « ان الوطن في حاجة الى كل فرد من ابنائه في هذا الاوان العصيب فمن الخيانة ان لا نقوم بالواجب علينا نحوه » (٥٠) .

وقد اجمل لي الاستاذ محب الدين الخطيب - الذي كان حينئذ من اركان حزبي العربية الفتاة واللامركزية - والذي اشترك في تلك المباحثات - نتائجها مستعينا بمذكراته (سيرة جيل) (٥١) فقال :

كانت الآراء متفقة ومتلاقية على ان مصلحة العالم الاسلامي والاقطار العربية ، في ملحمة الحرب العالمية الاولى ، هي في الوقوف على الحياد وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الارض واستعباد الامم يحطم بعضهما بعضا ...

وفي مقابل هذا الموقف « السلبي » كان من المتعذر اتخاذ خطة ايجابية فيما يجب ان يعمل به العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، بغير ان يؤخذ رأي الزعماء والحكام العرب في الاقطار العربية التي لها صلة بالدولة العثمانية ..

لذلك فقد تقرر ايفاد مندوبين الى اولئك الزعماء والحكام للتعرف على رأيهم فيما ينبغي ان يكون عليه موقف الامة العربية تجاه الاتراك اذا ما انزلقوا في الحرب مع فريق دون آخر .

وقد اختير محب الدين الخطيب للسفر الى الخليج العربي ، ومحاولة الاجتماع بالامير عبد العزيز آل سعود أمير نجد والاحساء ، وبالسيد طالب النقيب زعيم العراق الجنوبي ، وغيره من الزعماء ...

واختير عبد الرحمن عاصم للسفر الى اليمن من أجل الاتصال بامامها .. واتفق على الاتصال بالشریف حسين أمير مكة على الرغم مما هو معروف عنه من عدم اطمئنانه الى الاحزاب والجمعيات او ثقته فيها (٥٢) ، واختير الشيخ محمد القلقيلي للذهاب الى بلاد الشام (٥٣) .

وقد توجه كل من محب الدين الخطيب وعبد الرحمن عاصم الى الجهة التي انتدب اليها ، لاداء مهمته فيها ، ولم يتمكن اي منهما ان يبلغ تلك الجهة ، او ان يؤدي هذه المهمة ، فقد اعتقل الانكليز محب الدين الخطيب في البصرة ، وبقي عبد الرحمن عاصم في القاهرة لدخول تركيا الحرب وعدم تمكنه من السفر الى الجهة التي ندب اليها ، اما الشيخ القلقيلي فقد عاد من بيروت الى الاسكندرية ثانية . ويقول محب الدين الخطيب في مذكراته ، في معرض التعليق على اعتقاله « والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم المهمة التي كان سفرنا من اجلها ، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني ، بان العرب سينالون استقلالهم ، وبان الانكليز سيجلون عن العراق في الوقت المناسب ، لكنهم يحتفظون بالبصرة لاجل الهند » (٥٤) .

ويقول محب الدين الخطيب انه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره او على مهمته بالرغم من أهمية هذه المسألة في ذلك الوقت .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد اجتماع كبير مع فروع الحزب ، لوضع خطة للدفاع عن البلاد العربية « لانها معرضة للخطر الذي تتعرض له كل البلاد العثمانية ، بل لخطر اشد لبعدها عن مركز القوة الذي يضطر الاتراك لحصر دفاعهم عن وطنهم ومركز سلطتهم » (٥٥) .

وطلب الحزب من فروعه ان يتلقى اجوبة سريعة من الفروع على الامور الآتية :

- ١ - ما هي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل عام .
- ٢ - هل في امكانكم جمع شيء من المال واسعافنا به او استبقاؤه عندكم حسب اللزوم وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه .
- ٣ - هل عندكم ملجأ أمين لفرد او اكثر لمن يناط بهم ادارة الحركة الوطنية وان تؤمن معيشتهم كل التأمين .
- ٤ - هل يمكنكم ارسال شخص تثقون به ينوب عن فرعكم الى جهة نعينها لكم ليتلقى منها التعليمات اللازمة .
- ٥ - اذا لم يمكنكم ارسال شخص هل ترون من اللازم ان ياتيكم موفد مخصوص لاعطاء هذه التعليمات ؟

ويطل حزب اللامركزية موقفه هذا قائلا : علينا معاشر العرب ان نفكر من الان في الوسائل التي تقي استقلالنا من الزوال ، ومن الواجب المقدس على حزبنا الذي له نوع من التشكيلات وكل افراده من أهل الوطنية الصادقة والغيرة على الوطن والحرص على سلامة الاستقلال ان يكون في مقدمة المفكرين في هذا الامر العامل على اتخاذ الوسائل الناجحة لسلامة الوطن وحياة بنيه (٥٦) .

لا بد لنا من الاشارة الى النقطة التالية وهي ان امين سعيد في كتابه (اسرار الثورة العربية الكبرى) (٥٧) يضع قصة المشاورات بين الاحزاب العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب ، في نطاق فصل عن (المخطط الانكليزي لاستقلال الحركة العربية) تحت عنوان فرعي هو : « الاتصال بالهيئات العربية الاخرى » ، يصور فيه عملية التشاور بين جمعية العربية الفتاة واللامركزية التي اشرنا اليها سابقا ، ثم عملية ارسال المندوبين الذين كلفوا بالتشاور مع الامراء العرب تصورا مغايرا لكل ما اطلعت عليه من وثائق ، وللصورة التي سجلها محب الدين الخطيب في مذكراته .

يصور امين سعيد الامر كما يلي :

١ - انهم (اي الانكليز) اتصلوا سنة ١٩١٤ وقبل اعلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية (الجامعة العربية) وسأله ان يوفد مندوبين الى الامراء عبد العزيز في نجد ، والامام يحيى في اليمن ، والسيد الادريسي في عسير ، وبعض زعماء الشام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حتى نشوب الحرب ، فوافق مبدئيا ، وسأله عن النفقات التي يستلزمها هذا الموضوع فقدره بالف جنيه دفعت له ، وانتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشباب العاملين في القضية

وهم السادة : محب الدين الخطيب ، اوفده الى نجد ، والشيخ محمد القلقيلي اوفده الى بلاد الشام والشيخ عاصم رضا ، اوفده الى بلاد اليمن .

٢ - انشا الانكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية العثماني بمصر ، وكان السيد رشيد رضا وكيله ، ورفيق المظم رئيسه ، ومحب الدين الخطيب مساعد أمينه العام .

٣ - ويشير أمين سعيد الى ان وصول محمود المحمصاني الى القاهرة واجتماعه بقيادة الاحزاب فيها كان صدفة ، لوجوده على ظهر الباخرة الذاهبة من باريس الى بيروت وبما ان هذه الباخرة من عاداتها ان تبقى يومين في الاسكندرية فقد اغتنم الفرصة وجاء الى القاهرة واتصل باخوانه العاملين في الحركة العربية ، وعلم ايضا ان هناك اتصالات بين الانكليز وبين جماعة اللامركزية .

٤ - ان اخوان المحمصاني في بيروت ارسلوا الشيخ كامل القصاب الى القاهرة للاطلاع على هذه الاتصالات ، بعد ان سمعوا بها من محمود المحمصاني .

٥ - ان الانكليز اتصلوا ثلاث اتصالات مع الشريف عبد الله قبل اعلان الحرب سنة ١٩١٤ .

ان الوثائق التي وجدت في مكتبة محب الدين الخطيب والتي استندت اليها في هذه الدراسة تشير الى ان المبادرة كانت من حزب الفتاة اولا ، وان محمود المحمصاني بالاضافة الى كونه عضوا مؤسسا في حزب الفتاة ، الا انه في نفس الوقت كان عضوا في حزب اللامركزية ايضا . او بصورة اخرى ، كان هو ومحب الدين الخطيب صلة الوصل بين الفتاة واللامركزية . وهذا تكتيك حزبي استخدمته الفتاة وسارت عليه طيلة عهدها .

اما قضية اتصال الانكليز بالشريف عبد الله ، فقد ذكرتها اكثر المصادر وتناولتها من اوجه متعددة .

ففي حين يذكر الملك عبد الله في مذكراته ، وامين سعيد (٥٨) ، ان اللقاء بين (كتشنر وستورس) وعبد الله سنة ١٩١٤ كان صدفة اثناء زيارته للقاهرة ، يؤكد ستورس ، وانيس صايغ ، ان اللقاء كان مقصودا ، وان بادرة الاتصال صدرت عن عبد الله وليس عن كتشنر (٥٩) . ويضيف ستورس ان عبد الله سأل بصراحة ما اذا كانت بريطانيا مستعدة لتزويد الشريف حسين بدسته او دسمة ونصف من الرشاشات الحربية وعندما سأل عن الغرض منها اجاب ، كما يجيب طالبو الاسلحة عموما ،

للدفاع ، ويضيف ستورس انه اعاد السؤال بالجاح مستفهما عما يعنيه بالدفاع فقال انه الدفاع ضد هجمات الاتراك ، ويقول ستورس لم اكن بحاجة الى تعليمات خاصة لآخبره اننا لا يمكن ان نفكر في تزويد احد بأسلحة تستعمل ضد قوة صديقة (٦٠) .

كما تشير المصادر الى قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا ، وهي قضية صحيحة لان الشيخ رشيد يذكرها في المنار ، ولكن الذي لا يذكره قضية استلامه مبلغ الالف جنيه الذي يشير اليها أمين سعيد .

ومما يلفت النظر ، ان رشيد رضا يذكر أيضا مقابلته مع عبد الله في نفس العام ١٩١٤ ، وكيف ان الشريف دخل في جمعية الجامعة العربية واقسم قسمها . ولعل الشيخ رشيد قابل الانكليز واستلم المبلغ بصفته من اصدقاء عبد الله بن الحسين . وهذا التعليل ينقلنا الى نطاق اوسع وهو ان الانكليز ربما تداولوا الامر مع الشيخ رشيد رضا بصفته الشخصية وليس بصفته احد أعضاء حزب اللامركزية او غيره من الاحزاب ، كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز بحزب اللامركزية ، او حزب الجامعة العربية في مذكراته ، بل ، واكثر من ذلك ، يستغرب حديث برسي كوكس معه ، ويشير مندهشا ومخمنا انه كان يعرف المهمة التي انتدب من أجلها .

وقبل ان تبلور هذه المقابلات في خطة عربية مشتركة لمواجهة الموقف الذي سينشأ عن دخول الدولة العثمانية الحرب ، زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في اتون الحرب الى جانب المانيا، كما كانت الاحزاب العربية تخشى وتوقع، وذلك بتاريخ ٣٠/١٠/١٩١٤ . فما كان من حزب اللامركزية الا ان كلف الشيخ رشيد رضا وهو أحد كبار قاداته ان يبعث برسائل الى من يثق بهم في سورية يحثهم فيها على الولاء للحكومة ، وينشر خطابا عاما موجهها الى مسلمي سورية يقول فيه : « ثم اشكر لكم ما اظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة ، وبذل الانفس والاموال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة قدرها ، حتى انكم ساهتمتم في هذا الرقي امم الارض التي سكنت عن جميع مطالبها ونزعاتها الداخلية » (٦١) .

ويمكننا القول ان موقف الاحزاب العربية كان لا يختلف عن موقف حزب اللامركزية ، ما عدا جمعية العربية الفتاة (٦٢) . وبدأ نوع من التقارب بين الاحزاب العربية وحزب الاتحاد والترقي ممثلا بجمال السفاح الذي سار في اوائل عهده على سياسة التودد للعرب بخبث ودهاء كبيرين ، وبعد ان كسب ثقة ومودة بعض قادة

الحركة العربية من ذوي الصلات الوثيقة بالاحزاب ، وان لم يكونوا من اعضائها وقادتها ، مثل عبد الكريم الخليل وغيره . ولكنه لم يلبث ان كشف القناع عن وجهه كسفاح يعمل على استئصال الحركات العربية التي ظهرت قبل الحرب وسحقها .

ان السرعة المذهلة التي تم بها قلب الوضع بين الاتحاديين والحركة العربية تدل على خطة مبيتة ومرسومة مسبقا ..

على ان هذا الاستنتاج الذي ينطوي على حكم يدين الاتحاديين وسياستهم ، وسرعة تغييرهم هذه السياسة ، لا بد له من الشرح الوافي (٦٣) . فهو مسألة مطروحة على كل من يتعرض لهذه الحقبة من تاريخ الدولة العثمانية ، او من تاريخ بلاد الشام بصورة خاصة . والذي يعني هنا ان جمال باشا كان قد علق القافلة الاولى على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ ، ليتبعها قبل ان تجف دماء الشهداء بالقافلة الثانية في ايار (مايو) سنة ١٩١٦ معتبرا الجميع اعضاء في حزب اللامركزية ، وكان عبد الكريم الخليل من ابطال وشهداء القافلة الاولى ، وعبد الحميد الزهراوي ، رئيس المؤتمر العربي ، من ابطال وشهداء القافلة الثانية ، وانفرط عقد الحزب بعد هذا التاريخ .



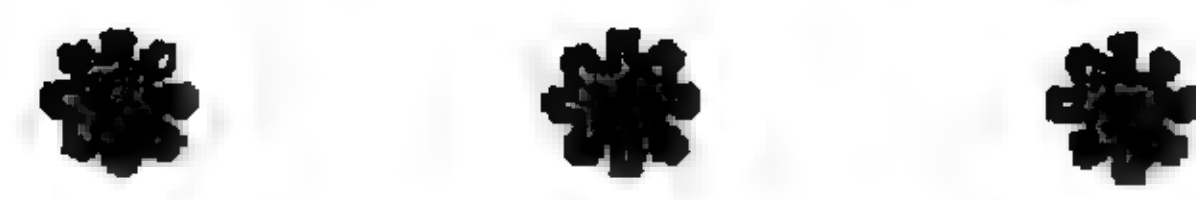
الحواشي :

- (١) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.
- (٢) راجع : مجلة دراسات تاريخية ، العددان التاسع والعاشر ، تشرين اول ١٩٨٢ .
بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان «صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ص ١٢٠ وما بعدها .
- (٣) رفيق المظم ، اناره ، المقدمة صفحة ج ، بقلم رشيد رضا .
- (٤) الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص ٨١ .
- (٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .
- (٦) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .
- (٧) من وثائق محب الدين الخطيب .
- (٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، رسالة موجهة من عبد الفتي العريسي الى محب الدين الخطيب ، وموقعة بالرقم ٢١ وهو رقم العريسي اثناء اقامته في باريس .
- (٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب، رسالة موجهة من الحزب الى الجمعية الاصلاحية في بيروت .
- (١٠) راجع نص البرقية في جريدة الاهرام بتاريخ ١٥/٤/١٩١٢ .
- (١١) هذا الكتاب يقع في حوالي ٢٤٠ صفحة تقريبا بعنوان « المؤتمر العربي الاول - المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان بارس في يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٩١٢ » .
- (١٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه رسالة موجهة من العريسي الى الخطيب .
- (١٣) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٥ .
- (١٤) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه ، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .
- (١٥) المصدر السابق ، الوثيقة ، وكتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٨ .
- (١٦) جريدة المؤيد ، بتاريخ ٢٧/٣/١٩١٢ .
- (١٧) حول أسماء بقية الوفود ، راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٤ - ١٦ .
- (١٨) راجع خطبة أسكندر عمون في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٠٠ وما بعدها .
- (١٩) راجع قرارات المؤتمر بالتفصيل في كتاب المؤتمر العربي ، ص ١١٣ - ١٢١ .
- (٢٠) لقد حصلت على عدة وثائق من مكتبة محب الدين الخطيب ، وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين مركز الحزب في القاهرة وفروعه في فلسطين وسورية - السودان والعراق .

- (٢١) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، المقدمة صفحة ب ، بقلم رشيد رضا .
- (٢٢) لقد قدم احمد عزت الاعظمي في كتابه القضية العربية ، ج ٤ ، تحايلاواها حول مقررات المؤتمر والاتفاقية ، نرجو الرجوع اليه .
- (٢٣) راجع كتاب ساطع الحمري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٢ .
- (٢٤) اعضاء هذا الوفد هم من اعضاء هيئة المتابعة التي بقيت في باريس لتابعة قرارات المؤتمر برئاسة الزهراوي وقد ارسلت وفدا من اعضائها الى الاستانة بناء على طلب عبد الكريم الخليل ، ويتالف من سليم سلام والشيخ احمد طيارة واحمد مخنار بييم ، بينما بقي الزهراوي في باريس .
- (٢٥) مجلة المنار ، ١٩م ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .
- وبين مجموعة أوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل متبادلة بين الحزب وعبد الحميد الزهراوي وفيها يظهر بوضوح ان الحزب لم يستطع الضغط على صديقه الزهراوي ، فنرك له حرية الخيار في السفر الى الاستانة .
- (٢٦) راجع اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٢ .
- (٢٧) راجع نص الحديث الصحفي في اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- (٢٨) راجع حول هذا الموضوع ، جريدة الاهرام ، بتاريخ ١٩١٤/١/٢١ ، و ١٩١٤/١/٣٠ والاعضاء هم: عبد الرحمن اليوسف ، سليمان الباروني ومحي الدين النقيب ، ثم محمد بيهم ويوسف سريق واحمد الكيخيا .
- (٢٩) راجع نص البيان ، في مجلة المنار ، ١٦م ، ج ١١ ، ص ٨٤٩ - ٨٧٩ .
- وفي كتاب احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٤ ، ص ٣٠ - ٥٢ .
- (٣٠) مجلة المنار ، ١٧م ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ - ٢٣٦ .
- (٣١) مجلة المنار المصدر السابق .
- (٣٢) مجلة المنار ، ١٩م ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .
- (٣٣) راجع نص الكتاب الذي ارسلته جمعية الاتحاد السوري ورد حزب اللامركزية عليه في احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٤ .
- (٣٤) سنتعرض لهذه القضية ونقدم حولها شرحا وافيا في دراسة لاحقة تدور حول حزب المهدي العسكري السري .
- (٣٥) لقد وجدت بين أوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل بخط الزهراوي موجهة الى حزب اللامركزية تدور حول هذا الموضوع .

- (٣٦) وهي مذكرات مخطوطة موجودة في مكتبة آل الخطيب في القاهرة ، لم تطبع بعد .
- (٣٧) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل .
- (٣٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .
- (٣٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة للحزب .
- (٤٠) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، بيان صادر عن حزب اللامركزية .
- (٤١) هناك دراسة مفصلة اقوم باعدادها لتصدر في كتاب مستقل تعمل عنوان « جممية العربية الفتاة السرية » دراسة وثائقية .
- (٤٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب مصدرها مدينة حمص .
- (٤٣) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل
- (٤٤) كان حقي العظم قد اسس الجممية الثورية واخذ يصدر المنشير والبيانات التي تهاجم الاتهاديين والوضع بشكل عام في الامبراطورية ، وكانت هذه البيانات تنسب الى حزب اللامركزية . ويشير احمد قدرى في كتابه مذكراتي عن الثورة العربية ان هذه المنشير كانت السبب في المشاق التي علق عليها جمال باشا احرار العرب . راجع حول هذه النقطة « الجممية الثورية » احمد عزت الاعظمي ، في كتابه القضية العربية ، ج ٤ . واحمد قدرى ، مذكراتي عن الثورة العربية .
- (٤٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .
- (٤٦) نفس المصدر السابق .
- (٤٧) المصدر السابق .
- (٤٨) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة .
- (٤٩) لقد وجدت عدة وثائق بين وثائق محب الدين الخطيب في مكتبته حول هذا الموضوع وساقدم حولها دراسة مفصلة في وقت لاحق .
- (٥٠) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٢٨ .
- (٥١) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، مقابلة خاصة مع محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٩٦٦
- (٥٢) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل
- (٥٣) امين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٧ .
- (٥٤) محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

- (٥٥) وثيقة من مجموعة وثائق معب الدين الخطيب .
- (٥٦) نفس الوثيقة والمصدر .
- (٥٧) راجع أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ولساة الامير حسين ، ص ٢٧ - ٢٩ .
- (٥٨) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ٧١-٧٢
- وامين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- (٥٩) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، ص ٧٧ .
- (٦٠) Storrs, R., Orientation, P. 123, London 1943.
- (٦١) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٣٧ .
- (٦٢) لقد قدمنا تحليلا وافيا حول موقف جمعية العربية الفتاة السرية ، في كتابنا عن الجمعية ، وهي دراسة وثائقية ستصدر قريبا .
- (٦٣) راجع دراسات تاريخية ، العددان الثالث عشر والرابع عشر ، ص ١٢٨ وما بعدها ، بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان (مفهوم الامركزية عند العرب العثمانيين) .



مؤتمرات تاريخية

بعض ملاحظات حول مؤتمر ستراسبورغ

عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية

(من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين)

عقد في مدينة ستراسبورغ بفرنسا ، برعاية جامعة ستراسبورغ وبدعم من لجنة اللغات والحضارات الشرقية التابعة للمركز الوطني الفرنسي للدراسات العلمية - وفي آن واحد - المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، وندوة عالمية لمعالجة الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية منذ اواخر القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين .

وشارك في المؤتمر ما يزيد على مائة باحث ، كما شارك في الندوة ثمانون باحثا ، تقدم واحد واربعون منهم ببحوث ، نشر القسم الاكبر منها في الكتاب الذي نعالجه هنا .



يعاني التاريخ العربي الحديث من قلة الدراسات عن الولايات العربية التي بقيت تحت السيطرة العثمانية مدة اربعة قرون ، من القرن السادس عشر حتى بداية هذا القرن ، على الرغم من وجود آلاف السجلات في مراكز الوثائق ، في دمشق وطرابلس واستانبول ، وغيرها من المدن ، بالإضافة الى رسائل القناصل الاوروبيين ، التي تنتظر من يتعمق بالبحث فيها . ويأتي الكتاب حول اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين) ليسد جزءا من هذا الفراغ ، وان كانت الابحاث المخصصة للولايات العربية فيه قليلة نسبيا .

عقد مؤتمر ستراسبورغ بين الاول والخامس من تموز ١٩٨٠ ، وشارك فيه واحد واربعون باحثا من بلدان مختلفة . اما الكتاب الذي صدر في العام الماضي

من « المركز الوطني للدراسات العلمية بباريس » (★) فقد جمع خمسة وثلاثين بحثاً قدمت في المؤتمر حول الموضوعات التالية :

- عهد التنظيمات (الإصلاحات الادارية والاجتماعية والاقتصادية) .
- اثر الرأسمالية الاوروبية على اقتصاد الامبراطورية العثمانية .
- الحياة الاقتصادية الداخلية للامبراطورية .
- المشاكل الديموغرافية واحصاءات السكان .
- ثورة الاتراك الجدد .

وما يؤخذ على الكتاب عدم تبويب البحوث في فصول يتناول كل منها موضوعاً معيناً وقد يكون السبب صعوبة وجود قاسم مشترك بين العديد من البحوث ، وضعف المستوى « النظري » لمعظمها . وما سنحاول تقديمه هنا هو تلخيص لبعض هذه البحوث التي رابناها ذات اهمية ، لانها عالجت اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية ، محاولين بذلك ابراز اهم نتائج وطروحات المؤتمر .

« دمج الامبراطورية العثمانية بالسوق الرأسمالية العالمية »

بعد مقال الباحثين ايمانويل فالرشتاين ورشاد كسبه ، وعنوانه « الدمج ضمن السوق العالمية : تغيير بنية الامبراطورية العثمانية ، ١٧٥٠ - ١٨٣٩ » ، اكثرت المقالات شمولاً لمحاولته بناء اطار منهجي يفسر اقتصاد ومجتمعات وسياسة الامبراطورية العثمانية بصورة عامة .

يكمن الفارق بين اقتصاد الامبراطورية العثمانية واقتصاد الدول الاوروبية الرأسمالية ، بنظر الباحثين ، في ان الاول يخضع ، كالاقتصاد سائر الامبراطوريات ، الى نظام سياسي موحد يرتكز على الاسلام الحنفي كركيزة ايدولوجية للدولة العثمانية . وتضم هذه الامبراطورية ، جماعات وكتل عرقية واديان مختلفة ، لم تسع الدولة ،

Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (Fin du XVIII^e- Début du XX^e Siècle). Actes du colloque de Strasbourg (1er-5 Juillet 1980),
Publiés par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont (Paris: CNRS, 1983).

المقالات باللغات الثلاث : الفرنسية والانكليزية والالمانية « ٨٦ صفحة » .

طوال اربعة قرون ، لدمجها او تفتيتها ، بل اقتصرت علاقتها معها على تحصيل الضرائب واعادة توزيعها . لذا فان نمط الاقتصاد العثماني ، يقتصر بالدرجة الاولى على اعادة توزيع الضرائب وفقا للتراتب السائد في شتى انحاء الامبراطورية . ويختلف هذا النمط من الانتاج عن الرأسمالية الاوروبية ، التي نمت منذ القرن السادس عشر ، في ان الدول الاوروبية كانت ذات انظمة سياسية متعددة ، تحاول دمج افرادها ضمن اطر قومية وجغرافية محددة . اما اقتصادها فهو خاضع لمنطق انتاج السلع وتسويقها للحصول على فائض القيمة منها . ولم تتم عملية التسويق هذه في اطار جغرافي معين ، اوروبا مثلا) بل اتسعت لتشمل ، في القرن التاسع عشر ، العالم كله .

ينطلق اذن مقال فالرشتاين وكسبه من الفرضيات التالية :

(١) رافق نمو الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، منذ القرن السادس عشر ، تقسيم جديد للعمل في المجتمع .

(٢) يتطلب نمط الانتاج الرأسمالي العالمي توسيع رقعته الجغرافية باستمرار ، وامتدادها الى امكنة تقع خارج سيطرته السياسية .

(٣) ينتج عما سبق ان الاقتصاد الرأسمالي العالمي يحاول باستمرار « دمج » مجتمعات غير رأسمالية ، ومن بينها طبعا الامبراطورية العثمانية ، في السوق العالمية .

يقارن المقال بين مرحلتين من تاريخ الامبراطورية العثمانية : الاولى مرحلة ما قبل « الدمج » بالسوق الرأسمالية العالمية ، والثانية (بين ١٧٥٠ - ١٨٣٩) التي شهدت تنظيما اقتصاديا وسياسيا مختلفا عن المرحلة السابقة . ويتمحور المقال حول السؤال التالي : لماذا بدأت عملية « الدمج » في منتصف القرن الثامن عشر (حوالي سنة ١٧٥٠) وليس قبل ذلك ؟

كان الاقتصاد العثماني يقوم بشكل اساسي على الزراعة الريفية وطوائف الحرف المدنية . وكانت الدولة العثمانية ، بواسطة جهازها البيروقراطي ، تعمل على توزيع الاراضي الزراعية وجباية ضرائبها ، وذلك ضمن اطار النظام المعروف (بالتيمار) . فمعظم الاراضي الصالحة للزراعة هي مبدئيا ملك للدولة ، وتسمى اراضي (اميرية) : ففي سنة ١٥٢٨ مثلا ، كانت نسبة الاراضي « الاميرية » ٨٧٪ . وعندما كانت الدولة العثمانية ، نتيجة الحروب التوسعية التي خاضتها ، تلحق اراضي جديدة بالامبراطورية ، كانت تصنف تلك الاراضي وفقا لحجمها واهميتها الترابية ،

حاولت الدولة ، للأسباب التي سبقت الإشارة إليها ، ولأسباب أخرى ، كالانفاق على حروب باهظة الثمن وغير مجدية ، والتغيير الذي طرأ على أهمية معظم الطرق التجارية داخل الامبراطورية وخارجها ، الى تحسين نظام جباية الضرائب ، فنتج عن ذلك ابدال نظام التيمار بالالتزام . وما يهمنا من الناحية التاريخية معرفة الفارق في الشكل والبنية بين هذين النظامين والتحولات الاجتماعية التي نتجت عن اعتماد نظام الالتزام . واستغرق الانتقال من نظام الى آخر قرن او اكثر ، وتم التحول في بعض الولايات ، بسرعة اكثر من ولايات اخرى . الا ان ما يهمنا من الناحية التاريخية ، هو المقارنة بين شكلين من ريع الارض برزا في ظروف تاريخية مختلفة .

وبذلك ينتهي البحث .

الانفتاح التجاري العثماني على الدول الأوروبية

يكمل مقال الباحث سلفور كنصال « غزو الرأسمالية الصناعية للسوق الداخلية العثمانية (١٨٣٨ - ١٨٨١) » الصورة العامة التي رسمناها باقتضاب شديد عن التطور التاريخي للاقتصاد العثماني . اذ يحلل الكاتب اثر الثورة الصناعية الأوروبية التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وبلغت أوجها في القرن التاسع عشر على اقتصاد الامبراطورية العثمانية . ويتساءل عن اسباب « الانفتاح » الأوروبي الى خارج رقعة سيطرته السياسية ، والاسباب التي حتمت على العثمانيين قبوله كامر واقع لا مفر منه .

يحلل مقال كنصال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٨ و ١٨٨١ ، وهي الفترة التي شهدت « انحلالا » في السوق الرأسمالية الأوروبية ، بالمقارنة مع الفترة السابقة الممتدة بين عامي ١٧٨٩ و ١٨١٤ . وبدأ الانحلال سنة ١٨١٤ وامتد الى ١٨٤٩ . ففي القرن التاسع عشر ، دعم الاقتصاد البريطاني ، وهو اقوى قوة صناعية انذاك بالتبادل التجاري مع الدول الاخرى وخاصة « غير الرأسمالية » منها ، وسبب ذلك عدم وجود المواد الأولية الكافية ، في بريطانيا ، للصناعة . واستغلت بريطانيا دورها كاقوى قوة سياسية وصناعية في العالم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لتوسيع رقعة تبادلها التجاري ، فاختارت بذلك التوسع الخارجي لان بنيتها الداخلية لم تكن مستعدة بعد لامتناس نموها الصناعي والاقتصادي المتعاظم .

كانت سياسة بريطانيا الخارجية تهدف الى تفتيت الحواجز التي تعيق توسعها التجاري محاولة بذلك اغراق الاسواق « غير الرأسمالية » ببضائعها وسلعها ، « وضمها »

الى السوق الرأسمالية العالمية . فالمعاهدة التجارية مع الامبراطورية العثمانية في ١٧ آب ١٨٣٨ (تلاها اتفاق اخر بين فرنسا والامبراطورية في ٢٠ نوفمبر ١٨٣٨) محاولة لـ « عقلنة » التجارة العثمانية بعد رفع الحواجز الداخلية التي تعيق انتقال البضائع بين مختلف الولايات العثمانية ، وتنظيم التجارة الخارجية مع الدول الأوروبية الرأسمالية . اما خط التنظيمات الذي اتبعته الدولة منذ عام ١٨٣٩ ، والذي كان لبريطانيا دور بارز في صياغة خطوطه العريضة ، فما هو الا الجانب السياسي للانفتاح على الغرب ومؤسساته الدستورية والحقوقية .

وكانت الولايات العثمانية ، قبل معاهدة ١٨٣٨ ، منفصلة تجاريا عن بعضها البعض وكانت الضرائب المرتفعة لتغطية العجز المالي المستمر تعيق انتقال البضائع بحرية من ولاية الى اخرى ، مما اضعف حركة التجارة داخل الامبراطورية . كما كانت التجارة ، كالاراضي الزراعية ، ملتزمة سنويا وبالمزد من قبل اشخاص ذوي علاقة وثيقة بالدولة واجهزتها ، وتمدد عقود هؤلاء الاشخاص في حال تحصيلهم الالتزامات المتوجبة عليهم .

ومن جهة اخرى ، فان الملتزمين لعبوا دور الوسيط بين الدولة والتجار الاجانب، فتمكنت الدولة بذلك من مراقبة حركة التصدير والاستيراد ، والحد من نفوذ التجار الأوروبيين الاقتصادي والسياسي في الامبراطورية .

يستنتج مما سبق ان الامبراطورية العثمانية استطاعت ، حتى معاهدة ١٨٣٨ ، المحافظة على التوازن بين تجارتها الداخلية وتجارها الخارجية ، وحدت بذلك من عجزها المالي المتفاقم . وقد نتج عن التغلغل التجاري والسياسي الأوروبي منذ عام ١٨٣٨ ، عجز مستمر في ميزان الاستيراد والتصدير ، وتدهور في قيمة العملات المحلية وازدياد ديون الدول غير الصناعية من الدول الأوروبية الرأسمالية .

معاهدة ١٨٣٨ التجارية

نبه اورهان كرمش في مقاله « نظرة جديدة الى معاهدة ١٨٣٨ التجارية » الى تسرع البعض في التأكيد بان معاهدة ١٨٣٨ بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا (ولاحقا مع فرنسا) قد تسببت في انهيار الحرف في المدن العثمانية . فالبعض يدعي ان المعاهدة ، التي رفعت التعرقة الجمركية على السلع المستوردة من ٣ الى ٥ ٪ ، وطلبت إلغاء « الحواجز الداخلية » لانتقال السلع من ولاية الى اخرى ، لاغراق السوق الداخلية بالبضائع البريطانية الرخيصة الثمن ، قد تسببت في انهيار الحرف في المدن

العثمانية . وتتكون « الحواجز الداخلية » التي طالبت المعاهدة بالفائها من ثلاثة اجراءات ادارية : تلزيم الجمارك الداخلية لاحد الملتزمين واعطائه السلطة التامة في تحصيل الضرائب على السلع المستوردة ، نظام « التذكرة » الذي يسمح في بعض الحالات في نقل البضائع بين الولايات ، واخيرا ، التعريفات الجمركية المتعددة لنقل البضائع بين الولايات .

ففي نظر بعض المحللين ، لم تكن زيادة ال ٢٪ على الاستيراد الخارجي كافية لمكافحة الضرر الناجم عن الغاء « الحواجز الداخلية » ، وما يعارضه اورهان كرمش هو الربط غير المبني علميا بين معاهدة ١٨٣٨ وانهيار الحرف فيما بعد . ويناقش ثلاث فرضيات تفتقر للبراهين العلمية الكافية .

تقول الفرضية الاولى ان الغاء نظام الالتزام على السلع قد شجع استيراد المصانع الصغيرة الى تركيا وذلك لانخفاض اسعار المستوردات . فالملتزم البدي يحسب عملية شراء سلع معينة وبيعها ، في سوق غير رأسمالية ، اي غير منفتحة للمنافسة التجارية ، يبيعها باسعار مرتفعة ، كما ان كمية السلع المبعة ضئيلة . ويعارض اورهان كرمش هذه الفرضية الاولى وذلك لان فتح السوق العثمانية للمنافسة « الرأسمالية » لا يعني بالضرورة تدنيا في اسعار السلع وكثرة وجودها في السوق ، اذ ان عملية ارتفاع الاسعار والتضخم في العملات مرتبطة بعوامل عدة . ومن جهة اخرى ، فان المعلومات المتوافرة لدينا عن نظام التزام السلع الذي كان ساريا قبيل معاهدة ١٨٣٨ ، في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، ضئيلة جدا ولا تسمح لنا بالتاكيد بان الغاء ، بعد ١٨٣٨ ، قد اساء للانتاج المحلي .

اما الفرضيات الاخرى عن نظام « التذكرة » والجمارك الداخلية الاخرى ، فهي كالفرضية التي ناقشناها ، ضعيفة وغير مبنية على اسس علمية . وكثيرا ما يستعمل المؤرخون ارقام القناصل الاوروبيين دون مناقشتها . واذا اخذنا على سبيل المثال الارقام التي تظهر قيمة السلع المستوردة من بريطانيا الى الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، فهي تظهر وبشكل واضح زيادة نسبية سنوية في قيمة السلع . لكننا سرعان ما نلاحظ ان هذه الارقام لا تأخذ بعين الاعتبار معدل التضخم السنوي في بريطانيا (حوالي ١٪ في القرن التاسع عشر) في قيمة السلع . اي باختصار ، ان الارتفاع في قيمة السلع عن السنين السابقة لا يعني بالضرورة زيادة في الكمية .

ومن ناحية ثانية ، فان تقارير القناصل وتقارير الرحالة الاجانب حول الحرف

المحلية متضاربة فيما بينها . فبينما تدعي بعض التقارير ان عدد الانوال لنسج الاقمشة في حلب مثلا ، قبيل الاتفاقية ، يزيد على الاربعين الفا ، تتحدث تقارير اخرى عن عشرة آلاف نول فقط . والاهم من ذلك ، ان هذه التقارير وغيرها لا تميز في اغلب الاحيان بين « الصناعة » الاستهلاكية و « الصناعة » البيتية ، فهذه الاخيرة ممددة لاكتفاء الاسرة الذاتي ولحاجاتها اليومية الضرورية .

اقتصاد بلاد الشام في القرن التاسع عشر

يرسم عبد الكريم رافق وبطرس لبكي صورة حية عن عملية « دمج » اقتصاد ذي بنية « تقليدية » بالسوق الرأسمالية العالمية . واخذا في مقالتهما ، مثالا على ذلك اقتصاد مدينة دمشق وجبل لبنان في فترات مختلفة من القرن التاسع عشر .

يبدأ عبد الكريم رافق بالاشارة في مقاله « اثر اوروبا على الاقتصاد التقليدي : دمشق بين ١٨٤٠ و ١٨٧٠ » الى دور حلب الاقتصادي المتميز منذ الفتح العثماني عام ١٥١٦ . فمن العوامل التي ساهمت في انفتاح حلب التجاري ، الى جانب تواجد التجار والقناصل الاجانب فيها باستمرار منذ القرن السادس عشر ، موقعها الجغرافي بين الاناضول والولايات العربية . فاصبحت حلب « مدينة ترانزيت » في المنطقة . ولم تستطع دمشق ، طيلة ثلاثة قرون ، اخذ هذا الدور منها على الرغم من مرور قافلة الحج السنوية فيها .

بدأت هذه الصورة تتبدل تدريجيا منذ بداية القرن التاسع عشر ، وساهمت عدة عوامل في هذا التبدل ، كالهزة الارضية التي ضربت حلب عام ١٨٢٢ ، وضعف دورها كمدينة ترانزيت بعد ان فقدت السلع المستوردة من الاناضول اهميتها السابقة . ولعل السبب الاهم في بروز دمشق « كبديل » لحلب قربها من شواطئ المتوسط ، فمع توسع التجارة الرأسمالية الاوروبية ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، اصبحت وسائل النقل البحرية التي تعتمد البخار الاكثر استعمالا لانها الاسرع والاقل كلفة . فتعاظم دور المدن البحرية ، كبيروت مثلا ، التي اصبحت مرفأها صلة الوصل بين اوروبا وبلاد الشام ، واصبحت بذلك ، حسب تعبير احد القناصل الاوروبيين « المرفأ الحسي لدمشق » .

بدأ التجار والقناصل الاوروبيون يتوافدون الى دمشق منذ حكم محمد علي في سورية (١٨٣١ - ١٨٤٠) ، فوصل اليها اول قنصل بريطاني عام ١٨٣٣ ، واسست

اول قنصلية فرنسية عام ١٨٣٩ ، وتلتها قنصليات اخرى منها قنصليات بروسيا ، والولايات المتحدة الاميركية ، والنمسا واليونان .

يحلل عبد الكريم رافق ، مستندا الى رسائل القناصل الفرنسيين وارثيسف المحاكم الشرعية بدمشق ، الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٧٠ ، اي منذ الانسحاب المصري من سورية وعودة الحكم العثماني اليها ، وحتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وتعرف هذه الفترة الزمنية بعهد التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية ، ولقد شجع اتفاق ١٨٣٨ التجاري بين الامبراطورية وبريطانيا وفرنسا ، الذي ألغى الامتيازات التجارية والاحتكار في شراء السلع وتسويقها ، التواجد الاوروبي التجاري في بلاد الشام .

الا ان الآثار السلبية للانفتاح التجاري على الغرب بدأت تظهر منذ الانسحاب المصري من بلاد الشام سنة ١٨٤٠ . ففي الثلاثينات ، كان يوجد في دمشق ، وفق تقرير جون بورينغ الشهير ، حوالي (٤٠٠٠) نول لصناعة ما بين (٨٣٢ - ١٠٤٠) الف قطعة من الالاجا والقطني ، وهي قطع قماش ذات اقلام مصنوعة من القطن والحريز . وعام ١٨٥٠ ، تدنى عدد الانوال الى (٦٥٣) نولا لصناعة القطني و (١٠١٣) لصناعة الالاجا . ثم عاد وارتفع العدد الى ٢٨٠٠ نول سنة ١٨٥٦ ، وفقدت دمشق نصف صناعتها بعد حوادث تموز ١٨٦٠ .

ويبدو انه ، نظرا للصعوبات التي واجهتها الصناعة الحرفية المحلية ، والزراعة الريفية ، بعد الانسحاب المصري ، انشأت الدولة مجالس تضم اعيان دمشق ، هي شبه بالمحاكم المختصة وتنظر في الخلافات الناجمة عن سوء استعمال الالتزام ، وبقيت الامور الاخرى من اختصاص المحاكم الشرعية التقليدية . ففي سجل « مجلس شوري الشام العالي » لعام ١٨٤٥ ، شكوى من قبل عبد القادر خطاب ، الذي التزم لمدة اعوام متتالية مقاطعة « الدمغة » (وهي ضريبة على الاقمشة المحلية قبل بيعها في السوق) ومقاطعة « دق القطني والالاجا » . وتشير الشكوى الى خسارته السنوية بسبب المنافسة الناجمة عن اغراق السوق المحلية بالبضائع الافرنجية . كما انشأت الدولة ، سنة ١٨٥٠ ، محكمة تجارية من اربعة عشر عضوا ، يعين نصفهم من قبل السلطات العثمانية ، والنصف الاخر من قبل القناصل الاوروبيين ، مما يدل على اهمية التجار الاوروبيين في بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر .

ويدرس بطرس لبكي في مقاله « نسج الحرير في صنجق جبل لبنان : تجربة نمو صناعية غير مستقلة (١٨١٠) » تطور زراعة وصناعة الحرير في جبل لبنان منذ

بداية القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ، فكانت صناعة الحرير وتسويقه الى الخارج تشكلا ، في الفترة الزمنية التي يحلها بطرس لبكي ، الركن الاساسي لاقتصاد جبل لبنان . وهي صناعة معدة ، بالدرجة الاولى ، للتصدير الخارجي (اوروبا ، مصر ، بلاد الشام) . لذلك فانها تشكل نموذجا لصناعة ، في تاريخ اقتصاد الامبراطورية العثمانية ، مرتبطة ارتباطا تاما بالاسواق الخارجية ، فاستهلاك جبل لبنان للحرير لم يكن يتعدى ، بين العامين ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، (١١١٥ ٪) من مجموع صادرات الحرير . اما الصادرات للخارج فكانت كالاتي : فرنسا ١٩٥ ٪ ، مصر ٥١٢ ٪ ، سورية ١٨٤٥ ٪ . ويمكن التحول الاساسي في صناعة حرير جبل لبنان ، خلال القرن التاسع عشر ، في احتكار فرنسا تدريجيا زراعة وصناعة خيوط الحرير وتسويقه الى مصانع ليون . فارتفعت الصادرات الى فرنسا من ١٩٥ ٪ بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، الى ٩٣٣ ٪ عامي ١٩١١ - ١٩١٢ ، وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، انهارت زراعة وصناعة الحرير انهيارا تاما ، فانقطاع العلاقات بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا حرم هذه الصناعة من مركز ارتباطها الخارجي الاول ، اي فرنسا .

ونهي عرضنا بمقال غبريال باير « المالك ، الفلاح ، والحكومة في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية في القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين » لارتباطه بالمقالات الاخرى التي عرضناها باقتضاب شديد في الصفحات السابقة .

يناقش باير ثلاثة تحولات رئيسية في ملكية الاراضي الريفية ، خلال القرن التاسع عشر ، في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية ، وهي : الفاء نظام الالتزام وظهور الملكية الخاصة في الاراضي الزراعية الريفية ، وانحلال المجتمع القروي ، وظهور الملكيات الخاصة الكبيرة .

الفى محمد علي نظام الالتزام في مصر في القرن التاسع عشر ، واصبحت جميع الاراضي المزروعة ملكية خاصة ، كما ان جميع الاراضي الاميرية ، اي التي كانت ملكا للدولة ، قد اصبحت تدريجيا بيد الملاكين . اما في بلاد الشام ، فقد بقي نظام الالتزام سائدا حتى الحرب العالمية الاولى رغم قرار الالفاء الرسمي ضمن خط شريف كلخانة سنة ١٨٣٩ . ويعود ذلك الى قوة الاعيان المحليين في القرى والمدن . فبقيت بذلك نسبة الملكية الخاصة ، طيلة القرن التاسع عشر ، ضئيلة بالمقارنة مع نسبة الاراضي الاميرية .

يشكل « الغرب » ، كقوة اقتصادية توسعية ، القاسم المشترك للمقالات التي اخترناها من الكتاب . فالتوسع الاقتصادي الاوروبي سبب انهيار الحرف المحلية وأضعف انتاج الزراعة الريفية ، وساهم في انحلال المجتمع القروي . كما ان التنظيمات السياسية التي اعتمدها الامبراطورية العثمانية ، بدءا بخط كلخانة سنة ١٨٣٩ ، كانت من وحي الحياة السياسية في الغرب : مساواة جميع الرعايا امام الدولة ومؤسساتها ، الغاء نظام الالتزام ، وتشجيع الملكية الخاصة (بعد قانسون الاصلاح الزراعي سنة ١٨٥٨) . وهكذا يبدو الغرب بمؤسساته السياسية والاقتصادية القوة التي غيرت بنى مجتمعات مختلفة عنه ، بقيت طيلة قرون تقاوم التغيير الى ان « دمجها » الغرب بزمنه « الافقي » والموحد . وما يؤخذ على معظم المقالات هو عدم تشديدها على دراسة البنى « التقليدية » لمجتمعات « ما قبل الرأسمالية » مما يفسر القناعة المخطئة بنظرنا بان هذه البنى قد « زالت » . فهل « زالت » فعلا تلك البنى التقليدية ؟

زهير غزال

مؤرخ للدكتوراه - ج. باريس - الصوريون .



فقد مشروع كتابة تاريخ العرب ، في الشهور الاخيرة من العام الماضي ، ثلاثة أبناء بررة وزملاء اعزاء من رجال الفكر والثقافة والتاريخ ، بوفاة الدكتور اسعد عربي درقاوي ، استاذ الفلسفة في جامعة دمشق ووزير التعليم العالي (٢٠ تشرين الثاني) ، والكاتب المفكر جلال فاروق الشريف (٣ كانون الاول) . وكان قد بلغنا قبل ذلك نبأ وفاة الدكتور محمود الفول استاذ تاريخ العرب القديم في جامعة اليرموك .

رافق اسعد عربي درقاوي وجلال فاروق الشريف مشروع كتابة تاريخ العرب في خطواته التأسيسية الاولى ، عندما كان فكرة ، وشاركا في المحاورات والمناقشات الطويلة . وكان لكل منهما حضوره الفكري المتميز لما يتحلى به من ثقافة شاملة وعلم غزير وفكر متوقد .

كان اسعد عربي درقاوي ، بسعة اطلاعه على التيارات الفكرية والفلسفية ، وتحريه المتاني للحقيقة ، واعتزازه بالعروبة وتراثها ، صاحب الراي السديد والحجة القوية . اما جلال فاروق الشريف ، الذي شغلته منذ فجر شبابه قضايا الفكر المعاصر وموقع الفكر العربي ، ودور الامة العربية في الحضارة الانسانية ، فقد رافق مشروع كتابة تاريخ العرب في جميع مراحله ، وتولى ادارة تحرير هذه المجلة .

وشارك الدكتور محمود الفول في التنبؤات الاولى التي نظمتها لجنة كتابة تاريخ العرب في دمشق ، فكان ، بما عرف به من علم ومن اخلاص للتاريخ العربي وايمان بالعمل المشترك ، مثال الاستاذ الباحث الاصيل .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب ، وهيئة الاشراف على مجلة دراسات تاريخية ، تعربان عن الحزن العميق والاسى البالغ لفقد الاساتذة الاعلام الراحلين ، اسبغ الله عليهم فيض رضوانه .

